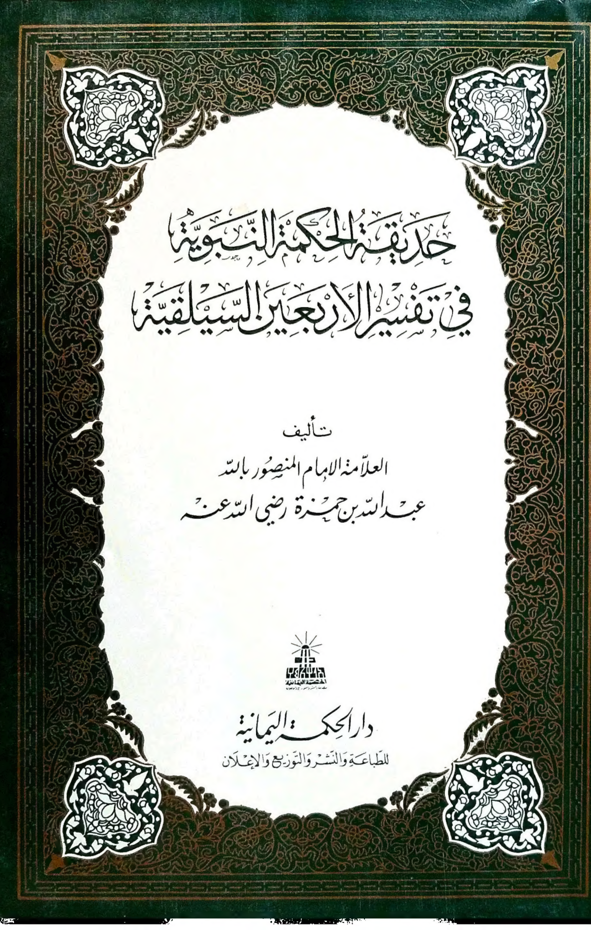

حديقة الحكمة النبوية
في تفسير الأربعين السيلقية
تأليف
العلامة الإمام المنصور بالله
عبد الله بن حمزة رضي الله عنه
دار الحكمة اليمانية
للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان



تأليف
العلامة الإمام المنصور بالله
عبد الله بن حمزة رضي الله عنه



دار الحكمة اليمانية
للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م



ج. ي. — صنعاء - شارع القصر الجمهوري - ص. ب (١١٠٤١) - برقياً: (حكمة)
س. ت ٧٦٩٦ هاتف ٢٧٢٤٧٦ ، ٧٢٥٨٤ - تلكس HEKMA 2943 YE

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة بقلم الأستاذ
ابراهيم بن محمد الوزير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحابته الراشدين والمؤمنين الصادقين إلى يوم الدين.

وبعد..

فهذا كتاب (حديقة الحكمة النبوية في تفسير الأربعين السيلقية) وهو كتاب يعالج مشاعر النفس البشرية وأهواءها ويدلها على طريق الارتقاء والسمو والتخلص مما ينوء بها من الأثقال الترابية، والشهوات الحيوانية والنزعات الشيطانية ويرغب المسلم في استمرار الجهاد من أجل التمسك بالمنهج الرباني بكل ما يحتويه من طهر وسمو، وإيمان وتسليم، وثقة بالله وتوكل عليه ورغبة فيما عنده. وبما فيه من معاناة وصبر وقناعة وإيثار وكفاح ونضال مما دل عليه المصطفى بسيرته وأفعاله وارشاده وأقواله والتي ورد جزء منها في هذه الأربعين حديثاً التي شرحها المؤلف في هذا الكتاب.

المؤلف:

والمؤلف هو الإمام المجتهد المجاهد عبدالله بن حمزة، وهو إمام علم كما إنه إمام جهاد والعالم الواعي الذي يقرأ هذا الكتاب بتأنٍ وتأمل يعرف أن الإمام عبدالله بن حمزة كان علماً شامخاً من علماء الإسلام.

فهو إمام في الفقه وهو إمام في الحديث وروايته وهو إمام في التاريخ وأحداثه، وهو إمام متمكن في اللغة العربية الفصحى ولذلك فان عباراته تأتي قوية وألفاظه تنطلق جزلةً أصيلة وبالجملة فإنه عالم عارف مجتهد.

وقد كنت أود كتابة ملخص لحياته في هذه المقدمة لولا أنني لم أجد لديَّ اليوم من المراجع سوى ترجمة له مقتضبة في تراجم الرجال بالجزء الأول من شرح الأزهار وإليكها:

«عبيدالله بن حمزة بن سليمان بن علي بن حمزة بن أبي هاشم الحَسَني القاسمي.

الإمام المنصور بالله أبو محمد مولده بعيشان لأحدى عشرة بقيت من ربيع الأولى سنة ٥٦١ ونشأته ما سمع بمثلها وله زهد وورع عظيم أما مصنفاته فلو لم يكن منها إلا الشافي لكفاه مفخرة فكيف وهي تنيف على أربعين. منها: العقيدة المنصورية وشرحها الفقيه حميد بالعمدة مجلدين.. وزبد الأدلة: لطيف جداً والرسالة الناصحة وشرحها والدرة الشفافة وغيرهما في الكلام والمهذب الصادر في الفقه. والحديقة شرح السيلقية في الحديث (وهو كتابنا هذا) وصفوة الاختيار في أصول الفقه. قال عليه السلام في الشافعي: أنا أحفظ خمسين ألف حديث. بويع له في ربيع الأول سنة ٥٩٤ وقيل غير ذلك (أي في غير ذلك التاريخ) وتوفي عليه السلام محصوراً بكوكبان سنة ٦١٤هـ ودفن بها ثم نقل إلى بكر ثم إلى ظفار قال الفقيه ولم تشتهر دعوة إمام قبله حتى وصلت الجيل والديلم» انتهى نقلاً بلفظه.

* * *

وربما أخذ على هذا الإمام شيء من القسوة في بعض جهاده واجتهاده ومثل هذه القضايا تحتاج إلى دراسة متمهلة حتى يمكن إصدار حكم بشأنها والتثبت أولاً من صحة ما نسب إليه، فإصدار الأحكام في مثل هذا وغيره يحتاج إلى تثبت وإنصاف.

ومع ذلك فإن هذا الإمام لم يكن معصوماً وسبحان من لا يخطىء وجل من لا عيب فيه وعلا... ومهما قيل عن شدة هذا الإمام في بعض جهاده وتشدده في بعض اجتهاداته فإن ذلك لا يعمينا عن النظر إلى علمه الغزير ومعرفته وانه كان إماماً مجتهداً وانه كان يصدر عن معرفة وعلم وليس عن جهل وغباء ولربما أصاب أو أخطأ في البعض ولكنه يظل علماً من الأعلام البارزة في تاريخ اليمن.

وعندما يتأمل القارىء بعض العبارات في الكتاب مثل تشكك المؤلف في أسماء بعض الرواة أو مكان وزمان بعض الحوادث الصغيرة وتصريحه في كتابه عن تردده في قبول الوجه الصحيح من تلك المسائل وأنه لا يتذكر الوجه الأصح منها عندما يلاحظ القارىء هذا يعلم أن المؤلف قام بتأليف كتابه هذا النفيس دون العودة إلى مراجع بل مما حفظه في ذاكرته مما يدل على تمكن كبير وعلم غزير وذكاء منقطع النظير كما يدل ذلك على تواضعه تواضع العلماء العارفين، وصدقه صدق الأتقياء المخلصين.

الكتاب وموقعه من التراث اليمني:

والكتاب الذي بين يديك أيها القارىء واحد من آلاف الكتب اليمنية التي ألفها أئمة هداة وقضاة تقاة وعلماء وحكماء يمنيون في أحقاب التاريخ الإسلامي المتتابعة في اليمن وفي مختلف أوجه العلم وضروبه المعروفة حينذاك.

وأحسب المكتبة اليمنية من أغنى المكتبات في البلدان الإسلامية بالكتب المتنوعة في كل مجالات العلوم المعروفة حين تأليفها.. فهناك الكتب العديدة المتنوعة في الفقه وهناك المؤلفات العديدة في أصول الفقه ومصطلح الحديث والمؤلفات في الحديث وروايته وهناك المؤلفات الكبيرة والمعتنى بها في أصول الدين وعلم الكلام. والمؤلفات المتنوعة في السيرة والتاريخ ومناقشة قضاياه من وجهة نظر علماء اليمن زيدية وشافعية وأحنافاً وهناك الكتب العديدة في علم الرجال والرد على بعض من كتبوا في الجرح والتعديل وهناك التراجم المطولة لعلماء اليمن وغيرهم. كما يوجد في المكتبة اليمنية المؤلفات العديدة في الأدب وضروبه وأصنافه وأشكاله والدواوين المطولة الجيدة لشعراء يمنيين قالوا شعرهم باللغة العربية الفصحى أو باللهجة المحلية المعروفة والمتميزة وهو (أي الشعر اليمني الذي يلتزم اللهجة المحلية والذي يسميه البعض بالحُمَيني) من أبدع الشعر وأعذبه وفيه قصائد وأبيات تصل إلى غاية الإبداع الذي يهز المشاعر ويحرك النفوس وله دواوين ممتازة رائعة.

وهناك في المكتبة اليمنية العديد من الكتب المؤلفة في الطب والفلك والهندسة وغيرها بحسب معارف ذلك الزمان وعلومهم في هذا المجال.

ولا نجد صنفاً من صنوف العلوم المعروفة حينذاك إلا وقد صنف فيه اليمنيون وأجادوا وأبدعوا وأفادوا سواء كانوا من الأئمة الهاشميين أو القضاة الزيدية أو العلماء الجهابذة من الشافعية أو علماء الحنفية وسواء كانوا من سكان صنعاء أو القاطنين في صعدة أو ذمار أو حوث أو عدن أو حضرموت أو تعز أو زبيد وغيرها.

والمؤسف حقاً والمحزن المبكي أن تظل هذه الكتب النفيسة مطمورة بل معرضة للضياع والتمزق والانتهاء ومعرضة للبيع والتهريب من اليمن.

* * *

إن اليمن بلد الإيمان والحكمة كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(الإيمان يمان والحكمة يمانية). وفي اليمن ثروة هائلة من العلوم والمؤلفات في كل مجالات المعرفة المتعددة التي كانت معروفة في العالم الإسلامي في أحقاب التاريخ المتعاقبة وذلك لعلماء أتقياء قصدوا أتباع الدليل الشرعي فيما ذهبوا إليه فوافقوا الغير في البعض وخالفوا في البعض، ولهم أدلتهم التي ارتضوها من الكتاب والسنة والقياس.

وما علي يا أخي إلا أن تغوص في بحار تلك العلوم لتخرج بالدر الثمين والجواهر النفيسة وإذا ما رأيت خطأ أو زَللاً في نظرك فلك أن تنقد ذلك وتعترض عليه ولكن نقد العلماء بأدلة ومنطق وإيمان وتقوى دون تحامل أو تجريح أو بجهل وغباء، فما نـدّعي لمن سبقنا من العلماء العصمة ولكنا نظن بهم خيراً كما هو واجب المسلم، وندعو للدراسة والتأمل المتأني بدون تعصب وهوى فذلك وحده هو طريق الحقيقة. والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها كما يقول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا الكتاب الذي بين يديك قطرة من مطره من علوم أهل اليمن، وهو كما قلنا يبحث في مجال تربية النفس البشرية وتذكيرها بواجباتها في الحياة ودلالتها على سبيل الخلاص وتزكيتها بصالح الأعمال وصادق الإخلاص.

فاقرأه واستفد من توجيهاته المحمدية وإشاداته النبوية على صاحبها وآله أفضل الصلاة وأزكى السلام.

أسأل الله الكريم أن يهديني وإياك وأخوتنا المؤمنين لاتباع نهج عبده ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يعيننا على أن نسلك الصراط المستقيم الذي يرضيه، (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) واجعلنا (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) والله حسبنا ونعم الوكيل إنه نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الطاهرين».

سبحانك اللهم وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تحرر بصنعاء بتاريخ الأحد ٤ ذي الحجة الحرام سنة ١٤١١هـ الموافق ١٦/٦/١٩٩١م.

ابراهيم بن محمد بن أحمد الوزير
غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أتوكل وأستعين

قال: الإمام المنصور بالله - عز وجل - أمير المؤمنين أبو محمد عبدالله بن حمزة بن سليمان أدام الله سعادته، الحمد لله ذي العزة القاهرة، والآلاء الغامرة، والنعم الباطنة والظاهرة، المختص بصِفات الكمال، ذي العظمة والجلال، والمن والإفضال، المتعالي عن الأنداد والأمثال، رافع السماء بغير عماد، ومرسي الأرض بشوامخ الأطواد، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادة عارف معترف لا منكر ولا منحرف يرجح بها ميزانها ويشهد بها ديوانها، وأشهد أن محمداً (صلى الله عليه وآله) عبده ورسوله، وأمينه وصفيه، المبعوث بجوامع الكلم، وبدايع الحكم، وأنه أدّىٰ الأمانة، ونصح الأمة، وعبد الله حتىٰ أتاه اليقين. فصلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وعليهم رحمة الله وبركاته، وأشهد أن الإمام بعده بلا فصل أخوه وابن عمه، ووارث علمه، وقاضي دينه، وغيبة سره، وفارج الكرب عن وجهه، وأول من قال لا إله إلا الله معه، حسام دولته القاضب، ونجم أمته الثاقب، «علي بن أبي طالب» (عليه سلام الله ورضوانه) وأشهد أن الإمامة بعده في ولديه الحسنين الطاهرين ريحانتي الرسول، وسبطي البتول، الماجدين، السيدين الطيبين، الحسن والحسين، ابني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وسيدي شباب أهل الجنة (عليهما سلام باري البرية، وعلىٰ أمهما الرضية) وأشهد أن الإمامة بعدهما فيمن طاب وزكىٰ من ذريتهما المنتجبين الأحرار، العلماء الأبرار، المباينين للفجار، الرافعين للاشتار، أهل السخا والمروة، والغرايم القوية، والآلات السوية، والهمم السنية، والسياسة المرضية، أهل العفة والوقار،

والإيراد والاصدار (عليهم سلام الله ورضوانه) ورحمته وغفرانه وبعد ذلك:

فقد سألني بعض من تلزمني عهدة إجابته، ويتعين علي فرض مساعدته من أفاضل الإخوان المرشدين، الهادين بحمد الله المهتدين، أن أشرح للمسترشدين، معاني الأحاديث الأربعين، النبوية السيلقية، بإيضاح ألفاظها اللغوية، وإفصاح فوائدها المعنوية لتنفتح أكمامها، وتتضح أحكامها، وتنتشر أعلامها، فأجبته إلىٰ ذلك جواب النحيد المجهود، إلىٰ اللهام المعقود، ولكن لا خلف للمغير، فمددت كف الأمكان، إلىٰ منتهىٰ الإحسان، وبعد الأستعانة، بذي الإعانة والاستكانة، لذي المكانة، وإلاّ فمن أين وأنى، وكيف ومتىٰ، يروم المجتهد الإحاطة بجميع معانيها، بل الضليع المتجرد البلوغ إلىٰ أدنىٰ أدانيها، فضلاً عن أقصىٰ أقاصيها، ولم لا وهي مأخوذة في الحكم عن العليم الحكيم الذي لو كان البحر مداداً لكلماته لنفذ البحر قبل نفاذها، وانحصرت آخر اعداده قبل انحصار آخر أعدادها، وهو عز من قائل: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[1] فكيف يتصدىٰ ذو معرفة وينطق ذو شفة، للإحاطة بكنه غرائبها، والإتيان بمعاني عجابها، ولقد بسطنا بعد الاقباض وبردنا بعد الارتماض، قول الحكيم (سبحانه): ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾[2] فنسأل الله (سبحانه وتعالىٰ) التوفيق لما يوافق مراده، ويكبت أضداده، وقد قمنا في ذلك قيام من تحرج من ردّ السائل، ومنع النايل، مائلين إلىٰ الاختصار، متنكبين طريقة الإكثار وأوردنا الأخبار، مجردة عن الأسانيد لكون ذلك بحمد الله موجودة في نسخ سماعنا، وكتب أصحابنا، وإنما نذكر راوي الحديث عن لفظ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلىٰ سمعه، أو إلىٰ من أسمعه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك كذلك، وطرفاً من نسبه، وإشارة إلىٰ بعض حاله، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن أهل هذا الشأن كانوا عيوناً قادةً، عدولاً سادةً، سمعوا وحفظوا، وأدوا ما سمعوا كما سمعوا، فجزاهم الله عنّا خيراً وعن كافة المسلمين، وجعل نصيبهم الأوفىٰ، وقدْحهم المعلّا، ووسَمْنا كتابنا هذا بحديقة الحكمة، ونرجو أن يكون اسمه بتوفيق الله مشتقاً من معناه، لا علماً يتميز به عن سواه.

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥.

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٤.

الحديث الأول

عن أنس بن مالك، وهو غلام من الأنصار ومن حديثه أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما وصل المدينة قال: انعوا لي غلاماً يخدمني فجاءت به أمه أوجدته الشك من جهتي إلىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فكناه أبا خَمرة بشجرة تكون في المدينة يسمىٰ بها الرجل خمره كما يقال سلمه وطلحه وعَوسجه قال أنس فخدمت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نحواً من عشر سنين ما قال لي في شيء فعلته لِمَ فعلته ولا في شيء تركته لِمَ تركته في حق نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلّا أن يأمرني أو ينهاني في شيء من أمر الله (تعالىٰ).

قال: خطبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علىٰ ناقته الجذعاء فقال: «أيها الناس كأن الموت فيها علىٰ غيرنا كتب وكأن الحق فيها علىٰ غيرنا وجب وكأن الذي نشيع من الأموات سفر عمّا قليل إلينا راجعون نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنّا مخلدون بعدهم نسينا كل واعظة وأمنا كل جايحة طوبىٰ لمن شغله عَيبه عن عيب الناس طوبىٰ لمن أنفق مالاً اكتسبه من غير معصية الله وجالس أهل الفقه والحكمة وخالط أهل الذلة والمسكنة طوبىٰ لمن ذلت نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره. طوبىٰ لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم تستهوه البدعة».

الخطبة هي الكلام المصرّع المسجوع يقوم بها الرجل في المجامع

وسميت خطبة لعظم حالها ومن ذلك سمي الخطب خطباً ويقول قائل أهل اللغة ما خطبك أي ما أمرك وشأنك استعظاماً لما جاء به ومن ذلك خطبة النكاح لعظم شأنه عندهم.

وعلىٰ نا قته الجذعاء، سمعناه بالذال معجمةً ممدوداً ولا أدري من أي شيء أُخذ ولعله علّم لها ومما كان يداوم ركوبه القصوىٰ والعضبا وعادة العرب الخطبة من مكان عال أو ظهر راحلة ولم يغير ذلك الإسلام لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اتخذ المنبر وخطب من ظهر الراحلة وكذلك الأئمة بعده وهو (عليه السلام) القدوة في ذلك.

فقال: «أيها الناس كأن الموت فيها علىٰ غيرنا كتب» أيها الناس خطاب عام، وكأن حرف تشبيه وله أخوات تنصب الأسماء وترفع الأخبار، والموت معنىً يضاد الحياة علىٰ خلاف في ذلك بين أهل العلم والظاهر مع من أثبته معنىً وهو قول الله (تعالىٰ) «خلق الموت والحياة» فأثبت أن ثمت مخلوقاً ولا يكون إلا معنى قوله (عليه السلام) فيها يريد الدنيا وإن لم يتقدمْ لها ذكر ومثله في كلام الفصحاء وفي كلام الله (تعالىٰ) قال (سبحانه): ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ يريد به القرآن الكريم ولم يتقدم له ذكر فهذا ما يتعلق باللفظ وأما ما يتعلق بالمعنىٰ فلما كان الموت من أهم ما أُخطر بالبال فأشعل نار البلبال وأعظم حادث نزل بقطع الآجال فضاعف الأوجال، فهوىٰ كما ترى عظيم الخطر والنازل المعلوم الزوال إذا عظم خطره لم يغفل أهل العقول عن الاستعداد لنزوله والتأهب لحلوله فلما عاين (صلى الله عليه وآله وسلم) حال الناس وقلة تأهبهم للموت الذي لا بد منه ولا ينبغي لعاقل أن يغفل عنه جمع نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم) مع أمته في الذكر وإن كان بخلافهم في ذلك لأنه كان (عليه السلام) أكثر الخلق وجلاً وأحسنهم قولاً وعملاً فخلط نفسه في الضمير لسعة أخلاقه ولطف دعائه وحسن تأديبه فقال (عليه السلام): كأن الموت فيها علىٰ غيرنا كُتب. لمّا رأىٰ (عليه السلام) قلة الاستعداد لنزوله صار كأنّ النازل به الموتُ سوانا والمعني به غيرنا، وأصل الكتاب إلزام الشيءِ الشيءَ وشدة فيه حتىٰ سمي الخزار كاسياً وكذلك الكاتب لجمعه

(١) سورة القدر آية ١.

الحروف وسميت الكتيبة كتيبة من اجتماع بعضها إلىٰ بعض وكتابته علينا الجمع بينه وبيننا بزوله، ويحتمل أن يراد بذلك كتابته في اللوح المحفوظ فما يكتب فيه إلّا الواقع لا محالة لكونه من قبل علّام الغيوب فيكتب فيه يموت فلان بن فلان في وقت كذا أو كذا في بلد كذا وكذا علىٰ حال كذا وكذا وبسبب كذا وكذا فلا يغادر من ذلك شيئاً فيكون ذلك لطفاً للملائكة (عليهم السلام) ولمن علم به من المكلفين. قوله (عليه السلام): «وكأن الحق فيها علىٰ غيرنا وجب» الحق في أصل اللغة هو القطع الطاهر والواجب هو الواقع ومنه قولهم وجبت الشمس وقوله (تعالىٰ): ﴿فإذا وجبت جنوبها﴾[1] أي سقطعت ووقعت ﴿فكلوا منها﴾[2] والحق هاهنا جميع ما فرض الله (تعالىٰ) علىٰ عباده من فعل أو ترك والأفعال والتروك تنقسم ولا وجه للتطويل بذكرها هاهنا وهو وإن كان النفل حقاً فقد خصّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الواجب منه بقوله وجب إذ النفل لا يجب في عرف الشريعة المشرفة فهذا في تمييز الألفاظ فأما المعنىٰ فلما كان من وجب عليه حق تأهب لتأديته وشمر في أمره وكنّا فيما وجب علينا في حكم الغافلين شبه حالنا (عليه السلام) بحال من لم يجب عليه واجب وقد تقرر في العقول قبح ترك الواجب لا سيما إذا كان الذي له الحق قادراً على استيفائه منعماً علىٰ من عليه الحق بالنعم الجليلة الأخطار حكيماً عادلاً عظيم الشأن لا يمكن الغنىٰ عنه في حال من الأحوال ولا وقت من الأوقات فإن الغفلة عن القيام بحقه والحال هذه تقبح جداً وتتناهى في القبح ولا يختلف في قبحها العقلاء فنسأل الله (تعالىٰ) أن لا يجعلنا من الغافلين عن القيام بما وجب علينا الناسين لما اسدىٰ الحكيم (سبحانه) إلينا وأشهد أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة حيث خلط نفسه في الخطابة بأنفسنا وحاله بذلك مخالف لحالنا.

قوله (عليه السلام): «وكان الذي نشيع من الأموات سفرٌ عما قليل إلينا راجعون» التشييع في أصل اللغة هو الاتباع ومنه سميت الشيعة شيعة لاتباعهم علي ابن أبي طالب (عليه السلام) وتشييع الجنائز من ذلك وهو المسير خلفها

---

(١) و(٢) سور.. الحج آية ٣٦.

ولذلك كان عندنا أولاً من المسير أمامها لكونها مشيعه والمشيع متبوع وهو الذي رويناه عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، والسفر جمع سافر والتجر جمع تاجر وهو ظاهر في كلامهم وهو الذي يقطع المسافة وأكثر ما يستعمل ذلك في باب التجارة والأرباح وان كان المراد به في الأصل قطع المسافة لأي ما غرض من الأغراض يقال وسمي سافِر السفِر وجد الأرض وهو تنقيتها للسلوك من الموانع من المشي ومنه سميت المسفِرة وهي المكنسة وأقل ما يسمى بقطعه الإنسان من المسافات سافراً أو مسافراً وهو البريد فما فوقه في عرف الشريعة عندنا وقلنا ذلك لما روّينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر بريداً إلاّ مع ذي رحم فجعل أقل السفر بريداً لولا ذلك لما كان للحديث فائدة، والبريد أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال والميل ثلاثة آلاف ذراع مجموع ذلك ستة وثلاثون ألف ذراع، وذكر بعض أهل المعرفة في المساحة والمسالك أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ فجزيرة العَرب منها ألف فرسخ وجزيرة الفرس ثلاثة آلاف وجزيرة الروم ثمانية آلاف ولأولاد حان منها اثنيْ عشر ألف فرسخ والله أعلم بحقيقة ذلك.

فأما جزيرة العرب فلا يبعد عندنا ما قيل فيها، والراجع والآيب والأيص في نظاير لها هو العايد إلىٰ جهته التي فارقها أولاً وسمي السحاب رجعاً من ذلك لأنه يعود إلىٰ جهته المعهودة بين السماء والأرض بعد فراقها بقدرة الله (سبحانه وتعالى)، ومعنى ذلك، أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لما رأىٰ قلة فزعنا لتشييع الموتىٰ واخطار ما لا بد من نزوله بالبال والتأهب لمثل ذلك المآل كنا معهم والحال هذه كالذي تشيع المسافر الذي نرجوا معاودته بالأرباح عن كثب فانه لا يكترث لذلك في مجرىٰ العادة فلما كانت حالنا وبجهل كان ذلك منا كذلك شبهنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالذي يشيع السفر السريع الأياب وخلط نفسه معنا لمثل ما قدمنا به في أول الخبر وإنما كان ذلك كذلك لأنا لو قطعنا بفراقهم إلىٰ يوم التناد وحضور الأشهاد وانها لاردة فإنما هي سعادة أو شقاوة لتأهبنا لمثل حالهم وتزودنا لمثل مرجعهم ومآلهم.

قوله (عليه السلام): «نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم» التبوئة: هو

الانزال يقول قائلهم بواته كما يقول انزلته وأسكنته والأجداث واحدها جدث وهي القبور وقد يقال جدف بالفاء والأكل معروف والتراث تركة الميت وكان الأصل ورّات فأبدلت منها التاء لقرب بعضهما من بعض في الخروج وكثيراً ما يوجد ذلك في كلامهم.

المعنىٰ: أخبر (صلى الله عليه وآله وسلم) بحالنا بعد موتانا والأكل للتراث وأن كان مباحاً لا يتعلق به نهي، فالغفلة عن الاستعداد لحضوره وعند الاشتغال بأنواع الأكل من الخضم والقضم واللّم بالكل تقع الغفلة عن الاستعداد.

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «كأنّا مخلدون بعدهم». المخلدون: الباقون الدائمون أبداً وأصله الملازمة ومنه الخلد الذي هو القرط وقيل في قوله تعالىٰ: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾[1] أي مقرطون وهو ما يلبس في الأذن وأحسب أن أصله من السوار الذي يلازم اليد أبداً ما دامت فلما كان الموت موضوعاً للاعتبار بل هو أقوىٰ ما خوفنا به الجبار وزهدنا في هذه الدار وكنا مع تقديم الموتىٰ وتشييعهم غافلين عن الاستعداد كنا كمن طمع في الخلود أبداً ولم يقدم بين يديه إلىٰ ربه عز وجل يداً.

(قوله عليه السلام): «نسينا كل واعظة» الواعظة هي الحادثة الذي يتعظ بها ومعنى الاتعاظ والاعتبار واحد: وهو الازدجار عن الفعل مع خضوع وهيبة وقد تكون الواعظة فعْلاً فتكون قولاً فالفعل ما أنزل الله (سبحانه وتعالىٰ) بالأمم الماضية من النقم الهائلة كالقذف والمسخ والصيحة والرجفة والريح والغرق وأمثالها نعوذ (بالله تعالى) منها علىٰ ذنوب قد جاءت طوائف من الأمة بمثلها أو قريب منها فالله (تعالىٰ) المستعان، وقد يكون بالقول كالوعيد علىٰ الإقدام على القبيح، قوله عليه السلام: «وأمنا كل جائحة» الجائحة والجارفة والقالعة، والخالقة، والكاشفة، معناها واحدٌ، وهي التي تسحت ما في يد الإنسان من الأهل والمال بأحد أمرين لا بد من أحدهما، إما تسلبه من الإنسان أو تسلب الإنسان منه وهذا يعلمه كل عاقل فإذا فكر في ذلك كان الأولىٰ به أن يكثر سروره بما قدمه بين يديه من أهله وماله والأوامر بتقديم

---

(١) سورة الواقعة آية ١٧.

المال موجودة كثيرة وفي تقديم الأهل كثير وهي دون ذلك، من ذلك ما ذكر في غريب الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «ما تعدون الرقوب عندكم، قالوا: يا رسول الله من لم يولد له ولد، قال (عليه السلام): بل هو من لم يمت له ولدٌ» فنبه (عليه السلام) على أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما زاد في الدنيا ونقص في الآخرة.

قوله (عليه السلام): «طوبىٰ لمن شغله عَيبه عن عيب الناس». طوبىٰ شجرة في الجنة يستقر تحتها الفائزون، والطوب هو الآجر الذي يتخذ لمحاريب الملوك، والشغل المنع في أصل اللغة والعيب في الأصل فساد الشيء وتغيره سمعت من بعضهم هذا في اللفظ، فأما المعنى فإن العاقل إذا فكر في أمر نفسه ونقصها إذ الخلق البشري لا ينجو من النقصان، من ذلك ما روي عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «كل بني آدم طف الصاع» يشير إلىٰ نقصانهم وتعذر الكمال فيهم كأن له بالاشتغال باصلاحها وتقويم أودِها مندوحة عن الاشتغال بأمر غيره وعند فعله لذلك يستحق طوبىٰ الجنان وحالة الرضوان.

قوله (عليه السلام): «طوبىٰ لمن أنفق مالاً اكتسبه من غير معصية الله». طوبىٰ معناه ما تقدم والانفاق معروف، ومن الحديث أنفق يا بلال ولا تخف من ذي العرش إقلال وأصل الانفاق في اللغة الهلاك، ومنه قولهم نفقت الدابة. أي هلكت ثم صار في عرف اللغة يفيد ما ذكرنا وهو الإعطاء. ومعنى قوله (عليه السلام) في المال أنه المكتسب من غير معصية الله، أعني ما يتعلق الأجر والثواب بالإنفاق منه لأن ما كسب من المعصية فهو سحت حرام لا يؤجر من أنفق منه، ومن ذلك الحديث من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : «لا تقبل صدقة من غلول» بضم الغين واللام والغلول هو الحرام وأنواع مكاسبه كثيرة أعاذنا الله منها، من ذلك مهر البغي وحلوان الكاهن وعسب الفحل وما يأخذ الباغي علىٰ وجه الإكراه والجباية وكل ذلك لا تقبل منه الصدقة لأن منه ما يجب رده علىٰ صاحبه ومنه ما يجب صرفه إلىٰ بيت المال وتفصيل شرحه يطول وفائدة الحديث أن المنفق في الحلال تكون له طوبىٰ الجنان نزلاً، والثواب الدائم من متاع الدنيا الفاني بدلاً، وذلك المكسب الربح والمتجر المفيد.

قوله (عليه السلام): «وجالس أهل الفقه والحكمة» المجالسة معروفة

وإنما المراد الاستماع والاتباع دون مجرد المجالسة فقد كان المنافقون يلزمون مجلس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولهذا قال تعالىٰ حاكياً عنهم «ومنهم من يستمع إليكَ حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً» يوهمون الحرص علىٰ حفظ ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم لا يتعبون فلم يغن عنهم ذلك شيئاً بل عقّب ذلك (سبحانه) بذمهم بقوله: **﴿أولئك الذين طبع الله علىٰ قلوبهم واتّبعوا أهوائهم﴾**[1] فعقب ذلك بالذم فكان قبيحاً لمّا تعرىٰ عن الفائدة الحسنة، والفقه في أصل اللغة هو العلم لا فرق عندهم بين قول القائل فقهت كذا وكذا وبين قوله علمت كذا وكذا، ثم قد صار في عرف العلماء يفيد العلم أو الظن بجمل من الأحكام الشرعية وعللها وشروطها وأسبابها التي لا تعلم باضطرار أنها من الدين فمن علمها علىٰ هذا الوجه كان فقيهاً. ومن لم يعلمها فليس بفقيه عند أهل الأصول، والحكمة في أصل اللغة تفيد ما يمنع من الوقوع في غير المراد، ومنه أخذت حكمة الدابة ثم صار في العرف يفيد العلم بدقائق العلوم وغوامض الأحكام والمعارف فأما عندنا فالحكمة تفيد المعرفة بمعاني كتاب الله (تعالىٰ) وعليه بحمل قوله (تعالىٰ): **﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾**[2] (وقوله تعالىٰ): **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾**[3] فالكتاب هو القرآن والحكمة معانيه ومثل هذا التأويل مروي عن جدنا عبدالله بن الحسين (عليه السلام) فمعنىٰ الحديث الحض علىٰ مجالسة أهل المعرفة بأصول الشريعة وأهل المعرفة بمعاني كتاب الله (سبحانه) وهؤلاء هم الناس علىٰ الحقيقة إذ بمخالطتهم تقع النجاة وتمحىٰ السيئات وترفع الدرجات وفي ذلك ما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لكميل بن زياد: «الناس ثلاثة، فعالم رباني ومتعلم علىٰ سبيل النجاة وهمج رعاع لم يستضيئوا بنور العلم» في حديث طويل. والهمج في أصل اللغة هو البعوض والرعاع الذي لا ثبات له وتلك حال الجهال.

---

(١) سورة محمد (ص) آية ١٦.

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٩.

(٣) سورة الجمعة آية ٢.

وقد روينا بالإسناد الموثوق به إلىٰ صفوان بن عسال، «العين غير معجمة» عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «ما غدىٰ رجل يلتمس علماً إلا فرشت له الملائكة أجنحتها رضاً بما يعمل». وروينا بمثل ذلك الإسناد عن أبي جحيفة أنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «جالسوا العلماء، وسائلوا العلماء وخالطوا الحكماء» قوله (عليه السلام): وخالط أهل الذلة والمسكنة، المخالطة معروفة، ومعنى ذلك أن لا يرفع نفسه عن أحد من المسلمين، ومعنى أهل الذلة هاهنا هم ضعفة المسلمين وأصل الذلة في الإبل يقال ناقة ذلول وجمل ذلول للذكر والأنثى بلفظ واحد، والمسكنة هي نهاية الحاجة وهي مفعلة من السكون فكأن الحاجة تحمل صاحبها على سكون الجوارح فلا يستطيع حراكاً.

وقد روي أن الحسين بن علي (عليه السلام) مر بجماعة من المساكين وهم يأكلون خبزاً فقال (عليه السلام: «لولا أن خبزكم صدقة لأكلت معكم» ثم استنهضم (عليه السلام) إلىٰ منزله فأمر لهم بطعام فأكلوا وأكل معهم فسأله أهله عنهم فقال هم جماعة من أخواني ودهنهم وفرّق فيهم دراهم وذلك مأخوذ من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). فإن المعروف منه أنه كان يجلس بين ضعفة أصحابه يعلّمهم معالم الدين ويزهدهم في الدنيا ويصغر عندهم البلا حتىٰ قال له عيينة بن حصن الفزاري يا رسول الله، إنك رسول الله وان العرب أهل أنفه ورياسة فإذا رؤوك مع هؤلاء المساكين نفرت نفوسهم عن الدين فلم يقبلوا فلو نحيت هؤلاء عن مجلسك فإن كان لا بد منهم فاجعل لهم مجلساً ولنا مجلساً فكاد كلامه يؤثر في النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في أمر المجلس من حيث زخرفه عدوّ الله بالتقرب إلىٰ الدين لكبار الناس فانتظر الوحي من الله (تعالى): ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عينهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾[1]. وهو عيينه وأغفلنا قلبه عقوبة له إذ لا يجوز غير ذلك وقد كان منافقاً في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أحمق مطاعاً وبعد وفاته كان كذلك لأنه كان من أقوىٰ أسباب معاوية (لعنه الله) وبمعاوية انطمست رسوم الدين وظهرت اعلام الضلال...

---

(١) سورة الكهف آية ٢٨.

قوله (عليه السلام): «طوبىٰ لمن ذلت نفسه وحسنت خيلقته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره». طوبىٰ قد تقدم الكلام في معناها، والمراد بذلة النفوس هاهنا تواضعها وانقيادها لله سبحانه وتعالىٰ، لضعف عباده المؤمنين تسليماً لأمره وإجلالاً لعظمته خلافاً لما عليه الجبابرة الظلمة من غمص أولياء الله واحتقار عباده.

فقد روينا أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان في السوق يمشي فأصابه المطر فالتجأ إلى ظلةِ عطار ليستظل فيها من المطر فوثب عليه العطار وهو لا يعرفه، يدفعه في صدره وأمير المؤمنين (عليه السلام) يقول له: ويحك إنما استظل من المطر فصاح الناس به ويحك ألست تعرف هذا أمير المؤمنين فاعتذر فما أعاد عليه إلاّ خيراً.

وكذلك روينا أنه (عليه السلام) دخل السوق يشري تمراً فقال لتمار: كيف تبيع تمرك يا تمار فقال كذا وكذا شيئاً لم يرضه ثم قال لآخر: كذلك فقال: شيئاً لم يرضه فقال: لآخر كذلك فقال: له شيئاً رضيه فقال: زن وارجح فإنا كذلك نفعل معشر أهل بيت النبوة فقال التمار: يا أمير المؤمنين غلامي يحمله معك فقال (عليه السلام): لا، لا يأكله الحسن والحسين ابنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويحمله غلامك سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «من رقع ثوبه وحلب شاته وحمل بضاعته فقد برىء من الكبر». وأمثال هذا من أهل بيت النبوة (عليهم السلام) وأتباعهم الصالحين كثير.

فالواجب على العاقل تذليل نفسه لله (تعالىٰ) في مقام للعز فيه وللذل فيه تأثير عظيم، فأما هذه الدنيا فعزها ظلال وذلها محال وكل شيء فيها إلىٰ نفاد، وزوال وحسن الخليقة معروف وهو: لين الإعطاف، ووطأة الأكناف وهذا الدين مبني علىٰ حسن الخلق وقد اختص نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) من ذلك بما لم يكن لغيره فقال فيه (تعالى): ﴿وإنك لعلىٰ خلق عظيم﴾[1] وقال (تعالىٰ): ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[2].

---

(١) سورة القلم آية ٤.
(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.

الصلاح في أصل اللغة: هو السلامة من الآفات، وهو: نقيض الفساد في كلامهم.

والسريرية: باطنة الإنسان وصلاحها أن لا يكون فيها غش ولا فساد وهي: عقدة ضمير قلب الإنسان، وأصل السر الشيء الغامض الذي لا يكاد يتجلىٰ. من ذلك أسرة المسائل، ومنه سُرار الوادي، وسُر العود. ويسمىٰ السرير سريراً لأنه لا يكون إلّا من باطن الحجب مكنوناً لأنه مبوء الملوك ومستقر أهل الرفاهية. ومعنى ذلك أن يستوي سر المؤمن وعلنه وإقباله وإدباره وغيبه ومشهده بخلاف الفاسق والكافر فإن حالهما بالضد من ذلك وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «بئس العبد عبدٌ له وجهان يقبل بواحد ويدبر بآخر.

قوله (عليه السلام): «وعزل عن الناس شره». أصل الشر ما تكرهه النفوس وتنفر عنه، ثم قد صار بعرف الشرع ما تكرهه القلوب علىٰ وجه مخصوص وأن كان مشتهى لكونه مؤدياً إلىٰ العذاب العظيم الذي تنفر عنه النفوس وتحتويه القلوب فجميع المشتهيات المحظورة عند أهل الشرع من أعظم الشرور.

فمعنىٰ ذلك أن يعزل عن الناس ما تكرهه نفوسهم وتنفر عنه قلوبهم من أفعاله وأقواله..

قوله (عليه السلام): «طوبىٰ لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السُنةُ ولم تستهوه البدعة...» قد تقدم معنىٰ طوبى وكذلك معنىٰ الإنفاق، والفضل هو: ما زاد علىٰ الحاجة وأحسب أصل ذلك مأخوذ من خطام الراحلة، فإن ما زاد علىٰ الواصل من اليد إلىٰ رأس الراحلة يسمىٰ فضلاً وقد كان التعبد في بدء الإسلام ورد بإنفاق الفضل وهو ما زاد علىٰ كفاية الإنسان وعياله وجب عليه إنفاقه في سبيل الله (تعالىٰ)، وعلىٰ ذلك حمل قوله (تعالىٰ): ﴿يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو﴾[1] والعفو والفضل معناهما واحد وهو الزائد علىٰ قدر الحاجة ثم نسخ ذلك بآية الصدقة.

فأما في هذا الخبر فمعناه الندب والاستحباب فإذا المنسوخ الوجوب، كما يقال في صيام يوم عاشوراء، وقد كان الصالحون يتجاوزون هذه الرتبة

إلى الإيثار على النفس والولد فمدحهم (الله تعالىٰ) علىٰ ذلك بقوله: ﴿ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[1]. وهذه الآية نزلت في رجل من الأنصار آثر علىٰ نفسه وأولاده فمدحه الله (تعالىٰ) وأهله بذلك والصحيح أنها نزلت في أهل البيت (عليهم السلام)، وهي عامة فيمن فعل مثل ما فعله ففائدة اللفظ من هذا الخبر الحث والندب إلىٰ إنفاق الفضل من المال وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مثل ذلك قدم مالك أمامك يسرك اللحاق به.

قوله (عليه السلام): «وأمسك الفضل من قوله...» معناه علىٰ نحو ما تقدم وهو نقيضه لأن ذلك في الإنفاق وهذا في الإمساك، والفضل من القول هو: ما زاد علىٰ ما يغني المتكلم ويحتاج إليه ولا يلجأ إلى النطق به فأمّا ما زاد علىٰ هذا القدر يكون فضلاً من الكلام تركه أصلح من فعله وربما يجب في بعض الأوقات والآثار فيما هذه حاله كثيرة من ذلك: أن لقمان الحكيم (عليه السلام) كان في بعض مقاماته ذات يوم وهو ينطق بالحكمة والناس محدقون به يأخذون من كلامه فجاء رجل من أعداء الحكمة قد غاظه ذلك يريد نقصه (عليه السلام) فقال له: أنت لقمان عبد آل فلان الذي كنت ترعىٰ لهم الحمر فقال (عليه السلام): أنا ذلك الرجل، وكان (عليه السلام) في أول الأمر عبداً حبشياً فلما ظهرت حكمته أعتقه مولاه في قصة طويلة. فقال له عدو الحكمة: ما بلغ بك هذه المنزلة؟ فقال له (عليه السلام): تركي لما لا يعنيني، فصارت نادرة علىٰ ذلك الرجل ودونت في مهاريق الحكمة. وسمع بعض الحكماء رجلاً يكثر الكلام فقال له: يا هذا إن الحكيم جل وعلا جعل لنا أذنين اثنتين ولساناً واحداً لنسمع ضعفي ما نتكلم، وقال نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) رحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلم وسنذكر الحديث بطوله فيما بعد إن شاء الله (سبحانه).

قوله (عليه السلام): «ووسعته السُنة». يريد لم تضق به فيتجاوزها إلىٰ غيرها إذ لا غير لها إلّا البدعة، والسُّنة ما داوم عليه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فعلاً أو تركاً وهي تشمل الفرض والنفل وهي مأخوذة من سنن

---

(١) سورة اللحشر آية ٩.

الطريق أي نهجها، الذي يغوي من تنكبه ولا يضل من ركبه وللدين طريق كما للمسجد والسوق فالواجب على العاقل أن يتعرف طريق الدين لينجو من الظلال مع الناجين.

قوله (عليه السلام): «ولم تستهوه البدعة...» الاستهواء هو الاستخفاف وسمي الهواء هواء لخفته وهو الجسم الرقيق المنشور بين السماء والأرض وقد يقال له «النفنف». ولمكانه بين السماء والأرض اللوح بضم اللام وهو مادة الحيوان البري، ومن ذلك سميت المحبة هواً لخفة المحبوب على القلب وقد قال (تعالى): ﴿وأفئدتهم هواء﴾[1] فكأن معناه والله أعلم فارغة من الحق الثقيل خفيفة في ميزان العدل وميدان الحرب لا ثبات لها إذ لا ثبات بغير ثقل.

والبدعة مأخوذة من البدع وهو الإحداث فقضى هذا التأويل أن جميع المحدثات في الدين بدع إلّا ما رجع إلى أصل متقرر.

وقد روينا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد سأله ابن الكوى وهو يخطب عن المنبرعن السنة والبدعة والجماعة والفرقة فقال (عليه السلام): السنة والله ما جاء به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، والبدعة: والله ما خالفها، والجماعة: والله أهل الحق وإن قلوا، والفرقة: - أهل الباطل وإن كثروا، وإذا كان هذا حال البدعة وجب الاحتراز منها ولا يصح الاحتراز منها إلّا بعد معرفتها وقد قدمنا معناها فنسأل الله (تعالى) ملازمة السنة ومخالفة البدعة والصلاة على محمد وآله.

---

(١) سورة ابراهيم آية ٤٣.

الحديث الثاني

عن خليقة بن الحصين وأحسبه أخا عصيمة بن وبرة بن خالد بن العجلان وعصيمة بدريّ خزرجي فإن كان أخاه فهذا نسبه وأنا في هذا على غير يقين. قال: سمعت قيس بن عامر المنقري يقول، وقيس بن عامر هذا مشهور تضرب به الأمثال في الحلم والشرف وفي الحديث أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال فيه: «هذا سيد أهل الوبر». يريد البدو وفد على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والوافد الضيف والزائر المكرّم. وأصل الوفد والوفادة الهدية، لا فرق عندهم بين قولك أوفدت إليه وبين قولهم أهديت إليه، فلما كان الضيف عند العرب لشرف نفوسهم ينزل منزلة الهدية في السرور به سموه وفداً، معناه هديةً أُهديت إلينا.

ففي الحديث أن قيساً سأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أفضل الأموال فقال (عليه السلام): «نعم المال الأربعون والأكثر الستون وويل لأرباب المائين فذكر أن له وادياً لا يخالطه فيه أحد لكثرة ماله» فقال (عليه السلام): «إلاّ من فتح عزيزتها ونحر سمينتها وأطرق محلها، أحسبه قال وأفقر ظهرها وأدى حق الله منها.

واستقام قيس في زمن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وجرى منه في أيام الردة بعض الاضطراب ثم استمر بعد ذلك، قال: قدمت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في وفد من جماعة بني تميم وعنده الصلصال بن الدلهمس فقلت يا نبي الله عظنا موعظة ننتفع بها فإنا قوم نعير البرية فقال

لي: «اغتسل بماء وسدر» وقد تقدم الكلام في الوفد وهو: الطائفة من القوم وقد يكون الوفد واحداً أو اثنين كما تقول في الخصم. .

والجماعة كافة القوم فكأنه أتاه في وجوه من أبيات (بني تميم): وهو تميم بن مر بن أُدّ بن طايحة بن الياس بن مضر وهم كاهل مضر وشرح أخيارهم وتفصيل أبياتهم يطول، الاغتسال معروف وهو تعميم البدن بالماء بحيث يجري الماء وذلك البدن حتىٰ يتقىٰ من الدرة وما دون هذا مسح، وغسل بعض البدن دون بعض وضوءُ مأخوذ من الوضاءة وهي البياض والنقا، والماء إذا أطلق أفاد ما خلقه الله (تعالى) في الأرض ابتداءً وأنزله من السماء من الأنهار الجارية والأمطار الهامية والبحار الساجية.

«والسدر» شجر معروف يتخذ من ورقه ذَرور ترحّض به الأبدان فينقيها من الأدران وإنما أراد (صلى الله عليه وآله وسلم) طهارته من درن الشرك واسترسال المشركين في أكل الميتة وأكل ما ذكر عليه غير الله وهو عندنا بمثابتها وشرب الخمر وما سنأكل ذلك قال ففعلت ثم عدت عليه فقلت: يا رسول الله عظنا موعظة ننتفع بها قد تقدم الكلام في معنىٰ الواعظة والموعظة ذكرها، والانتفاع هو استعمال المنفعة ومباشرتها، والمنفعة هي اللذة والسرور وما أدىٰ إليهما أو إلىٰ أحدهما. فمعنىٰ قوله «ننتفع بها» نعمل لأجلها عملاً يؤدينا إلىٰ المنفعة التي هي ثواب الآخرة العظيم من كل جانب الخالص من كل شائب، فقال (عليه السلام): «يا قيس إن مع العز ذلّاً، وإن مع الحياة موتاً، وإن مع الدنيا آخرةً، وإن لكل شيء حسيباً، وعلىٰ كل شيء رقيباً، وأن لكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً، وأن لكل أجل كتاباً، إنه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك ثم لا يحشر إلّا معك ولا تبعث إلّا معه ولا تسأل إلّا عنه فلا تجعله إلّا صالحاً، فإنه إن كان صالحاً لم تأنس إلّا به، وإن كان فاحشاً لم تستوحش إلّا منه: وهو فعلك. . .».

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «يا قيس إن مع العز ذلّاً». أصل العز في اللغة هو: القهر والغلبة. ومنه قولهم «من عزَّ بزَّ» المراد بذلك من غلب سلب، وقال شاعرهم:

وعزت الشمال الرياح وقد   أمسىٰ كميع الفتاة متلفعاً

الشمال: ريح الشمال وفيها سبع لغات وسميت شمالاً لأنها تأتي من شمال البيت زاده الله شرفاً، وهي مناوخة الجنوب، والجنوب اليمانية وهي تضرب جنب البيت الأيمن. والدبور تأتي من دبره وهي الغربية. والقبول تستقبل بابه وهي الصبا الشرقية غلبت الجنوب فظهرت عليها في الهبوب وذلك يكون في شدة البرد. وقلب الزمان كميع الفتاة ضجيعها، يقول أمسىٰ متلفعاً، متدثراً بثيابه لم يهم بشيء من أمرها وذلك يكون في شدة الزمان، وقد تعرض الكلمة فنذكرها ولعل ذلك إن شاء الله (سبحانه) لا يتعرىٰ عن الفائدة. . . ، ومنه قوله تعالىٰ: **﴿وعزني في الخطاب﴾**[1]. أي غلبني والمعنى فيما قال (صلى الله عليه وآله وسلم) أن عز الدنيا لا دوام له لأن الذل يتعقبه لا محالة أقل الأحوال بالموت فيصير محكوماً عليه بعد إذ كان حاكماً مصَرَّفاً بعد أن كان منصرِفاً، فلا عز علىٰ الحقيقة إلا عز الأخرة لأنه لا ذل يتعقبه ولا موت ينغصه، وقد تقدم تفسير الذل وأن أصله مأخوذ من البعير الذي لا ينفر عن طالبه ولا يمتنع عن راكبه، وفي الرواية أن الإسكندر «رحمه الله» لما مات حضر الحكماء فتكلم كل رجل منهم بما حضره مما يحفظ ويدوّن، فقال أحدهم وقد جعل (عليه السلام) في تابوت من ذهب يا اسكندر هذه القدرة الطويلة العريضة طويت في ذراعين. وقال أحدهم: قد كنت حاكماً فأصبحت محكوماً عليك. وقال أحدهم: ما أشبه خروجك من الدنيا بدخولك فيها، دخلت وليس معك شيء وخرجت كذلك. وقال حاجبه: قد كنت أحجبك ممن تكره دخوله فدخل الموت ولم يستأذن وأمثال هذا كثير وميلنا إلى الاختصار.

ومن ذلك أن المغيرة بن شعبة لما نزل الكوفة والياً أعلم بمكان الخرقة أثبت النعمان وكانت معمرة قد اعتزلت في دير لها وترهبت فأمر إليها يخطبها إلىٰ نفسها فقالت: لا حاجة لي فيه إنما أراد ليرفع من نفسه ويضع مني وإلاّ فأي خير في اجتماع أعور وعمياء، وكانت قد عميت فلما علم ذلك منها نهض إليها فسلم عليها فسلمت عليه فقال لها أخبريني بأعجب شيء رأيتِ من أمركم؟ قالت: أعجب ما رأيت من أمرنا أن الشمس طلعت وما علىٰ وجه الأرض عربي إلاّ وهو يرجونا أو يخافنا، وغربت وما علىٰ وجه الأرض عربي

---

(١) سورة ص آية ٢٣.

معنىٰ قوله (تعالىٰ): ﴿الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾[1] قال: هم الذين لا يوجبون اتباع أهل بيت محمد (عليه وعليهم أفضل السلام) وهذا معنىٰ مستقيم علىٰ قولنا وجميع الطاعات يترتب علىٰ ما قلنا في استحقاق السعادة الدائمة فمن وصل ما بينه وبين ربه بولائهم وأتباعهم سعد سعادة لا شقاوة بعدها وهي السلامة من عذاب الله الأكبر والغنيمة للثواب العظيم الموفر الذي لا ينقص ولا يكدر وفقنا الله (سبحانه) للاتباع وكثر في طاعته لنا الاتباع بحقه العظيم، وصلى الله علىٰ محمد وآله».

قوله (عليه السلام): «وأكثروا الصدقة ترزقوا».

الإكثار نقيض الإقلال، وهما معروفان. والصدقة مأخوذة في الأصل من الصدق وأصل الصدق البراءة من العيوب، وأكثر ما يستعمل الصدق في الخبر إذا كان له مخبراً وما يجري مجراه كان علىٰ ما هو به، وقولنا إذ كان له مخبرٌ احترازاً من الاخبار التي تعود إلىٰ النفي المحض والسلب الصرف كالخبر بأن لا ثاني مع الله وما شاكل ذلك. وأصله ما قدمنا لأن الكذب في الحديث بمنزلة الحوز في القناة، يقال قناةٌ صدقه، ورمح صدق الكعوب فلما كانت الصدقة صحيحة وبرئت من العيوب لأنها تخرج لله (تعالىٰ)، سميت صدقة.

وهذا الأمر من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عام مجمل يدخل تحته الفرض والنفل. وقد يميز كل واحد منهما عن الآخر بدليله. والرزق أصله تفريق الفرائض في الجند علىٰ قدر رأي السلطان فيهم. يقول قائلهم رزق السلطان جنده إذا فرق فيهم العطاء، قسمه بينهم، فإذا أضيف إلى الله (تعالىٰ) أفاد ما قسم بين عباده علىٰ مقدار ما يعلم من المصلحة في القليل والكثير، وقد قال (تعالىٰ): ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾[2].

وحد الرزق هو ما للإنسان تناوله وليس لأحد منعه علىٰ بعض الوجوه. واحترزنا بقولنا علىٰ بعض الوجوه من اليتيم، فإن لوليه منعه من تناول رزقه إذا

(١) سورة البقرة آية ٢٧.
(٢) سورة الزخرف آية ٣٢.

رأىٰ في ذلك صلاحاً. وكذلك من أراد أكل شيء من ماله في نهار شهر رمضان لغير عذر كان له منعه من تناوله إذا تكاملت فينا الشروط، وقد ورد في هذا الكلام من النبي (عليه وعلىٰ آله السلام) أمرٌ وخبر. فالأمر قوله (عليه السلام): «أكثروا الصدقة» والخبر قوله (عليه السلام): «ترزقوا» فالأمر يجب اتباعه لكونه ممن ظهر المعجز علىٰ يديه. ومعنىٰ ذلك أن الرزق الذي شرطه الله (تعالىٰ) بالصدقة لمصلحة يعلمها، وفي الحديث: «استنزلوا الرزق بالصدقات» المراد بذلك عندنا المشروط فإنه يقف علىٰ تقديم الصدقة، ولأنا قد علمنا من أنه (تعالىٰ) يرزق المتصدق والمانع بالمشاهدة، ويحتمل وجهاً آخر، وهو أن في الحديث حذفاً، مثله موجود في كلام الفصحاء تقديره ترزقوا رزقاً دائماً خالصاً من كل شائب عظيماً من كل جانب وهو ثواب الآخرة، إذ هو الذي له تأثير وخطره كبير. فأما الدنيا فجدّتها تؤول إلىٰ الدمار وريحها إلى انحسار، ونضارتها تؤول إلى الاصفرار، وطالبها، وكاسبها يساق غداً إلى النار فيخلد في العذاب الشديد الطويل ويهتف بالويل والعويل ويقول كما حكىٰ الله (سبحانه وتعالىٰ): ﴿هل إلىٰ مرد من سبيل﴾[1] فيا لها من حسرة ما أطمها وأهمها علىٰ من أذهب طيباته في أيام حياته وكيف يرغب في تحصيل دنيا هذا آخرها.

والصدقة نفل وواجب كما قدمنا فالواجب الزكات والاعشار، والنفل ما عدا ذلك من سائرالقرب المتعلقة بإنفاق المال وأهل الواجب منها معلومون. والفعل عام في جميع العباد وقد يتفاضل لوقوعه علىٰ وجوه وكذلك الواجب من الصدقة أيضاً بالتفاضل، لأن القريب إذا كان يستحقه وصرف إليه كان فيه ثواب عظيم روينا ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنه يكون صدقة وصلة.

قوله (عليه السلام): «وأمروا بالمعروف تخصبوا».

الأمر هو: قول القائل لغيره إفعل أو ليفعل علىٰ جهة الاستعلاء دون الخضوع وهو مريد لوقوع المأمور به وقد حده غيرنا من أهل العلم بغير ذلك.

---

(١) سورة الشورى آية ٤٤.

الدلالة علىٰ أنه (تعالىٰ) ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يريد منا المباحات.

قوله (عليه السلام): «قبل أن تشغلوا» يريد (عليه السلام) ما يحدث من موانع الأسقام وحوادث الأيام التي لا ينجو منها في مجرىٰ العادة أحدٌ. وفي الرواية أن عبدالملك بن مروان لما أصابته العلة كان يطل من الروشن فيصيح بأعلىٰ صوته: يا أهل العافية لا تغبطوا الملوك علىٰ ملكهم فوالله ما رزق الله أحداً أجلَ من العافية، وأصابته علة قضىٰ له أهل المعرفة: بالطب أنه أن شرب مات، لا محالة فلما جهده العطش دعىٰ بالماء فمنع منه، فدعا بابنته فاطمة فسألها المار فسقته فمات من حينه، وهذه نصيحة من طبيب الدين، ومعلم الخير، ومرشد الضُّلَّال، (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تساويها رغائب الأموال، فالواجب قبولها والمبادرة بالأعمال قبل نزول الأشغال. والأشغال هي الموانع لا فرق في ذلك وأحسب أن تفسيره قد تقدم.

قوله (عليه السلام): «وصلوا الذي بينكم وبين ربكم تسعدوا» الوصل نقيض القطع: وخلط الشيء بالشيء والخاصة فيه. ومن ذلك الحديث في الواصلة التي تصل شعرها بشعر الناس. والرب: هو السيد المالك، وسمي رباً لتربيته مملوكه. وهو: غذاؤه وترشيحه يقالُ رباه ورتبه بمعنىٰ واحد وقد قال راجزهم في صفة الفرس:

كان لنا وهو فلوٌ نربيه مجعثن الخلق تطير زغبه

يريد نصنعه ونرشحه هذا هو الأصل، ثم كثر ذلك حتى استعمل في المالك وان لم تقع منه تربية وهذا الإسم للباري. معنى علىٰ وجه الحقيقة. لأنه الذي ربانا ورشحنا، وصنعنا وهو مع ذلك مالكنا ومالك آبائنا وأمهاتنا فنحن حوله علىٰ وجه الحقيقة، فلا نستطيع القيام كما يجب علينا إلاّ مع ضرب من العفو والمسامحة.

قوله (عليه السلام): «تسعدوا» يريد تسلموا وتغنموا: أصل السعادة في اللغة السلامة والغنيمة، ولا فرق في لسانهم بين الجد والسعد بل يفسرون أحدهما بالآخر، وقد كان بسطام بن قيس يسمى «ذو الجدين»: لأنه كان مظفراً في الغارات يسلم ويغنم، فجاء الإسلام فاستقام علىٰ كفره وكان نصرانياً.

فأغار علىٰ بني ضبه فقتله عاصم بن حليفة الضبّي. ولم يكن يظن مثل ذلك فقال في ذلك الشاعر:

وفاعل فعلات لم تظن به كعاصم إذ تولىٰ قتل بسطام

ومعنى ذلك أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أمرنا وهو واجب الاتباع بوصل الذي بيننا وبين ربنا، ولا غنى لأحدٍ عن ذلك. لأن العبد لا يستغني عن صلة مولاه، وتحري رضاه لو لم يكن بينه وبينه إلاّ مجرد الملك. فإن كان الذي أوجده، وأحياه، وأطعمه، وسقاه وملكه، وأفناه، ولا مالك له سواه، وهو محتاج إليه في مصبحه وممساه. فإن قبّح قطع ما بينهُ وبينه، ويلحق بالضروريات الأوليات وأنت إذا تأملت الأحوال والأوقات رأيت من النعم الكبار الجليلة الأخطار ما لا يقوم بها شكرنا، ولا يؤدي أقل قليلها كثير جهدنا ولم لا يكون الأمر كذلك وما به طرفة عين إلاّ وعليها منه نعمة مجدده لا يقدر علىٰ إحصاء عدّها، وتكييف حدها، ولكن حملة ذلك أنا وما نتقلب فيه في ليلنا ونهارنا من تناول محبوب، وإدراك مطلوب من جوده (تعالىٰ) وكرمه والذي اختار في معنى قوله (عليه السلام) «وصلوا الذي بينكم وبين ربكم تسعدوا» إن المراد بذلك ولاء آل محمد (عليه وعليهم أفضل السلام) وإنما قلنا ذلك لأن السعادة تثبت بثبات ولائهم (عليهم السلام) وتزول بزواله فإن قيل فهذا ثابت في المؤمنين قلنا ولا سوآءً لأنهم قائمون في ذلك بأنفسهم ولا إيمان للمؤمنين إلاّ بهم وذلك ثابت فيما روينا بالإسناد الموثوق به إلىٰ أبي ذر الغفاري أنه قال وهو آخذ بحلقة باب الكعبة علىٰ أسماع الحجج وأعيانهم فكان ذلك سبب تواتر هذا الخبر. وأبو ذر نازل في ذلك منزلة الأعداد الكثيرة لقطع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علىٰ صدق لهجته فدل ذلك على عصمته فيما يتعلق بباب الأخبار. أيها الناس من عرفني فأنا من قد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أبو ذر سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك» ومعلوم أن أمة نوح هلكت إلاّ من ركب السفينة كذلك هذه الأمة إلاّ من تمسك بالعترة فهم علىٰ هذا الوصل بين العباد وربهم فتعبدنا أتباع سلفنا الصالح (عليهم السلام) الذين يقطعون، وتعبد أهل عصرنا باتباع جماعتنا أو إيجاد أولوا الأمر منا وقد روينا عن بعض آبائنا (عليهم السلام) أنه قال في

﴿فاليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾[1] وإنما يمر بها قبل الموت لأنها الحال التي تقع للتوبة فيها تأثير لأنها: حال بقاء التكليف وإلاّ فمعنىٰ التوبة في مستحقي العقاب من أهل الآخرة موجود ولا يغني عنهم ذلك من عذاب الله (تعالىٰ) شيئاً، ومعنىٰ التوبة الندم علىٰ ما فات والعزم علىٰ أن لا يعود إلىٰ مثله لأجل قبحه وهو: يتعلق عندنا بالجمل والتفاصيل علىٰ معنى أنها تصح من ذنب دون ذنب، ويبني أهل العلم في ذلك خلافاً غير أنا نقول إنها إذا وقعت من ذنب وبقي مصراً على كبيره بقي مستحقاً للعقاب والذم هذا أكثر ما فيه وإلاّ فعندنا، بل هو إجماع الأمة أن من تاب من النصرانية إلىٰ دين الحرية أن توبته صحيحة وانه قد خرج من حكم النصارىٰ إلىٰ حكم المسلمين وإن كان عندنا مصراً علىٰ ذنب عظيم ومن أئمتنا (عليهم السلام) من جعله كفراً.

وكذلك من المجوسية وبقي مصراً علىٰ ظلم دينار لرجل كانت توبته صحيحة بلا خلاف وإن عُد ظالماً. والتوبة من أقوىٰ أساس الدين بل هي قاعدة الدين ولو لم يكن فيها إلاّ قوله (تعالىٰ): ﴿إن الله يحب التوابين ويحبّ المتّطهرين﴾[2] لكان كافياً، إذ المعلوم من أهل الدنيا انهم يعرضون نفوسهم للأخطار العظيمة والمصائب الجسيمة كالقتل والجراح وذهاب الأولاد، والعشائر، والأموال، والذخائر ليحبهم سلطان الدنيا المسكين الضعيف الذي لا يقدر علىٰ مكافئتهم بشيء إلاّ وأصله من الله وربما لا يصلون إلىٰ ذلك اما لبخله أو لعجزه أو لاحترامهم دونه وهو مع ذلك حقير والذي عند الله باق دائم عظيم خالص من المكدرات وفي هذا معتبر فالواجب العاقل الفزع إلىٰ التوبة والمبادرة عند إزهاق الذنوب وتظاهر الحرب، ومن نعم الله علينا وعلىٰ الناس ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾[3] أي جعل باب التوبة مفتوحاً لنتدارك بها ما فات ونحي ما مات وفي ذلك ما روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال ان الله (تعالى) فتح باباً للتوبة عرضه ما بين المشرق والمغرب لا يغلقه حتىٰ تطلع الشمس من المغرب وهذه منة جسيمة علىٰ الأمة المرحومة، تصغر عندها المنن. وفي هذا الخبر دلالة علىٰ

---

(١) سورة النور آية ٦٣.
(٢) سورة البقرة آية ٢٢٢.
(٣) سورة البقرة آية ٢٤٣.

أن طلوع الشمس من المغـرب من آيات الله العـظام التي يقـطع التكليف عندها، فـلا ينفع نفسـاً أيمانهـا لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في أيمـانها خيـراً، وذلك لا يكـون إلاّ بغته، فـالواجب علىٰ كـل عـاقـل أن يمسي تـائبـاً ويصبح تائباً، وخاصة الإصباح وإن كان في الممسا مخوف آخر وهـو مفاجـأة الحمـام في المنام فقـد وقـع ذلـك بكثيـر من النـاس فـالأمـر والله المتسعـان متقارب، وأما في الصباح فخيفه من مفاجأة هذه الكائنة الهائلة.

قـوله (عليـه السلام): «وبـادروا بـالأعمـال الصـالحـة قبـل أن تشغلوا» المبادرة، والمسارعة، والحثة، والمسابقة: ـ هو توجيه الفعل في وقت الحاجة إليه، والعجلة توجيه الفعل قبل الحاجة إليه.

والمبـادرة محمودة، والعجلة مـذمومـة، ومعنى الجميـع واحـد، وإنمـا يختلف بـالأوقات ومـدار التكليف زاده الله (تعالى) شـرفاً وحـده علىٰ وجهين فعل، وترك: فالفعل علىٰ وجهين. فعل قلب، وفعل جارحة وفعـل الجارحـة علىٰ وجهين: فعل اللسان وفعـل الأركان وجميـع هذا التكليف المتعلق بهـذه الجوارح في الفعل، والترك ينقسم إلىٰ واجب، وندب، والتـرك يتعلق بالقلب أيضـاً واللسان، وسـائر الجـوارح علىٰ نحو مـا قدمنـا في الفعـل. فعلىٰ هـذه الأقسام مدار التكليف العقلي والشـرعي فالـواجب علىٰ العاقـل تعرّف أحكـام الأفعال ليؤدي كل شيء من ذلك مطابقـاً لمراد الحكم منه (تعالىٰ)، فيخـرج من عهدة ما لزمه. ووجوب ما هذا حاله: معلوم لكل عاقل متأمل، ألا ترىٰ أنا لو علمنا أن بين أيدينا ملكاً قادراً، وعلمنـا أنا قادمـون عليـه لا محالـة، فأت كل عاقل متأمل يعلم وجوب تعرّف ذلك النقـد وتحصيله ليخلص بتسليمه من عهـده ما لـزمه، ومـا به فعـل من الأفعال إلا ولله (تعـالى) فيه حكم وقـد قال (سبحانه): ﴿وكل شيْء فعلوه في الزبـر وكل صغيـر وكبير مستـطر﴾[1] وإنما خص (صلى الله عليه وآله وسلم) الأفعال الصالحة لأن عاملها غانم، وتـاركها غارم، وصلاحها، سلامتها من آفات التبعات المتعلقة بالأفعالة المقبحات ولما تعلقت بها إرادة الحكيم أختص ذلك الوصف بالواجبات والمندوبات، إذ قامت

---

(١) سورة القمر: ٥٢.

جهة الشام عراة حفاة بهماً، فكأنه (عليه السلام) قال: يساق معك عملك إلىٰ موقف الحساب فانظر أي صاحب تستصحب، ولا يبعث إلّا معك. البعث والنبث في نظائر لها معناه استخراج الشيء من الشيء هذا في الأصل فإذا خرج الميت من التراب قيل بعيث ومبعوث يقول عند خروجك من الحدث وهو البعث يخرج معك عملك، وهذا تنبيه علىٰ شدة الملازمة العمل للعامل ومن هذا يفزع كل عاقل.

قوله (عليه السلام): «ولا تسأل إلّا عنه» زيادة التأكيد في الحض على إصلاحه واستنجابه مخلصاً، يقول أنك تسأل عن عملك لا محالة كما يقول الرصد للمار من رفيقك، فإن استصحب منيع الجانب نجا ولم يعرض له إلّا بخير وإن استصحب لئيماً واضعاً أشبع من لحمه الطير وعند السؤال يبادر إلى الإعتصام بذكره إن كان كريماً ويلوذ بالجمجمة والتوريه إنْ كان لئيماً وفي هذه الألفاظ لفظ عظيم لمن فهم معناها. . .

قوله (عليه السلام): «فلا تجعله إلّا صالحاً» وهو القرن المقدّم الذكر والمراد العمل، فلما قرن به الإنسان سمي قريناً كما قدمنا في مثله.

ومعنى الصالح هو: السالم من العيوب والمطاعن الفادحة وإن كان فاحشاً لم تستوحش إلّا منه وهو فعلك، يريد يوم الخوف الأكبر وهو يوم المحشر تأنس به إن كان صالحاً وتستوحش منه إن كان لئيماً فاحشاً.

الفحش، والقبح، والسواهة معناها في أصل اللغة واحد ولها في اللغة نظائر قال (عليه السلام): «وهو فعلك». وصدق (صلىٰ الله عليه وآله وسلم) فإن من الأصحاب من يستوحش منه قبل لقاء العدو لما يعاين من قلت ثباته واضطرابه وتخويفه وإرعابه حتى يكون أهمَّ عليك ممن بين يديك لإلقائه بعاع جبنه عليك.

الحديث الثالث

عن أبي الدرداء وأبو الدرداء هذا عظيم الخطر في الإسلام وهو من كبار العلماء بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد روينا أنه سئل عن العلماء بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: هم ثلاثة، رجل بالشام يعني نفسه، ورجل بالكوفة يعني عبدالله بن مسعود، ورجل بالمدينة يعني علي بن أبي طالب، فالذي بالشام يسأل الذي بالكوفة والذي في الكوفةيسأل الذي في المدينة، والذي بالمدينة لا يسأل أحداً.

قال: خطبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الجمعة فقال: «أيها الناس توبوا إلىٰ الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا وصلوا الذي بينكم وبين ربكم تسعدوا، وأكثروا الصدقة ترزقوا وأمروا بالمعروف تخصبوا، وأنهوا عن المنكر تنصروا، أيها الناس إن أكيسكم أكثركم ذكراً للموت، وأحرمكم أحسنكم استعداداً له، ألا وان من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلىٰ دار الخلود والتزود لسكنىٰ القبور والتأهب ليوم النشور.

التوبة والرجعة: معناهما في أصل اللسان واحد ولا فرق عندهم بين قول القائل تاب فلان إلىٰ بارئه وبين قوله رجع إلىٰ ربه، وقد ورد هذا الأمر ممن يجب اتباعه وهو: «النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد قال (تعالىٰ):

منه كما سميت العلماء كراسي لقربهم من الكراسي التي تترك عليها صحف العلوم سموا العالم حبر بكسر الحاء وهي أفصح اللغتين في ذلك لكتابته علمه بالمداد الذي يسمىٰ حبراً فكأنه (عليه السلام) قال: لكل غاية من أحوال ابن آدم في حياته أو موته أو غناه أو فقره أو صحته أو سقمه كتاب عند الله (تعالى) أي علم مكتوب يدل عليه مليكته ومن أطلع عليه فيكون لطفاً لهم بالمشاهدة ولنا بالخير فلا يقنط القانط فيتوهم دوام شره ولا يغتر المغتر فيقطع علىٰ استمرار دوام خيره بل الواجب أن يعلم أن لكل شيء من ذلك أجلاً معلوماً لا يتجاوزه فيتلقىٰ النعماء بالشكر والبلوىٰ بالصبر.

قوله (عليه السلام): «انه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت. . .» القرين، أصله في الإبل تعرّف الصعب إلىٰ الذلول فلا يزال يجاذبه حتىٰ تلين رأسه قال قائلهم:

وابن اللبون إذا ما لـذ في قـرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وقد كان ابن العدوية «وهو نوفل بن خويلد» ابن أسد ابن عبد العزىٰ وكان قرشياً طين قريش. قرن أبا بكر وطلحة لما أسلما في حبل فسميا القرنيين لذلك، وكذلك سمي عبيد بن أوس الأوسي مقرناً لأنه قرن يوم بدر أربعة أسارىٰ فيهم عقيل بن أبي طالب فسمي مقرناً والدفن هو المواراة.

والمراد بالحي هنا: العمل فالتوبة تميت المعاصي علىٰ معنى أنها ترفع وتزيل حكمها والمعصية الكبيرة تميت الحسنات علىٰ معنىٰ أنها ترفع وتزيل حكمها وذلك كله مجاز والخطاب به من الله (تعالى) ومن رسوله جائز خلافاً لما ذهبت إليه الحشوية وإنما دفن مع الإنسان وهو حي لبقاء حكمه فلا يظن أنه قد مات، لأنه لا بد من الحساب علىٰ الحسنات والسيئات فعلىٰ العاقل أن يتفقد هذا الحي المدفون الذي هو العما فيميت سيئاته بالتوبة ويحيى حسناته بالاستغفار والاستقامة.

قوله (عليه السلام): «وتدفن معه وأنت ميت» يريد أن حكم العمل لا يفارق صاحبه حياً ولا ميتاً وأنه حاكم على الإنسان في حال موته كما أن الإنسان حاكم علىٰ العمل في حال حياته متمكن من الزيادة والنقصان فنسأل الله (تعالىٰ) الاستكثار من صالح العمل قبل حلول الأجل.

قوله (عليه السلام): «فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك».

مثل (عليه السلام) العمل بالرفيق في الطريق المخوف فإن كان وثيقاً شريفاً مخوف الجانب لم يقدم من يلقاك في ذلك الوجه عليك بمكروه وإن كان لئيماً واضعاً ديناً لم يخف جانبه وزهقتك من المخوف نوائبه وأصل الكريم عند العرب: الشريف النفيس القدر، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ومقام كريم﴾[1] وقال في شراب أهل النار نعوذ بالله منهم ﴿لا بارد ولا كريم﴾[2] يريد ولا شريف والله أعلم.

فإذا قصد به الإنسان أفاد السيد (الحجاج) الذي لا يكدر شربه ولا يروع سربه، ومن ذلك قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في عدي بن حاتم لما تنحىٰ عن المخدة «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» فكان فعاله (صلى الله عليه وآله وسلم) لطفاً في إسلامه فرفيقه معه في الطريق المخوف أمن من التبعات، واللئيم عندهم هو البخيل الدنيء المهين لا يمنع جاره ولا يكره من زاوره، وأصل الكرم، واللوم مأخوذ من الإبل يقال ناقة كريمة إذا كانت عزيزة حسنة الخلق تدر عند الأساس وتأنس بالنقران والإيناس، والناقة اللئيمة بخلاف ذلك قليلة اللبن سيئة الخلق تزين حالبها علىٰ غير طائل وتمنع الموجود المُبِس السائل.

ثم نقل ذلك إلىٰ الناس وقد بينا العوز في ذلك حتىٰ يسمون اللئيم لُوْماً وينسبون إليه قال شاعرهم وأحسبه جريراً: في رؤيه بن العجاج:

أبالأراجيز يا بن اللوم توعدني
وفي الأراجيز خِلت اللوم والخور

هكذا روايته بالرفع فكأنه ألغا «خلت» وذلك عندهم جائز في مثل هذا والحديث ذو شجون:

قوله (عليه السلام): «ثم لا يحشر إلاّ معك ولا تبعث إلاّ معه».

الحشر هو: الجمع والسوق. وفي الحديث ان الناس يحشرون إلى

(١) سورة الدخان آية ٢٦.
(٢) سورة الواقعة آية ٤٤.

إلّا ونحن نرجوه ونخافه، تريد يوم أسر كسرىٰ أباها وأراد سباهـا فانهـزمت في الرابطة وطلبت الحيرة في قبائل العرب فلقيتها مليكة العجلية من ربيعة فشكت عليها فأجارتها فاجتمعت قبائل ربيعة لذلك ولم يخلطهم من خرات أحد يقـع له ذكر إلّا الطميح الأيادي في أربعة آلاف من قـومه فحشـد كسرىٰ في تسعين ألف فلقوه يوم «ذي قـار» فكسروه وهـزموا جنـوده، وكان شعـارهم اسم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الأمين الأمين فنالوا ببركة ما قالوا، وكان ذلك من جملة الألطاف في إسلامهم ويوم ذي قار يوم بدرٍ بعينه وهو في آخر العشر من رمضان ولا أجتري علىٰ تعيينه هو «يوم سَبعة عشر» ومثل ذلك ما نروي عن أم جعفـر بن يحيىٰ بن خالـد البرمكي أنهـا سئلت في يوم أضحىٰ عن أعجب مـا رأت من تقلب أحوال الدنيا. فقالت إن نظير هذا اليوم في العام الماضي وقـع على رأسي ستمـائة وصيفـة مختلفات الحُلي والثيـاب ووالله إني لأشتهي لحم عبدكم هذا فلا أقدر عليه وكم لذلك من نظير. فنسأل الله (تعـالىٰ) الثبات في الأمر فالواجب علىٰ العاقل الاعتبار والازدجار والنظر إلىٰ نهاية هذه الدنيا دون بدايتها وترك المنافسة في عزها المضمحل وشرفها المنتقل فحلاوة رضاعها لا تقوم بمرارة فطامها وسرور لياليها لا يكافي غموم أيامها.

قوله (عليه السلام): «وأن مع الحياة موتاً» الحياة معنىٰ تصير بـه الآحاد جملة تجري عليها الأحكام، والموت معنىٰ يضادها علىٰ خلاف في ذلك بين أهل العلم، ومعنىٰ ذلك أن الحي إذا أخطر بباله أنه يموت لا محالة كان ذلك أكبـر داعية لـه إلى الزهـد في الدنيـا والإعـراض عنهـا والإقبـال على الآخـرة والرغبة فيها إذ هي دار الخلود ودار الحيوان.

قوله (عليه السلام): «وأن لكل شيء حسيباً، وعلىٰ كل شيء رقيباً» كل من ألفاظ العموم والاستغراق، والشيء ما يصح العلم به والخبر عنه مفرداً عن غيره والحسيب فعيل من المحاسبة، والـرقيب مأخـوذ من الترقب وهـو التطلع والانتظار.

ومعنى ذلـك أن ما بـه شيء يعلمه الإنسـان في السر والإعـلان إلّا ولـه عليـه محـاسب من الله وأن العبـد لا يقـدم علىٰ صغيـرة ولا كبيـرة إلّا والله (تعالى) عليها رقيب والملائكة شهود، فكيف يجتري العـاقل والحـال هذه أن يقدم علىٰ فعل معصية أو ترك واجب من الطاعة.

قوله (عليه السلام): «وان لكل حسنة ثواباً ولكل سيئة عقاباً».

الحسنة في الأصل مأخوذة من الحُسن وهو المُلح والحلاوة فلما كانت الحسنة تؤدي إلىٰ كل مليح من ثواب الله (تعالىٰ) سميت باسم ما تؤدي إليه، كما سمي القتال حرباً لما كان يؤدي إلىٰ الحرب الذي هو القتل والسلب وأمثاله كثيرة وهي ظاهرة في لسانهم وإلاّ فالطاعة قد تكون شنيعة الظاهر موحشة من ذلك الاشعثاث والإغبرار ونصر الجبين لطعن الرماح وضرب الشفار وأكثر ما تقع الحسنة في مثل ذلك. والسيئة مأخوذة من السوء وهو الكريهة المستشنع عرفاً المستقبح لغة فهو يسوء مشاهدة هذا في أصل لغتهم ولهذا سموا البرص سوءاً فحمل قوله (تعالى) ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾[1] علىٰ ذلك، معناه بيضاء من غير برص والله أعلم وكانت تملأ المدينة نوراً تغشىٰ له الأبصار وهي نقيض الحسنة وسميت مسيئة باسم ما تؤدي إليه لأنها تؤدي إلى نكال الدنيا وعذاب الآخرة وكل ذلك يسوء من شاهده مواقعاً له وخائفاً من مواقعه فيثقل من سماعه سمعه وينفر من موافقته طبعه ومع ذلك ان الحسنة هي الطاعة والسيئة هي المعصية وهذا عام في كل معصية لم تكفر وطاعة لم تغفر ونائل لم يشفر وهذا حامل لكل ذي بصيرة علىٰ حراسة الحسنات من المحيطات ومداواة السيئات بمترادف التوبات. وسمي الثواب ثواباً لرجوعه على العبد بالمسرة، أخذ من قولهم ثاب إذا رجع ويسمىٰ العقاب عذاباً لأنه يستحق عقيب فعل المعصية أو ترك الواجب من الثاني بلا فصل فلتعقبه لذلك سمي عقاباً، ومنه سمي العقب في جري الفرس عقباً لأنه يأتي بعد الجري الأول ولما كان الثاني يطأ عقب الأول سمي المتأخر عن الأول عقباً، وعقاباً، ومعقباً فافهم ذلك والعقاب علىٰ المعصية هو الألم والاستخفاف ولا يكون عقاباً حتىٰ يكون كذلك.

قوله (عليه السلام): «وان لكل أجل كتاباً» الأجل هو غاية كل شيء، ونهايته ومن ذلك أخذ أجل المطلقة والمتوفىٰ عنها زوجها لأنه نهاية تربصها، والكتاب هاهنا هو العلم الكاشف عن نهاية الأجل، وأصل ذلك أن العالم يكتب علمه فسمي الكتاب لذلك علماً، وقد يسمىٰ الشيء بالشيء إذا قرب

---

(١) سورة طه آية ٢٢.

والصحيح عندنا ما ذكرنا.

وأصل المعروف: من المعرفة، والمنكر، من النكرة، فلما كانت العقول تعرف الحسن ويستقر حسنه فيها علىٰ معنىٰ أنها تقبله وقد قال علي (عليه السلام) وهو أحد السنة العرب في رسالته إلىٰ الزبير رحمه الله عرفت ابن خالك بالحجاز وأنكرته بالعراق فمن لم يقبل المعروف ويفعله فهو لا يعرفه ومن لم يرد المنكر فيتركه فهو لا ينكره. وإذا كان للحسن صفة زائدة علىٰ حسنه كانت معرفته آكد وقبوله أسرع وقد كان قائلهم إذا قال ما لا يريدون ولا يقبلون قالوا: ما نعرف ما تقول. وإذا قال قولاً لم يقبله غيره قال: أنكرت قولي. ثم صار في عرف الشريعة زادها الله شرفاً: المعروف يفيد الطاعات، والمنكر يفيد المعاصي وله شبه بما تقدم. والمعروف ينقسمَ إلىٰ قسمين واجب ومندوب فترك.

الواجب محظور وترك المندوب مكروه وله شروط موجودة في كتب الكلام وقد أودعنا شرح الرسالة الناصحة ما فيه كفاية بحمد الله (تعالىٰ).

والخصب نقيض الجدب وهو تدارك الأمطار وكثرة الثمار والأشجار وأصل الخصب عندهم كثرة الخير، والخير ما تختاره النفوس وتميل إليه وقد قالوا في وجه الكريم أنه خصيب تشبيهاً بالأرض التي صفتها ما قدمنا ومعنىٰ ذلك أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) علم من قبل الله (تعالىٰ) أن الناس إذا أمروا بالمعروف وفعلوه تعلقت المصلحة في تكليفهم بأخصاب أرضهم ولا شك في حسن الأمر بالمعروف بل وجوبه إذا تكاملت شروطه وإن لم يتعجل فيه نفع فإذا كان في مقابلته خصب البلاد وشمول الخير لكافة العباد كان ذلك أبلغ لانضياف خير إلىٰ خير وهو الموعود القريب لكونه آتياً لا محالة علىٰ ما يختص به من الدوام والعظم والخلوص من كل شائبة فمن ضيع ما هذا حاله فهو عندنا المغبون المحروب فإن تعلق بالإخلال به وعند ممن لا يجوز عليه أخلاف الوعيد كان المخل به عندنا مخذولاً مغلولاً مثبوراً محسوراًفنسأل الله (تعالىٰ) العون علىٰ تأدية كل واجب وترك كل قبيح وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله.

قوله (عليه السلام): «وأنهوا عن المنكر تنصروا».

وقد تقدم الكلام في معنىٰ المنكر. والنصر هو: الإغاثة والإعانة في أصل اللسان العربي لا فرق عندهم بين قولك نصرته وأعنته، والنصر يكون من قبل الله (تعالىٰ) لأوليائه علىٰ أحد وجهين. إما بأن يظهرهم علىٰ الأعداء بتقوية قلوبهم وتضعيف قلوب عدوهم فيسفكون دمائهم ويتحكمون في أموالهم وأولادهم بحكمهم فهذا نصر معجل. وإما بأن يخلي بينهم وبينهم في العاجل فيصل إلى أوليائه من الضرر ما يتقطع لا محالة أعظمه القتل فهو ألم بعض الساعة وفي مقابلته من الثواب ما لو خير جميع العقلاء بين تحمل تلك المشقة ووصول ذلك الضرر ونيل ذلك الثواب أو الظهور على العدو وفقد ذلك الثواب لاختار جميع العقلاء ذلك بلا طائف نظر وفي الحديث: «ما من أحد من أهل الآخرة يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا الشهيد» فإنه يتمنىٰ الرجوع إلىٰ الدنيا ليقتل في الله مرة أخرىٰ لعظم ما يرىٰ من الثواب الأوفى.

وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه حكىٰ عن عبدالله بن عمر وابن حزام وهو أبو جابر بن عبدالله فكان من خيار عباد الله وهو أحد قتلىٰ أحد (رضي الله عن حمزة وعنهم) ان الله (تعالىٰ) أحياه وقال له: يا عبدالله بن عمر ما تحب أن أعمل لك فقال: يا رب تردني إلىٰ الدنيا فأقاتل فيك فأُقتل مرة أخرىٰ وذلك لعظم ما شاهد من ثواب الله (تعالىٰ) وهذا هو النصر الكبير والفتح المبين أن يصبح عدوه ذليلاً حقيراً معذباً مهيناً بعينه وعلمه ويصبح ملكاً أميراً عزيزاً خطيراً بعين عدوه وعلمه فلا تأثير لتراخي الأوقات إذ الواصل في حكم الحاصل والأمور بخواتيمها. وفي الحديث أن بني أُمية يحشرون يوم القيامة في صور الذر في موقف القيامة يطأهم الناس وأي نصر في سرور ساعة يتعقبه غم الأبد وذلة أو ذل في غم ساعة يتعقبه سرور الأبد وغره فلعن الله العادلين بالله (تعالىٰ) الجاعلين هذا شبهة في دينه أما يخافون العقول السليمة تُبكتهم والعترة المستحفظة تسكتهم فعلىٰ المعنيين المتقدمين يحمل قوله (تعالىٰ): ﴿**انهم لهم المتصورون**﴾[1] ﴿**وإن جندنا لهم الغالبون**﴾[2] ﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾[3] إلىٰ ما شاكل ذلك من

---

(١) سورة الصافات آية ١٧٢.
(٢) سورة الصافات آية ١٧٣.
(٣) سورة الروم آية ٤٧.

آيات القرآن الكريم، وكذلك قوله (تعالىٰ) ﴿والعاقبة للمتقين﴾[1] فإذا عرف العاقل حقيقة النصر هان عليه الأمر في استظهار المبطلين علىٰ المحقين في دار الدنيا وعلم أن المحق في الحقيقة منصور وإن كان مقهوراً، ومن عرف ذلك حقيقة المعرفة هانت عليه الشدائد.

وقد روينا أن عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هضيض بن كعب وكان من جلة المهاجرين وسادة المؤمنين كان في جوار الوليد بن المغيره (لعنه الله) وقت الجوار بمكة وذلك أن كثيراً من المؤمنين لم يتمكن من الإقامة في مكة إلا بذمة وجوار إلّا من كبر فيهم مكانه فأما ضعفة الناس ففي العذاب الشديد، فلما نظر عثمان بنْ مظعون ما فيه أخوانه من المشقة في الله (تعالىٰ) والضرر قال: إني لمغبون أخواني تعذبون في الله وأنا من ذلك بمعزل ومغارة بجوار رجل كافر إني لفي ظلال فأتىٰ الوليد فقال: يا عم إني قد بريت من جوارك فقال: يا ابن أخي هل عرض لك أحد بمكروه فقال: ما كان ذلك ولكني أحببت أن أكون من جملة أصحابي فقال له الوليد إني أجرتك علانية ولا أبرأ من جوارك إلّا علانية فأتِ بنا البيت فجاءآ إليه فقال: يا معشر قريش إنكم تعلمون جواري لعثمان بن مظعون وانه قد أحب الخروج منه لغيره أمن يلحقه من أحد من الناس، كذلك يا عثمان قال: نعم فجلسوا وكان في القوم لبيدُ بن ربيعة العامري فاستنشدته قريش فأنشد قصيدته التي أولها:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

فقال له عثمان: كذبت فإن نعيم أهل الجنة لا يزول فالتفت إليهم لبيد فقال: لقد عهدتكم ولا يؤذىٰ جليسكم فقام رجل من القوم إلىٰ عثمان فلطمه علىٰ خده وعينه لطمةً هائلة وقاموا إليه وقالوا: إن هذا رجل مجنون في أصحابه له مجانين فقال له الوليد: ما كان أغناك عن هذه اللطمة يا عثمان فقال: لله يا عم إن عيني هذه لمحتاجة إلىٰ مثل ما أصاب الأخرىٰ في الله (سبحانه) وذلك لأن نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يخبرهم وهم لا يَشكون في صدق حديثه بعواقب الأمور وعظم الثواب.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٢٨.

قوله (عليه السلام): «أيها الناس إن أكيسكم أكثركم ذكراً للموت».

الكيس عند العرب هو الرجل الكامل في جميع الأمور، وأصل الكيس الكمال. ومنه سمي جملة من العقود كيساً يريدون ألف دينار، وكذلك الكاس لامتلائه من الشراب سمي كأساً وهم لا يسمون الإناء الفارغ كأساً، وقد يسمون الخمر نفسها كأساً والأصل في الجميع ما ذكرنا.

والذكر نقيض النسيان ويقول قائلهم: اجعل هذا الأمر علىٰ ذكر منك بضم الذال لا أعرف سواه فمعنىٰ ذلك إن الكامل من لم ينس الموت بل يذكره ويعلم هدمه للذّات وتنغيصه للشهوات، فإنه يكون والحال هذه أقرب إلىٰ فعل الواجبات وترك المقبحات، والمبادرة إلىٰ الحسنات، والمحاذرة من المحظورات متوقعاً لنزوله خائفاً لحلوله لا ترقأ عَبرته ولا تنخفض زفرته فذلك الكامل حقاً بغير كذب. .

قوله (عليه السلام): «وأحزمكم أحسنكم استعداداً له».

الحزم نقيض التواني وأصله التحشد وتجمع الأطراف. ومنه سمي الحزام والمحزم لما ضم جوشوش الفرس حتىٰ كأنه الذي جمعه فيستقيم جريه عند ذلك والحسن نقيض القبيح وهو يستعمل في أصلهم في كل ما أحبته القلوب ولائم طباعها. يقول قائلهم أحسنت تدبير الأمر، وأحسنت رمَّ المال، والتأهب والاستعداد معناهما واحد وهو: جمع الزانة والآلة للمهم المنتظر وهو مأخوذ من العدة وهي ما ذكرنا ومنه قوله (تعالىٰ): ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدةً﴾[1] والاستعداد للموت هو المبادرة بفعل الطاعات، وترك المحظورات إذ لا سبيل لأحد إلىٰ رد فائت الأوقات فإذا جاء الموت ومع الإنسان هذه العدة وهي الأعمال الصالحات لم يلوِ رأسه إلىٰ الدنيا ولا تأسف عليها.

قوله (عليه السلام): «ألا وأن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور» العلامة، والأمارة، والدلالة، والآية في أمثال لها معناها في أصل اللغة واحد. ثم قد صارت معانيها في الشرع الشريف مختلفة وهي علىٰ ذلك

---

(١) سورة التوبة آية ٤٦.

مقاربة إلّا أن الأمارة والعلامة معناهما متفق وهو ما يوصل الناظر فيه علىٰ الوجه الصحيح إلىٰ غالب الظن. وأصل العلامة حجارة تنصب بالبناء في المومات المتسعة الأطراف تستدل بها السيارة علىٰ الجادة، ومنه أخذ علم الإمارة لترجع آلية المقاتلة حين اضطراب أمواج الخيل وانتقاض الصفوف يدلهم علىٰ الرئيس ليأووا إليه. وكذلك الإمارة أخذت من الأمان وهي أعلام تنصب كذلك والعقل علوم يخلقُها الله (تعالىٰ) في قلوب المتعبدين فيجب بعدها التعبد وقد خالف قوم من الشيعة فقالوا: إن العقل القلب وهذا القول أضعف من أن ينصب علىٰ بطلانه دليل، ومما يذكر علىٰ وجه الاستظهار أن العلم باستحالة عدم الشيء ووجوده في حالة واحدة يعلم باضطرار، وقد علمنا أن عقل النائم معدوم وقلبه موجود وخالف قوم من الأوائل في محله ومعناه فقالوا هو بعض من كل علىٰ معنىٰ أنه جزءٌ من العقل الأول وهذا باطل، لأنه لا دليل عليه فما ابتنىٰ عليه فهو كذلك وهو قولهم إن محله الدماغ وقد تكلمنا عليهم وعلىٰ غيرهم في شرح الرسالة بما فيه كفاية بمنّ الله (تعالىٰ)، وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن القبائح بمعنىٰ يمنعه وهو مأخوذ من عقال الناقة الذي يمنعها عمّا يكره راعيها ولا شك أن الدين لا يتم إلّا بالعقل وقد روي في ذلك عن جابر بن عبدالله الأنصاري أنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «قوام المرء عقله ولا دين لمن لا عقل له».

ومثل ذلك مروي عن مجمع بن حارثة الأنصاري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «إنما يدرك الخير كله بالعقل ولا دين لمن لا عقل له».

وروي عن معاوية بن قره انه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «الناس يعملون ويعطون أُجورهم علىٰ قدر عقولهم» وهذا إشارة منه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلىٰ أن العاقل العامل بمقتضى عقله يعرف واجبات القلوب وواجبات الجوارح ويعرف أحكام الأفعال والتروك فيعلم ما يفعل وكيف يفعل وعلىٰ أي وجه يفعل وما يترك وكيف يترك وعلىٰ أي وجه يترك فيقع ذلك مطابقاً لمراد الحكيم (تعالىٰ) منه ويستقل عبادته في جنب الحق والنعم فيبلغ الغاية القصوىٰ في استحقاق الثواب، التجافي والتجانف

معنـاه الميل والأزورار ودار الغـرور هي دار الدنيـا، والدنيـا أوقات التكليف، والآخرة أوقات الثواب والعقاب الدائمين، وإنما سميت دار الغـرور لأنها تغـر من اغتر بزخرفها، أي تخدعه بـزينتها فينسىٰ وبيل عاقبتهـا حتىٰ يخر لليـدين والفم فيقدم علىٰ ما قدم ويندم ولات حين مندم، وكيف يغتر عـاقل بغـرورها وقد وعظته بالآباء، والأمهات، والأخوة، والأخـوات، والبنين، والبنات كم من نائم فيها لم يستيقظ ومستيقظ لم ينم، وسارح لم يرح، ورائح لم يسرح وقـد قال بعض الصالحين إن أمراً ليس بينه وبين آدم حيّ لعـريق في الموت وأقـول صدق.

قوله (عليه السلام): «والإنـابة إلىٰ دار الخلود» وأصـل الإنابـة الرجـوع وذلـك مأخـوذ في كلامهم ومنـه قولـه (تعالىٰ): ﴿منيبين إليـه﴾[1] أي راجعين إليـه. والدار في أصـل اللغة المكـان الذي يسكن فيـه الحي أياماً فيتنـابـون المـراعي ويرجعـون إليه، وسميت داراً لأنهم يـدورون بها ويـرجعـون إليهـا. وسميت الآخرة دار الخلود لأنها لا زوال عنها ولا انتقال وقـد تقدم الكـلام في مثل ذلك. ومعنىٰ الإنابة هاهنا بـل في عرف الشـريعة شـرفها (الله): الاقبـال علىٰ الطاعات والقرب من المنجيات فبذلك تنـال دار الخلود والرضـوان. والرّوح والرّيحان وهي دار القـرار ودار الحيوان ولم لا تكـون كذلـك وهي دار لا ينفد نعيمها ولا يظعن مقيمها ولا يكدّر شـرابها ولا تهجم قبابها ولا ييـأس أربابهـا وكيف لا يعمل لها العاملون وينيب إليها المنيبـون وأهلها في الغـرفات آمنـون وفي منـازل اللذات قاطنـون يميسون بين ثيـاب العبقـري الأحمـر والسنـدس الأخضر والطميم المدثر والدمقسي المصور بثياب خلقها الجبـار لم تصنع في هذه الدار ولم تر مثلها الأبصار ولم تنسب إلى تنثيس ودمياط ليس بقهـرية ولا قوْهيَّة ولا سيرية ولا مفوَّقـة مزورة ولا حضـر منه مخبره ولا تنيسية مهلهلة ولا هشامية مثقلة ففي ذلك فليتنافس المتنافسون.

قوله (عليه السلام): «والتزود لسكنىٰ القبور».

أصل الزّاد ما يستصحب في الأسفار من الطعام والشراب، وهو البتات أيضـاً. إلا أن البتات أقـل من الزاد وسكنىٰ القبـور هو الإقـامة فيهـا حتىٰ يقع

---

(١) سورة الروم آية ٣١.

البعث وخروج الموتىٰ منها. شبه ذلك بسكون الإنسان في داره حتىٰ تعنّ له الحاجة في غيرها وأما المعنىٰ في ذلك فإن زاد القبور التقوى.

قوله (عليه السلام): «والتأهب ليوم النشور».

التأهب قد قدمنا معناه وأنه هو والاستعداد بمعنى واحد.

ويوم النشور هو يوم القيٰمة، وسمي البعث نشراً، لأنه أُخذ من النشر الذي هو نقيض الطيّ فكأن الميت كان مطوياً فنشر، وهو يوم هايل عظيم ولهذا قال (تعالىٰ) لنبيه (عليه السلام) فتول عنهم يوم يدع الداع إلىٰ شيء نكر أي كريه تنكره القلوب لأنه خلاف المعتاد فتنفر عنه نفار الطبع خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر.

الخاشع بمعنىٰ الخاضع وهو المطرق المتواضع وخص الأبصار لأن فيها يعرف العز والذل والخروج نقيض الدخول. والأجداث قد تقدم القول فيها، والجراد معروف وانتشاره تفرقة في كل جهة لكثرته مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر. الاهطاع: الخضوع والإستكانة، والكافرون هم المغطون نعم الله (تعالىٰ). والعسر هو الشديد ولا شك في شدة ذلك اليوم وصعوبته لولا ذلك لما فر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وقد كان في شدائد الدنيا يعرض دون سفك دمائهم دمه ويقتحم دونهم العتمة فنسأل الله (تعالىٰ) الأمان في ذلك المقام الهائل والخطب النازل.

الحديث الرابع

عن ابن عباس وهو واحد زمانه. ونسيج وحده اجتمعت هذه الأمة على محبته مع اختلافها في غيره وله من الفضائل ما تصعب الإحاطة به وإنما نذكر طرفاً على وجه الرعاية لواجب حقه وإلا فشهرة أمره تغني عن الإطناب في ذكره. في الحديث إن أباه العباس (رحمه الله) بعثه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في بعض حاجته فأتى و(جبريل) (عليه السلام) يناجيه، فاستحى أن يقطع نجواهما ولم يعرف (جبريل عليه السلام) فرجع إلى أبيه فأعلمه فجاء إلىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأعلمه بذلك فضم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عبدالله إليه ومسح علىٰ صدره وقال: اللهم فقهه في الدين وانشر منه، فكان كذلك فروت منه جميع الأمة. وهو الذي فعل لأبي أيوب ما فعل أبو أيوب (رحمه الله) لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد رجع من معاوية محروماً، في قصة فيها بعض الطول فنزل في أسفل منزله وأنزل أبا أيوب أعلاه وقضىٰ عنه دينه وهو أربعة وعشرون ألف مثقال وأعطاه مثلها لخاصة نفسه ووهبه أثاث المنزل وكان مالاً. وهو الفقيه الذي لا يدافع والمصقع الذي لا ينازع، وقد كان ذهب بصره في آخر أيامه من البكاء علىٰ علي بن أبي طالب (عليه السلام) ودون نسبه فلق الصباح: هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف شرك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في نسبه وتأدب بأدبه. قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول في خطبته: «أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلىٰ معالمكم وان لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم وإن المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا

يدري ما الله صانع به، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليأخذ العبدُ لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا دار إلاّ الجنة أو النار».

المعالم والأعلام: معناهما واحد وقد تقدم الكلام فيهما، وذلك من طريق المعنىٰ يحتمل وجهين: أحدهما أن ابن آدم في الدنيا لا بد له من معلم يقصده وغاية يجري إليها ونهاية يؤو بها من الآمال، والآجال فأطلق (عليه السلام) لفظ الأمر والمراد به: التهديد فكأنه (عليه السلام) قال انتهوا إلىٰ معالمكم التي هي آمالكم في الدنيا فستندمون فلا ترحمون فلا المعلم الذي هو الأمل موجود باق ولا لكم من عذاب الله واق.

قوله (عليه السلام): «وإن لكم نهاية فانتهوا إلىٰ نهايتكم».

النهاية أحسبها مركز الغاية، والغاية راية كانت ترفع لصاحب الخمر والعطر فلا يصل إليها إلاّ أهل الشرف والمال لكثرة الزحام فمن بلغها فقد انتهىٰ لبلوغه الغاية ووصوله النهاية، ثم جعل بعد ذلك الكلام يقصد إليه فيتوقف عنده وذلك ظاهر في كلامهم وهو يحتمل وجهين كما قدمنا. أحدهما: أنه أخرج اللفظ عن نحو ما تقدم خروج التهديد فكأنه (عليه السلام) قال: ابلغوا نهاية أمركم في الدنيا فلن تبلغوا مبلغاً ولن تفوزوا بطائل، والوجه الثاني من الوجهين، الأولين في ذكر المعالم والنهاية انه أراد بالمعالم: معالم الدين وبالنهاية الجنة التي إليها ينتهي المؤمنون، ومعالم الدين حدوده التي لا يتعداها إلاّ العادون فالوقوف دونها تقصير، والمجاوزة لها تعدٍ وكل واحد من الأمرين مذموم! أعني الوقوف دونها والمجاوزة لها، ولكم نهاية هي الجنة مثل نهاية الخيل في السيف فكأنه قال الجنة نهاية لكم فاستبقوا إليها فتفوزوا بسكونها وتسعدوا بقنوطها ولكل واحد من التأويلين وجه صحيح.

قوله (عليه السلام): «وإن المؤمن بين مخافين بين أجل قد مضىٰ لا يدري ما الله صانع به. وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه».

الإيمان هو التصديق، والمؤمن هو المصدق هذا في الأصل وقد صار

في عـرف الشريعـة يفيد المصـدق بقلبه المتَّبـع في القول، والعمـل لصاحب الشرع (صلى الله عليه وآله وسلم) . . والمخافـة هي مكان الخـوف مظنتـه، والخوف هو توقع مكروه منتظر لا يتعين وقته وما كان في مقابلة الواقع المعلوم فهو اشفاق وجزع قال لبيد:

فعـدت كـلا الفـرجين تحسب أنـه مـولىٰ المخـافـة خلفهـا وأمـامهـا

أي مكان الخوف ومظنته خلفها وأمامها فاشتد عدوها لشدة خـوفها وقـد قدمنا الكلام في الأصل وأنه الوقت المضـروب لأمر من الأمـور يكون انتهـاؤه عنده والماضي نقيض الباقي، ومعنى الدراية والعلم واحد والله (تعالىٰ) الذي تأله القلوب إليه أي تصغي وتميل إلىٰ محبته وهو أهل ذلك والصانع هو القادر الحكيم لا يكـون صـانعـاً حتىٰ يكـون كـذلـك، والقـاضي هـو المتمم لفعله المحكَّم له ومعنىٰ هذا أن المؤمن لا يزال خائفاً حتىٰ يلقىٰ الله (تعالى) فيؤمنه لأنـه قد روي عن النبي (صلى الله عليـه وآله وسلم) ان الله (تعـالىٰ) قال: لا أجمـع لعبدي أمنين ولا أجمـع عليه خـوفين من خـافني في الـدنيـا آمنتـه في الآخرة، ومن آمنني في الدنيا أخفته في الآخرة، والأجل الماضي هو لأعمـاله السالفة المقتضية فهو في تلك الحـال خائف لتبعـاتها لا يـدري ما يصنـع الله (تعالىٰ) به لأجلها وهل وقعت مُخلصّـة له عن عهـدة ما لـزمه فيستحق عليهـا الثواب أم علىٰ غير ذلك الوجه فيستحق عليها العقاب وفي هذا تنبيـه علىٰ أن العبد لا يتمكن من العلم بأنه من أهل الجنة مع بقاء التكليف إلا بسمع وهـذا الأمر يشعل نار الخوف في قلب كل عاقل، وكذلـك الكلام في الأجـل الباقي الذي لا يدري ما الله قاضي فيه. لأنه يبقىٰ خائفاً من نفسه مترقباً لأن الأعمال بخواتيمها فيخشى أن يعمـل معصية فيقضي الله (تعـالى) عليه بهـا علىٰ معنى أن يخبـر بها مـلائكته ورسله (عليهم السـلام) أو يقضيها في اللوح المحفـوظ علىٰ معنىٰ أن تحكم كتابتها فيـه فأمـا القضاء بالأعمال علىٰ معنىٰ أنـه يفعلها (تعالىٰ) أو يخبر عليها فذلـك لا يجوز علىٰ الله (تعـالىٰ) لأن العباد يمـدحون علىٰ بعضها، ويذمون علىٰ بعض آخر، ومثل ذلك لا يجـوز في فعله (تعالىٰ) ولأن بعضها قبيح والله (تعالىٰ) لا يفعل القبيح ولأن الرضا بقضاء الله (تعـالىٰ) واجب والرضا بالمعاصي لا يجوز.

قـوله (عليـه السلام): «فليـأخذ العبـد لنفسـه من نفسـه» الأخـذ نقيض

الإعطاء فمن أعطىٰ نفسه من نفسه أهلكها، ومن أخذ منها أنجاها، نفس الشيء هو الشيء، وما عمل الإنسان من خير أو شر فهو له وعليه، لأن ميزان العدل منصوب وهو بين أيدينا ولا بد من وزن أعمالنا فيه فما شئنا فلنعمل وقد قال العبد الصالح سليمان (عليه السلام) فمن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم.

قوله (عليه السلام): «ومن دنياه لآخرته» سميت الدنيا دنيا لدنوها إلينا ولو كان لدنائتها وصغر حالها لكان وجهاً. والآخرة آخرها لتأخرها عنا قليلاً وأخذ المرء من دنياه لآخرته هو ما يقدم بين يديه من الإنفاق والأعمال الصالحة لأن هذه الدنيا سوق ربحها الجنة وخسارتها النار ودار المستقر أمامنا وقد روينا في معنىٰ قوله (تعالىٰ): ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾[1] أنه ما قدمته بين يديه لأن ما خلف هو نصيب الوارث وهو الوجه عندنا وهذا عمل الحازم المتيقظ أن يأخذ من الفاني للباقي ومن الماضي للاتي.

قوله (عليه السلام): «ومن الشبيبة قبل الكبر» الشباب مأخوذ من النمو والزيادة يقال شبَّ: إذا نما وزاد والمرء في ريعان الشباب وشرخه ينمو ويزيد فإذا انتهىٰ إلىٰ حال الكبر صار نقيض، قال الله (تعالى): ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق﴾[2] معناه نرده إلىٰ حال الطفولة في ذهاب الإربة والضعف وهذه حال معلومة من في هذه الدنيا لكل مستبصر إذ زيادتها تؤول إلى النقصان وربحها إلى الخسران، وسرورها إلى الأحزان ﴿وكل من عليها فان﴾. والكثير هو تناهي الشيء بحيث لا يزداد، وهي: حال الضعف الأخير، ومعنى ذلك أن معلم الخير (صلى الله عليه وآله وسلم) ومرشد الضُلال، نبه علىٰ اغتنام أيام الشبيبة وهي لا ترد فليستعملها العبد في طاعة الله (تعالى) ويغنم وقار الشبيبة وجلدها فالعلية تروم في حال الكبر أموراً يقعده الضعف عنها فيندم ولات حين مندم.

قوله (عليه السلام): «ومن الحياة قبل الموت» الحياة والموت معلومات جملة وقد تقدم الكلام في معناهما مفصلاً في (الحديث الأول) ومعنىٰ ذلك

---

(١) سورة القصص آية ٧٧.
(٢) سورة يس آية ٦٨.

أن الواجب علىٰ العبد أن يعمل في وقت العمل فيه مقبول، والسعي مشكور، وهو مدة الحياة قبل نزول الموت. لأن العمل يتقطع في تلك الحال ويسقط حكمه لو قدر وقوعه. والموت غير مؤقت بوقت معلوم، فالواجب علىٰ العاقل أن يكون في كل وقت علىٰ حال ان نزل به الموت وهو عليها لم يندم علىٰ ما فات لأن ذلك من عزم الأمور.

قوله (عليه السلام): «فوالذي نفس محمد بيده» قسم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بربه لأنه الذي بيده النفوس يقبض ما شاء، ويرسل ما شاء وكانت له (عليه السلام) يمينان أحدهما هذه والأخرى «أما ومقّلب القلوب» ولعلي (عليه السلام) يمينان: أحدهما: «والذي نفس ابن أبي طالب بيده»، والأخرى: «والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة» ومعنىٰ قوله: «نفس محمد» أي قابض نفس (محمد) بقدرته واليد هاهنا هي: القدرة فهي تحت قدرته يفعل فيها ما شاء لا مانع من ذلك، كالذي يقبض علىٰ الشيء بيده فيتحكم فيه. لا أن له (تعالىٰ) عن ذلك (يداً) بمعنىٰ الجارحة كما تقوله المجسمة لأن ذلك مستحيل في حقه إذ هو قديم والأجسام محدثة.

قوله (عليه السلام): «ما بعد الموت من مستعتب» أجاب القسم بما. والموت قد تقدم معناه. والمستعتب هو: الطالب والأعتاب هو: تعقيب السيئة بالحسنة، والإتيان بالعذر بعد الإساءة فأخبر (عليه السلام) بل أقسم وهو صادق القسم لتأكيد الحجة علىٰ جميع الأمم أن لا معذرة بعد الموت، ولا توبة، لأن الموت يرفع التكليف وهذا مهم لا سيما علىٰ المتفكرين لأن الموت إذا كان منقطع الاستعتاب والاعتاب وكان وقته عنهم مستوراً كانوا علىٰ وجل شديد.

قوله (عليه السلام): «وما بعد الدنيا دار إلاّ الجنة أو النار» بعد نقيض قبل وقد تقدّم الكلام في معنا الدنيا وأنها أوقات التكليف لأنها أدنىٰ إلينا من أوقات الثواب والعقاب، والدار ما تسكن أياماً قد تقدم الكلام فيه، وسميت الجنة جنة لأجنان أشجارها أي سترها لعرضة قرارها وقد كان من الأنصار شيخ يقال له (حاطب) قد عشي في الجاهلية وكان له ابن يقال له (زيد بن حاطب) مؤمناً فحضر أحداً مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأصابته جراحات فحمل إلى دار قومه وبه رمق فجاءه الرجال والنساء يهنونه

ويقــولـون هنيئـاً لـك يــا بن حـاطب الجنــة فنجم نفـاق فقــال حــاطب فقــال: (جدعتم هذا الفتى عن نفسه اتبشرونه بجنة من حرمل) فسمّي روضة الحرمـل جنة لأجنانها قرارها، وهو ممن يعتمد علىٰ لسانه. فأمـا النار فمعنـاها ظـاهر، وخطرها عظيم نعوذ بـالله منها، وفي الحـديث ان ناركم هـذه جزءٌ من سبعين جـزء من نـار جهنم. وفي آخـر من سبعين جـزءاً من دخـان نـار جهنم ولـولا ضربت علىٰ الماء سبع مرار، وفي أخرى غسلت بسبعين ماء ما استطاع آدمي أن يسعّـرها، وفي أخـرىٰ ما انتفـع بها بنـو آدم والجميع هـول جسيم، والنار إدراك، والجنـة درج وبين الـدارين بـون بعيـد وقــد أقسم «الصـادق» القسم (صلى الله عليه وآله وسلم) أن لا دار بعد هذه الـدار إلاّ الجنة أو النـار فكيف ينام هارب النار أو يغفل طالب الجنة..

الحديث الخامس

عن أبي سعيد الخدري، وكان من جلة الأنصار، وله في الإسلام خطر وقد قدمه قوم من أكابر الصحابة (رضي الله عنهم) للصلاة بهم لما أدخلهم منزله فكان لذلك حكم في الشريعة، ان صاحب المنزل أولىٰ بالإمامة فيه، وكذلك صاحب العمل في عمله.

وأسمه سعيد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن عبدالأبجر وهو خُدره فهو علىٰ هذا من صريح الخزرج لا من مواليهم، وكان أبو سعيد مولىٰ لبني الأبجر يقال له خدرة فلذلك قيل له الخدري، وهو خدرة بن عوف بن الحرث بن الخزرج عبدالله بن ربيع بن قيس بن عمرو بن عباد الأبجر.

قال خطبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال في خطبته: إنه لا خير في العيش إلّا لعالم ناطق.أو مستمع واع، أيها الناس إنكم في زمان هدنة وأن السير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود... فقال له المقداد: يا نبي الله: وما الهدنة قال: دار بلاء وانقطاع فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وشاهد مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلىٰ النار.

هو أوضح دليل إلىٰ خير سبيل من قال به صُدِّق، ومن عمل به أُجر ومن حكم به عدل، الخير قد تقدم معناه والمراد به هاهنا النفع وأحماد العاقبة والعيش هو الحياة، لأنهم يجعلون في كلامهم عاش نقيضاً: لمات، وذلك

ظاهر ولا يعد المرء عالماً حتىٰ يكون عالمـاً بذات البـاري (تعالىٰ) وصفـاته، وما يجوز عليه في الإثبات والنفي وما لا يجوز وأفعاله (تعالىٰ) وأحكام أفعـاله وما يجوز منها وما لا يجوز وتوابع ذلك من النبوّات، والشرائع وما يتبعهـا من الإمامة وتوابعها من الأمـر بالمعـروف، والنهي عن المنكر، والـولاء والبر فـإذا عرف هذه الجملة عدَّ عندنا من العلماء.

ثم العلم بعد ذلك يتفاضل فلا عالم إلاّ وفوقه عليم، حتىٰ ينتهي الأمـر إلىٰ العالم لذاته وهو الله سبحانه (وتعـالىٰ) وإنما قلنـا من عرف مـا قدمنـا عدَّ عالماً، لأنا روينا بالإسناد الموثوق به إلىٰ عمر أنـه قال قـال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «العلم ثلاثة وما سوىٰ ذلك فضل آية محكمة، وفريضة عادلة، وسنة قائمة»، فدخل تحت هذه الجملة جميـع ما قـدمنا والنـاطق: هو الذي ينشر علمه ويبثه لمن يستحقه من أهله. لأن الله (تعالىٰ) قد أخذ ميثـاق أهل العلم بذلك وذلك ظاهر في قول الله (تعالىٰ): **﴿وإذْ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾**(١) وقال تعالى: **﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدىٰ من بعد ما بيناه للناس في الكتـاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم الـلاعنـون إلاّ الـذين تـابـوا وأصلحـوا وبينـوا﴾**(٢) فـدل علىٰ عـظم المعصية في كتمان العلم وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنـه قال: «من كتم علماً مما ينفع الله به في أمر الدين ألجم يوم القيامة بلجـام من نار» وأهلُه طلابه الراغبون في قوة الـدين وصلاح الإسـلام فأمـا من كان يعلم من حاله أنه يريد بعلمه الدنيا وزينتها. والاستظهار على أولياء الله بحججه فلا بأس في منعه بل ربما يجب ذلك.

وعليه يحمل قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا تعطوا الحكمة غيـر أهلها فتظلموها، ولا تمنعـوها أهلهـا لتظلمـوهم». وأهل العلم هم صفـوة من خلقـه وسادتهم آل محمـد (عليهم السلام) بـذلك تـظاهرت الآثـار عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، من ذلك ما روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: قدموهم ولا تقدموا عليهم، وتعلمـوا منهم ولا تعلموهم، ولا

(١) سورة آل عمران آية ١٨٧.
(٢) سورة البقرة آية ١٥٩ ـ ١٦٠.

تخالفوهم فتظلوا، ولا تشتموهم فتكفروا. وأمثال هـذا كثير وفي عموم فـضل العلماء جملة، ما روينا بالإسناد الموثـوق به إلىٰ جـابر بن عبـدالله الأنصاري عن رسـول الله (صلى الله عليه وآلـه وسلم) انه لمـا تلىٰ هذه الآيـة: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[1] قال: العالم الذي عقل عن الله عز وجل فعمل بطاعته، وأجتنب سخطه وهي مرتبة عظيمة للعلماء، حيث أحال الله (تعالىٰ) بمعرفته معـاني أمثالـه وهو عـلاّم الغيوب علىٰ العلمـاء وقد روينا بالإسنـاد الموثـوق به إلىٰ ابن عمـر قال قـال رسول الله (صلى الله عليـه وآله وسلم) إذا كان يوم القيامـة وضعت منابـر من ذهب عليها قبـاب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والزمرد، جلالها السندس والاستبرق ثم يجاء بالعلمـاء فيجلسون فيها ثم ينادي الرحمن (عز وجل) أين من حمل إلىٰ أمة محمد عِلماً أتىٰ به يريد وجه الله، أجلسوا في هذه المنـابر ولا خـوف عليكم حتىٰ تدخلوا الجنة.

فهـذا في معنى العالم النـاطق بعلمه. والمستمـع الـواعي هـو المتعلم الذي يحفظ ما يسمع لينتفع به وينفع، وهذا الأحق بالعالم وهو شريك لـه في الأجـر، وفي ذلك مـا روينا عن النبي (صلى الله عليـه وآله وسلم) أنـه قـال: «العـالم والمتعلم شريكـان في الأجر، إلاّ أن للعـالم أجرين، وللمتعلم أجـراً فكن عالماً، أو متعلماً وإياك أن تكون لاهياً متلذذاً».

قـوله (عليـه السلام): «أيهـا الناس إنكم في زمـان هدنـة» لا فـرق بين الزمان، والدهر، والعصر والمراد بـذلك مـدة يقال لهـا التكليف علىٰ الكافـة وهو يتناول الكل إلاّ ما خصه الدليل.

والهدنة هو الوقت الذي لا يكون فيه داع إلى الله (تعالىٰ) ظـاهر وهـدنة الحـرب من ذلك وهي المسـالمة ورفـع السيف ومنه قيـل في الرجـل هدان للذي لا يُحلّي ولا يمر، يقول (عليه السلام): فاشتانـوا شأن أنفسكم وأعـدوا اليقين، وحسن النـظر في معاني كتـاب الله (تعالىٰ) علىٰ مـا يأتي بيـانه يقـول (عليه السلام): يوشك أن تقعـوا في زمان هـدنة ليس فيهـا للأمـة راع ولا لها إلىٰ الله داع ولا منبه علىٰ الخير ظاهر اليد واللسان.

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٣.

قوله (عليه السلام): «وإن السير بكم سريع» السير معروف، والسرعة قد تقدم معناها ومعنىٰ ذلك أن المرء يساربه إلى ربه وإن كان واقفاً في بيته نائماً علىٰ فراشه ولكن أكثر الناس لا يعلمون وقد قال بعض المفكرين في هذا الشأن:

ونحن علىٰ الدنيا كركب سفينة فطن وقوفاً وهي من تحتنا تجري

فأحسن فيما قال قوله (عليه السلام): «وقد رأيتم الليل والنهار».

الليل في أصل اللغة من غروب الشمس إلى طلوعها، والنهار من طلوعها إلىٰ غروبها والليل في عرف الشريعة المعظمة زادها الله (تعالىٰ) شرفاً من غروب الشمس إلىٰ طلوع الفجر وقد ذكر دليل ذلك (سبحانه) في سورة القدر، والنهار من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس وتتعلق بذلك أحكام ليس هذا موضع ذكرها.

قوله (عليه السلام): «كيف يبليان كل جديد» والبلا نقيض الجدة ومعناه تخريب البنية وتغيير الصورة وكل من ألفاظ العموم وما به جديد إلاّ والأيام تبليه والليالي تقنيه وفي هذا لطف عظيم لمن تفكر فيه فإن الغافل إذا فكر في صيرورة أمره وما ينتهي إليه حاله زهد في هذه الدنيا ولم يغتر بغرورها لأنه يعلم أنه ربما صار بعد الصورة الحسنة والهيئة الرائعة، تراباً يطأه من كان يأنف أن يمسه من الهوام والأنعام وضعفة الأنام وربما صار مرتعاً للسياح ومسرحاً للأنعام وربما بني بجسده المكرم عنده خشن أو مرحاض بعد أن كان مبرماً نقاضاً بسّاطاً قباضاً فكيف يفتتن ذو عقل سديد أو يغتر بجدية ومصيرها إلىٰ ما قدمنا وقد قال الشاعر في مثل ذلك:

خفف الوطىء ما أظن أديم الأرض إلاّ من هذه الأجساد

قوله (عليه السلام): «ويقربان كل بعيد» التقريب نقيض التبعيد وهو أدنىٰ الأمر من الأمر ولا شك أن الليل. والنهار يأتيان بذلك إذ ما به كأين إلاّ وهما يوصّلان إليه وإن طال الأمد والأمر في ذلك ظاهر.

قوله (عليه السلام): «ويأتيان بكل موعود» والإتيان نقيض الذهاب والموعود كل ما تقدم الخبر بإتيانه فكل ما وعد به صادق الوعد أتىٰ به الليل

والنهار لا محالة وقد جرىٰ الوعد من صادق الوعد، والوعد بما بين أيدينا من القيامة وأهوالها وروائعها وزلزالها والعرصة ونوائبها والمحاسبة وعجائبها والنار ومصائبها والجنة ومراتبها وهذه أمور عظيمة هائلة لا ينبغي للعاقل أن يغفل عنها واستعمال الفكر في الخلوص من شدائدها ونيل فوائدها قال أبو سعيد: فقال له المقداد: يا رسول الله وما الهدنة، المقداد حليف بني زهرة بن كلاب وكان له في المسلمين شأن، وهو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن ثمامة بن مطرود بن عمرو بن سعد بن زهير بن ثور بن ثعلبة بن مالك بن الشريد بن هزل بن قايس بن دريم بن القين بن أهود بن بهران بن عمرو بن إسحاق بن قضاعة. وإنما ذكرنا نسبه بطوله لأن المنافقين طعنوا في نسبه في ذلك العصر وذمّوه.

قوله (عليه السلام): «دار بلاء وانقطاع» البلاء هو الامتحان، والانقطاع هو الانفصال قال قائل أهل اللغة:

فاليوم أبلوك وتبتليني والـيوم تبلو غلظي وليني

معناه امتحنك وتمتحنني فأشار عليه السلام للمقداد وللمسلمين أن بلوىٰ الدنيا دائم، وانقطاعها لازم وأنَّ حجج الله (سبحانه) من الأنبياء (عليهم السلام) وورثتهم من الأئمة الأعلام وأتباعهم من كبار أهل الإسلام ربّما انقطعوا وذلوا وقتلوا فقلوا وفرقوا فانغلوا يبدلون أنسابهم ويحولون أسمائهم فلم يبق لهم علم قاهر ولا أمر ظاهر فأمر (عليه السلام) بما به تقع النجاة عند فقد الدعاة وهو الرجوع إلىٰ القرآن المجيد الذي لا يأتيه االباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد فقال (عليه السلام): فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم، الالتباس هو اختلاط بعض الأمور ببعض حتىٰ لا يمكن تخليصها إلّا بعناء ومشقة أخذ ذلك من اللبس وهو الخلط، والأمور هي الحوادث والمسائل المشكلات، وقطع الليل سدفه، والليل المظلم خلاف الليل المقمر وعند شدة الظلام يصعب التمييز بين الأمور المتشابهة.

قوله (عليه السلام): «فعليكم بالقرآن» أغراهم بلزومه وأمرهم بالاستضاءة بنوره وقد روينا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال في القرآن في حديث فيه بعض الطول قال فيه يعني القرآن: «لا

تحصىٰ عجائبه ولا تبلىٰ غرائبه فيه مصابيح الهدىٰ ومنارات الحكمة» والدليل علىٰ المعرفة لمن عرف الطريقة فليولج رجل بصره وليبلغ الطريق نظره ينج من عطب ويتخلص من أشب فإن التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور بحسن تخلص وقلة تربص وفي مثل هذا ومعناه آثار كثيرة وهو دليل واضح علىٰ ما ذكرناه من معنىٰ الهدنة لأن السلطان يزع ما لا يزع القرآن بذلك ورد الأثر وقد روينا عن ابن شبرمة: «قال: دخلنا علىٰ أبي مسلم الخراساني وهو يقرأ في المصحف وبين يديه سيف مسلول فقلنا ما هذا فقال ليس إلّا هذا أو هذا.

قوله (عليه السلام): «فإنه شافع مشفع» الشافع هو سائل الخير لغيره إما بدفع ضرر أو بزيادة تقع والمشفع الذي لا ترد شفاعته وأنزله (صلى الله عليه وآله وسلم) منزلة الشافع لأن الثواب الجزيل ينال به فكأنه في الحكم أخذ بشفاعته وسُؤاله وقد روينا بالإسناد إلىٰ جابر بن عبدالله قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقال: لصاحب القرآن إقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها وهذا من أعلىٰ ما ينال بالشفاعة» فلذلك سمي القرآن شافعاً، وفي الحديث «أن أهل القرآن أهل الله» المراد بذلك المتبعون له العاملون به وروينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) «أن أهل القرآن يوم القيامة على كثبان من مسك لا يفزعون ولا يهتالون».

قوله (عليه السلام): «وشاهد مصدق» الشهادة في أصل اللغة هي الحضور، وأخذ الشاهد من ذلك لأنه لا يشهد إلّا بما يحضر عنده أو يكون في حكم الحاضر. فجعل (عليه السلام) القرآن في حكم الشاهد لحامله بأنه عمل به إن كان عمل به فيستحق ما وجب كما يستحق الحق عند الشهادة، وكل ذلك علىٰ وجه المثل وتصديق الشاهد يقع بأحد وجهين.

إما بالتعديل، وإما بتصديق الخصم وبكل واحد من الأمرين تثبت شهادته، وهذه حال القرآن (شرف الله قدره) مع من قام بلوازمه وإنفاذ لأوامره، ووقف عند متشابهه وعمل بحكمه وتفكر في أمثاله وقام بما يجب من إجلاله فهذا الذي يشهد له القرآن بين يدي ربه بأنه قد قام به حق القيام وبتأدية ما عليه لذي الجلال والإكرام من الحق فيه والحق به والحق له.

قوله (عليه السلام): «من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار» يكون الجعل بمعنىٰ الخلق وبمعنىٰ الترك وبمعنىٰ الحكم وبمعنىٰ الإلقاء، والمراد به هاهنا: الإلقاء والترك، وأمام نقيض خلف، وظهوره يغني عن استشهاد ومعنىٰ جعله له أمامه أن يقتدى بأوامره فيفعلها وبنواهيه فيحذرها ويرد متشابهه إلىٰ محكمه، ويؤمن بمنسوخه، ويعمل بناسخه ويتدبر أمثاله، ويتفهم أشكاله، ويستعين في معرفة غرائبه وفهم عجائبه بسؤال تراجمته وأربابه، وورثته، وأصحابه عترة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) المستحفظين رعاة سرحه وحماة سربه الذين قرنه بهم، وقرنهم به وذلك لما روينا بالإسناد الموثوق به إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: «أيها الناس أعلموا أن العلم الذي أنزله (الله تعالى) علىٰ الأنبياء من قبلكم في عترة نبيكم فأين يتاه بكم عن أمر تتوسخ من أصلاب أصحاب السفينة هؤلاء مثلها فيكم وهم كالكهف لأصحاب الكهف، وهم باب السلم، فادخلوا في السلم كافة وهم باب حطة من دخله غفر له، خذوا عني عن خاتم المرسلين حجة من ذي حجة قالها في حجة الوداع: «إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض».

ومعنىٰ قوله (عليه السلام): «من جعله خلفه ساقه إلىٰ النار» قد قدمنا معنىٰ الجعل في أصل اللغة والمراد به هاهنا أن ينبذ حكمه وراء ظهره فلا يملك حلاله، ولا يحرم حرامه، ولا يقوم بفرائضه ولا يلتزم أحكامه ولا يتدبر معانيه، ولا يعزز مناهيه، فهو لا محالة يسوقه والحال هذه إلىٰ النار.

وأصل السوق في البهائم وهو معروف وذلك أن البهيمة ذليلة في جنب السائق، فكذلك حكم من نبذ القرآن وعطل أحكامه لأنه ضيع حجة الله عليه وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «الرياسة يوم القيامة إلىٰ جملة القرآن أسرع منهم إلىٰ عبدة الأوثان والنيران فيقولون يا رب سورع إلينا بدىء بنا فيقول (تعالىٰ): ليس من يعلم كمن لا يعلم» فلذلك يساقون سوقاً شديداً ولا يجدون عنها محيدا عصمنا الله من مثل حالهم وأعاذنا من مرجعهم ومآلهم.

قوله (عليه السلام): «هو أوضح دليل إلىٰ خير سبيل».

هذا عائد إلى القرآن الكريم ولا شك أنه كذلك ولم لا يكون كذلك وهو الذي عجز عن الإتيان بمثله الخلق وعجب منه أهل البصائر من الجنة ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يُهدي إلىٰ الرشد فآمنّا به﴾[1] وأي هادٍ أهدىٰ وأي شيء أعجب منه وهو علىٰ سعته وطوله وتنوع فصوله في غاية الفصاحة ومنتهىٰ البلاغة، والبراعة لا يستطيع الشاعر المفلق ولا الخطيب المصقع والمترسل المنمق والعايل المتشدق أن يأتي بمثل فصل من فصوله والواضح هو الظاهر اللائح لا فرق بين ذلك والدليل هو ما يوصل النظر فيه علىٰ الوجه الصحيح إلىٰ العلم اليقين وكذلك حال القرآن الكريم لأن من نظر في شيء منه علىٰ ما قدمنا أوصله نظره إلىٰ العلم اليقين.

والسبيل هو الطريق والمراد به هاهنا طريق الجنة التي من لزمها انتهىٰ إلىٰ النعيم الدائم والملك العقيم ونعم عقبىٰ الدار.

قوله (عليه السلام): «من قال به صدّق ومن عمل به أُجر ومن حكم به عدل». التصديق نقيض التكذيب ومعنى التصديق أن يقال للمتكلم به والمخبر عن خبره صدقت، أو يقال للعامل به والمصدق بمقتضىٰ خبره قد صدقت ولا بد من تصديق من قال بالقرآن وعمل بمقتضاه فإن مَنْ لتصديقه حكم، وتأثير وهو الملك الجبار والملائكة الأبرار والأنبياء الأخيار والأئمة الأطهار والمؤمنون الأحرار يصدقون القائل بالقرآن، والعامل به تصديقاً يورثه دار الكرامة فهذا أحد وجهي التصديق والوجه الباقي أن لا بد من إطلاق إطباق الكل علىٰ تصديقه يوم القيامة الأخيار والأشرار والمؤمنين والكفار والتصديق لم يؤقت فيكون معنىٰ التصديق ذلك وهو يوم ينجو فيه الصادقون، ويهلك الفاسقون وهذا من أقوىٰ الأسباب الموجبات للقول والعمل بموجب القرآن الكريم والعامل به هو العالم بمقتضاه المؤثر لهداه علىٰ هواه، والأجر هو الثواب علىٰ عمل أو ترك فإذا قال بالقرآن وعمل به أُوتي أجراً عظيماً وقد قدمنا في معنى ذلك صدراً، الحكم في أصل اللغة هو المنع وفي عرف الشريعة المكرمة القطع علىٰ أحد الخصمين بلزوم الحق لصاحبه إن اقترحا لهما، والقطع بالتعديل بينهما أن استوىٰ حالهما ولما كان أصل الحكم

---

(١) سورة الجن آية ١.

المنع، وكان الحاكم لحكمه يمنع أحد الخصمين عما ليس له سميّ حاكماً، والعدل نقيض الجور وهو الإنصاف من النفس، والاتصاف لها ومعنىٰ ذلك من حكم بكتاب الله (تعالىٰ) فقد أخذ لنفسه بالوثيقة وسلك أوسط طريقه وعدل علىٰ الحقيقة لأن كتاب الله (تعالىٰ) قاعدة العدل وأساسه، وعينه، ورأسه، وبهجته، وأنفاسه والأمر فيه ظاهر. ومنه حديث معاذ حين بعثه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أرض اليمن فقال له: «بم تحكم قال: بكتاب الله (تعالىٰ) قال: فإن لم تجد قال: اجتهد برأي لا آلو احتياطاً فقال (عليه السلام): الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي به رسول الله» فقد رأيت كيف جعله (عليه السلام) بتقريره أصلاً للحكم فلذلك يعدل به من حكم فنسأل الله (تعالىٰ) أن يجعله لنا عن الشر أبداً وإلى الجنة قائداً والصلاة علىٰ محمد وآله.

الحديث السادس

عن ابن عمر، وابن عمر هاهنا: هو عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى بن عبدالله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عدي بن كعب وهو: من أصاغر الصحابة سناً، وأكابرها قدراً، وحالاً وقد أشير إليه بالخلافة، ومال إليه هو كثير من الأمة، وكان مخوف الجانب في أيامه على لين، وانقطاع كان فيه وكان يريد الأمر إن لم يختلف فيه اثنان، وكان شديد الاجتهاد في طاعة الله (تعالىٰ). ورويت عنه ندامة عظيمة في تخلفه عن علي (عليه السلام). وكان يتوضىء لكل صلاة وله رواية وشيعه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على غفلة كانت فيه ولم يختلف في الرواية عنه، والأخذ منه قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا يكمل عبد الأيمان بالله حتىٰ يكون فيه خمس خصال التوكل علىٰ الله، والتفويض إلىٰ الله، والصبر علىٰ بلاء الله والتسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله، إنه من أحب لله وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله فقد استكمل الأيمان».

الإكمال والإتمام يفيدان معنىً واحداً: وهو فعل موجب الأمر مطابقاً لغرض الأمر بغير زيادة ولا نقصان.

والعبد المرادبه هاهنا المكلف، وسمي عبداً لأنه مذلل، ذليل لله (سبحانه) وأصل التعبيد، التذليل من ذلك قولهم طريق معبد أي مذلل، فأما التعبيد بمعنى التذليل، فهو عام في جميع الخلق مؤمنهم، وكافرهم إذ ما به مخلوق إلا وقد ذلله الله (تعالىٰ) بالفناء والحاجة، وتعزز (سبحانه) بالبقاء

والغنىٰ، وكيف لا نكون في جنبه مذللين، ولطاعته مؤهلين وإن رام الأباق الجاهلون ونسي واجب حقه الغافلون، وهو مالكنا، ومالك آبائنا وأمهاتنا وأبنائنا، ولا يصح خروجنا عن ملكه بوجه من الوجوه ومن لنا بذلك فالحمد لمن جعلنا كذلك وأخرجنا من العدم إلىٰ الوجود ولم نكن شيئاً مذكوراً، فنحن عبيده حقاً حقاً خولاً عبيداً أرقاً فكيف يُسوغ عصيانه، أو يحسن نسيانه فهذا في معنىٰ المذلل وهو عام كما ترى في جميع العباد، وأما الذليل لله (تعالىٰ) فهو قليل من الناس، والمغبون من لم يذل لربه، ويعترف بذنبه في وقت تقبل فيه المعذرة، وتنفع الندامة، وتعقب الذلة الفانية العزة الباقية، والإيمان في أصل اللغة هو التصديق ولا فرق بين قولك آمنت به وبين قولك صدقت به، فأما في عرف الشريعة المعظمة، فالإيمان له أصول وفروع شرطها يطول، ولعل افنان الكلام في كتابنا هذا إن شاء الله يحيط بأكثرها فتأمله.

فلا يكون المؤمن مؤمناً شرعاً إلّا بفعل جميعها، الخصال والحلال والطريق معناها واحد وهي التي تلزم الإنسان فعلها ويستقيم عليها من جميع الأمور فأول ما ذكر (عليه السلام) من الخمس الخصال التوكل على الله، وبدأ بذكره لأنه أعلاها، ومعناها أنه لا تهتم بالأمر المهم اعتماداً علىٰ غيرك فيه، فلذلك سمي الرجل وكلاً وهو الذي لا يهتم بالأمور اعتماداً علىٰ غيره فيها وهو ذم عندهم.

ومعنى التوكل علىٰ الله (تعالىٰ)أن تعتمد في كل مهم عليه وترد كل ملم إليه وتضع يدك في يديه ولا ترجو لكل شديدة سواه ولا توالي خوفاً من المشاق عداه تؤثر إن أعطاك لترضي وليه وتشكر إن منعك لتكبت عدوه، ولا تطلب شيئاً من رزقه بمعصيته ولا تعصه (عز وعلا) لرضىٰ أحدٍ من خلقه ولا تقصد في شيء من عبادته ولوازم تكليفه فهذا معنىٰ التوكل عندنا، وبه يسمىٰ العبد متوكلاً شرعاً. وثانيها التفويض إلىٰ الله. أصل التفويض التخلية للغير يصنع ما أراد بلا منع ولا اعتراض عليه ولا حد دونه وهو مأخوذ من قاضي الماء إذا أخذ علىٰ وجه بلا حاجز يمنعه ولا حائل يردعه ومن ذلك قولهم الناس فوضا أي مستوون فلا فاضل فيهم يمنعهم عن بعض الأمور ويأمرهم ببعضها قال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضا لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالم سادوا

ومعنى التفويض إلىٰ الله (تعالىٰ) أن تعلم أن يده في مالك وولدك وسيدك، وليدك، وطارقك، وتلدك، أولىٰ من يدك فلا تعقب فعله في ذلك وإن خالف رضاك وجانب هواك بكراهة أبداً وإن لم يدع لك مالاً ولا ولداً فهو خير خلف من كل فائت وتقيه من كل هالك. فمن لم يفوض أمره إلىٰ الله علىٰ هذا الوجه لم يكمل إيمانه، وظهر عصيانه.

وثالثها: الصبر علىٰ بلاء الله. أصل الصبر الحبس علىٰ ما تكره النفس ومنه قولهم: قتل صبراً إذا حبس للسيف بحيث لا يتمكن من دفاع ولا يقدر علىٰ امتناع ولا فرق عندهم بين قولك صبرت نفسي علىٰ كذا، وكذا، وبين قولك حبتها قال طرفة بن العبد:

واعطف النفس علىٰ مكروهها حيث لا يعطفها إلاّ الصبّر

يريد الحابسين لها على المكاره التي فيها معالي الأمور ولا يتم ذلك إلاّ بمنعها عن الجزع، وصرفها عن الفزع عند نزول الخطوب المهمة وهجوم النوب المؤلمة الملمة، وتضاعف المشاق الجليلة الحادثة والأمور الناجمة الكارثة فحينئذ يفرق بين الصابر، والجازع، والمروع الرايع، والبلاء هو المحنة والفتنة لا فرق عندهم بين قولك ابتلينه وامتحنته، والصبر هو أحد نصفي الإيمان، وأرجحهما، وذلك لما روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «الإيمان نصفان نصفه صبر، ونصفه شكر» وفي الرواية «ان عمر بن الخطاب قال: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت» فكأنه أشار إلىٰ أن كل واحد منهما يوصل راكبه إلى الجنة. والبلاء من قبل الله (تعالىٰ) علىٰ وجهين: بلاء فعلٍ واضطرار، وبلاء تعبد واختبار. فبلاء الفعل والاضطرار علىٰ وجهين، محنة، ونعمة، ونريد بالمحنة هاهنا ما تنفر عنه النفوس، وبالنعمة ما تلتذ به وأما إذا رجع إلىٰ التحقيق فكل ما جاء من قبله من مكروه، أو محبوب فهو نعمة حسنة وقد قسم الحكيم (سبحانه) البلاء في كتابه الكريم كما قسمنا ومن كتابه العزيز تفهمنا ما فهمنا قال (عز من قائل) في ذلك: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمّه فيقول ربي

أكرمني﴾[1] وأقول قد أكرمك نعمك فكيف شكرت المنعم والمكرم؟ وهل أجرت البلية فقد سماها بلوى، أم جعلت أجازتها لعباً ولهواً. وركضاً في ميادين الأهواء أين أنت عن الشكر، والإيثار الذي هو تعبدك في هذه البلوىٰ ان كنت من المهتدين ألم تسمع إلىٰ قول العبد الصالح سليمان (عليه السلام): إن كنت من المتوسمين **﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾**[2] غني حي لا يحتاج، كريم يعطي من يشاء بغير حساب وليس هذا لأحد سواه.

وقال (تعالىٰ) في المعنىٰ الثاني من البلوىٰ: **﴿وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني﴾**[3] أهانك ليزداد بإهانتك سلطاناً إلىٰ سلطانه، أو يجير بنقيصتك نقصاً في شأنه أفلا يستحي الجهال بمواقع الحكمة من العليم الحكيم، أو يردوا الأمر إلىٰ من أمروا بالأخذ عنه، والتعليم ليقوموا لهم أوَدَ عقولهم ويحلُّوا عُقَدَ لِدَدَ تحصيلهم من ولاة الأمر وورثة الكتاب، وسفن النجاة (علىٰ أبيهم وعليهم أفضل السلام والصلاة).

فالبلوىٰ لا تخرج علىٰ هذين المعنيين، وقد هلك بجهل ذلك كثير من الناس فقد رأيت كيف سمىٰ (سبحانه) التضييق في الرزق باسم التوسيع وهو أحمدهما عاقبة، وأهونهما علىٰ المتفكرين مشقة. وفي الحديث المروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال ابشروا صعاليك المؤمنين بالفوز علىٰ الأغنياء يوم القيامة بمقدار خمسمائة عام والأغنياء موقوفون يحاسبون علىٰ فضلات أموالهم من أين اكتسبوها، وفيما أنفقوها. وقد رجح أمير المؤمنين (عليه السلام) بلوىٰ المحنة علىٰ بلوىٰ النعمة في أبيات رويناها عنه قال فيها:

عطيّته إذا أعطا سرور ... فإن سلب الذي أعطا أثابا
فأيّ النعمتين أجل قدراً ... وأعظم في عواقبها إيابا
أنعمته التي أهدت سروراً ... أم الأخرىٰ التي ذخرت ثوابا

فأنواع الصبر علىٰ هذا ثلاثة: احتمال المشقة باستصغار البلوىٰ

---

(١) سورة الفجر آية ١٥٠.
(٢) سورة النمل آية ٤٠.
(٣) سورة الفجر آية ١٥.

وتهوينها وهو أعظمها أجراً.

وصبر على الثناء باللسان، وذكر ما يمكن ذكره من النعمة إذ ذكر جميعها لا يدخل تحت الإمكان.

وصبر علىٰ العمل بالأركان للخروج عن عهدة ما لزم، وإذا أردت الإجمال قلت الصبر علىٰ وجهين: صبر علىٰ الفعل، وصبر علىٰ الترك فالفعل فعل الطاعة، والترك ترك المعصية، واعلم أن الموقف من العباد: من تأمل ما ذكرنا بعين البصيرة ليقابل كل واحدة من البليتين بما ينبغي أن يقابل به محبوب الحكمة وكريهها ليخرج عن الواجب في ذلك فنسأل الله (تعالىٰ) التوفيق إلىٰ ما يحب رَبُّنا ويرضىٰ.

رابعها: التسليم لأمر الله ومعنىٰ التسليم: التمليك لا فرق عند أهل اللغة بينهما، فمخرج ذلك أنه (عليه السلام) حضّ المتعبدين علىٰ أن يملكوا أمر الله (تعالىٰ) نفوسهم، وأولادهم، وأحوالهم وأورادهم فينقادوا لأمر الله (تعالىٰ) فيهم بالكريه، والشهي والشوية، والبهيّ: انقياد المملوك الذليل الحاذر لمالكه العزيز القاهر، وذلك لا يكون إلاّ بأن يقابل الأوامر فيهم بالائتمار والأفعال بالرضىٰ والاعتبار فلا يدع من ذلك أمراً مما يعود إلىٰ الفعل، وإن كان كريهاً إلاّ رضيه، ولا أمراً مما يعود إلىٰ القول إلاّ سمعه واتبعه، فإن ورد بواجب فعله لوجوبه، وإن ورد يندب فعله لأجل ندب الحكيم إليه، وتهذيبه. وقوام ذلك كله وشخصه، وظله لا يستقيم إلاّ بالتحفظ عن ارتكاب المحظورات ووطىء المحذورات، لأنها له في الحقيقة محبطات، مهلكات. وأمرنا بحمد الله (تعالىٰ) في تكليفنا أخف من أمر من كان قبلنا. انظر إلىٰ قوم من بني إسرائيل أمروا بقتل أنفسهم فتلقوا الأمر بالتسليم فبركوا علىٰ ركبهم وحزوا أعناقهم بسيوفهم، إن هذا لهو البلاء المبين وقد كنا أولىٰ بالرضىٰ عن الله (تعالىٰ) من جميع الأمم لما خصنا به من بينهم من قصر الأعمال، وتخفيف الحدود، وكرم الخلال، وشرف الوضوء الذي أخبر نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) انا نعرف به يوم القيامة من بين الأمم، وقد قيل: ان أكثر معاصيهم كانت لا تتعدىٰ عن الحدود فكأن أحدهم إذا قارف ذنباً أصبح مكتوباً علىٰ جنبيه إنك عصيت في كذا، وكذا. ولا كفارة لذلك إلاّ أن تصطلم أنفك أو تقطع يدك، أو تجدع أذنك. فإن فعل ذلك

أطاع، وإن تركه عصىٰ، والأمر علينا بخلاف ذلك كله نذنب الذنوب المتظاهرة فيسترها بحلمه ونتوب التوبة الخالصة بيننا وبينه فيحفظ أجرها عنده ويظهر ذكرها علىٰ ألسنة عباده، فله الحمد كثيراً.

وخامسها: الرضا بقضاء الله: الرضا نقيض السخط وأحسن الناس طاعة لله أحسنهم رضى عن الله، والقضاء في كتاب الله (تعالىٰ) علىٰ ثلاثة أوجه: يكون بمعنىٰ الخلق والتمام يحكيه قوله (تعالىٰ): ﴿**فقضاهن سبع سموات في يومين**﴾[1] معناه خلقهن وأتم خلقهن. ويكون بمعنىٰ الأخبار والإعلام يحكيه قوله (تعالىٰ): ﴿**وقضينا إلىٰ بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً**﴾[2] معناه أخبرنا وأعلمنا. ويكون بمعنى الأمر، والإلزام يحكيه قوله (تعالى): ﴿**وقضىٰ ربك ألّا تعبدوا إلّا إياه**﴾[3] معناه أمروا لذم. وأهم ما يتعلق بقوله (عليه السلام) والرضا بقضاء الله: قضاء الفعل وقضاء الأمر، فقضاء الأمر يتعلق بالعبادات، فالواجب علىٰ العبد أن لا يسخطها، ويقابلها بالالتزام فعلاً، وتركاً.

وقضاء الفعل يتعلق بالامتحانات. لأن الرضا بها من أجل العبادات وتتعلق بالرضا في ذلك أن يوقع الحكيم (سبحانه) في أحدثه، أو في ولده، أو حبيبه، أو غيره فعلاً تكرهه نفسه، وينفر عنه طبعه كالموت، والزمانة، والعلل الشاقة كالجذام، والبرص، والجنون، والعمىٰ إلىٰ غير ذلك من أنواع البلاء وحتم القضاء فإن الواجب على المكلف أن يتلقىٰ ذلك بالرضا وحسن الثناء لأن ذلك عنوان الحكمة، ورأس العبادة، وهو المأخوذ عن الأنبياء (عليهم السلام) والأئمة الأوصياء لا ينكر ذلك أحدٌ من العلماء وكيف ينكر علىٰ حكم الحكماء وعنده العوض والجزآء، وهو أعلم بمصالح العقلاء، وفي الحديث «أن موسىٰ (عليه السلام) قال: يا رب أرني أحب خلقك إليك، وأكثرهم لك عبادة، فأمره الله (تعالىٰ) أن ينتهي إلىٰ قرية علىٰ ساحل بحر، وأخبره أنه يجده في مكان قد سماه له فوصل (عليه السلام) إلىٰ ذلك المكان فوقع على رجل مجذوم مقعد أبرص يسبح الله (تعالى) فقال موسىٰ

---

(١) سورة فصلت آية ١٢.
(٢) سورة الإسراء آية ٤.
(٣) سورة الإسراء آية ٢٣.

(عليه السلام): يا جبرائيل أين الرجل الذي سألت ربي أن يريني إياه فقال جبرائيل (عليه السلام): هو يا كليم الله هذا. فقال: يا جبرائيل إني كنت أحب أن أراه صواماً، قواماً، فقال جبرائيل (عليه السلام): هذا أحب إلىٰ الله (تعالىٰ) وأعبد له من الصوام، والقوام، وقد أمرت بأذهاب كريمتيه فلنسمع ما يقول: فأشار جبرائيل (عليه السلام) إلىٰ عينيه فسالتا علىٰ خديه فقال: متعتني بهما حيث شئت، وسلبتني إياهما حيث شئت وأبقيت لي فيك طول الأكل يا بارٌ يا وصول، فقال له موسى (عليه السلام): يا عبدالله إني رجل مجاب للدعوة فإن أحببت أن أدعو لك الله (تعالىٰ) يرد عليك ما ذهب من جوارحك ويبريك من العلة فعلت فقال (رحمة الله عليه): «لا أريد شيئاً من ذلك اختياره لي أحب إليّ من اختياري لنفسي» وهذا هو الرضا المحض كما ترىٰ فقال له موسىٰ (عليه السلام): سمعتك تقول: يا بارٌ يا وصول ما هذا البر، والصلة، الوصلات إليك من ربك، فقال: ما أحدٌ في هذا البلد يعرفه غيري أو قال: يعبده فراح (عليه السلام) متعجباً، وقال: هذا أعبد أهل الدنيا، ومثل تعجبه (عليه السلام) ممن رضي بقضاء الفعل تعجبنا، فمن رضي بقضاء الأمر المؤدي إلىٰ تلف النفوس، وذهاب الأعضاء، ومفارقة الأولاد، والنساء كزهير بن القين العجلي، ومسلم بن عوسجة الأسدي وأبي حجل المشهر، وحبيب بن المطهّر وأمثالهم (رضي الله عنهم) وأبلغهم من رحمته غاية الرضىٰ، فإنهم رأوا بحاراً من الحديد تلظّىٰ تحتها عبيد الدنيا فخاضوها رضىً بالقضاء، وتعرضاً للرضا.

قوله (عليه السلام(: «انه من أحب لله، وأبغض لله». الحب نقيض البغض ومعنى الحب أن يمتلىء القلب بالفكر في المحبوب سروراً، واللسان يذكره حلاوة، والبصر بمشاهدته نوراً. ومعنىٰ قوله أحب لله يريد أحب أولياء الله لمجرد انقطاعهم إلىٰ الله وأن يصله منهم نفعاً في الدنيا، وقد روينا بالإسناد الموثوق به إلىٰ أبي ذر (رحمه الله) قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أفضل الأعمال الحب في الله، والبغض في الله».

والبغض في الله نقيض الحب في الله. ومعناه أن تبغض أعداء الله لأجل عداوتهم لله وإن لم يصلك منهم ضررٌ. ولا يقع الحب في الله، والبغض في الله علىٰ لطف العشرة، وحسن الجيرة، وسوء العشرة وقبح الجيرة لأن لين

الجانب وحسن الجوار، ولطف العشرة، من أخلاق الصالحين، والمقربات إلىٰ رب العالمين، وقواعد الدين. فالمراد من الحب والبغض، ما يتعلق بالقلب علىٰ نحو ما قدمنا اللهم إلاّ أن يكون المحاد لله (عز وجل) عدواً مبايناً للمؤمنين سالاً عليهم سيف العدوات، مع المعتدين بعين الفرض، حينئذ في منابذته باليد، واللسان، والسيف، والسنان، ورفع ستر المجاملة إلا ما يوجبه تدبير الحرب، والمباينة فإن الرأي في ذلك يختلف وعلىٰ العبد الاجتهاد وعلىٰ الله التوفيق وإنما قلنا ذلك لأن الإدهان يكون في تلك الحال معصية، ولين الجانب إليه ضلالة وقد روينا في مثل ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من انتهر صاحب بدعة ملىء الله قلبه أمناً، وأيماناً فهذ ضدُّ اللين كما ترىٰ، ولا يجهل تغير التكليف بالأوقات، والأشخاص إلاّ الجاهلون، وقد يتعلق بمعنى الحب في الله إخلاص الود لآل محمد (عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام) خاصة وللمسلمين عامة وفي ذلك ما روينا بالإسناد إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لما نزلت هذه الآية ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1] ذلك من أحب الله ورسوله، وأحب أهل بيتي صادقاً غير كاذب، وأحب المؤمنين شاهداً، وغائباً، ألا بذكر الله فتحابوا».

ومعنىٰ ذكر الله هاهنا معرفته. لأنك تذكره بأسمائه الحسنىٰ وآلائه العلىٰ، ولا شك أنه يقبح منك أن تذكر بالإجلال والتعظيم من لا تعرف. لأن ذلك لا يستقم في الأصل ألا ترىٰ أنه لا يحسن منك أن تقول: أكرم الناس وأعلمهم، وأصلحهم زيد فإذا قيل ومن زيدً قلت لا أعرفه، وإذا عرف الله (تعالىٰ) حقيقة المعرفة ترتبت المحبة عليها علىٰ حد ما جاء في الخير.

قوله (عليه السلام): «وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان». الإعطاء نقيض المنع: ومعنىٰ الإعطاء لله (تعالىٰ) هو تسليم الحقوق الواجبة لأوليائه إذ هم لا يستحقون شيئاً منها لكونها مشروطة بالطاعة. فأما عطايا النفل وما يتعلق بالإحسان والمروءة فأحُظِر ذلك عن أحد وقد قال (تعالىٰ):

﴿كلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك

---

(١) سورة الرعد آية ٢٨.

محـظوراً﴾[1] وقـد ورد في الآثـار المقـدسـة الحض علىٰ صلة القـاطعين. والإحسان إلى المسيئين، والتجاوز عن المـذنبين وجميع مـا ذكرنـا معلوم من أخلاق الصالحين مع الطالحين. . .

(١) سورة الإسراء آية ٢٠.

الحديث السابع

عن أبي هريرة وهو: عبدالله بن عـامر. وقيـل عبدالـرحمن، مشهور من أهل الصفة المبرزين في الانقطاع، والملازمة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وله رواية عن رسـول الله (صلى الله عليه وآلـه وسلم) واسعة وكـان له مكان عند الأمة، لمكان الصحبة، وهو دوسيٌّ. . . ودوس قبيلة من اليمن.

وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «لقد هممت أن لا أتهب إلا من قـرشي، أو أنصـاري، أو دوسي»، وفي أخـرىٰ أو ثقفي، وذلـك لأنهم أهل أمصار، وفيهم السؤدد، والكرم. قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآلـه وسلم) يقول في خطبته: «أيها النـاس، إن العبد لا يكتب في المسلمين حتى يسلم الناس من يده، ولسانه، ولا ينال درجة المؤمنين حتىٰ يأمن أخوه بوائقه، وجـارهُ بوادره، ولا يعـد من المتقين، حتىٰ يدع مـا لا بأس بـه، حذار مـا بـه البأس، أيها الناس أنه من ضـاف البيات أدلج، ومن أدلج في المسيـر وصل، وإنما تعرفون عواقب أعمالكم لو قـد طويت صحـائف آجالكم. أيهـا الناس: إن نية المؤمن خير من عمله، ونية الفاسق شر من عمله. . .».

قد تقدم الكلام في معنىٰ العبودية، وأصل التسمية، وكذلك الكلام في الكتـابـة، فمعنىٰ ذلـك ان اسمـه لا يكتب في الـذكـر الحكيم في ديـوان المسلمين حتىٰ تكـون صفته مـا ذكر (عليـه السلام) وهـو أن يسلم الناس من شره، وضره بجميع جوارحه. وإنما خص اليد واللسان لأن عليهما مدار أكثـر الأعمال.

أما اللسان فيها تقع الغيبة، والنميمة، والسعاية إلىٰ السلطان الباغي، والإغراء، والتهدد، والاستحقاق، إلىٰ غير ذلك من المؤذيات، وهذه الأمور من أشق ما يلحق المسلمين ضرره فتركها حينئذ يكون من أفضل الإسلام. وقد روينا عن جابر بن عبدالله قال: «أتىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رجل فقال: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه، ويده. قال: فأيّ الجهاد أفضل؟ قال: من عقر جواده واريق دمه». والآثار في مثل هذا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كثيرة واضحة، وميلنا إلىٰ الاختصار فلنذكر من كل شيء طرفاً.

أما الغيبة فقد روينا عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «الغيبة أشد من الزنىٰ» قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إن الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه». فصرح (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنها أشد من الزنىٰ ثم بين وجه العلة، وقد علم الكافة ما قبح الله (تعالى) من أمر الزنىٰ بقوله: ﴿إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾[1] الفاحشة مأخوذة من الفحش وهو القبح المتناهي، وساء شنع وقبح سبيلاً: أي طريقاً، فإذا كانت الغيبة أشد من هذا فكيف يكون حالها. أعاذنا الله منها.

وأما النميمة فهي: أشد ضرراً من الغيبة لأن بها تسفك الدماء وتباح القرىٰ، وتركب الدهماء وهي: الداء العية والجرح الذي لا يبرأ وفي غريب الحديث لا يدخل الجنة فتان.

فتنزه أهل العلم بالتمام لأن ألقت النميمة في كلام العرف وهذا خبر مرغب للمتوسمين لأنا نخشىٰ أن يكون النفي في قوله (عليه السلام): «لا يدخل الجنة فتان» مؤبداً وذلك لأن يكون في معلومه (تعالىٰ) كمن يكون في جملة ما يستحق علىٰ النميمة سلب التوفيق، والتسديد إلىٰ التوبة. فلا يدخل

(١) سورة الإسراء آية ٣٢.

الجنة أبداً وهذا خطر عظيم يلزم المسلم الاحتراز منه، والخوف.

وأما انتقاض العرض فهو أيضاً جرم كبير، وحوب عظيم وقد روينا عن سعيد بمن زيد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «من أربا الربا الاستطالة في عرض مسلم بغير حق» وروينا في مثل ذلك بالإسناد إلىٰ علي بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «من يهت مؤمناً، أو مؤمنة، أو قال ما ليس فيه: أقامه الله يوم القيامة علىٰ تل من النار حتىٰ يخرج مما قال». ولا شك أن من لوازم الأيمان توقير المسلمين وتعظيمهم فمن أذاهم، واستخف بهم فقد فعل نقيض الواجب. وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا».

وفي السعاية بالمسلمين آثار ظاهرة، وقبح السعاية بالمسلمين لا تفتقر إلىٰ برهان، والتهدد جناية كبرىٰ لأنه الأذىٰ وزيادة وقد تقدم فيه ما تقدم. وكذلك في الاستخفاف إثم كبير وقد تقدم دليله، وجنايات اليد معلومة والأمر فيها ظاهر.

قوله (عليه السلام): «ولا ينال درجة المؤمنين حتى يأمن أخوه بوائقه، وجاره بوادره». الدرجة هي: المرتبة العظيمة في عرف الشريعة: وهي في أصل اللغة المراقي إلىٰ الأمور العالية. ولا أعلىٰ من الثواب فسميت مراتبه. درجاً أخذاً من ذلك. والمؤمنون هم المصدقون بما جاء من عند الله المنقادون له قولاً، وعملاً وقد قال (تعالى):

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾[1] فهذا بيان لمجمل لفظ المؤمنين فيجب أن يراعىٰ فصولها، ويتعرف معانيها. إذ لا إيمان لمن أخل بشيء فيها لأن الحكيم (جل وعلا) عقب التأكيد بالنفي ثم فصل معاني الإيمان فبدأ (سبحانه) بالتصديق باللسان، والقلب. لأن تصديق اللسان لا

---

(١) سورة الحجرات آية ١٥.

حكم لـه وقـد كـذب الله المنـافقين لمـا قـالـوا الحق بـألسنتهم، ولا علم في قلوبهم فذلك ظاهر في قوله (تعالىٰ(﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنـك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾[1] فجرىٰ التصديق باللسان من دون اعتقاد في القلب صحيـح مجرىٰ الاستهـزاء فلذلك استحق فاعله الذم والعقاب، ولا يقع الإيمان بالله (تعالىٰ) وبرسوله (صلى الله عليـه وآله وسلم) إلا بمعـرفة ولا تقـع معرفـة في ذلـك مـع بقـاء التكليف إلا بدلاله سيما وقد أكد ذلك بترك الإرتياب ولا يزول الإرتياب إلاّ بعـد استحكام العلم بالبرهان، فيجب معرفة الباري (تعالىٰ) وصفاتـه وما يجـوز عليه ومـا لا يجـوز، وأفعالـه، وأحكام أفعـاله، ومـا يجوز عليـه في ذلـك ومـا لا يجـوز، والنبوة، وما تبعها، والشرائع وما يتبعها بأدلـة واضحة والعمـل بمقتضىٰ ذلك، ولذلك عقبه بذكر العمل، وابتدأ بذكر أفضل الأعمـال الذي هـو الجهاد. لأن بـه خمدت نيـران الضّلال، واشتعلت أنـوار الحق وكبر بـه الحكيم (تعالى من روس الجبال، وبطون الأودية ونكص الشيطان علىٰ عقبيـه، وتبرأ ممن اعتمـد عليه لما نظر إلىٰ أولياء الله مستبسلين للموت كأنهم جمال تحطم يبسـاً هممهم أمامهم، وقدم ذكر الجهاد بالمال علىٰ الجهاد بالنفس، لأن المقـاتل أكثـر من المنفق فيما نشاهـده فكأن الإنفـاق أصعب الأمرين علىٰ النفـوس، وبه تجهـز الجيوش وتعان الغـزاة، وتبلغ الأغراض في العـدو، ودرهمه سبـع مائـة درهم وديناره سبع مائة دينـار، هذا العـرض العام، وقـد يضاعف الله (تعـالىٰ) لمن يشاء وهم أهل القصود والمعرفة بوجوه الإيقاعات أضعافاً لا يعلم بها إلاّ الله، وهذا هو البيـع المفيد، والمتجـر الربيـح وقد روينـا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «من جهز غازياً أو حَاجاً، أو خلفه في أهله كـان له مثـل أجره» ثم عقب (سبحـانه) الجهـاد بالنفس لكـونه أحـد مرتبتي الجهاد، وركني قاعدة الإسلام وقد روينا في ذلك عن عمران بن الحصين، قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآلـه وسلم) مقام الـرجل في الصف في سبيـل الله أفضل من عبادة رجل ستين سنة». وهذا أمر من حرمه فقد حرم.

فنسأل الله (تعالىٰ) أن يرزقنا توفيقه، وتسديده، وعونه وتأييده إلىٰ سبيل رضوانه.

---

(١) سورة المنافقون آية ١.

ثم عقب ذلك بقوله (سبحانه: ﴿أولئك هم الصادقون﴾[1]. فدل ذلك أن من ادعىٰ الأيمان بغير ما ذكرنا فهو من الكاذبين وإن دعواه لم تلحق بدعوىٰ المناقين فالواجب التحفظ والاحتراز.

قوله (عليه السلام): «حتىٰ يأمن أخوه بوائقه». أخوه يريد أخاه في الدين لا أخاه في النسب كان الله (سبحانه وتعالى) آخى بالإسلام بين الأجانب، وعادا بترك الإيمان بين الأقارب. وفي الرواية «أن سعد بن أبي وقاص قال: ما حرصت علىٰ قتل أحد حرصي علىٰ قتل أخي عتبة»، وكان أخوه عتبة بن أبي وقاص شديد العداوة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الذي شق شفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكسر رباعيته اليمنىٰ السفلىٰ.

وقال (تعالىٰ): ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾[2] فعم ولم يخص وقال: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخهر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو أخوانهم أو عشيرتهم﴾[3] الآية فخص في هذه الآية المحادين، وقطع أخوانهم في الدين.

البوائق جمع بائقة، والبائقة الفعلة العظيمة، وهي هاهنا عظيمة قبيحة فالواجب علىٰ المؤمن أن يكون مأمون الجانب علىٰ الأخ والصاحب.

قوله (عليه السلام): «وجاره بوادره» يريد سوابق يده ولسانه وطرقه، فهذه سوابق الجوارح التي يخشىٰ بوادرها والجار سمي جاراً لمجاورة داره لدار مجاوره، والمجاورة هي الملازقة، وسموا المراءة جارة لذلك، وقد كانت الجاهلية علىٰ جهلها تشدد في أمره، وذلك ظاهر في أشعارهم، وأخبارهم قال شاعرهم:

أجارتنا بيتي فإنك طالقة   كذاك خطوب الدهر تعدو مطارقه

ولم يوجد بالها إلاّ هذا، وإنما هو طالق بغيرها، وجاء الإسلام بتوكيد،

(١) سورة الحشر آية ٨ والحجرا آية ١٥.
(٢) سورة الحجرات آية ١٠.
(٣) سورة المجادلة آية ٢٢.

ذلك في الكتاب العزيز قال الله (سبحانه): ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين والجار ذي القربىٰ والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان محتالاً فخوراً﴾[1].

الجار ذو القربىٰ: قريب النسب، والجار اجنب: بعيد النسب والصاحب بالجنب هو الرفيق في الطريق، وقد رأيت كيف قرن الحكيم (سبحانه) حق الجار بحقه، وحق أهل الحقوق عنده وجعل رعايته جزأ من أجزاء عبادته . . .

قوله (عليه السلام): «ولا يعد من المتقين حتىٰ يدع ما لا بأس به» حذار ما به البأس، العد هو إضافة الشيء إلى الشيء بعد الابتداء وأول مراتب العد في اللفظ الواحد وفي الفعل ثني الخنصر ومنه قولهم في المدح فلان تثنىٰ الخناصر باسمه أي تثنىٰ بعدّه أولاً قبل غيره، وقولهم: فلان واحد عصره. معناه يبدأ في لفظ العد بذكره فمعنىٰ قوله (عليه السلام): «يعد من المتقين» أي يجعل من آحاد جملتهم، فيكون منهم:

والمتقون هم المحاذرون مواقعة المعصية، وترك الطاعة فكأنهم يجعلون محاذرتهم تقاءً لهم من المغاضب والعذاب، وهم خلصان عباد الله والموعودون بعاقبة الدار، وفوز الجوار.

قوله (عليه السلام): «حتى يدع» معناه يترك، والبأس ما تبأس منه النفس بمعنىٰ تنفر فما لا بأس به هو ما لا كراهة فيه خوف ما فيه الكراهة.

تحفظاً واحتياطاً للدين وإشفاقاً في مواقعة الخطأ. وفي الحديث «إن لكل ملك حمىً وحمىٰ الله (تعالىٰ) محارمه فمن أرتع قريباً من الحمي يوشك أن تقع فيه سائمته».

فأشار (عليه السلام) إلىٰ التباعد عن الأمور التي تقرب من المحظورات إشفاقاً من التجاوز إليها، والهجوم عليها لسهوٍ عار، أو بادرة غضب أو غلبة هوىً.

---

(١) سورة النساء آية ٣٦.

وقوله (عليه السلام): «أيها الناس إنه من خاف البيات أدلج ومن أدلج في المسير وصل».

أيها الناس خطاب عام، والخوف نقيض الأمن، وقد تقدم الكلام في معناه، والبيات هو الهجوم بالليل علىٰ المسترسل لإيقاع المساءة به، وذلك ظاهر عند العرب. . .

والإدلاج مسير الليل من أوله، والإدّلاج بالتشديد مسيره من آخره قال راجزهم:

إن لها لسائقاً خدیجاً لا يدلج الليل فيمن أدلجا

يريد لا يسير من أول الليل فيمن سار لها عائد إلىٰ الإبل فأما قول الآخر. يقول حادي القوم أصبح أدلج فقد قيل معناه المبالغة في الأمر، وإلاّ فلا يقع بين أهل المعرفة باللسان اختلاف في أن الإدلاج بالتخفيف مسير الليل في أوله، وأن الإدّلاج بالتشديد مسير الليل من آخره والتعريس النزول في آخر الليل للاستراحة والتغوير نزول وسط النهار، والابتكار سير أول النهار والتأويب سير آخره، والإسآد خلط الليل بالنهار في السير أشار (عليه السلام) بالبيات إلىٰ ما لا يؤمن وقوعه من الجواري المفضحات والكوارث المبهظات التي يقطع التكليف كالقتل والموت والإلجاء، وما به عاقل إلاّ وجواز هجومها عليه بغتة متقرر في غفلة. ومصيبة الإنسان في عذاب الأبد، ونكال السند أعظم من مصيبة الميت في قتله أو سلب ماله، أو روعته وأهل العقل، والحزم إذا خافوا البيات ممن يخاف جانبه سروا ليلهم، ولم يناموا علىٰ الخوف، ويذمون من غفل عن ذلك، فالمخوف هين كما ترىٰ، فما حال من خاف الأمور العظيمة والأهوال الجسيمة ثم تأخر عن الاستعداد فنسأل الله (سبحانه) التوفيق.

قوله (عليه السلام): ﴿ومن أدلج في المسير وصل﴾ إشارة منه (عليه السلام) إلىٰ أن الحازم لا ينام علىٰ الخوف وانه ينال بإدلاجه فرحتين عظيمتين يحسن لكل واحدة منهما الفعل لو انفردت، فكيف مجموع ذلك إحداهما السلامة من شر المخوف المبيت، والثاني الفوز بوصول الأهل والمال في الجنة لأن ما به أحدٌ إلاّ وله في الجنة أهل ومال فإن من لم يعجل عملاً

يستحق به ذلك الأهل والمال ورثه العاملون لـه وحرمـه الغافلون، فكيف ينـام النائمون ويغفل الغافلون، وذلـك ظاهـر في قولـه (تعالىٰ) في صفـة المؤمنين ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفـردوس﴾[1] فبين (تعالىٰ) مـا ذكرنـا في معنىٰ الوراثة.

قـوله (عليـه السلام): «وإنمـا تعرفـون عواقب أعمـالكم لو قـد طـويت صحائف أجالكم» المعرفة، والعلم معنـاهما واحـد، وعاقبـة الشيء ما يتعقبـه من أحكام الأعمال من خير وشر، ولا بـد من معرفـة عواقب الأعمـال بالـروية والمباشرة. قال (تعالىٰ): ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيـراً يره ومن يعمـل مثقال ذرة شراً يره﴾[2] والطي نقيض النشر. والصحائف هي الكتب التي تدون فيهـا الأعمال وآجالكم تحتمل آجال الكافة وتحتمل أن يكون لكل واحد منّا آجال: أجل لموته وأجل لقتله وأجل لعمله. وصحـائف هذه الآجـال لا تطوىٰ إلّا عنـد انقطاع تكليف العبد وعند ذلك يعرف عاقبة عمله فإن كان خيراً، استر به سروراً لا غم بعـده أبداً وإن كـان شراً اغتم لـه غماً لا سـرور بعده أبـداً، والتفكر في هـذا يقطع الأنفاس ويكثر الوسواس.

قوله (عليه السلام): «أن نية المؤمن خير من عمله ونية الفاسق شـر من عمله» النية، والإرادة معناهما فينا واحد، ولا يجوز إطـلاق النية علىٰ البـاري (تعالىٰ) وقد تقدم الكلام في معنىٰ المؤمن والأيمـان والخير والشـر، ولا فرق بين الفعل والعمل.

والفاسق هو الخارج عن الدين بكبائر العصيان هذا في العـرف وأما في الأصـل فمعنىٰ الفسق الخروج علىٰ كـل وجه، ومنـه قولهم فسقت الـرطبة إذا خرجت وسميت الفويرة فويسقة لخروجها من جحرها كثيراً تـريد الاغتيـال والخيانة.

ومعنى الحديث ان عمل المؤمن الذي صار به مؤمناً خيـر، ونيته للخيـر من جملة أعمال الخير، بل هي قوام العمـل لقول النبي (صلى الله عليـه وآله وسلم): «الأعمال بالنيـات» والكلام مـا نوي، وعمـل الفاسق الـذي به صـار

---

(١) سورة المؤمنون آية ١١.

(٢) سورة الزلزلة آية ٧ ـ ٨.

فاسقاً شر، ونية الشر من جملة أعمال الشر وهي مما تعمّده القلوب وتكتسبه، وقـد ورد السمع بالمؤاخـذة بأعمـال القلوب خلافـاً لما ذهبت إليـه المجبـرة الحشوية من أن نية الشر لا تكتب ونية الخير تكتب ويروون في ذلك أحـاديث متأوله علىٰ ما يشهد له البرهان العقلي ومحكم القرآن الجلي. . . .

الحديث الثامن

عن ابن عباس، وقد تقدم الكلام في نعته، ونسبه، وشرفه، وحسبه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «من انقطع إلىٰ الله كفاه الله كل مؤنة فيها، ومن انقطع إلىٰ الدنيا وكله الله إليها، ومن حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد له مما رجىٰ، وأقرب مما أتقىٰ، ومن طلب محامد الناس بمعاصي الله عاد حامده منهم ذاماً، ومن أرضىٰ الناس بسخط الله وكله الله إليهم، ومن أرضىٰ الله بسخط الناس كفاه الله شرهم، ومن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله فيما بينه وبين الناس، ومن أحسن سريرته أصلح الله علانيته، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه».

الانقطاع هو: افتعال من القطع وهو صرم الرجاء، والأمل والطلب، والطمع إلاّ في الله (تعالىٰ) ومنه فإن كل مأمول سواه ربما خاب فيه الأمل لعجزه عن إعطاء المأمول، أو بخله به، أو محاذرة الفقر، والفاقة لأجل تسليمه إلىٰ غير ذلك من صوارف العاجزين والحكيم (سبحانه) بخلاف ذلك كله وكيف وهو الغني الذي تستحيل عليه الحاجة، القادر الذي يستحيل عليه العجز، الجواد الواسع الذي لا يعد ملكه المنع ولا يكدي كرمه الإعطاء وهو علىٰ ما يشاء قدير، وفي الحديث المروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «يقول الله (تعالىٰ): لو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فسألني كل سائل منهم ما بلغت إليه أمنيته وأعطيت كل سائل ما سأل ما نقص ذلك من ملكي إلاّ كما لو مرّ أحدكم علىٰ

شفة البحر فغمس فيه إبرة ثم انتزعها. وهذا لعمر الله الجود الذي لا يساجل، والاقتدار الذي لا يقابل». ومعنىٰ الانقطاع في كلامهم ظاهر. يقول قائلهم: انقطع فلان إلىٰ فلان إذا لم يأمل أحداً سواه ولم يتعد في أوامره رضاه فإذا أعمل العبد فيما بينه وبين الله (تعالىٰ) هذا العمل كان قد انقطع إليه حقيقة الانقطاع.

قوله (عليه السلام): «كفاه الله كل مؤنه فيها» الكفاية هي دفع المخوف بقهر أو إعطاء.

والمؤونة هي الثقل والكلفة، والضمير في قوله (عليه السلام) فيها عائد إلى الدنيا ومعنى ذلك أن المنقطع إلىٰ الله (تعالىٰ) يكفى جميع مؤن الدنيا ومشاقها بأحد أمرين إما بدفع المكروه وإما بتعريفه له ما في مقابلته من العوض فيرتفع ثقل تلك المشاق ويخف حملها فلا يبقىٰ على العبد طائل مشقة فيها بل يبقىٰ خفاً وسروراً وجذلاً وحبوراً وقد روينا «أن جعفر بن أبي طالب (عليه السلام) كان في يده عرق يوم موته ينهشه ليقوىٰ به إذ سمع الحطمة في المسلمين فألقاه وصمد العدو وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها ... عليّ أن لاقيتها ضرابها

فقد رأيت كيف قابل المكروه (بحبذا) وهم لا يقابلون به إلّا ما يتناهى في الخفة علىٰ قلوبهم والسرور بلقائه قال قائلهم:

ويا حبذا برد أنيابه ... إذا أظلم الليل واجلوّذا

وبكل واحد من الأمرين أما صرف المؤنة وإما تخفيف مؤنتها بتعريف المكلف ما في مقابلتها يقع الكفاية.

قوله (عليه السلام): «ومن انقطع إلىٰ الدنيا وكله الله إليها» وقد تقدم معنى الانقطاع وهو أن لا يجعل له هماً ولا أملاً إلّا الدنيا وهو الناصح الصادق (عليه السلام) إن من جعل الدنيا همه، وأمله وجعل لها سعيه وعمله: وكله الله إليها، علىٰ معنىٰ أنه لا يُعطى خيراً سواها، وقد علم العالمون قلة بقائها، وسرعة فنائها فمن وكل إليها وكل إلى غير كاف، وإنما وكل إليها لأنه لم يعمل للآخرة فيستحق

ثوابها وحورها وقبابها وبردها وشرابها وكيف يستحق ذلك وقد جعل همه جمع حطامها والتبس بدنس آثامها فليس يبلغ من مطالبهـا نهايـة إلّا وخفقت لطرفـه في أقصىٰ آمالها غاية فلا يزال لكدها وكـدحها في نصب شـديد حتىٰ يـزل ما كان عنه يحيد فيندم حين لا ناصر يمنعهم ولا عذر ينفعه فلا تأس علىٰ القـوم الكافرين ولم لا يكون كذلـك وقد خـرّب ما أمره بعمرانـه من الآخرة البـاقية وعمرّ ما أمر بتخريبه من الدنيا الفانية وقد كان يكفيه من الـدنيا اليسيـر لو نـظر بعين البصير، واستعمل مواد التفكير، وأين أولئك ومن لنا بـذلك. وقـد روينا «أن سعداً دخل علىٰ سلمان (رضي الله عنه) في مرضه وهو يبكي فقال: يا أبا عبدالله أبشر ما هذا البكاء تقدم علىٰ رسـول الله (صلى الله عليه وآلـه وسلم) وهـو عنك راض فقـال سلمان: يـا سعـد سمعت النبي (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) يقول: من سره أن يلحقني فليكن زاده من الدنيا كزاد الراكب» أما ترىٰ ما قد جمعنا فبيع كل ما في بيتـه فبلغ ثمانيـة عشر درهمـاً فليست الدنيـا علىٰ هذا بأهل أن ننقطع إليها أو نعتمد عليهـا وكيف وهي غرارة وغـريم ما فيهـا لا حقيقة لشيء منها إنما هي فكرة هائم أو حلم نائم.

قوله (عليـه السلام): «ومن حـاول أمراً بمعصيـة الله كان أبعـد له ممـا رجىٰ وأقرب مما أتقىٰ» المحاولة هي المفـاعلة من الحول، والحيلة، والمكـر والغيلة وهذه الألفاظ متقاربة، والمحاولة أن يأتي الأمر مـن جميع جهاته وهي أحواله وهذا غاية الممكن وتحصيل المطلوب أن يعالجه من كل جهة.

قوله (عليه السلام): «من حاول أمراً يريد وجهاً من وجوه مطالب الدنيـا كائناً ما كان» وقـوله: «بمعصيـة الله»، والمعصية نقيض الـطاعة وهي فعـل ما نهي المرء عن فعله أو ترك ما أمر بفعله، والطاعة بالعكس من ذلك ومحـاولته بالمعصية أن يجعل المعصية صلة إليه ولطفاً فيه.

قـوله (عليـه السلام): «كـان أبعد لـه مما رجىٰ من ثـواب الله (تعـالىٰ) ورضوانه وأقرب مما أتقىٰ» يـريد (عليـه السلام) من عـذابه وسخـطه لا يكون للخير إذا كان المراد به العمـوم وجه إلّا ذلـك لأنّا نـرىٰ كثيراً من أهـل الدنيـا يحاول أموراً يرجوها بمعصية الله (تعالىٰ) فينا لها بل ربمـا لا يتمكن من نيلها إلّا بـذلك إلّا تـرىٰ أن معاويـة (لعنه الله) مـا استتب له الأمـر الـذي رجى من الـدنيا إلّا بمعصيـة الله في مخالفـة وليّ الأمر في الكـافة (علي بن أبي طالب

أمير المؤمنين (عليه السلام)) واستعمال الأمور المحظورة في المكر والخديعة، والفساد في البلاد واستفحلت أموره لـذلك وحُـدت شوكتـه وتقوىٰ أمـره حتىٰ استولىٰ علىٰ أمر الأمة غصباً بـلا استحقاق ولا هـو لذلـك بأهـل وقد نبـه أمير المؤمنين (عليه السلام) علىٰ ذلك بقولـه: «والله ما معـاوية بأدهى مني ولكنه ينظر الفرصة وبينه وبينها حائل من أمر الله فيتعدىٰ، وأنا أتوقف عن ذلك»، أو كلاماً. هذا معناه وقد جعلت الزنـادقة الملحـدة (لعنهم الله) هذا القـول شبهة فأعمىٰ الله بصائرهم، وأبصارهم، وبدد عقولهم، وأفكارهم.

أي شبهة في كلامـه (عليه السـلام) علىٰ الوجـه الذي ذكـرنا. وأمـا إذا أريـد به الخصـوص فلا مـانع من ذلـك بـأن يكـون الحكيم (تعـالىٰ) علم أن المصلحة في صرف من حاول أمراً مخصوصاً عن غـرضه وتبعيـده عن رجائه والعقل يقضي بذلك ولا يمنع منه.

قوله (عليه السلام): «ومن طلب محامد الناس بمعاصي الله عاد حامـده منهم ذاماً» الطلب هو التماس الأمر بما يمكن من الوجوه وقـد يسمىٰ الطالب طلبه للمبالغة، قال كعب بن مالك (رحمه الله) في قصيدته العينية:

فخـرتَ علينـا ابنُ لـلزبـعري وقـد سـرىٰ
لـكـم طـلـب فـي آخــر الـليــل مـتـبــع

ومحامد الناس هي المدائح، والثناء، ومعاصي الله: تعدي حـدوده في الفعل والترك.

وقـوله (عليـه السلام): «عـاد» بمعنىٰ رجع حـامـده منهم ذامـاً، الـذام نقيض الحامد وهو الذي يذكر الإنسان بالانتقاص وهو مأخوذ من الذمامة وهي النقص، فقيـل لكـل من انتقص غيـره ذام ومعنىٰ الحـديث أن الأغلب فيمن طلب محامد النـاس التي هي ثناؤهم ومـدحهم بمعاصي الله (سبحـانه) معنـاه وتوصل إلىٰ ذلك بمعاصي الله أن حامده منهم يعود ذاماً في الـدنيا ومن ذلـك الرواية العامة كل صداقة في غير مرضات الله آخـرها عـداوة، ومثل ذلـك من المشهور من أعان ظالماً أغري به وقد قال (تعالىٰ): ﴿فأغـرينا بينهم العـداوة والبغضـاء إلىٰ يوم القيـامة﴾[1] فهـذا في أمر الـدنيا يحمـل ذلـك علىٰ الأكثـر

(١) سورة المائدة آية ١٤.

والأغلب وذلك مشاهد وأما في الآخرة فعلىٰ سبيل العموم لا بد من أن يلعن بعضهم بعضاً ويتبرأ بعضهم من بعض ويقولون ما حكىٰ الله (تعالىٰ) عنهم: ﴿ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾(١) وهذا غاية الذم والاستخفاف فعلىٰ أي واحد من الأمرين حمل اللفظ كان صحيحاً وإن حمل علىٰ مجموعهما فهو جائز..

قوله (عليه السلام): «ومن أرضى الناس بسخط الله وكله الله إليهم».

الإرضاء نقيض الأغضاب وهو الفعل أو الترك الذي ترضىٰ النفوس عنده أي تطيب وتسكن والناس هم بنو آدم وهم أحد أجناس المتعبدات الثلاثة الذين هم الملائكة والأنس والجن، وسميت الأنس أنساً لأنسهم وتأنيسهم، وسميت الملائكة ملائكة لأنهم رسل الله (سبحانه) في الأمور المهمة ومنه سميت الرسالة ألوكة ومالكة، وسميت الجنّة جناً لاجتنانهم عن الأبصار، والسخط نقيض الرضا. ومعنى وكله الله إليهم: صرف أمره إليهم ومن ذلك سمي الوكيل وكيلاً لأن الأمر يصرف إليه وهذا أمر هائل وفزع شاغل لمن فكر في معناه لأن العبد إذا علم أنه لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع، ولا نافع لمن ضر، ولا ضار لمن نفع، ولا واضع لمن رفع، ولا رافع لمن وضع، ولا كاسر لمن جبر، ولا جابر لما كسر، ولا باسط لما قبض، ولا قابض لما بسط ولا حارم لمن أعطىٰ، ولا معطي لمن حرم، ولا مثيب لمن عاقب، ولا معاقب لمن أثاب، ثم علم مع ذلك أنه قد وكل إلىٰ غير من هذه صفته كيف يقر نافره ويسلو خاطره وهو موكول إلىٰ من لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرراً فكيف يرضىٰ عاقل أن يُصرّف أمره إليه وأن يمسي ويصبح متوكلاً عليه.

قوله (عليه السلام): «من أرضىٰ الله بسخط الناس كفاه الله شرهم».

هذا نقيض ما تقدم وهو أولىٰ الأمرين بالعاقل المميز، وأحمدهما عاقبة لأن الخالق أولىٰ بالإرضاء من المخلوق، والمالك من المملوك ومن أرضىٰ المملوك بسخط المالك فقد رمى بنفسه بالمهالك، ومن أرضى المالك بسخط المملوك فقد عمل بالواجب، وقد قال بعض الحكماء ما يليق

---

(١) سورة فصلت آية ٢٩.

ذكره بهذا المكان، وهو قوله في أدب الوزارة: إذا خالطت ملكاً حازماً فأرضه بسخط حاشيته وإذا صحبت ملكاً أحمق فأسخطه برضىٰ حاشيته، والحازم هو العالم بوجوه المنافع وأسباب المضار الذي لا يمنعه التواني عن الاستعداد، والله (تعالىٰ) العالم لذاته، القادر لذاته الذي يستحيل عليه الغفلة والنسيان وهو الذي لا ينجي من غضبه إلاّ رضاه، ولا من معصيته إلاّ معرفته وكل الخلق عبيده، والدار ـ داره فكيف يُرضي العبد عبداً مثله بسخط مولاهما جميعاً علىٰ علمه، وقد قدم في ذلك وعيده ـ هذا ما لا يقبله عقل سليم، ولا يفعله رجل عليم وكفاية شرهم يكون بأحد أمرين إما بصرفهم ودفع ضررهم عنه، وإما بأن يجزل ثوابه في الآخرة وينتزع له من أعواضهم ما يرتفع حكم شرهم لأجله فلا يعد شرهم شراً لذلك. فإذا كان ذلك كذلك فقد كفيه.

قوله (عليه السلام): «ومن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله فيما بينه وبين الناس» الإحسان فيما بينه وبين الله (تعالىٰ) أن يعامل الحكيم (سبحانه) معاملة المحسنين في التسوية بين باطنه وظاهره وإخلاص العمل لوجهه وإيثار رضاه علىٰ رضا نفسه فهؤلاء هم المحسنون حقاً الذين لا يُضيع أجورهم، ولا تجرح في موقف الحساب صدورهم.

وكفاية الله (تعالىٰ) فيما بينه وبين الناس أن يصرف عنه شرهم بأحد أمرين: إما بأن يصرف عنه من شرهم ما يتعلق بفساد دينه فهذا فرضه واجب وهو من الحكيم (تعالىٰ) واقع.

وإما بأن يكفيه فيما بينه وبينهم بأن يجعل بينه وبينهم حدوداً من أمره إن اعتدوها أجرىٰ عليهم حكم العادين في الدنيا، وعاقبهم عقاب المذنبين في الآخرة، وأجرىٰ عليهم حكم المظلومين في الدنيا، وأعطاه أجر الصابرين في الآخرة. فهذا: أحمد كفاية عاقبة وأحسن تأويلاً وأوضح دليلاً.

قوله (عليه السلام): «ومن أحسن سريرته أصلح الله علانيته» السريرة باطنة لب الإنسان ودخيلة قلبه وقد تقدم تفسيرها، وإحسان السريرة أن لا يتضمن شيئاً من الإرادات والاعتقادات المقبحات وأن يكون عقدة قلبه موقوفة من ذلك علىٰ المحسنات، والعلانية هي: الحالة الظاهرة.

والإعلان نقيض الأسرار فقال استسر الأمر إذا خفي ومنه سرار الهلال وعلن إذا ظهر.

وإصلاح علانيته وهو سلامة ظاهر أمره من الفساد والقبيح وقد يكون بأن يقيله الله (تعالىٰ) العثرات ويتجاوز عنه السيئات لأن ما بدر منه من المقيمات في ظاهر أمره من زلة طارئة أو هفوة عارية، ولا حقيقة له في باطن سره فيستر الله (تعالىٰ) عليه ويحبيه إلىٰ أولياءه حتىٰ يشهدوا له بما يعلمون من سلامة ظاهرة فتكون علانيته لذلك صالحة فيجعل له بذلك لسان صدق في الآخرين ويجري له ذكراً حسناً علىٰ ألسن الذاكرين وينشر عنه ثناءاً جميلاً في الغابرين، وهذه أحسن صلاح العلانية وأولى ما يسعى له أهل العقول السوية ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يصلح علانيته في الآخرة فيجعل ثوابه موفوراً وذنبه مغفوراً وسعيه مشكوراً.

قوله (عليه السلام): «ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه» العمل للآخرة هو العمل الصالح الخالص لوجهه (تعالىٰ) الذي يلقى به العبد ربه كالغائب يصل أهله آمناً مسروراً مؤيداً متصوراً قد جعل الله من بين يديه نوراً وخلفه نوراً وقد قال (سبحانه): **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾**[1].

وأما كفاية أمر دنياه فأن يخفف عليه ما بين يديه من مؤن الدنيا، ويكره إليه قبيحها ويحبب إليه حسنها، ويزهده في حلالها فلا يبقىٰ عنده لها مزية ظاهرة، ولا مشقة باهرة.

---

(١) سورة الكهف آية ١٠.

الحديث التاسع

عن ابن عمر وقد تقدم الكلام في نسبه ونعته وطرف من ذكر حاله وصفته قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «رحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلم، إن اللســان أملك شيء للإنســان ألا وإن كلام العبد كله عليه إلّا ذكراً لله، أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، أو إصلاحاً بين مؤمنين».

فقام إليه معاذ بن جبل فقال: يا رسول الله أنؤاخذ بما نتكلم به؟ فقال: «وهل يكب الناس علىٰ مناخرهم في النار إلّا حصائد ألسنتهم فمن أراد السلامة فليحفظ ما جرىٰ به لسانه وليحرس ما انطوىٰ عليه جنانه، وليحسن عمله، وليقصر أمله» ثم لم تمض أيام حتىٰ نزلت هذه الآية ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلّا من أمر بصدقةٍ أو معروف، أو إصلاح بين الناس﴾(١) الرحمة نقيض الغضب وهو الفضل والإحسان من الله (تعالىٰ) والشفقة، والمحبة من العباد، وقد تقدم الكلام في معنىٰ إسم الله (تعالىٰ) وكذلك الكلام في تسمية العبد عبداً، والكلام هو الأصوات المقطعة بالحروف المرتبة، وهو ينقسم إلىٰ مفيد وغير مفيد فإذا أردت فصله قلت الموضوع للإفادة، والغنم أخذ فوائد الأموال، ورغائب الآمال، وقد يكون بشدة وقتال، وبغير شدة وقتال، فإذا كان بغير شدة وقتال قيل غنيمة باردة ومغنم بارد معناه

---

(١) سورة النساء اية ١١٤.

لم يصلوا فيه حر القتال، وروي عن الأصمعي: أن الغنيمة الباردة هي الواجبة الثابتة من قولهم برد عليه لي حق إذا وجب، وبالوجهين جميعاً فسروا قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «الصيام في الشتاء الغنيمة الباردة» والسكوت نقيض الكلام ومعناه أن لا يتكلم.

والسلامة نقيض الغرامة؛ ومعنى الحديث أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا بالرحمة لمن تكلم بما يكون به غانماً وهو الكلام بكتاب الله (تعالىٰ) وذكره بالتحميد والتمجيد، وذكر ملائكته (عليهم السلام) وأنبيائه (صلوات الله عليهم) وأتباعهم (قدس الله أرواحهم) بالإجلال والتعظيم، والأمر بطاعة الله (سبحانه) والنهي عن معصيته مع القول بالحق في جميع ما افترض علىٰ عباده.

وأما الكلام فيما يعنيه من معاملة دنياه وأسباب معاشه، ومكاسب الحلال فقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً، وقد يتقلب في بعض الأحوال محظوراً إذا أردت به المكاثرة والسمعة فانظر إلىٰ الضمائر ما تصنع إن كنت من الناظرين.

وما عدا ما قدمنا من أنواع الكلام فهو فضل من القول منه المباح والمكروه والمحظور، والاحتراز منه علىٰ العموم أولىٰ، فأما معرفة عُيونه وأحكامه ففرض واجب ليتمكن العبد من الاحتراز عن محظوره، ومكروهه، وذلك لا يقع إلّا بمعرفة عيونه ووجوهه، ومن كلام الحكماء: إذا كان الكلام من فضة، فالصمت من ذهب. ومن استفتاحاتهم من صمت نجىٰ. وقال لقمان (عليه السلام): «الصمت حكم وقليل فاعله»، وكان سبب هذا الكلام أنه أتىٰ إلىٰ داود (صلوات الله عليه) وكان معاصراً له وداود (صلوات الله عليه) يعمل درعاً ـ أول درع رأيت في الدنيا فلم يدرِ لقمان (عليه السلام) ما هي وما المراد منها فجعل يراود نفسه هل يتكلم أم يسكت حتىٰ يتبين له الأمر، فملك نفسه، فلما أتمها داود (عليه السلام) لبسها وجال فيها وقال نعم جنة الحرب أنتِ فعلم لقمان عند ذلك أنها أريدت للحرب بغير سؤال، فقال ما قدمنا.

وفي الرواية «أن داود (عليه السلام) كان يعالج الحديد أول أمره

بالنار»، وفي ذلك قوله (تعالىٰ): ﴿وقدر في السرد﴾[1] قيل معناه لا تدق المسمار فيقلق ولا تغلظه فيفصم والله أعلم، ثم ألين له الحديد بعد ذلك فكان يعمل الدرع في يوم واحد يفتله بأصبعه فتلاً كيف ما أراد بقدرة الله (تعالىٰ) معجزة له (صلوات الله عليه).

قوله (عليه السلام): «إن اللسان أملك شيء للإنسان».

اللسان هو العضو الذي جعله الله (تعالىٰ) آلة للكلام، ولغة كل قوم لسانهم وقد يسمون الرسالة لساناً قال أعشىٰ بأهله:

إني أتتني لسان لا أسُرُّ بها ... من علو لا عجب فيها ولا سخر

فعنى باللسان هاهنا الرسالة، والأملك هو الأغلب والأولىٰ ولا شك أنه أملك أعضاء ابن آدم لأن به المحاورات والمجادلات والواعظات، والمطربات، والملهيات، والمجذلات، والمغريات، والمغرمات وبه النميمة والغيبة، والتهدد، والأمر والنهي، وبه يقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قال قائلهم: رب قول أنفذ من صول، وسمي الكلام كلاماً لأنه يكلم القلوب أي يجرحها، وربت كلمة بنت مجداً أثيلاً ورُبّت كلمة أورثت ذلاً طويلاً، ولا إنسان إلاّ اللسان وهو أطيب شيء إذا طاب، وأخبث شيء إذا خبث.

قوله (عليه السلام): «ألا وإن كلام العبد كله عليه إلاّ ذكراً لله أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو إصلاحاً بين مؤمنين».

قد تقدم الكلام في تسمية الكلام، ولم سمي العبد عبداً بما فيه كفاية وكل من ألفاظ العموم وما علىٰ الإنسان نقيض ما يكون له، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجه واحد وهو الوجوب، وهما مأخوذان من المعرفة والإنكار، فالمعروف ما تعرف القلوب حسنه، وزيادته علىٰ الحسن فتسكن إليه، والمنكر ما تنكره القلوب فتقضي بقبحه وتنفر عنه. وللمعروف وجهان وجوب، وندب والمراعى في ذلك الدليل، والإصلاح بين المؤمنين نقيض الإغراء، والإفساد وخص المؤمنين بذلك لأنهم الذين يتعلق بفساد أمرهم

---

(١) سورة سبأ آية ١١.

إفساد الدين لأن المجرمين ربما يكون هلاكهما وقل شوكتهما سبباً لقوة الإسلام كما كان في حرب بكر وتغلب وهوازن وغطفان وغيرهم من القبائل العاتية قبل النبوة شرفها الله أرهاصاً لها، وتوطيداً لأسبابها وتقوية لأواخيها حتىٰ جاءت النبوة شرفها الله ولم يبق من جيش الكفر إلّا قلة ومن ويل الضلال إلا ظله وقد تقدم الكلام في معنى الأيمان ولم سميّ المؤمن مؤمناً المعنىٰ ابتدأ بذكر الله (تعالىٰ) لأن به تطمئن القلوب ويرحض درن الذنوب وهو أساس الإيمان وقاعدته.

ومعنى ذكر الله (تعالىٰ- معرفته بالقلب، وإظهار ذلك باللسان لا يكون ذكراً حتىٰ يكون كذلك فإن تعرىٰ عن معرفة القلب فهو لغوٌ أو سهوٌ، ولا ثمرة لواحد منهما، وفي الذكر آثار كثيرة نذكر منها طرفاً كافياً إذ كتابنا هذا مبنيٌّ علىٰ الاختصار، ومن ذلك ما روينا عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «من قعد في مصلاه الذي يصلي فيه الفجر يذكر الله حتىٰ تطلع الشمس كان له من الأجر كحجاج بيت الله» والأمر بالمعروف هو قول القائل لغيره: إفعل علىٰ جهة الاستعلاء دون الخضوع وهو مريد لوقوع المأمور به، والمعروف هو الحسن الراجح ـ الحسن ولا يوجب كون الأمر أعلى رتبة وقد بينا ذلك في كتاب صفوة الاختيار في أصول الدين الفقه، والنهي عن المنكر هو قول القائل لغيره لا تفعل، ولا يفعل علىٰ وجه الاستعلاء دون الخضوع وهو كاره لوقوع المنهي عنهما ليس له أن يفعله، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دارت رحا الإسلام، وجرىٰ الشرع الشريف علىٰ نظام وقرضت قواعد الكفر بعد الالتئام، وبددت جموعه بعد الانتظام، وصار ضد الفسق ضارعاً، وعنقه خاضعاً، وبأوه متواضعاً، وجرانه واضعاً، وصوته خاشعاً، وأي تعبد أعظم نفعاً، وأبلغ وسعاً من الأمر بالمعروف الأكبر والنهي عن الفحشاء، والمنكر. وقد نوه الحكيم (سبحانه) بأسماء قوم ضيعوه فقال (عز من قائل) ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[1] فعقب الحكاية عنهم بأبلغ التوبيخ وأمر به أمراً لازماً في قوله (تعالىٰ): ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلىٰ الخير ويأمرون

---

(١) سورة المائدة آية ٧٩.

بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[1] المراد بأولئك هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر دون غيرهم، والمفلحون هم الباقون المنجحون لأن معنى الفلاح هو البقاء، والنجاح، وما أبقىٰ الله (تعالىٰ) من كل أمة من الأمم الماضية إلّا الأمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر وهم الأنبياء (عليهم السلام) وأتباعهم، وذلك معلوم في نوح (عليه السلام) وأمته الغرقىٰ، وصالح (عليه السلام) وأمته التي دمرها (عز وجل) فما أبقىٰ وهود ذي التحنن والألطاف وما فعل (سبحانه) بقومه في الأحقاف وأهل سدوم، وعاموراء إذ جعلهم هباءاً منثوراً، ونجىٰ لوطاً (عليه السلام) بأهله مسروراً مؤيداً منصوراً، وكان سبحانه بالصالحين خبيرا، وكم يعد العادّون أو يكيف الحادون، وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «ان الله (تعالىٰ) أوحىٰ إلىٰ نبي من أنبيائه أني معذب من أمتك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم، وستين ألفاً من خيارهم، فقال يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار فقال (تعالىٰ) عمل بين ظهرانيهم بالمعاصي فلم يغضبوا لغضبي، وقال (عليه السلام) ليس لعين ترىٰ الله يعصىٰ فتطرف حتىٰ تغير أو تنتقل».

وأما الإصلاح بين مؤمنين فهو من لوازم الدين، وكيف لا يكون كذلك والله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾[2] فأمَر بذلك وأمره (تعالىٰ) واجب الاتباع، ثم أشار إلىٰ الوعيد علىٰ تركه بقوله: ﴿واتقوا الله﴾ لأنه لا يُتقىٰ من قبله (تعالىٰ) إلّا العذاب، والسخط ووعد بالرحمة علىٰ فعله لأن لعل منّا ترجي ومنه (تعالىٰ) للقطع والوقوع فأي رخيصة في ترك ما هذا حاله، فالواجب الفزع له، والاهتمام به، والقيام فيه بكل وجه من وجوه الإمكان فقال له معاذ بن جبل: يا رسول الله أنؤاخذ بما نتكلم به؟

معاذ بن جبل هو من العلماء المجتهدين، وله في الإسلام تقدم، وفي الصحبة مزية، وبعثه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلىٰ اليمن والياً فنزل الجند، ومات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو عليها، وهذا

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤.
(٢) سورة الحجرات آية ١٠.

نسبه هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عدي بن آذى بن سعد بن علي بن أسد بن شاردة بن ثريد بن جشم بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو إبن عامر ماء السما بن حارثة الغطريف بن امرء القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن زاد إليه ابن الأزد بن الغوث بن البيت بن مالك بن زيد بن كهلان بن عامر وهو نسا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عابر.

والمؤاخذة مفاعلة من الأخذ فكأنه قال تؤخذ بجريرة ما تقول أم تسامح في هذا القدر فقال (عليه السلام) محبباً له وهل يكب الناس علىٰ مناخرهم في النار إلّا حصائد ألسنتهم، الكبُّ جعف الشيء لوجهه، والمناخر هي الأنوف وهي أشرف ما في الإنسان فيصير بعد الشرف بساطاً له في النار، وهذا أعظم النكال.

وحصائد الألسنة ثمارها، وهذا من الاستعارات الفصيحة، والإشارات البليغة ان جعل الكلام زرعاً، والمستحق عليه ثمراً لذلك الزرع وهذا من أحسن استعاره، وأغرب إشارة لأن المقصود من الزرع ثمره ومن الكلام فائدته ونفعه، فمن زرع من كلامه خيراً حصد خيراً وسلامه، وغنماً، ومن زرع من كلامه شراً حصد نكالاً وغرامة وغماً، فالواجب مراعاة أمر اللسان إذ يتعلق به مثل هذا الشأن وقد روي أن أبا بكر بن أبي قحافة (رضي الله عنه) لما حضرته الوفاة جعل ينضنض لسانه وهو يقول هذا أوردني الموارد، وفي غريب الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من وقىٰ شر لقلقه وذبذبه ولج الجنة يريد فرجه ولسانه فرحم الله امرءاً لم يهلك نفسه بنفسه، وعلم أن قبض أطرافها من أفضل أوصافها فوسم أغفالها بالتقوىٰ، ومنعها عن الأهواء، ولم يدع للسان نهجاً من المهلكات خالياً. بل يجعل عقله عليه والياً، وذكره ونظره له كالئاً فما كان له تكلم به، وما كان عليه أمسك عنه ومن له بنجاة مع ذلك فنسأل الله (تعالىٰ) رحمة يدفع عنّا بها شر أطرافنا، وتسكن في أعطافنا تحبب إلينا رضوانه، وتبغض إلينا عصيانه حتىٰ يمتزج ذلك بأسماعنا وأبصارنا، ويعتلج بهممنا وأفكارنا، ويختلط بلحومنا، ودمائنا وعظامنا، وألبائنا، وأمخاضنا، وأعصابنا لينجو غداً مع الناجين وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله الطيبين.

فأما تغير هذا الحال فالأمر خطر جداً كيف ينجو بغير رحمة من الله (تعالىٰ) من كان في كل جارحة من جوارحه حق وله (سبحانه) علىٰ كل جارحة من جوارحه رقيب ألم يستمع إلىٰ قوله (تعالىٰ): ﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾[1] الرقيب المنتظر المتربص الذي لا يغفل في الأغلب، والعتيد الحاضر الذي لا يغيب.

قوله (عليه السلام): «فمن أراد السلامة فليحفظ ما جرىٰ به لسانه وليخرس ما انطوىٰ عليه جنانه» لما تقدم ذكر النار وأن من أرسل لسانه كب علىٰ منخريه فيها، عَقَّبه (عليه السلام) بأن من أراد السلامة منها جعلنا الله من المبعدين عنها، فليحفظ ما جرىٰ بها لسانه يريد خراسته، وملاحظته، فلا يخرج منه ما يكون عليه، ولا يدع ما يكون له فإن إخراج ما يكون عليه لوعة وغرامة، وترك ما يكون له حسرة وندامة، والقول في الحق خير من السكوت، والسكوت في الباطل خير من الكلام.

وقوله (عليه السلام): «وليخرس ما انطوىٰ عليه جنانه» الخراسة هي الحياطة، والحمىٰ والانطواء هو التضمن، والجنان هو القلب وسمي جناناً لاستجنانه بالجوارح، وخراسته له أن لا يدع شيئاً من الباطل يدخله ولا شيئاً من الحق يشذ عنه، والقلب سلطان الجوارح وأميرها، وبعقله يتم صلاحها، ويتسق تدبيرها، ولذلك أدخل كثير من الضعفة علىٰ نفسه الشبهة بأن الإنسان علىٰ الحقيقة أمر يحل القلب وهذا فاسد لغة وشرعاً، ولا دليل عليه عقلاً وسقوطه ظاهر لا يفتقر إلىٰ برهان، وفي الحديث خراسة العمل أشد من العمل وأعمال القلب الاعتقادات، والإرادات والكراهات، والندم وهي أصل التعبد، وعليها مداره، فهي لذلك أعلاه وأجله وفي الحديث: «إن في ابن آدم بضعة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد» ألا وهي: القلب، فالواجب: علىٰ العاقل حِراسة قلبه بلبه، واستصغار فعله، واستكبار ذنبه، وتسعير نار الخوف التي هي أساس التوبة وتعجيل الرجعة والأوبة.

قوله (عليه السلام): «وليحسن عمله وليقصر أمله».

تحسين العمل بالقصد الخالص لله (تعالىٰ) وحِراسته من المقبحات

---

(١) سورة ق آية ١٨.

بعد تعرّف حكمه، وتفهم معناه.

وعمل العبد ما يتعلق بالقلب والجوارح، وتقصر الأمل أصل لكل نجاة، وسلامة وتوبة واستقامة، وتطويله سبب الأمور الموبقات، والأسباب المهلكات، فرحم الله امرءاً جعل أمله خلف ظهره، وأجله بين عينيه فبادر هجومه، وحاذر لزومه ومزاود الزاد خالية، ومزاد الماء واهية، وراحلة السفر نقية حافية، والطريق بعيدة حامية، فحينئذ تقع العين باكية، والزفرة عالية، وتنزل حسرة هي ماهية فترتفع الواعية وتنحط الداهية، وفي ذلك ما روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: من كان يأمل أن يعيش أبداً يقسو قلبه. قال الراوي: ثم لم تمض أيام حتىٰ نزلت هذه الآية ﴿لا خير في كثيرمن نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾[1] النجوىٰ هو المشورة والمراجعة في الأمور. هذا في أصل اللغة، وهو مقرر في الشريعة قال (تعالىٰ): ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾[2]، وقال: ﴿إنما النجوىٰ من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً﴾[3] وذلك أن المنافقين كانوا يشتورون علىٰ أعيان المسلمين أيهاماً لهم أن قد بلغنا أمراً فيه ما تكرهون، فيغتم لذلك المؤمنون ـ وقال (تعالىٰ) في قصة أولاد يعقوب: ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً﴾[4] أي مشتورين يرمون ما يفعلون وما يدرون لما أخذ أخوهم، فانصرّم الأمر على إقامة يهوذا حتى يأتيه رأي أبيه، أو ينزل الله (تعالىٰ) عليه وحياً يهديه لأنه كان أخذ بظاهر الشريعة عندهم، وهم (سلام الله عليهم) لا يعلمون باطن التدبير في ذلك.

والصدقة علىٰ وجهين: واجب، ونفل.

فالأمر بالواجب واجب، والأمر بالنفل نفل، والمعروف يشمل الفعل والقول والترك، وهو علىٰ قسمين كما قلنا في الصدقة. والإصلاح بين الناس

---

(١) سورة النساء آية ١١٤.

(٢) سورة المجادلة آية ٩.

(٣) سورة المجادلة آية ١٠.

(٤) سورة يوسف آية ٨٠.

واجب كما قدمنا، وهم المؤمنون وذلك عام في عامة الناس إن كان يقع بفسادهم فساد شيء من الدين وإن كان علىٰ غير ذلك الوجه كان فيه النظر من الناظرين، والتوفيق من رب العالمين...

الحديث العاشر

عن أبي موسىٰ الأشعري هو عبدالله بن قيس بن حصان بن الحرب بن عامر بن عنتر بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن الجاهر بن أشعر بن أود بن زيد بن هميسع بن عمرو بن شجب بن تير بن كهلان قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا تسبق الدنيا فنعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر انه إذا قال العبد لعن الله الدنيا. قالت: الدنيا لعن الله أعصانا لربه» قال: السيد الشريف فأخذ هذا المعنىٰ بعضهم. فقال:

يقولون الزمان به فساد   وهم فسدوا وما فسد الزمان

السَّب هو الذم والتشنيع، والدنيا هي أوقات التكليف كما قدمنا. ونِعمَ نقيض بئس، وهما: من الأفعال التي لا تتصرف.

ونعم يقابل بها الأمور المحبوبة الشريفة.

وبئس يقابل بها الأمور المكروهة الفضيعة.

وقد كثر استعمال هذين الفعلين حتى ألحقا في بعض الحالات بالأسماء، والتاء في نعمت وقعت للتأنيث.

والمطية ما يمتطى، وهو أن يركب ظهره، وظهره مطاه هذا في الأصل ثم صار في عرف اللغة يفيد ما يمتطى من الإبل خاصة حتى لا يقال للدابة مطية، ولا للحمار.

قوله (عليه السلام): «عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر».

الهاء في عليها عائد إلىٰ الدنيا التي جعلها في الاستعارة الغريبة الموفقة النبوية مطية تشبيهاً لما أشبه حالها حال المطية، لأنها تحمل زادنـا، وزيادنـا، ومهادنا، ووسادنا، وأموالنا، وأولادنـا وتصل إلىٰ ربنـا ونحن علىٰ ظهرهـا قيام وأيقـاض وفرهين، يعني جلدين، وأيقـاض يعني مساكين، فخـاسر، ورائـح، وصالح، وطالح، فإن جَعَلْنا بضاعتنا إلىٰ سـوق الآخرة التقـوىٰ كثرت أربـاحنا وظهر فلاحنـا، واشتهر نجاحنا. وإن كـانت بضاعتنـا والعياذ بـالله (تعالىٰ) أن تكون كذلك النيات الفاسدة والأعمـال الكاسـدة كثر الخسـار، وظهر البـوار، وفقد الأنصار ولم يقر قرار، ولا يبرد أوار، فلا يمكن من المعاركة لـلاستبضاع ولا ينفعنا الشد والأيضاع.

قوله (عليه السلام): «عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر».

هذه صفة المؤمن لأنه نقل منها زاده وحمل عتاده إلىٰ دار معاده، ومشىٰ وسـاده ومحط رحله، ومنتهىٰ سبله ففـاز مـع الفـائـزين ونجىٰ من شـر تبعـات العاجزين.

قوله (عليه السلام): «إن العبد إذا قال لعن الله الدنيا قـالت الدنيـا لعن الله أعصانا لربه».

العبد المراد به المكلف وقد تقدم معناه.

اللعن الابعـاد، والطرد، وقـد سميت النار لعنة نعـوذ بـالله منهـا لبعـد ساكنها من رحمة الله (تعالىٰ). يقول: قائل أهل الشرع لمن سخط عليه ممن يستحق ذلك إلىٰ لعنة الله، وفي لعنة الله وهو يـريد النـار. نسأل الله (تعـالىٰ) كفايتها، فكأن قائلهم يقول: أبعد الله الـدنيا وهـذا يحمل علىٰ من يقـول هذا القول وهو حامل لذنبه علىٰ الدنيا ومنزه لنفسه عن ذلك كأنه يقول: لـولا هذه الدنياوزخرفها لما عصينا ربنا، وزينتها التي فتنتنا وأغوتنا هذا يستحق الـذم منا بلسـان المقال، ومن الـدنيا بلسـان الحال، وقـد سمـع أميـر المؤمنين (عليـه السلام) رجلاً يـذم الدنيـا فقال يـا هذا أنت المجتـرم عليها أم هي المجتـرمة عليك أغرتك بمصادك آبائك في الدنيا أم بمضاجع أمهـاتك تحت الثـرىٰ في كلام طويل.

فأما علىٰ وجه غير هـذا فذمهـا ونقصها وتصغيـرها وتحقيـرها نـزل من السماء وشحبت به صحايفها العلمـاء قال الله (تعـالىٰ): ﴿إعلموا إنمـا الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكـاثر في الأمـوال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عـذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾[1].

المغفـرة من الله والرضـوان يكونـان لمن جعلهمـا راحلة رجـلٍ لا مـالاً وأهلاً وطاعة الدنيـا لله (سبحانـه) هو انقيـادها انقيـاد الفعل للفـاعل كمـا قال (تعالىٰ) في السموات والأرض: ﴿قالتا أتينـا طائعين﴾[2] وإن لم يكن ثم قـول ولا يمتنع علىٰ الحكيم فعله ولا المنع من فعل غيره إذ هو القاهـر فوق عباده، وهو القادر لذاته.

وقول الدنيا لعن الله أعصانا لربه معناه: أبعد الله أعصانا لربه قول لسان الحال لا لسان المقال وعلىٰ أنه لو كان لها عقل، ولسان لقالت ذلك وقد قـال الشاعر:

وقـالت لـه العينـان سمعـاً وطـاعـة وحَـدرتـا كـالـدر لـمـا يـثـقـب

ومثله كثير ولا يصح في التـأويل غيـر ذلك وقـد أوضح السيـد الشريف تـأويلنا هـذا بما ذكـر من البيت المأخـوذ في معنى الخبر الشـريف وهـو قـول بعضهم:

يـقـولـون الـزمـان بـه فـسـاد وهم فسـدوا ومـا فسـد الـزمـان

ألا تـرىٰ أنهم حملوا ذنوبهم علىٰ زمـانهم إفكاً وبهتـاناً وزوراً وحسبـاناً فأحال الشاعر الحكيم الـذنب عليهم لأنهم الفاسـدون دونه إذ منهم المعصيـة والعدوان والزور والطغيان.

فأما الزمان فخيره اختبار، وشره اعتبار وهـو ليل ونهـار، وربح وخسـار، وفوز ودمار، فمن تلقىٰ الخير بالشكر والأذكار، والشر بالحمد والاصطبـار فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

---

(١) سورة الحديد آية ٢٠.
(٢) سورة فصلت آية ١١.

الحديث الحادي عشر

عن ابن عباس وقد تقدم الكلام في نسبه وشرح بعض خلاله وهل يخفىٰ البدر عند كماله؟ قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «اذكروا هادم اللذات فإنكم إن ذكرتموه في ضيق وسعه عليكم فرضيتم به فأُجرتم وإن ذكرتموه في غنىً بغضبه إليكم فجدتم به فأثبتم فإن المنايا قاطعات الآمال، والليالي مدنيات الآجال، وان المرء بين يومين يوم معاد قد مضىٰ أحصي فيه عمله فختم عليه، ويوم معاد بقي لعله لا يصل إليه. إن العبد عند خروج نفسه وحلول رَمْسِه يرىٰ جزآء ما أسلف وقلة غنى ما خلف ولعله من باطل جَمَعَهُ ومن حق منعه».

الإكثار معروف وهو نقيض الإقلال، والذكر هاهنا نقيض النسيان وهو خطور المذكور في البال ـ في جميع الأحوال.

والهادم مأخوذ من الهدم وهو التخريب، والهادم فاعل الهدم ومعناه يناقض معنى العامر. والهادم هاهنا هو الموت ولا نعلم شيئاً أهدم منه للّذات، ولا أكدر للشهوات وكيف لا يكون كذلك وكم من مسرور قد هدم سروره بالأحزان وملتذ قد نغص لذته بالأشجان فأصبح بعد الضحك باكياً وبعد الطرب شاكياً وكم في ذلك من شاهد ظاهر ومثل سائر. من ذلك ما روينا عن الوليد بن يزيد بن عبدالملك وكان جباراً مترفاً أنه قال: يوماً لجلسائه: يزعم الناس أن ملكاً ما تم له سرور يوم قالوا كذلك روي فقال: يزعمه بغية الكثكث متألياً علىٰ من كل ملك غير ملكه باطل، وكل سلطان غير

سلطانه زائل، والله لأستكملن لذة يومي هذا ثم أخذ جارية له يقال لها صبابة وكانت اشتريت بمال جسيم ولم يُر مثلها ودخل بستاناً في جانب دار الخلافة، وفيه أنواع الأشجار والأزهار، وأخذ غلاماً لطيفاً يصلح للخدمة من أظرف الغلمان وقال لحاجبه أطوِ عني جميع الأخبار ولو أخذ نصف المملكة، وأخذ ما يحتاج إليه في يومه ذلك من الطيبات والطيب ودخل إلىٰ مجلسه في بستانه، فلما استقر به المجلس وهي تضاحكه وتغنيه وتملح في عينيه إذ دعا الوليد برمان في جام جوهر فجاء به الغلام فأخذت حبة فطرحتها في فمها وضحكت فشرقت بها فماتت فقلبها فكان الحق فصاح واغول، فما لبثوا أن خرج عليهم مكشوف الرأس منتوف الشعر مخموش الوجه، باكي العين، حزين القلب، ولم يقبرها ثلاثة أيام حتىٰ اجتمعت بنوا أمية إلىٰ مسلمة بن عبد الملك وقالوا: هذه سبة لا تنسىٰ فدخل عليه وقال: ما أنت وحبس هذه الجيفة أعلمتُ إن في حبسها عار الأبد فقبرها وحزن عليها حزناً شديداً، وإن ذكرت صاحب الخورنق ففي أمره عجب، وذلك أنه كان من الملوك الأولين المتسعي الأحوال، فأطل ذات يوم رأس الخورنق فمد بصره في ناحية المغرب حتىٰ انقطع في البساتين والأنهار وأنواع الثمار فقال: لمن هذا الذي أرىٰ فقالوا: لك أبيتَ اللعن فالتفت إلىٰ ناحية المشرق فمد بصره حتىٰ انقطع في الخيل والإبل والبقر والغنم وسائر أنواع الحيوان فقال: لمن هذا، فقالوا: لك أبيت اللعن، فقال: هل تعلمون أحداً أُوتي مثل ما أوتيت؟ فقال: رجل من الرابضة وهم بقية الحجة لله (تعالى) علىٰ كل أمه: أيها الملك أبيت اللعن هل هذا الملك الذي أنت فيه وصل إليك من غيرك؟.. أم أنت فيه لابت لم تزل؟

قال: وصل إليَّ من آبائي ماتوا، فورثت بعدهم ملكهم.

قال: فهل تأمن أن يصيبك ما أصابهم؟

قال: هو واقع لا محالة.. قال: فما أدراك في شيء؟

قال: فما المخرج؟

قال: أحد أمرين إما أن تعمل في هذا الملك بطاعة الله (تعالىٰ) فتنصف المظلوم، وتحسن إلىٰ الرعية، وأما أن تعتزل الدنيا وتنقطع إلىٰ الله

(تعالىٰ) ليورثـك ملكاً لا يبلىٰ ولا يـزول فقال: انـظرني هذه الليلة لأنـظر في أمري فإن عزمت علىٰ الوقوف في ملكي كنت وزيراً لا تعصى، وإن انقـطعت إلىٰ ربي كنت صاحباً لا تقلىٰ فأمسىٰ ليلته يفكر فلما كان في آخر الليـل أخذ ثياب صوف وفزع إلىٰ الله (تعالىٰ) فلما فتح البـاب وجد صـاحبه عليـه ينتظره فقال: ما أجمعت عليه؟

قـال: علىٰ ما تـرىٰ؟ فقال: وفقت ثم سـاحـا في الأرض فضـربت بـه الأمثال فقال الشاعر:

وتـأمـل ربُّ الـخـورنـق إذ	أشـرق يـومـاً وللـهـدىٰ تفـكيـر
شـاده مـرمـراً وكـلله كـلسـاً	فـللطيـر فـي ذراه وكـور
سـرَّه حـالـه وكـثـرة مـا يملك	والـبـحـر مـغـرضـاً والـسـديـر
فـارعـوىٰ قـلبـه وقـال مـا لـذة	حـيٍ إلىٰ الـمـمـات يـصـيـر

وهي أبيـات، وقد روينـا عن عبدالله بن مسعـود قـال: قـال رسـول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أكثروا ذكر الموت وكونـوا من الله (تعالىٰ) علىٰ حذر فمن يأمل أن يعيش عبداً فـإنه يـأمل أن يعيش أبـداً، ومن كان يـأمل أن يعيش أبداً يقسو قلبه وصدق (صلى الله عليه وآله وسلم)» فنسـأل الله (تعالىٰ) التوفيق لاستشعار ذكر الموت وحسن الاستعداد لحلول الفوت.

قوله (عليه السلام): «فإنكم إن ذكرتموه في ضيق وسعه عليكم فرضيتم به فأجرتم، وإن ذكرتمـوه في غنى بغضه إليكم فجـدتم به فـأثبتم فإن المنـايا قاطعات الآمال، والليالي مدنيات الآجال».

الضيق: نقيض السعة وهما معروفان.

والرضىٰ نقيض الغضب، والأجر عندهم ما يقـع في مقابلة العمـل وقد قـال (سبحانـه) حاكيـاً عن موسىٰ (عليـه السلام): ﴿لـو شئت لتخذت عليـه أجراً﴾ (سورة الكهف آية ٧٧).

والغنىٰ: نقيض الفقـر، والفقـر: نقيض المحبـة، والجـود: نقـيض البخل، والثواب: ما يقع من النفع في مقابلة العمل، أخذ من ثاب يثوب أي رجع يرجع فلما رجع العمل علىٰ صـاحبه بـالنفع العـظيم سمي ثوابـاً، لأجل

ذلك المعنىٰ لما كان خير الدنيا وشرها في الضيق والسعة اللذين بلانا الحكيم (سبحانه) في قوله (عز وجل): ﴿ونبلوكم بالخير والشر فتنة﴾[1] فالضيق يقع في الامتحان، والبلايا من الأمراض والأسقام، والعلل، ومحو التكليف كالجهاد والخوف والفقر إلىٰ غير ذلك.

والسعة تقع في الغنىٰ، والرفاهية والأرزاق والمواد والمنافع فكأن الموت يأتي علىٰ ذلك فيرفع مشقة المكروه.

إما إلىٰ ما هو أشد منه من العذاب الأليم، والخطب الجسيم.

وإما إلىٰ ما ينسيه ويصغره من الثواب العظيم والملك العقيم فمن فكر في نزول الموت وهو في ضيق بأحد الأمور التي قدمنا وسعه عليه بسرعة الزوال، ووشك الارتحال، وعلم أن المنقطعات من المضار في حكم المعدومات عند أهل التحقيق فلم يرفع بها رأساً، واستصغر خطرها ورضي بها فيؤجر عند ذلك أجراً بغير حساب كما قال الله (تعالىٰ): ﴿إنما يوفىٰ الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[2]، وإن ذكر الموت وهو في غنىً بكثرة مال وسعة حال بغض ذلك الغنى إليه بأحد أمرين لا بد من وقوعهما إما بذكر فراق الأهل والمال، ووحشة المقدم وهول المآل، وإما باحتياج ذلك الأهل والمال وانتزاعه منه فيبقىٰ لذلك كئيباً حزيناً كأنه ما غني ساعة واحدة بأهل ولا مال فكأن لم يكن الأهل ولم يكن المال فحنيئذ يفرح العاقل المتوسم بتقديم الأهل والمال وتخفيف باهظ الأثقال من دار البوار إلىٰ دار القرار، وذلك أبلغ الجود (أي السماحة لله (سبحانه) وفيه بالأهل والمال وعلىٰ ذلك تقع المكافأة بمحاريب النضار وحدائق الأشجار، وكواثر الأنهار، والعرب الأبكار إلىٰ غير ذلك مما وعد به العزيز الغفار مما لا ينتهي له إلىٰ حد ويشاور فيه إلىٰ مقدار وعد، وقد نبه (عليه السلام) على أحد المعنيين الذين ذكرناهما بقوله: «فإن المنايا قاطعات الآمال والليالي مدنيات الآجال».

المنايا جمع منية ـ والمنية هي فراق الروح للجسد بأي وجه قال: بعض من يوثق بلسانه:

(١) سورة الأنبياء آية ٣٥.
(٢) سورة الزمر آية ١٠.

دعتـك أميـر المؤمنين منيـة تكون بمرصاد الفتىٰ حيث يمما

وقال الحريري: وحقه في معرفة اللسان لا يجهل:

فـالمنـايـا ولا الـدنـايـا وخيـر من ركوب الخنا ركوب الجنازة

والقطع نقيض الوصل، والآمال جمع أمل وهو ما يرجىٰ وصوله من الخير في المستقبل، وأصل الأمل القصد، فلما كان الخير المرجو يقصد إليه سمي أملاً.

والليالي زوجات الأيام، وأولادهما المصائب والأحداث والمدنيات هي المقربات تقول أدنىٰ يدني، كما تقول قرب يقرب، والآجال هاهنا هي الأوقات لفراق الأرواح للأجساد، وفي العموم جميع أوقات الأمور المتوقعات والمعنى أنه (عليه السلام) نبه علىٰ ذكر المنايا، وأنهن يقطعن الأمل، ويدنين الأجل، وذلك ظاهر كم من أمل مقطعوع قطعته المنايا وأجل بعيد أدنته الليالي فصار الأمل بعيداً قاصياً والأجل قريباً دانياً فأوشك بموصول عضته شفار المنية أن ينقطع، وبعيد جعلت الليالي له مطية أن يصل فالحازم والحال هذه من جعل الأمل خلفه والأجل أمامه فحاذر لزامه وأجال في مكاسب الخير سهامه ففاز بالسلامة ونجىٰ من الحسرة والندامة.

قوله (عليه السلام): «وإن المرء بين يومين، يوم قد مضىٰ أُحصي فيه عمله فختم عليه، ويوم قد بقي لا يدري لعله لا يصل إليه...».

المرء موضوع في أصل اللغة للذكر، والمرأة للأنثىٰ، والألف واللام للجنس، وهما عندنا يفيدان العموم والاستغراق، وخص الذكور هاهنا لأن الإناث في حكم التابع، وإن كان المراد الجميع، والأيام ثلاثة يوم نحن فيه، ويوم خلفنا، ويوم أمامنا، فيومنا الذي نحن فيه بين يومين الأمس ماضٍ ذاهب والغد معدوم فبذهاب الماضي أحصي فيه العمل وبعدم الباقي لم يُمددُ العاقل إليه.

الأمل، والإحصا، والحص، والاستقصاء معناها واحد وهو استيعاب الأمر حفظاً وتدبيراً، والمراد به هاهنا الحفظ وقد قال (تعالىٰ) حاكياً عن أهل النار نعوذ بالله (تعالىٰ) من مثل حالهم: ﴿يقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا

يقاد صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾[1].

والختم هو العلامة في الأصل، فلما كان إلصاق الكتاب بالشمع أو شبهه علماً للمنع من فضه وقراءته قيل فيه مختوم، وعلىٰ ذلك يحمل قوله (تعالىٰ): ﴿اليوم نختم علىٰ أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم﴾[2] معناه والله أعلم تلصق شفاههم بعضها ببعض فلا يستطيعون الكلام في تلك الحال، ومعنىٰ الختم في هذا الخبر أن يفصل بين عمل كل يوم وليل وليلة، ويوم لعلامات حتىٰ تقرر علىٰ عمل كل يوم وعمل كل ليلة علىٰ حدة وهذا فزع عظيم.

وخص الأيام بالذكر وإن كانت الليالي من أوقات التكليف وقد تقع فيها الأعمال، لأن أكثر أعمال الخير، والشر تقع في الأيام دون الليالي، ويوم قد بقي لا يدري لعله لا يصل إليه الباقي في نقيض الماضي، ولعلّ من ألفاظ الترجي، والمترجا لا يقطع بوصوله، والوصول معروف وهو بلوغ الأمر المترجي فالمعنى في ذلك أنه (عليه السلام) نبه علىٰ تعجيل فعل الخير، وتجديد التوبة إذ هي أصل كل خير، وفقدها سبب كل شر لأن يومنا الماضي قد ختم علينا عملنا فيه، ويومنا الباقي لسنا علىٰ يقين من البلوغ إليه فالواجب الفزع في وقتنا هذا الذي نحن فيه، وليس في أيدينا علىٰ الحقيقة سواه لابطال ما تقدم في يومنا الماضي بالتوبة والاستدراك وترك التسويق للعمل في يومنا الآتي الذي يجوز أن يخترمنا دونه الحمام، ويهجم علينا الهلاك فنطمع في الفكاك ولات حين فكاك، وكيف وقد خبطتنا إلاّ أن يرحمنا ربنا، الحبالة واستحكمت علينا أناشيط الشباك فيا أيها المغرور، وكلنا ذلك المغرور إلاّ أن تداركنا رحمة من ربنا ما حملك علىٰ الغفلة وأنت علىٰ غير يقين من المهلة.

قوله (عليه السلام): «إن العبد عند خروج نفسه، وحلول رمسه».

العبد قد تقدم الكلام فيه وهو المذلل لربه بالعجز والحدوث. والخروج نقيض الدخول، والنفس هاهنا الروح قال الله (تعالىٰ): ﴿والملائكة باسطوا

---

(١) سورة الكهف آية ٤٩.
(٢) سورة يس آية ٦٥.

أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾[1] المراد أرواحكم والله أعلم، وهي تفيد في الأصل أشياء مختلفة، منها ذات الإنسان كما قال (تعالىٰ): ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾[2] وقوله (تعالىٰ): ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾[3] سائق يسوقها لحسابها وشاهد يشهد عليها بعملها، ومنها الدم كما قال شاعرهم:

تسيل علىٰ حد السيوف نفوسنا   وليست علىٰ غير السيوف تسيل

ومنه قول: أهل الشرع ما لا نفس له سائله يريد ما لا دم له سائل، والخروج نقيض الدخول. والحلول نقيض الرحيل وهو مأخوذ من حل عقد الرحال عند النزول، فسمي النازل رحالاً، لمّا كثر ذلك وإن لم يحل عقده رحل أصلاً قال أعشى بكر:

به تنقض الأحلاس في كل منزل   وتعقد أطراف الحبال وتطلق

والرمس هو: القبر، وسمي رمساً لأن الميت يرمس فيه، بمعنى يغيب ويوارىٰ كما يرمس الإنسان في الماء وهو محله إلىٰ أن يصيح به صائح البعث فيرحل منه إلىٰ موقف إما آمنا مسروراً، وإما خائفاً مثبوراً.

قوله (عليه السلام): «يرىٰ جزاء ما أسلف وقلة غنا ما خلف».

الرؤية والإدراك والمشاهدة: معناهما واحد.

والجزاء في أصل اللغة هو: العوض. والمراد به هاهنا: الثواب لأنه جعله في مقابلة ما أسلف العبد من الإنفاق وقدم بين يديه من الإرفاق لوقت الحاجة، والأملاق عند التفاف الساق بالساق، وعدم الطبيب والراق، فكم من فائز قبل حلول التهويز ومغتر بالتمني والتجويز، ومعنىٰ قوله (عليه السلام): «يرىٰ جزاء ما أسلف» متعلق بقوله عند حلول رمسه، جزاء ما أسلف متعلق بقوله: عند حلول رمسه يرىٰ ذلك ويشاهده، وعند اسم الحال وقبل اسم الماضي وبعد اسم المستقبل وهذا دليل واضح علىٰ عذاب القبر فلا وجه لإنكار ذلك إلّا بمخالفة الدليل وتنكب السبيل وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٣.
(٢) سورة النحل آية ١١١.
(٣) سورة ق آية ٢١.

وسلم) في حديث فيه بعض الطول أن الميت يبعث في قبره، ويعاد إليه روحه ويقعد ويبعث الله (تعالىٰ) إليه ملكين صفتهما كذا وكذا هولاً عظيماً، فيقولان: له من ربك وما دينك وما كنت تعمل؟ فإن فارق الدنيا مؤمناً قال: ربي الله، وديني الإسلام، وكنت أعبد الله (تعالىٰ) ولا أشرك به شيئاً، فيقولان: أحسنت يا وليَّ الله ثم يفتحـان له باباً إلىٰ النار فيصد عنها، فيقولان لو أتيت علىٰ ما أتيت لكان إلى هذه مصيرك ثم يفتحان له باباً إلىٰ الجنة فيهش إليها فيقولان: أما إذا أتيت علىٰ ما أتيت فإلىٰ هذه مصيرك، ثم يقولان له: نم نومة العروس غير المؤرق قال (عليه السلام): «فوالذي نفس محمد بيده إنه ليصل إلىٰ قلبه فرحة لا ترتد أبداً» وإن فارق الدنيا فاسقاً. . قالا له: مثل ما تقدم فيقول لا أدري فيقولان: لا دريت ولا تليت ثم يضربانه ضربة يتطاير شرراً في قبره، ثم يعيده الله (تعالىٰ) ويفتحان له باباً إلى الجنة فيهش إليها فيضربانه ويقولان: أما لو أتيت علىٰ غير ما أتيت لكان إلىٰ هذه مصيرك، ثم يفتحان له باباً إلىٰ النار فيصد عنها فيضربانه ويقولان: أما إذا أتيت علىٰ ما أتيت فإلىٰ هذه مصيرك، قال (عليه السلام): «فوالذي نفس محمد بيده أنه ليصل إلىٰ قلبه حسرة لا ترتد أبداً»، فهذا وجه قوله: (عليه السلام) «يرىٰ جزاء ما أسلف».

والأسلاف، والإسلام معناهما واحد، ومنه قيل سلف للقرض مطلقاً، وسلم للقرض علىٰ وجه مخصوص، وهو البيع الجاري مجراه والغنى هو النفع الذي ترتفع به الحاجة، والتخليف هو ترك الشيء خلف ظهره، وهو مأخوذ من الخلف وهو نقيض التقديم، والمعنىٰ في ذلك أن ينظر إلى جزائه في قبره علىٰ ما أسلف بين يديه إن كان أسلفه وقلة نفع ما خلفّ خلف ظهره إن كان خلفه فالمخلف على التحقيق حساب وغناً، والمقدم علىٰ التحقيق ثواب وغناء، والقديم أصلح الأمرين وأنفع الذخرين. . .

قوله (عليه السلام): «ولعله من باطل جمعه، ومن حق منعه» لأن أحوال الناس تختلف فلذلك رجح القول فيه. . والباطل هو الذاهب الهالك الذي لا حقيقة له، والحق هو الواجب اللازم الذي لا شك فيه، والمنع نقيض الإعطاء، ومعنىٰ ذلك أن الحق علىٰ مرجع المال من الباطل ومنع الحق فيه وهو تسليمه إلىٰ مستحقه يكون أوضح وجوباً، وأعظم حوباً، فيا جامع المال من الباطل لمن تجمعه في دار النفاد والزوال، ألنفسك فقد علمت وشك الرحيل، وسرعة

الانتقال أم لولدك فما تنفعك لذته وأنت في أنواع النكال وجوامع الأغلال.

ويا مانع الحق لم منعته أجهلت أن الحق الذي عليك هو حقك من مالك عند حلول ارتحالك فيا أبخل البخلاء لأنك بخلت علىٰ نفسك بما يؤنسك وحشة هول المطلع عند حلول رمسك بماذا تعتذر إلىٰ ربك وتتنصل من عظيم ذنبك...

الحديث الثاني عشر

عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أيها الناس إن الرزق مقسوم، ولن يعدوَ امرء ما كتب له، فأجملوا في الطلب، وإن العمر محدود لن يتجاوز أحد ما قدر له، فبادروا قبل نفاد الأجل والأعمال محصية قال السيد الوجه مُحصَّاةً لن يهمل منها صغيرة ولا كبيرة فأكثروا من صالح العمل. أيها الناس إن في القنوع لسعة وإن في الاقتصاد لبلغة وإن في الزهد لراحة، ولكل عمل جزاء، وكل آتٍ قريب».

الرزق هو ما أمد الله (تعالىٰ) به عباده مما لهم تناوله وليس لأحد منعهم منه علىٰ الإطلاق، وقد يكون خاصاً في أنواع الأموال لأنه في الأصل وضع كذلك، وقد يستعار للولد فيقال: فلان رزق مالاً وولداً.

والقسمة التفريق علىٰ الوجه الذي يطابق الحكمة، ولا تعتبر فيه المساواة كما ذهب إليه بعض جهال الشيعة لأنا نعلم أن قسمته (تعالىٰ) في المواريث عادلة لا ينكر عدله في ذلك أحد من المسلمين، وقد تختلف اختلافاً لا تحتمل العقول معرفة علله في زيادته ونقصانه بل لا يعاد في ذلك إلّا إلىٰ اختياره وتسليم الأمر له جملة. وأنه لا يفعل إلّا الحكمة وذلك في مثل تسويته (تعالىٰ) تارة بين الأب والأم، وتارة فضل الأب وعند بعض أهل العلم فضل الأم، وتارة فضل أولاد الأب والأم علىٰ أولاد الأم، وتارة أعطىٰ أولاد الأم كما اختاره علي (عليه السلام) وحرّم أولاد الأب والأم، ومن طلب تعليل هذا بغير اختياره (تعالىٰ) وحكمته لَحق بالقرامطة، وتاه في ميدان الضَّلال، ويكفيك في هذا قول الله

(سبحانه وتعالىٰ): **﴿كلًّا نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾**[1] هؤلاء، وهؤلاء أراد (سبحانه) المؤمنين، والكفار، والأخيار، والأشرار، ولا وجه للآية يعقل إلاّ هذا، ثم بين (تعالىٰ) كيفية الإعطاء فقال (تعالىٰ): **﴿انظر كيف فضلنا بعضهم علىٰ بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾**[2] فصرح بالمفاضلة بين عباده بالإمداد وحث علىٰ النظر إلىٰ ذلك بعين الفكر والإرشاد.

وقال (تعالىٰ): شافعاً لما ذكرنا **﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾**[3] خبيراً بما يصلحهم من ذلك بصيراً بعواقب أعمالهم، ومبالغ آجالهم، وقال (تعالىٰ) في الدلالة علىٰ أنه الرازق لأهل المعاصي من عباده فقد خالف فيه من خالف في المفاضلة مخاطباً للمشركين خاصة ولا معصية أكبر من الشرك بالله (تعالىٰ): **﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيراً﴾**[4]، فصرح (سبحانه) بأنه الرازق لهم، وإن كانوا قد أضافوا إلىٰ الشرك خطأً كبيراً هو قتل أولادهم فلم يمنعهم ذلك من رزقهم في دار الدنيا، ولا يتحقق التكليف ما لم يكن (تعالىٰ) منعماً عليهم فانظر إلىٰ هذه المقالة كيف تؤدي إلىٰ سقوط التكليف بوجوب شكر الباري (تعالىٰ) عن أكثر العباد، وأين الناظرون وقال (تعالىٰ): في الدلالة علىٰ التفضيل في الرزق: **﴿والله فضل بعضكم علىٰ بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم علىٰ ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون﴾**[5] فقد تبين لك صحة ما ذهبنا إليه من أن القسمة بعدل وإن وقعت فيها المفاضلة لأنها تقع مطابقة لما يعلم الله (تعالىٰ) من المصلحة وإن كانت متفاضلة كما صرح (تعالىٰ) بذلك تصريحاً لا مجال للتأويل فيه، ثم بين عجزنا عن رزق أنفسنا بأنا لا نقدر علىٰ رد ما رزقنا علىٰ ملك أيماننا بوجه من الوجوه مع بقاء الملك لأن ما صار في أيديهم فهو مالنا دونهم، ولا يمكننا الخروج عنه

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٠.
(٢) سورة الإسراء آية ٢١.
(٣) سورة الإسراء آية ٣٠.
(٤) سورة الإسراء آية ٣١.
(٥) سورة النحل آية ٧١.

لهم مع بقاء ملكهم لنا مع أنه يمكننا إخراجهم وتحريرهم عن رقنا بعتقهم، وتمليكهم ما شئنا من أموالنا، ومثل هذا التقدير مستحيل فينا لأنه لا يمكننا تحرير أنفسنا عن ملكه لنا أصلاً بل ذلك مستحيل فينا كما أنه جائز منافي مماليكنا الذي ملكنا منةً. . . منه (تعالىٰ) علينا فلا يمكننا أن نملكهم شيئاً من رزقنا مع بقاء رقنا، فأما نفقتهم وكسوتهم فهي من قبله (تعالىٰ) وأحبه لهم عندنا، وما عدا ذلك لا يمكننا إيصاله إليهم حتىٰ يكون رزقاً لهم فكيف يمكننا أن نرزق أنفسنا أو نجحد رزق ربنا، ومفاضلة بيننا وقد صرح بذلك في القرآن المجيد، فمخالفته ضلال بعيد، وزيغ شديد وما الملجي إلىٰ ذلك، وقد روينا عن جابر أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «أيها الناس إن أحدكم لن يموت حتىٰ يستكمل رزقه فلا تستبطئوا الرزق واتقوا الله أيها الناس، وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرّم» وقد صرح أمير المؤمنين (عليه السلام) بمقالتنا هذه في النثر تارة وفي النظم أخرىٰ بما لا يتسع الكتاب لإحصائه، وإنما نذكر منه طرقاً كافياً ﴿لمن كان له قلب وألقى السمع وهو شهيد﴾[1] من ذلك ما روي عنه في كتاب نهج البلاغة من قوله (عليه السلام): «وقسم الأرزاق فقللها وكثرها وقسمها علىٰ الضيق والسعة وعدل فيها وامتحن من أراد في ذلك بميسورها ومعسورها وأراد بذلك الصبر والشكر من غنيها وفقيرها، وقرن بسعتها بقايا فاقتها وبفرح أفراحها غصص أتراحها في كلام طويل» فإذا تأملت مقالتنا علمت أنا اغترفنا من ذلك القليب، وضربنا في علم آبائنا بأوفر نصيب، وروينا عنهِ (عليه السلام) في النظم أنه قال:

إذا يقضي لك الرحمن رزقاً	يعد لرزقه المقضي باباً
وأن يحرمك لا تسطع بحول	ولا رأي الرجال له اكتساباً
فأقصر في خطاك فلست تعدو	بحيلتك القضاء ولا الكتابا

وهذا تصريح بما ذهبنا إليه في القسمة وأنها من الله (تعالىٰ) وأنه عادل في المفاضلة فيها وأن حرص الحريص لا يغني عنه شيئاً يقال: عدا الأمر إذا تجاوزه.

وحقيقة الكتاب لغة أن يكتب السلطان لكل رجل قسطاً بما يعطيه من

---

(١) سورة ق آية ٣٧.

رزقه، فلما قسط (سبحانه) لكل إنسان بل لكل دابة ما يتعلق بإصلاحها من رزقه السابغ ومنه البالغ، وقطّط ذلك في اللوح المحفوظ أخبر بذلك (سبحانه) علىٰ لسان نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) خبراً صادقاً مؤذناً بأن الرزق قد فرغ منه وأن أحداً لا يتجاوز المكتوب له في الذكر الحكيم.

والإجمال نقيض الإلحاف، وهو التخفيف في السؤال والميل إلىٰ التعريض في المقال وترك الكد الذي يؤدي إلىٰ ترك شيء من المفروضات، أو نبذ شيء من المشروعات.

والطلب معروف: وهو البحث عن الشيء المراد والتعرض له. ومعناه هاهنا عائد إلىٰ الرزق لأنه المعهود...

قوله (عليه السلام): «وإن العمر محدود لن يتجاوز أحدٌ ما قُدر له فبادروا قبل نفاد الأجل».

العمر مدة حياة الإنسان، وقد يكون مطلقاً، وقد يكون مشروطاً، والمحدود الذي يضرب له أوقات معلومة يمنع من تجاوزها يقال حَدَّه إذا منعه، وأصل الحد المنع، ومن ذلك تسميتهم البواب حداداً قال الفرزدق:

يقول لي الحداد وهو يقودني إلىٰ السجن لا تجزع فما بك من بأس

ولن: إذا أطلق أفاد نفي الأبد.

والتجاوز هو تعدي الحدود المضروبة، وأحد تحقيق واحد فهو أبلغ منه في الإفراد، والتقدير هو إيقاع الشيء مرتباً ترتيباً يطابق الحكمة ومعنىٰ المبادرة، والمسارعة واحدٌ.

وقيل نقيض يعد، والنفاد هو التقضي والزوال، والأجل هو الوقت المضروب نهاية للعمر، والمعنىٰ في ذلك أنه (عليه السلام) أخبر بأن العمر محدود حدده مالكه علىٰ وجوه علم حسنها من تطويل وتقصير علىٰ قدر مقدور، وأن أحداً لا يمكنه تجاوز ما قدر له منها، وعلينا له حقوق مؤقتة ولحياتنا آجال مضروبة فإن ضيعنا ما فرض علينا في أعمارنا التي وهبها لنا لم نتمكن من الزيادة عليها ومجاوزة آجالنا لاستدراك ما فاتنا وضاع علينا من أعمالنا بتسويفنا وآمالنا وكيف يسوغ ذلك لنا والأعمار محدودة، والآجال

مضروبة وتجاوزها مستحيل وليس إلى رد القضاء سبيل، فهل ترىٰ للغفلة وجهاً، أو للتقصير سبباً فالتشمير شأن أهل التدبير، وقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: في كتاب نهج البلاغة في الآجال وقسم الآجال فطوَّلها وقصرَّها وقدَّمها وأخرَّها وجعل الموت خالجاً لاشطانها، وقاطعاً لمرائر أقرانها، صرح (عليه السلام): «بأن تطويل الآجال، وتقصيرها، وتقديمها، وتأخيرها إلىٰ الله (سبحانه) دون عباده، ولا يمكنهم تطويل ما قصرّ، ولا تقصير ما طوّل ولا تأخير ما قدّم، ولا تقديم ما أخرّ».

قوله (عليه السلام): «والأعمال محصية» هكذا سمعناه، ووجه محصاه كما ذكره السيد الشريف لن يهمل منها صغيرة ولا كبيرة «فأكثروا من صالح العمل».

المراد بالأعمال هاهنا أعمال العباد وهي أعمال الجوارح، والقلوب التي يُحصيها عليهم علّام الغيوب، وقد تقدم معنىٰ الإحصاء وهو تعميمها بالكتابة والحفظ، والإهمال أصله في الأبل تترك سدىٰ لا تُرعا، والصغيرة ما يكون عقاب صاحبها في كل وقت أقل من ثوابه في كل وقت، وأعداد كبائر المعاصي كثيرة لا تنحصر أعيانها ولا يعلم من الطاعات كبيرة إلّا التوبة، وباقيها مع الذنوب في حكم الصغائر فإذا تفكرت في هذا أكسبك خوفاً شديداً. والإكثار نقيض الإقلال، وصالح العمل ما سلم في باطنه وظاهره من الفساد وذلك لا يكون إلّا فيما تجردت النية فيه لله (تعالىٰ) وكان خالصاً لوجهه لا يشوبه شيء من الرياء والسمعة والقصود الفاسدة، والمعنىٰ إذا كانت هذه القصة وكانت «الأعمال مُحصاة علينا» يقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقول الله (سبحانه): ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر﴾[1] أي مكتوب محفوظ، وإنّما أمر (عليه السلام) بإكثار الصالح من العمل لأن الصغير والكبير غير مهمل ولا ساقط الحكم رأساً، وعند كثرة العمل الصالح يصير العمل الطالح، مصروف الحكم بحكم الزيادة، وقد يكون العمل صغيراً باعتبار، وقد يكون كبيراً باعتبار بسبب اختلاف أحوال العاملين في الأعمال، وفي هذا دليل علىٰ الموازنة وأن الصغير من أعمال الخير نافع،

---

(١) سورة القمر آية ٥٢.

والصغير من أعمال الشر ضار فليشتغل قلب المكلف العاقل بمراعاة الأفعال والتحفظ في الأعمال، واعلم أن التوبة أجل أعمال الخير وأكثرها نفعاً وهي: مأثورة عن الأنبياء (عليهم السلام) والأئمة الصالحين (رضي الله عنهم) وهي: تقع عن الذنب المعلوم المعين معينه، وعن الذنب المجهول علىٰ الجملة مجملة، وإنّما كانت حالها عظيمة لأن بها يتحقق تعظيم المخلوق للخالق (سبحانه وإجلاله) لأنها تتضمن تحري رضاه، والتنصل من سخطه فمن لزمها في أكثر الأوقات فقد وفق وفاز وعلىٰ ذلك يحمل ما روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «يغفر للعالم أربعين ذنباً قبل أن يغفر للجاهل ذنباً واحداً» لأن العالم يعرف أحكام أفعاله ويعرف ما في التوبة من النفع فلا يغفل عنها، والجاهل ربّما جهل ذلك، وأقل ما يوقعها الحازم المحترس في أول يومه لما مضى في ليله وفي أول ليله لما مضىٰ في يومه فلا يمسي إلاّ تائباً، ولا يصبح إلاّ تائباً فحينئذٍ تنمو الأفعال وتتناهىٰ في الزيادة والرجحان..

قوله (عليه السلام): «أيها الناس إن في القنوع لسعة، وإن في الاقتصاد لبلغة وإن في الزهد لراحة» القنوع من أسماء الأضداد، وقد تكون إسماً للسائل الملحّ، وقد تكون للمتعفف. والمراد هاهنا العفة.

والسعة نقيض الضيق، والاقتصاد هو الاكتفاء بالقليل عن الكثير، وحسن الترقيح والتدبير.

والبلغة ما يوصلك من الشيء إلى الشيء بغير زيادة لأن أصل البلاغ الإيصال، والزهد هو ترك أكثر الحلال خيفة من مشقة الحساب، ومواقعة العذاب، وأصل الزهد القلة يقول: قائلهم أزهدتُ بمعنىٰ أقللتُ، والزهيد القليل فكأنه (عليه السلام) قال: «في القليل راحة من همِّ جمعه، وهمِّ فراقه ومشقة حسابه».

والراحة نقيض التعب والمعنىٰ في ذلك أن من قنع بالقليل في هذه الدنيا أفضىٰ به القنوع إلىٰ السعة في الأخرىٰ وقد قال بعض الصالحين: إن طلبت من الدنيا ما يكفيك فأقل الأشياء منها يكفيك، وإن طلبت فوق ما يكفيك فكل ما فيها لا يكفيك، فأشار إلى أن طالب الكثير لا ينتهي إلىٰ غاية لأن الاحتواء علىٰ جميع ما في الدنيا مستحيل ومحمله لو أنفق ثقيل ومرعاه

وبيل، ومتاع الغرور فيه قليل وليس إلىٰ نيل الخلود سبيل، هذا ومن للمخف باللحاق إذا أرسلت خيل السباق والصق القطيع بالساق وكان إلىٰ الحكم العادل المساق فكم من مجلد مقطوع الأباهر، وكم من جَلدٍ للخد عاثر وكم من موفق فاز بقدح القامر وجد الواتر، فمن أتقته القناعة إلىٰ السعة فاز، ومن أنهته الرغبة إلىٰ الضيق عطب، والاكتفاء بالقليل الذي هو الاقتصاد فيه بلاغ للمقتصدين إلىٰ مراتب الخير في الدنيا ودرج الثواب في الآخرة.

والاقتصاد هو أصل قوي من أصول السلامة إذ تتعلق به النجاة من العطب والتخلص من الأشب لأن المتوسعين في الدنيا ربما أفضت بهم السعة إلىٰ ضيق الحساب، وورطة العقاب وما تطلب أيها المغرور بعد البلاغ والنجاة في دينك من الارتياع إن كنت من المتفكرين. فأما الزهد فهو تاج الإسلام وعنوان السلامة وبه تنجوا العباد من الحسرة والندامة، والمحروم من حرمه، والمرزوق من رزقه، وهو الذي اختصت به الأنبياء (عليهم السلام) وتفاضل فيه الصالحون (رضي الله عنهم) وجعل شرطاً في الإمامة التي هي خلافة النبوة فانظر إلىٰ خطره ما أكبره وإنما كان راحة كما ذكر في الخبر الشريف لأن الزاهد بالزهد غني فهو في راحة الغنىٰ لابث طول عمره، والراغب بالرغبة محتاج إلىٰ ما رغب فيه فهو في ذل الفقر وضيقه سادك طول دهره. وفي ذلك ما روينا عن البراء ابن عازب أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «إن لله خواصاً يسكنهم الرفيع من الجنان كانوا أعقل الناس» قال: قلنا يا رسول الله وكيف كانوا أعقل الناس؟ قال: «كانت نهمتهم المسابقة إلىٰ ربهم والمسارعة إلىٰ ما يرضيه، وزهدوا في الدنيا وفضولها ورياشها ونعيمها وهانت عليهم فصبروا قليلاً واستراحوا طويلاً».

قوله (عليه السلام): «ولكل عمل جزاء، وكل آت قريب».

كل من ألفاظ العموم. لأنه يقابل بالبعض فلولا أنه يعم لما جاز ذلك فيه.

والعمل هو عمل القلب والجوارح وهذه اللفظة تؤيد القول بالموازنة.

والجزاء هو ما يكافأ به العبد في مقابلة عمله، وقد قال (تعالىٰ): ﴿وإن

ليس للإنسان إلّا ما سعىٰ وأن سعيه سوف يرىٰ ثم يجزاه الجزاء الأوفىٰ﴾[1].

والآتي نقيض الماضي، والقريب نقيض البعيد، والمعنى في ذلك أن العبد إذا علم بخبر الصادق الذي لا يجوز عليه الكذب في خبره وكلامه أنه يجازىٰ علىٰ قليل عمله وكثيره وكبيره وصغيره كان ذلك لطفاً له في الاستكثار من الطاعات والاحتراز من المقبحات، وإذا علم أن الوعد والوعيد صادقان، وأنهما آتيان والآتي قريب كما قال (عليه السلام): وكما يشترك في العلم به الخاصة والعامة قال الشاعر:

لعمركما أن البعيد لما مضىٰ وأن الذي يأتي غداً لقريب

فإذا كان ذلك كذلك، وعلم أن الأمر في الوعيد عظيم وأن الخطب في الموعود جسيم، وخاف أحدهما، ورجا الآخر كان أقرب إلىٰ الاجتهاد في الاحتراز مما خاف فنسأل الله (تعالىٰ) اجتهاداً نافعاً وخوفاً دافعاً والصلاة علىٰ محمد وآله..

---

(١) سورة النجم آية ٤٠.

الحديث الثالث عشر

عن أنس ابن مالك وقد تقدم الكلام في ذكر نسبه وصفاته قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: في بعض خطبه أو مواعظه «أما رأيت المأخوذين علىٰ الغرة والمزعجين بعد الطمأنينة الذين أقاموا علىٰ الشبهات، وجنحوا إلىٰ الشهوات حتىٰ أتتهم رسل ربهم فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا، ولا إلىٰ ما فاتهم رجعوا، قدموا علىٰ ما عملوا، وندموا علىٰ ما خلفوا، ولن يغني الندم وقد جف القلم، فرحم الله امرءاً قدّم خيراً، وأنفق قصداً وقال صدقاً، وملك دواعي شهوته، ولن تملكه، وعصىٰ أمر نفسه فلم تهلكه».

وقد تقدم الكلام في معنىٰ الخطبة، ولا بد من التحميد في أولها، والموعظة هي التذكير بآلاء الله (تعالىٰ) وبلائه. والتخويف من عقابه والترغيب في عطائه وثوابه.

قوله (عليه السلام): «أما رأيت المأخوذين على الغرة».

الرؤية معروفة وهي تكون بمعنىٰ العلم، وأصلها المشاهدة والمأخوذ هو المبطوش به، والغرة أن يبغت الإنسان الأمر وهو علىٰ غير أهبة ولا استعداد، ويقال جاءهم الأمر فجأةً علىٰ غرة، ومن ذلك حيث بني المصطلق، وأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) غزاهم وهم غارون فواقعهم علىٰ الماء فاجتاح الأموال وسبىٰ الذرية واصطفىٰ جويرية في قصة طويلة فعلق بها الخبر من الحكم جواز الغارة والغزو من دون تجديد الدعوة إذا كانت قد بلغت،

والمعنى في ذلك التخويف من عاقبة الاغترار ببطشات الجبار، وهي من جملة نعمه عند ذوي العقول لأن من أخافك حتىٰ يوقعك في الأمن أنصح لك ممن أمنّك حتىٰ يوقعك في الخوف، وقد رأينا المأخوذين علىٰ الغرة.

والسعيد من وعظ والشقي من وعظ به غيره بغيره فنسأل الله (تعالىٰ) أن يجعلنا بغيرنا متعظين، ولا يجعلنا بأنفسنا لغيرنا واعظين، وأي عذر لنا في الاغترار وقد وعظنا بغيرنا إن كنّا متعظين، وذكرنا بالقوارع إن كنّا متذكرين فكم من مأخوذ علىٰ غرة ونحن ناظرون لم ينفعه المال والبنون ولا دفعت عنه عشيرته الأقربون بل حملوّه ثقل أوزاره، وأزعجوه عن داره وقراره في ثياب يسيرة، وزانة حقيرة، ودلوه في أضيق حفيرة فصبوا عليه التراب، وأسلموه للعذاب فأي واعظة أبلغ من هذه وأفجع وألم للقلوب وأوجع وأهدىٰ للمتعظين وأنفع فيا أيها المغرور أما رأيت المأخوذين علىٰ الغرة فكرهت سنة الاغترار، وأخلدت إلىٰ طاعة العزيز الجبار، فالتزمت بعراها المتينة وجعلتها لك في لجج بحار الضلال سفينة.

قوله (عليه السلام): «والمزعجين بعد الطمأنينة».

الإزعاج هو الإخراج عن الأمر المسكون إليه بعنف وشدة لا يكون إزعاجاً حتىٰ يكون كذلك.

والطمأنينة: هو السكون والدعة يقال اطمأن إلىٰ هذا الأمر أي سكن إليه، وقد رأينا المزعجين بعد الاطمئنان بالسماع والقيان فما تطلب بعد ذلك من بيان إن تفكرت في ملوك الإسلام، فانظر إلىٰ أمية الطاغية، وفئتها الباغية وعزتها العالية، ونخوتها السامية، وسطوتها العاتية فهل ترىٰ لها من باقية؟ دهمتها الداهية الناد فألحقتها بظالمي قوم عاد بعد أن طغت في البلاد، وأكثرت فيها الفساد، ووثرت المهاد وثنت الوساد وملكت النجاد والوهاد حتىٰ كان يخطب لواحدهم كل يوم جمعة علىٰ ثمانين ألف منبر علىٰ رؤوس الأشهاد، فأي طمأنينة أعظم من هذا فأحدث الله بعد أمر أمراً، فأصبح المهنّي بهم معزى فهل تحس منهم من أحدٍ؟ أو تسمع لهم ركزاً؟ فيا له من إزعاج ما ألمه وأهمه، وبطش ما أشده وأطمه، وإن نظرت في أمر الجاهلية فكم من واعظة جلية أين العمالقة، والأكاسرة، والتبابعة والقياصرة والفراعنة،

والمنـاذرة؟ وترثهم الـواترة، فـردوا في الحافـرة، وطرحـوا في الساهـرة فبـاؤا بصفقة خاسرة وتجارة بائرة فأصبحت قيودهم عـامرة، وقصـورهم دائرة. فهـل يأمن الدنيا بعدهم لبيب أو يسكن إليها أريب.

قـولـه (عليـه السـلام): «الـذين أقـامـوا علىٰ الشبهـات وجنحـوا إلى الشهـوات» الإقـامـة نقيض الانتقـال، والشبهـات الأمـور الملبسـات بـالحق، المـزورات وسميت شبهـات لأنهـا تشبـه الحق فهي أبلغ في بـاب الافتتـان ومعرض الامتحان، وقد روينا عن أمير المؤمنين (عليه السـلام) أنه قـال: «أما إن الحق لو خلص لم يخف علىٰ ذي حجا، أما أن الباطل لو خلص لم يخف علىٰ ذي حجـاً»، ولكن يؤخـذ من هـذا ضغث، ومن هـذا ضغث فيخـرجـان فيمتـزجان فيستـولي الشيطان علىٰ أوليـائه، وينجـوا الذين سبقت لهم من الله الحسنىٰ.

والجنـوح هو السقـوط، والميل والشهـوات هي حبـائـل الشيـطان وهي هاهنا المشتهيات فسماها شهوات لما كانت الشهوات تدعوا إليها وتوقع فيها، وقـد روينا عن النبي (صلى الله عليـه وآله وسلم): «إن الله لمـا خلق الجنـة قال: يا جبرائيل أذهب فانظر إليها» فذهب فنظر إليها فقال: يا رب وعـزتك لا يسمع بها أحد إلّا دخلها، ثم حفّها بالمكاره فقال: «يا جبرائيـل إذهب فانـظر إليها فذهب ونـظر إليها» فقـال: يا رب وعـزتك لا دخلهـا إلّا من رحمت، ثم خلق النار فقال: «يا جبرائيل اذهب فانظر إليها فـذهب فنظر إليهـا» فقال: يـا رب وعزتك لا علم بها أحد فدخلها ثم حفهـا بالشهـوات فقال: «يـا جبرائيـل اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها» فقال: يا رب وعزتك لا نجا منها إلّا من رحمت... المعنىٰ في ذلـك أن المغتـرين بـالله (تعـالىٰ) يعللون نفـوسهم ويخدعونها بأنواع الشبهة الركيكة فمن عابد حجرٍ نحتها بيده واشتراها بسبده، أو شجر تأنق في صنعه نجارة فكثر لثمنه ديناره، فأتىٰ المغتر فأبرز فيه عـرضاً ونقداً ليكون، وهو المشتري المالك له عبداً، والجمـاد المصنوع المملوك لـه ربـاً ورّداً، وقد حكىٰ الصـادق (سبحانـه) أنهم سيكفرون بعبـادتهم ويكونـون عليهم ضداً، فيا لها من عجيبة تنسي العجائب وغريبـة ترزي بـالغرائب، وإن فكرت في عبدة النيران ومعظمة الثيران نظرت إلىٰ أمر تنكره العقول السـوية، وتنفرعنه النفوس الأبية، ثم انظر إلى المتدينين من أهـل الكتب أين قذف بهم

التعمق والعجب فكم من هائد منقطع قتل النبيين ليتمسك بزعمه بأحكام النبوة، ومتنصر جعل للعبد المربوب صفة اللاهوتية، ومسلم عقب شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بسفك دماء ذي الذرية الزكية، والعترة الطاهرة المرضية الذين شهد الذكر الكريم بأنهم خير البرية، وهذا وعالم بزعمه أخذ منهم ما علم، وهو لأثلتهم الثابتة الطيبة ينحت ويصم ويروم فصم عروتهم الوثيقة، ومن المعلوم أنها لا تنفصم فإذا أدهمته المعضلات جعل يلون بطود عزتهم ليعتصم ينكر فضلهم بزخاريفه، وينقص حقهم بتحاريفه و﴿الله متم نوره ولو كره الكافرون﴾[1]، ونفر النافرون.

المعنىٰ حذر (عليه السلام) من الإقامة علىٰ الشبهات بعد إزاحة العلة والتمكين لعباده من جلاء الشبهة باليقين، ومن الجنوح إلىٰ الشهوة ليكتب عارفاً نفسه عنها في زمرة المتقين.

قوله (عليه السلام): «حتىٰ أتتهم رسل ربهم فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا ولا إلىٰ ما فاتهم رجعوا».

الآتي هو الواصل، والغادي هو الذاهب، رسل الله (تعالىٰ) هاهنا هم ملائكة الغضاب المقربون الناصحون المجربون الذين جرىٰ هلاك الأمم العاتية علىٰ أيديهم (سلام الله عليهم) فتارة بالصياح فإذا هم هامدون، وتارة باقتلاع المدائن من أساسها فإذا هم خامدون وتارة بالرمي بحجارة من سجيل، وتارة بالضرب الزعابيل كأهل القليب المتكبرين العاتين المتجبرين، وتارة بنزع الأرواح عن الأجساد بكلاليب حداد شداد، فهؤلاء رسل ربنا المزعجون . وكم لهم من صريع علىٰ وثير المهاد وشهير الوساد فلم يوانسه أولاده وأوداده، ولا دفع عنه عبيده وأجناده، دخلت رسل الله عليه بغير فسح وخرجوا بحميمته من غير إذن فيا لها من روعة لم تسكنها الندامة وجرئية لم تعقبها السلامة، وقد تقدم الكلام في الأمل. والإدراك هو الوصول واللحاق، والفائت هاهنا هو المخلّف المتروك يقال فاته الأمر اذا سبقه وأدركه إذا ألحقه.

---

(١) سورة الصف آية ٨.

ومعنىٰ الرجعة والفوت واحد، وكيف يرجع إلىٰ ماله، ويفوز بعزور أمانيه، وآماله من لحده اللاحد، وأسلمه الولد والوالد والخل المواد، والقرين المساعد.

والمعنىٰ في ذلك أن المغترين تاهوا في بحار الاغترار، وافتتنوا بطول الأعمال حتى أتتهم رسل الواحد القهار فأزعجتهم عن القرار وأنزلتهم دار البوار فيا أعظمها من حسرة لم يجبرها الصياح والعويل ولا وجد إلىٰ دفعها سبيل...

قوله (عليه السلام): «قدموا علىٰ ما عملوا وندموا علىٰ ما خلفوا».

القدوم هو الورود وقال زاجرهم:

أَقْدمْ فَقدْ قَدمتَ خَيرَ مقدمِ   قَدِمْتَ أيامَ سُعودِ الأنجم

والأعمال، والأفعال معناها واحد وهو ما يحصل بحسب الدواعي وينتفي بحسب الصوارف ومن ذلك أعمال الخير المحمود العواقب، ومنه الشر الرامي يعامله في المعاطب، والندم هو ألم القلب وأسقه ومعناه ظاهر عندهم وشاهده موجود في لسانهم قال الفرزدق:

ندمت ندامة الكُسعيُّ لمَّا   غَدت مني مُطَّلقةً نوارُ

ومخلفهم ما تركوه خلف ظهورهم من نصرتهم وسرورهم وملكهم وحبورهم وجناتهم وقصورهم التي صارت عليهم نكالاً ووبالاً بعد أن كانت نعيماً وظلالاً وجمالاً ومالاً.

المعنىٰ أنه (عليه السلام) أخبر بقدومهم علىٰ أعمالهم، وعلىٰ وجه الإجمال ليكون ذلك أبلغ في الحسرة والبلبال واشتغال الخاطر والبال لأنه أخبر بقدومهم علىٰ أعمالهم مجملاً، وقد دل الخطاب علىٰ أنها قبيحة فقدومهم عليها من أدهىٰ مصيبة وأعظم فضيحة. قدموا علىٰ أعمالٍ قبيحة منكرة شهد عليهم بها الكرام البررة وسطرها الكاتبون الطهرة، وقد كانوا يكتمون أكثرها عن الأباعد والأقارب والوزير والصاحب، والرقيب سبحانه الذي لا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء لإحاطة علمه وقوة سلطانه لهم مشاهد وبها عليهم حاكم فحينئذ تحققت عليهم الندامة، وغمرتهم أهوال

الطامة وصارماً خلفوا عليهم حسرة وقد كان دخيرة لهم ليوم العسرة فانظر إلىٰ عواقب التقديم ما أحمدها، وقوارط الإنفاق ما أسعدها فلا تمل إلىٰ التخليف ولا تغتر بالتسويف.

قوله (عليه السلام): «ولن يغني الندم وقد جف القلم».

الإغناء هو الكفاية لا فرق بين قولك أغناني، وبين قولك كفاني وأحسبني إذا لم يفقد ما سواه مما يتعلق ببابه، وقد تقدم معنىٰ الندم.

والقلم ما تقع به الكتابة وهو معروف وقد قال (تعالىٰ): ﴿نون والقلم وما يسطرون﴾[1] وجفاف القلم إذا فرغ الكاتب من الكتابة، ولا تجف كتابة أعمال ابن آدم إلّا عند انقطاع تكليفه وعند ذلك لا تغني عنه الندامة فتيلاً ولا تشفي له غليلاً.

والمعنىٰ في ذلك أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) نبه ابن آدم علىٰ الاهتمام بأمر الآخرة، والتأهب لها قبل الوصول إليها إذ الإنسان في تلك الحال لا يتمكن من إصلاح عمل فاسد ولا برد سهم صارد فكيف إذا كظمه هول المشاهد وعدم المعين والمساعد يعلل نفسه بالندامة التي لا تنفعه والحسرة التي لا تمنعه.

قوله (عليه السلام): «فرحم الله امرءاً قدم خيراً وأنفق قصداً وقال صدقاً».

الرحمة من الله (تعالىٰ) هي الرضا والغفران.

والإنفاق هو العطاء والإحسان، والقصد هو الإنفاق علىٰ وجه يتعرىٰ عن التبذير، والتقتير مع تجريد الإرادة به وجه الله (تعالىٰ).

والصدق نقيض الكذب وهو الخبر الذي إذا كان له مخبر كان علىٰ ما هو به.

والمعنىٰ في ذلك أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا بالرحمة لمن قدم الخير من المال بين يديه إذ هو لا محالة صائر إليه، وما خلفه فهو

---

(١) سورة القلم آية ١.

حسرة عليه، وأنفق قصداً إنفاقاً يُوافق رضىٰ الله (سبحانه) ويقصد به وجهه لا تبذيراً ولا تقتيراً، ونزه لسانه من الكذب المؤدي إلىٰ الهلاك، وهو أصل لكل شر، وقد وردت الآثار مفصلة فيما ذكره (عليه السلام) أما رحمة الله (تعالىٰ) فهي أصل لكل خير، وبها تقع النجاة، والسلامة من كل شر. والفضل والكرامة والظفر. وقد روينا في ذلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «أخوْف ما أخاف علىٰ أمتي الهوىٰ وطول الأمل. أما الهوى فيصد عن الحق. وأما طول الأمل فيصد عن الآخرة، وهذه الدنيا مرتحلة وهذه الآخرة قادمة ولكل واحدة منهما بنون فإن استطعتم أن تكونوا من أبناء الآخرة فافعلوا فأنتم اليوم في دار عمل ولا حساب، وأنتم غداً في دار حساب ولا عمل، وأنتم اليوم في المضمار وغداً في السباق، والسُّباق إلىٰ الجنة، والمتخلف إلىٰ النار، وبالعفو تنجون، وبالرحمة تدخلون وبأعمالكم تقتسمون، وإذا كان هذا حال الرحمة هانت في طلبها الشدائد وركوب الأوابد».

وأما تقديم الخير فميدانه لسعة أنواعه رحيب، وفاعله عند جميع العقلاء مصيب، وفيه آثار لا تنحصر، وحسنه في كل عقل مستقر وقد روينا بالإسناد إلى أبي الدرداء أنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما من يوم طلعت شمسه إلاّ وُكِل بجنتيها ملكان يناديان نداءً أيها الناس هلمّوا إلىٰ ربكم إن ما قل وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ، ولا غابت شمس إلاّ وُكِل بجنتيها ملكان يناديان نداءً اللهم اعط منفقاً خلفاً، واعط ممسكاً تلفاً».

وأنزل الله (عز وجل) قرآناً في قول الملكين ﴿يا أيها الناس هلموا إلى ربكم﴾ في سورة يونس ﴿والله يدعوا إلىٰ دار السلام ويهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم﴾[1] وأنزل في قولهما وأعطىٰ منفقاً خلفاً، وممسكاً تلفاً ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلىٰ ـ إلى قوله ـ فسنيسره للعسرىٰ﴾[2] وتقديم الخير هو الشفيق الناصح، وهو العمل الصالح لأنه أشد الخلان مواساة

---

(١) سورة يونس اية ٢٥.
(٢) سورة الليل آية ١.

لخليلة، وأشقاهم في الآخرة لغليلة، وقد روينا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «للإنسان أخلاء ثلاثة: فإما خليل فيقول ما أنفقت فلك، وما خلفت فليس لك فذلك ماله، وإما خليل فيقول أنا معك فإذا أتيت باب الملك تركتك ورجعت فذاك أهله وحشمه. وإما خليل فيقول أنا معك حيث دخلت وحيث خرجت فذاك عمله ويقول وإن كنت لأهون الثلاثة عليك».

وأما الصدق فهو مفتاح الجنة وحلية اللسان، وزين الإنسان وترجمان الشرف وعنوان الكرم وكنز السؤدد وكبت الحسد، وبالصدق يوقر الصغير، وبالكذب يحقر الكبير. وقد روينا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلىٰ البر وإن البر يهدي إلىٰ الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور وإن الفجور يهدي إلىٰ النار وأن الرجل ليكذب حتىٰ يكتب عند الله كذاباً».

وروينا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «تقبَّلوا لي بيت أتقبّل لكم الجنة» قالوا: وما هي قال: «إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا أئتمن فلا يُخن غضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم».

قوله (عليه السلام): «وملك دواعي شهوته ولم تملكه وعصىٰ أمر نفسه فلم تهلكه».

الملك هو التصرف في الأمر تصرفاً عاماً هذا في الأصل، ومنه قيل في العجين مملوك للذي أحيد عجنه لأنه تصرف فيه تصرفاً بليغاً، ومملوك الرق آخذ من ذلك، ودواعي الشهوة هي المؤديات إليها وأصل أكثرها النظر وتوابعه من الفِكَر المؤدية إلىٰ الملاذ الموقعة في العذاب الدائم، والشهوة عرض يثمر اللذة عن إدراك المشتهيات.

والمعصية نقيض الطاعة، والأنفس الأمارة بالسوء يجب عصيانها. والهلاك نقيض السلامة، والمعنىٰ في ذلك أن من ملك دواعي شهوته وعصىٰ أمر نفسه فلم يملك الشهوة زمامه ولم يجعل النفس إلزامه سلم من الهلاك وخلص من الإرتباك، ومن ملك دواعي شهوته قيادة وأتبع النفس سواده جملة خيط كفه الحايل فوقع في الشغل الشاغل...

الحديث الرابع عشر

عن أبي هريرة تقدم نسبه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أيها الناس لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تعاقبوا ظالماً فيبطل فضلكم، ولا تراؤوا الناس فيحبط عملكم، ولا تمنعوا الموجود فيقل خيركم. أيها الناس إن الأشياء ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعوه، وأمر استبان غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف عليكم فردوه إلىٰ الله، أيها الناس ألا أنبئكم بأمرين خفيفتين مؤنتهما. عظيم أجرهما لم يلق الله بمثلهما: الصمت وحسن الخلق. . .».

الإعطاء نقيض المنع، والحكمة: العلم النافع، وهو علم القرآن وتفصيل معانيه، وتفسير مجمله، والمعرفة بأحكام أوامره ونواهيه، ومحكمه ومتشابهه، وخاصه، وعامه، ومجمله ومبينه، وناسخه، ومنسوخه، والاعتبار بعبرة والفهم لأمثاله العجيبة، وقصصه الغريبة فهذا عندنا رأس الحكمة ومفتاح الرحمة.

وأهل الشيء هم أولىٰ الناس به وأدناهم منه. وذلك في لسان العرب ظاهر. وقد قال عبدالمطلب فيما يروىٰ: «نحن آل الله في كعبته لم يزل ذاك علىٰ عهد إبراهيم» معناه نحن أولىٰ الناس بالله (تعالىٰ) لاتباعنا أمره، وقد أقر الشرع الشريف ذلك. روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «إن لله في الأرض أهلين أهل القرآن منهم، فأهل الحكمة هم المتّبعون لأوامرها الملتزمون أحكامها المحللون حلالها المحرمون حرامها الجاعلون الوقوف عند

ملتبسها رسوخاً في العلم دون التقحم علىٰ سدودهـا المرتجـة، والتعدي علىٰ حدودها المضروبة ـ الذين جعلوا العلم سبباً للقول وأساسـاً للعمل فـأمّا أهـل الألسنة الحداد والقلوب الخالية من خوف الله (تعالىٰ) المعترضون علىٰ ضعفه أهل الحق بغويص الجدال وزخرف الضّلال ليعدوا بـزعمهم في العلماء فـإذا سئلوا عن الغوامض هذوا جوابها، وتعمموا أعقابهـا بغير مـروية صـادقة، ولا فكرة ثاقبة ولا بصيرة نـافذة. فهؤلاء والله المحمـود المعبود أعـداء الحكمة لا أهلها».

والظلم: هو الضرر العادي عن نفع أو فاعلية، أو دفع ضرر أعظم منه، أو استحقاق لذلك وقد كان أصله في اللغة وضع الشيء في غير مـوضعه علىٰ أيـة وجه كـان. حتى سموا اللبن الـذي يشرب قبـل استحكـام روبه ظليمـاً، ومظلوماً فقال قائلهم:

وأهون مظلومٍ سقاء مروّب

ثم صار يفيد بالشرع الشـريف ما قـدمنا أولاً، فـلا يعقل من قـولنا ظلم عنـد الإطلاق سـواه. وذلك يكشف عن معنىٰ الحقـائق فلما كـان من أعـطىٰ الحكمة غير أهلها كان بمنزلة من أنـزل بها ضـرراً عاديـاً عن نفع يعـود عليها يـوفي علىٰ الأضرار، وعن دفـع ضـرر عنهـا يصغـر في جنبـه ذلـك. ولا هي مستحقـة لذلـك. وكيف يستحقه وبهـا تقع النجـاة والحياة الأبـديـة في النعم الهنيئة والخيرات السنية. وكل ما ذكرنا في الحكمة فهو استعارات سائغة فجاز أن يوصف من أعطاها غير أهلها علىٰ الوجه الذي قـدمنا ظـالماً لهـا علىٰ وجه التمثيـل والمجاز، وكـذلك كنـا إذا منعنـاهـا أهلهـا المستحقين لهـا لقبـولهم للوازمهـا، وتسليمهم لأحكـامهـا وانتفـاعهم بهـا، ونفعهم لـغيـرهـم من المسترشدين بغرائب فوائدها: كنا قد أنزلنا بهم ضرراً عظيماً بفقدهـا وحجابـة وجهها لا يستحقونه ولا لهم فيه نفع موفٍ ولا دفع ضررٍ زائدٍ كنّا قـد ظلمناهم لذلك ظلماً عظيماً، وارتكبنا في أمرهم حوباً جسيماً. وكيف لا يكـون كذلـك وهم وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . وفي ذلـك ما روينـا عن أبي سعيـد الخـدري من رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) أنـه قـال: «سيأتيكم أقوام يطلبون العلم فـإذا رأيتموهم فقـولوا مـرحباً بـوصية رسـول الله (صلى الله عليـه وآله وسلم) وأفتـوهم»، قلت: للحكم: وما أفتـوهم؟ قـال:

علموهم. ووصية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هم الطالبون للعلم الراغبون فيه العاملون به. فأما من خالف هذه الصفة، فالآثار منه (عليه السلام) توجب منعهم والإبعاد منهم. وقد روينا عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم».

وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجواهر واللؤلؤ، والذهب. ولا شك في قبح ما هذا حاله. فنبه (عليه السلام) علىٰ قبح وضع الحكمة في غير أهلها، وقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لكميل بن زياد: «إن هذه القلوب أوعية، وخيرها أوعاها» احفظ عني ما أقول: «الناس ثلاثة فعالم رباني، ومتعلم علىٰ سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلىٰ ركن وثيق يا كميل بن زياد العلم خير من المال، العلم يحرسك والمال تحرسه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو علىٰ الإنفاق، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه مات خزان المال، والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم وأمثالهم في القلوب موجودة ها إن هاهنا علماً جماً وأومى بيده إلىٰ صدره. لو أصبت له حملة بل أصبت لقناً غير مأمون مستعملاً آلة الدين للدنيا يستظهر بحجج الله على خلفه وبنعمه علىٰ عباده،، أو منقاداً للشك ينقدح للشك في قلبه بأول عارض من شبهه لاذا ولا ذاك، أقمن أو منهوماً باللذة سلس القياد للشهوات أو مغرماً بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين أقرب شبهة بهما الأنعام السائمة. كذلك العلم يموت بموت صاحبه. اللهم بلى لا تخلوا الأرض من قائم لله بحجة كي لا تبطل حجج الله وبيناته أولئك الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً بهم يدفع الله عن حججه حتىٰ يؤدوها إلىٰ نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم هجم بهم العلم علىٰ حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعزه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلىٰ أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاء إلىٰ دينه هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم واستغفر الله لي ولك إذا شئت فقم» وهذا كما ترىٰ مطابق لتأويلنا المتقدم. بل تأويلنا المتقدم يمت إليه، وأهل الحكمة هم آل محمد (عليه وعليهم أفضل السلام) وأشياعهم الصادقون (رضي الله عنهم) لأنهم منهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم. وقد

قال (صلى الله عليه وآله وسلم) في أهل بيته (عليهم السلام) حاكياً عن الله (سبحانه): «وخلقت شيعتكم منكم» وقد صرح بهذا أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله: «أولئك خلفاء الله في بلاده وأمناؤه عَلىٰ عباده ولا يكون هذا بالشرع القويم إلا لهم ولأشياعهم وغير ذلك لا يصح» ثم أظهر (عليه السلام) أمارة الوجد لشوقه (عليه السلام) إلى رؤيتهم وكان ذلك الظاهر من حاله (عليه السلام) مع أبوينا الطاهرين المطهرين الحسن والحسين (عليهما السلام) فإنه كان يكرمهما ويعظمهما ويميزهما على سائر أخوتهما تقرباً إلىٰ الله ورسوله بصلتهما فإذا كان هذا حال علي (عليه السلام) معهما في عصرهما ومع ذريتهما كما ترىٰ من بعدهما فما عذر من عاصر قوماً اشتاق علي (عليه السلام) إلىٰ رؤيتهم ولم يأخذ من خلتهم بنصيب ويضرب في علمهم بسهم مصيب فالحمد لله الذي جعلنا من ذرية يتقرب علي (عليه السلام) إلىٰ الله (تعالىٰ) بصلتها ويشتاق إلىٰ رؤيتها.

قوله (عليه السلام): «ولا تعاقبوا ظالماً، فيبطل فضلكم، ولا تراؤا الناس فيحبط عملكم».

المعاقبة: مفاعلة من العقاب، والعقاب في أصل اللغة: اتباع الشيء بالشيء من حسنه إذا كان شاقاً، وهو هاهنا مقرٌّ علىٰ أصله.

والظالم: فاعل الظلم لغة، وشرعاً، وقد تقدم الكلام في حده. والبطلان: هو الذهاب والهلاك عند أهل اللسان.

والفضل هو: الشرف، والثواب، والرياء أصلها إيهام ما لا حقيقة له تعلم. أخذ من التخيل لرؤية الأبصار، وقد صار في الشريعة المكرمة مقيداً لما يعمل من جنس الأعمال الصالحة، ولا يقصد به وجه الله (تعالىٰ)، وإنما يراد به وجه الناس قال شاعرهم:

ثوب الرياء يشف عما تحته ... فإذا كسيت به فإنك عاري

وهو عندنا من أكبر المعاصي، بل عند جميع أهل الشرع. لأنه يلتبس بالنفاق حتىٰ لا يكاد يتميز أحدهما عن الآخر.

والحبط هو: الهلاك وأصله من البعير يأكل في الربيع فوق ما يحتمله

فيموت حبطاً، فيقال حبط البعير بمعنىٰ هلك، وقد تقدم الكلام في معنىٰ العمل.

المعنىٰ في ذلك: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) نهىٰ عن معاقبة الظالم، وأخبر أن ذلك يبطل الفضل! وتأويله من وجهين:

أحدهما: لا تعاقبوا ظالماً بظلم مثل ظلمه فيبطل فضلكم، وذلك ظاهر لا يحل للمسلم ظلم أحد من الناس ظالماً كان أو عادلاً. لأن الظلم يقبح لوقوعه علىٰ وجه، ولا يعتبر في ذلك فاعله، ولا مواضعه وبطلان الفضل هاهنا هو الثواب.

وثانيهما: أن العفو عن الظالم فيه أجر كبير، وثواب خطير، وان في مقابلة ذلك العفو من الفضل ما لا يعلم تفاصيله إلاّ الله (تعالىٰ) فإذا استنصب المظلوم من الظالم بطل ذلك الفضل الذي كان يقع في المعلوم في مقابلة العفو، وصفته بالبطلان قبل وجوده جائز.

يقول قائلهم: لمن كان يريد به خيراً، فجرىٰ منه ما يقضي بترك وقوعه ـ ضيعت فضلك عندي ـ، وأبطلت فضلك. فتأمّل ذلك موفقاً؛

وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «ثلاث أقسم عليهن ما نقص مال قط من صدقة، فتصدقوا. . .؟ ولا عفا رجل عن مظلمة ظلمها إلاّ زاده الله بها عزاً، فأعفوا يزدكم الله عزاً. . .؟ ولا فتح رجل علىٰ نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر لأن العفة خير. . .؟، فالنهي عن ترك العقوبة كراهة، والنهي عن ظلم الظالم نهي حظر».

وأما الرياء فهو: محظور من كل وجه، وقد ورد الوعيد من الله (تعالىٰ) في كتابه الكريم للمرائين في مواضع من ذلك قوله (تعالىٰ): ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون﴾[1].

الويل هو: الخطب العظيم الذي تقع عنده الصياح والصراخ، وقد يتبع

---

(١) سورة الماعون آية ٤.

بالأليل ومعناه: الأنين وذلك لا يكون إلّا فيما لا بعده في العظم، وقد قال زاجر الخوارج في بعض حروبهم، وهو رجل من مراد وسقط رمحه بين الخيلين، فقام عليه بالسيف، وهو يقاتل هو وأصحابه عنه إلىٰ أن دهم الطائفتين الليل فقال:

الليل ليل فيه ويل ويل   وسال بالقوم الشراة السيلُ

إن جاز للإعداء فينا قول. . .

وقيل: هو: واد من أودية جهنم نعوذ بالله (تعالىٰ) منها، والمضلون هاهنا هم: المراؤن. لأنهم يسهون عنها بمعنىٰ أنهم يتركونها جملة إذا لم يقع أحد يراؤنه. فأما السهو فيها فليس من هذا في شيء، وقد سهىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في صلاته. والمراؤن قد قدمنا الكلام فيهم، وهم فرقة تلحق بالمنافقين، ومنع الماعون من أخلاقهم لأنهم لو رغبوا في الخير لقصدوا بأعمالهم وجه الله (تعالىٰ).

الماعون: الزكاة والحقوق الواجبة. وقد قيل أساور الدار وما لا يستغني عنه الجار من الناس، والحبل، والشريم، والقدر، والرحا. وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد سأله رجل فقال: يا رسول الله ما الجهاد في سبيل الله. . .؟، فإن الرجل يجاهد ليغنم، ويجاهد ليذكر، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو جهاد. . .».

قوله (عليه السلام): «ولا تمنعوا الموجود فيقل خيركم».

المنع: نقيض الإعطاء، والموجود نقيض المعدوم، والمراد به هاهنا الممكن، وقلة الخير يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد الموجود الحق الواجب كالزكوات، والأعشار، فمنع ما هذا حاله محظور لا يحل، وقلة الخير هاهنا عدم الثواب وذهابه.

وثانيهما: أن يكون المراد بالموجود ما يتعلق بباب المروة، من صدقات

النفل، والإحسان المتعلق بباب الفضل من إعطاء السائل وبسط النائل وخير العائل.

والخير: ما يقع في مقابلة ذلك من الثواب، وقلة الخير في ذلك عدمه أعني عدم الثواب الجزيل، والثناء الجميل، والذكر النبيل. . . المعنىٰ في ذلك علىٰ الوجه الأول: أنه لا يحل للمسلم أن يمنع الموجود من الحق الواجب إذ هو يفوّت علىٰ نفسه بذلك ثواباً عظيماً، ويجرّ عليها عذاباً أليماً، ومن هذه حاله لم يدع لنفسه إلىٰ الخير طريقاً، وفي ذلك ما روينا عن ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «إن الله (تعالىٰ) فرض للفقير في مال الغني في كل مائتين خمسة فمن منعهم ذلك فعليه لعنة الله، ولعنة اللاعنين، والملائكة والناس أجمعين».

وأما علىٰ الوجه الثاني: فإن اكتساب الخير، ومتاجرة الرب، والإحسان إلىٰ المؤمنين خاصة، وسائر الخلق عامة من أخلاق الأنبياء وسيرة الأوصياء، ومتاجر الثواب الربيحة، وطريق الحق الفسيحة فلا ينبغي لمسلم أن يضيع نصيبه من هذا الخير لغيره فمهما ترك الإنسان من ذلك، فهو غير متروك، فلا يكن أعجز الرجلين وأقلهما للخير اغتناماً، وإلىٰ المغفرة سباقاً، وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «إن من أوجب المغفرة إدخالك السرور علىٰ أخيك المسلم» وروينا عن أبي عبدالله جعفر بن محمد (عليهما السلام): عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما من مؤمن أتىٰ أخاه المؤمن فسأله حاجة، وهو يقدر علىٰ قضائها، ويرده عنها إلّا قال الله له يوم القيامة: أتاك عبدي المؤمن في دار الدنيا يسألك حاجة قد ملكتك قضاها فرددته عنها، لا قضيت لك اليوم حاجة مغفوراً كان أو معذباً».

وهذا خبر كما ترىٰ يؤلم القلب الحي، ويمنع من الرد، واللّي، ولا يفزع له إلّا من نور الله قلبه بنور الهدىٰ، ونزع عنه حب الدنيا، ومعنى لا يقضي له حاجةً ـ معناه: أن لا يزيد له علىٰ المستحق شيئاً كما يزيده لسائر المؤمنين، وإن كان مغفورا له، فأما المعذب فالآمر فيه ظاهر، وإنما ذكر ذلك في المغفور له، لأن منع الموجود ليس من أخلاق المتبتلين. قال الله (تعالىٰ): ﴿ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه

فـأولئك هم المفلحـون﴾[1]، وهذا في غيـر الواجب، ولأن المعلوم من حـال الأبرار الاهتمام بأمر المسلمين، وقضاء حوائجهم، ومتاجرة الـرب (سبحانـه) بالإحسان إليهم، ونعم المتاجر (سبحانه) ما أكثر إحسـانه وأعم غفـرانه، وقـد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قـال: «ارحموا حـاجة الغني. فقام رجل فقال: يا رسـول الله وما حـاجة الغني...؟ قـال: الرجـل الموسـر يحتاج، فصدقة الدرهم عليـه بمنزلـة سبعين ألفاً». ولا شـك أن من ضيع مـا هذه حاله فقد فوت علىٰ نفسه خيراً جسيماً، وثواباً عظيماً...

قوله (عليه السلام): «أيهـا الناس إن الأشيـاء ثلاثـة: أمر استبـان رشده فاتبعوه، وأمر استبان غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف عليكم فردوه إلىٰ الله..».

الأشياء هاهنا هي: المعهودة المقدمة الذكر التي قسمها (عليه السـلام) إلىٰ ثلاثة أقسام. والأمر عنـد بعض أهل التحصيـل من العلماء: لفظ مشتـرك بين أمور كثيرة. والاستبانة هو: الرضوخ، والظهور.

والرشد: نقيض الغـي، وهو: الإصابة. والإعلام في الأصـل والاتباع: هو اللحاق، والغي مجاوزة الحَد، وأصله من الفصيل يرضع فوق حده فيهلك أو يشارف الهلاك يقال: غوي الفصيل من ذلك، ثم نقل إلىٰ من تجاوز الحد في الحق. والمعنى في ذلـك أن النبي (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) دل علىٰ سلوك منهاج الحق وطريقـة العلم وهو أن الأمـر لا يعدو عـند الإنسان ثـلاثة أمور: إما أن يعلم أنه صواب ورشد، فيعمل عن معرفة وبصيرة. وإما أن يعلم أنه خطأ وضلاله فيتركه عن بصيرة ومعرفـة. وإما أن يلتبس عليـه حالـه فيمسك عنه ويرده إلىٰ الله (تعالىٰ) فإن ذلك رسوخ عنـد أهل المعـرفة، وفي ذلـك ما روينا عن عبدالله بن عمـر قال: قـال رسول الله (صلى الله عليـه وآله وسلم): «إن الله لا ينتزع العلم من الناس انتـزاعاً ينتـزعه منهم ولكن يقبض العلمـاء، فإذا قبض العلماء اتخذ الناس رؤساء جُهَّالاً سئلو فأستحيوا أن يقولوا لا نعلم، فضلُّوا وأضلوا كثيراً».

ومعنىٰ قوله (عليه السلام): «فـردوه إلىٰ الله» يحتمل أحـد وجهين: إمّا الإمسـاك عن التقحم في أمره حتىٰ يجعـل الله (تعـالىٰ) بعـد عسـر يسـراً، أو

(1) سورة الحشر آية ٩.

يحدث سبحانه بعد أمرٍ أمراً. وإمّا: أن يكون (عليه السلام) أراد فردوه إلىٰ ولاة أمر الله (تعالىٰ) من عترة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنهم معدن هذا العلم ونصابه، وتراجمته، وأربابه وبهم يحل الله (تعالىٰ) مشكلة ويفتح مقفلة، ويكون هذا علىٰ حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وذلك شائع، في اللسان، وهو (عليه السلام) من أعلم أهله بوجوهه، وقد سوغت الحكمة له ذلك، وقد قال (تعالىٰ): ﴿ولو ردوه إلىٰ الرسول وإلىٰ أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[1].

فسره علماء آل محمد (عليه وعليهم أفضل السلام) بأنهم المرجوع إليهم في هذه الآية، وأنهم المستنبطون في هذه الآية، والراسخون في العلم في آية الراسخين.

قوله (عليه السلام): «أيها الناس ألا أنبئكم بأمرين خفيفتين مؤنتهما عظيم أجرهما لم يلق الله بمثلهما: الصمت، وحسن الخلق...».

الأنباء والأخبار والأعلام: ألفاظ مختلفة ومعناها واحد، وهو: تعريف الغير بحقيقة الأمر، والأمران هما ما ذكر آخِراً (عليه السلام) والخفيفتين: نقيض الثقيلتين، وأتت بعد التذكير، وذلك جائز فيما ليس بحقيقي، ولأنهما يؤولان في التحقيق إلىٰ حالتي الصمت وتحسين الخلق والصمت هو: الإمساك عن الكلام جملة، والمراد به هاهنا الإمساك عن الكلام فيما لا يعني إذ لا يحمد الصمت إلّا علىٰ هذا الحال، وحسن الخلق لين الأعطاف وبذل الأنصاف وهو من المقربات إلىٰ الله (تعالىٰ) وهو من الألطاف في باب الدين وقد قال (تعالىٰ): ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[1]، وقال (تعالىٰ): ﴿وإنك لعلىٰ خلق عظيم﴾[2]، وقد يكون الخلق في لسان العرب الحسب في غير هذا الموضع.

المعنى في ذلك أنه (عليه السلام) نبهنا إذ هو معلم الخير ومرشد الضُّلّال علىٰ أمر خفيف المؤنة عظيم الأجر، وهو (عليه السلام) الصادق المقال مأمون العيب فيما قال، فلا يضيع العمل بمقتضىٰ قوله إلّا كل

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩.
(٢) سورة القلم آية ٤.

محروم. إذْ المعلوم عند أهل العقول إنما عظم فيه الأجر حسن فعله وإن ثقل محمله، وصعب عمله. وقد تقدم في تفصيل الصمت صدر من الكلام، ويكفيك في معرفة الصمت أنه أصل الحكمة، وقاعدة الرويّة، وأصل النظر المؤدي إلىٰ كل علم دقيق.

وأما حسن الخلق فالأمر فيه أظهر، والنفع فيه أعم وأكثر، وقد روينا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «إن أحبكم إليّ، وأقربكم مني مجلساً في الجنة أحسنكم خلقاً، وإن أبعدكم مني منزلاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون قال: قلنا: يا رسول الله أمَّا الثرثارون، والمتشدقون فقد عرفناهم، فمن المتفيهقون...؟ قال: المتكبرون! قلنا: يا رسول الله أمِنَ الكبر الدابة نركبها، والحُلة نلبسها، والطعام نصنعه للأخوان...؟ قال: لا ولكن من سفه الحق، وغمص الناس...» وهذا كما ترىٰ نهي عن الثرثرة وهي: كثرة الكلام علىٰ غير نظام. والتشدق هو: التصرف في أنواع الكلام بالفصاحة والتقتير الذي لا يتوجه لإصابة الصواب...

الحديث الخامس عشر

عن ابن عمر تقدم نسبه قال: خطبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خطبة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فكان مما ضبطت منها: «أيها الناس إن أفضل الناس من تواضع عن رفعة، وزهد عن غنية، وأنصف عن قوة وحلم عن قدرة ألا وإن أفضل الناس عبد أخذ من الدنيا الكفاف، وصاحب فيها العفاف، وتزود للرحيل وتأهب للمسير، ألا وإن أعقل الناس عبد عرف ربه فأطاعه وعرف عدوه فعصاه، وعرف دار إقامته فأصلحها، وعلم سرعة رحلته فتزود لها، ألا وإن خير الزاد ما صحبه: التقوىٰ وخير العمل تقدمته النية، وأعلىٰ الناس منزلة عند الله أخوفهم منه».

قد تقدم الكلام في ابن عمر، وهو غير منازع في شرفه، ولا متنازع في ورعه، وعفته وفضله علىٰ سبيل الجملة، وطبقته الثامنة أو التاسعة من طبقات قريش. لأنهم رتبوا في بني هاشم، وبنو المطلب جد الشافعي داخلون في بني هاشم، فلم يفصلوا منهم، فأولهم بنوا هاشم، ثم بنوا المطلب، ثم يتلوهم عبد شمس بن عبدمناف، ثم بنوا نوفل بن عبدالمناف، ثم بنوا أسد بن عبد العزىٰ بن قصي، ثم بنوا عبدالدار بن قصي، ثم بني زهرة بن كلاب، ثم بنوا تيم بن مرة ثم بنوا مخزوم يقظة بن فرة، بنوا عدي بن كعب، وبنوا هصيص بن كعب.

والخطبة قد تقدم الكلام في معناها وأنها أخذت من الخطب لعظم الحال فيها، وقد قال قائلهم لغيره يخاطبه:

أبــوك معم فـي الكــلام ومـخــول وجـدك سباق الجـراثيم في الخطب

فكانت الخطبة عندهم من أفضل ما يتشرفون به.

وذرفات العيون: سيلانها بالدمـوع. ووجل القلوب خـوفها ورعيهـا قال شاعرهم:

لـعمـرك مــا أدري وإنـي لأوجــل على أيّنـا تـعـدوا الـمـنـيــة أول

والمعنى في ذلـك: أن خطبتـه (صلى الله عليه وآلـه وسلم) كانت تبلغ الغاية القصوىٰ في ترقيق القلوب وتليينهـا، وامتلاء الشون وتعيينها. لأن وعظه (عليـه السلام) يخرج من قلب خاشع إلىٰ آذان واعية، وقلوب حية. قـال ابن عمر: فكان مما ضبطت منها يريد الخطبة الضبط هو: الحفظ والذكـر، وهو عنـدهم معروف، وأصله الإمساك.

قـوله (عليـه السلام): «أيهـا الناس إن أفضـل النـاس من تـواضع عن رفعة، وزهد عن غنية».

الأفضل هو: الأشرف والأعلى. والتواضـع نقيض الترفـع، والرفعـة هو العلو، والشرف، والزهد في الدنيا نقيض الرغبة فيها، وهو ترك حلالها تعبد لله (تعالىٰ)، وعزماً للنفس عن لذاتها.

والغنيـة هي: الغنىٰ، وهي تنـاقض الحـاجـة في اللفظ كمــا أن الغنىٰ يناقض الفقر.

فأما المعنىٰ فهو: واحد في الجميع من الإثنين المتناقضين.

المعنىٰ في ذلـك: أن المتواضــع عن الرفعـة ينال بتـواضعـه علىٰ تلك الحال ما لا يعلم كنه ثوابه إلّا الله (تعالىٰ) لأن ما يعد من الـرفيع تـواضعاً قـد يعد من غيره مثله ملقاً وذلة، فلا تكون له تلك المزية، وإنما كان كذلـك لأنه قرّب نفسه إلىٰ ضَعَفَة عباد الله، وسهل جانبه بتواضعه لطلاب الحـاجات ممن لا جاه له، وقد كانت رفعته ضربت عليه سرادق الهيبـة، ففرج ذلـك السرادق بتواضعه، وقـرب البعيد بلين جـانبه، وهـذه شيمة رسـول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وسيرة الصالحين من أهله (عليهم السلام)، وسيرة أهل البصائر من المسلمين (رضي الله عنهم) عامة فقـد روينا عن ابن عبـاس كان يحـدث

عن رسـول الله (صلى الله عليه وآلـه وسلم): «ان الله (عز وجـل) أرسـل إلىٰ نبيـه (صلى الله عليه وآلـه وسلم) ملكاً من المـلائكة، ومعـه جبرائيـل (عليـه السـلام) فقال: الملك لـرسول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) إن الله (عـز وجل) يخيرك بين أن تكون عبداً نبياً، وبين أن تكون ملكاً نبياً، فـالتفت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلىٰ جبـرائيل كالمستشير لـه، فأشـار جبرائيـل أن تـواضـع، فقـال (صلى الله عليـه وآلـه وسلم): لا بـل أكـون عبـداً نبيـاً قـال: فمـا أكـل (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) بعـد تلك الكلمـة طعـامـاً متكئـاً حتىٰ لقىٰ ربه (عز وجل). فانظر إلىٰ التواضـع ما أجله»؟ حيث أشـار به أمين الله وروحه جبرائيل (عليه السـلام) علىٰ نبيه وصفيـه (عليه وآلـه السلام) وفي الـرواية: «أن رجـلاً أتى به إليـه (عليه السـلام) فلما قـام بين يـديـه ارتعـدت فرائصه. . ! فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): هون عليـك أيها الـرجل فلستُ بجبار عنيد إنما أنا ابن رجل وامرأة كانا يأكلان القديد» وكان (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) يجيب من دعـاه، ويخف في حـاجـة من سـألـه من العبـد المملوك والأمة المملوكة فمن فـوقهما، وقـد كانت تـدعوه العجـوز الفقيره إلىٰ منزلها، فيخف لذلك ويجيبها، ويدعو لها بالبركة، ويصلي في منزلهـا، وكان يعود المساكين ويحضر جنائـزهم، ومرضت مسكينـة في المدينـة فكان (عليـه السـلام) يعودهـا، وقال: «إذا مـاتت فـأذنـوني»، وأخبـاره في هـذا البـاب لا تنقضي، ولا أدفـع منـه (عليـه السـلام) في البشـر، ولا أعلىٰ ففي ذكـره مـا يكفيك عن ذكر غيره، وقد قال (سبحانه): ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كـان يرجو الله واليوم الآخر﴾[1].

وأمـا الزهـد فهو: الغنى الأكبـر، والكنز الأوفـر، وهو شـرع رسـول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إمامه وبيده زمامه، فأقرب الناس منه أقربهم شبهاً بـه (عليه السـلام) فيه وهـو الذي فسـرنا بـه قولـه (تعـالىٰ) ﴿وريشـاً ولبـاس التقـوى﴾[2] فجعلنا الـريش ما يـرتاش بـه الإنسان من أنـواع الكسـوة، وأصله مأخوذ من ريش الطائر، وجعلنا لباس التقوىٰ الزهد في الدنيا، وقد فسره غيرنا بغير ذلك، وما اخترناه هو الأولىٰ. إذ لا يشارك أهل التقوىٰ فيه مشـارك، وقد يشاركهم غيرهم في جميع أنواع الرياش، وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه

(١) سورة الأحزاب آية ٢١ .
(٢) سورة الأعراف آية ٢٦ .

وآله وسلم) من طريق علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: «أفطر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقبا يوم الجمعة، فأتاه أوس الأنصاري بقعب فيه لبن مخيض بعسل، فلما وضعه علىٰ فيه نحّاه، ثم قال: شرابان يجري أحدهما دون الآخر لا أشربه ولا أحرمه.ه.! ولكن أتواضع لله (عز وجل)، فإنه من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر قصمه الله، ومنه ومن اقتصد في معيشته».

وفي رواية أخرىٰ «اقتصد رزقه الله، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله (عز وجل)، وروينا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في مثل ذلك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «هل منكم من يريد أن يعطيه الله علماً بغير تعلم؟ هل منكم من يريد أن يعطيه الله هدىً بغير هداية...؟ هل منكم من يريد أن ينهب الله عنه العمىٰ ويجعله بصيراً...؟ ألا أنه من زهد في الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علماً بغير تعلم، وهدىً بغير هداية. ألا وإنه من رغب في الدنيا وطال فيها أمله أعمىٰ الله قلبه علىٰ قدر رغبته فيها ألا وأنه سيكون أقوام في هٰذه الدنيا لا يستقيم لهم الملك بالقتل، والتجبر، ولا يستقيم لهم الغنىٰ إلّا بالبخل واالفجور ولا يستقيم لهم المحبة في الناس إلّا باتباع الهوىٰ. ألّا فمن أدرك منكم ذلك فصبر علىٰ الذل، وهو يقدر علىٰ العز، وصبر علىٰ الفقر، وهو يقدر علىٰ الغنىٰ، وصبر على البغضة في الناس، وهو يقدر علىٰ المحبة لا يرى بذلك إلّا وجه الله (تعالىٰ)، والدار الآخرة أثابه الله ثواب خمسين صديقاً، وهذا كما ترىٰ فضل مبين، وربح مستبين لا ينكره إلّا الظنين، ولا يرغب عنه إلّا مهين، ولا يتحقق الزهد إلّا مع القدرة على الغنىٰ، فرحم الله امرءاً فرض الدنيا قرضاً، ولم يدخر غيباً، ولا غرضاً..».

قوله (عليه السلام): «وأنصف عن قوة، وحلم عن قدرة».

الإنصاف: هو الانقياد للحقوق طوعاً. والتسليم لأمر الله هو: تمليك أمر الله (تعالىٰ) الزمام مع القدرة علىٰ الامتناع.

والقوة: هي الآلة والقدرة، وقد تستعمل في الآلة، والقدرة هي المعنىٰ الذي إذا حَل الحي أوجب كونه قادراً عند أهل الكلام، فأما أهل اللغة

فيعبرون بأحدهما عن الآخر لتقاربهما وقد يجعلون القدرة الاستظهار والغلبة.

والحلم نقيض السفه والخفة، وهو صبر مخصوص يقع في مقابلة سفه السفهاء، وبغي البطراء، هذا إذا وضعت الحرب أوزارها وأخمدت نارها، فأما عند كشفها عن ساقها، وإرعادها وإبراقها، وتضميمها، وإطرقها، فالحلم في تلك الحال مذموم فاعله موصوم، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من أحلم الأولين والآخرين، والماضين والغابري، فكان إذا شهر السيف لم يغمده، وللكفرة رسم يعلم، ولا ناب يضغم.

المعنىٰ في ذلك إن الإنصاف حسن من كل أحد كبيراً كان أو صغيراً ولا يختلف العقلاء في ذلك، وإنما تقع له المزية العظيمة إذا كان من قوي متمكن من الامتناع، وفي ذلك ما روينا «أن يهودياً كان له علىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دين فجاء إليه يطالبه قبل حلول أجله فقال (عليه السلام): يا يهودي لنا بقية يومنا، فقال اليهودي: إنكم يا بني هاشم قوم مطل.. ! فقام إليه عمر فأغلظ له وتهدده، فنهاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: نحن إلىٰ غير ذلك أحوج قال: إلىٰ ماذا يا رسول الله قال: أن تأمر بحسن الأداء، وتأمره بحسن الاقضاء. اذهب معه إلىٰ صاحب صدقة بني زريق، فأقضه دينه، وزده كذا وكذا لمكان ما قلت له، فسار اليهودي غير بعيد ثم رجع فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنك رسول الله، والله مالي إلىٰ دَيني من حاجة، ولكنا وجدنا صفتك في كتابنا، فما غادر من أمرك شيئاً، وكان في ذلك أنه لا يزيدك جهل الجاهل عليك إلاّ حلماً، فأردت أن أعلم ذلك، فكان كذلك» وإن شئت، فانظر إلىٰ أمير المؤمنين (عليه السلام)، وقصته (مع رجل نصراني وجد معه درعاً فعرفها، فقال علي (عليه السلام): الدرع درعي لم أبع ولم أهب، فقال النصراني: الدرع درعي، وما أنت عندي يا أمير المؤمنين بكاذب، فترافعا إلىٰ شريح قاضي أمير المؤمنين، فطلع أمير المؤمنين (عليه السلام) إلىٰ شريح وقال: يا شريح لو كان خصمي أسلامياً لجلست معه، ولكني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: صغروهم كما صغرهم الله (تعالىٰ)، وإذا كنتم معهم في طريق فأرجوهم إلىٰ مضايقة. وخصمي نصراني، ثم ادعىٰ (عليه السلام) الدرع، وأنكر النصراني فقال شريح: هل من بينة يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا قال:

الدرع درعه فقال (عليه السلام): أحسنت، فأخذها النصراني، وانصرف فمشى غير بعيد، ثم رجع، فقال: أمير المؤمنين يمشي إلىٰ قاضيه، وقاضيه يقضي بالحق عليه هذا والله أحكام الأنبياء... أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. هي والله درعك يا أمير المؤمنين تبعت الجيش، وأنت صادر إلىٰ صفين فجررتها من بعيرك الأورق. قال: أما إذا أسلمت فهي لك» ثم حمله علىٰ فرس من أفراسه، فرزق شهادة يوم النهروان، فهذا كما ترىٰ منتهى الإنصاف وغاية الحلم، ولو تقصينا شرح هذا المعنىٰ، وإيراد ما بلغنا من الآثار لطال الكلام، وانتقض الغرض في الاختصار.

قوله (عليه السلام): «ألا وإن أفضل الناس عبد أخذ من الدنيا الكفاف، وصاحب فيها العفاف».

الكفاف هو: القدر المساوي للحاجة وسد الفاقة من غير زيادة.

والمصاحبة: الملازمة، والعفاف: هو التحفظ عن الأمر الذي يخاف بمواقعته مواقعة القبيح. يقال: عفّ يعف إذا ملك نفسه، وأكثر ما يستعملون ذلك في الإزار.

المعنىٰ في ذلك: أن من نظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، ولم تطمح نفسه إلىٰ زينتها، ولم يغتر من زخرفها، واكتفىٰ منها باليسير، وجعل زاده منها كزاد الراكب المستقر، والوافد المبشر، وحمىٰ نفسه عن مرعاها الوبيل، وتخفف عن عبئها الثقيل، وجعل العفاف صاحبه مدة أيامها، ولم يلتبس بشيء من آثامها، وزهد في حلالها، وعف عن حرامها، ولم يفتتن بحطامها، وجعل الآخرة أكثر همه، ونفر عن جميع الحطام ولمه، فانه الناجي من هول الحساب، وغمه، وفي ذلك ما روينا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من أمسىٰ، وأصبح والدنيا أكثر همه جعل الله الفقر بين عينيه، وشتت عليه أمره، ولم ينل من الدنيا إلّا ما قسم له».

قوله (عليه السلام): «وتزود للرحيل، وتأهب للمسير».

التزود: زم الزاد للسفر، وسمي المزود مزوداً، لأن زاد المسافر يكون

فيه، والرحيل نقيض الحلول، وأصل الرحيل: الرحل، وأصل الحلول الحل، وكثر حتىٰ جعل ذلك لمن لم يعقد رحلاً، ولا يحل حبلاً، وقد استعمل من فعله، قال (تعالىٰ): ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾[1] الإلف العادة، وقريش القبيلة، ولا يطلق هذا الإسم إلاّ علىٰ ولد النضر بن كنانة دون بني مالك وغيرهم. والرحلة ما قدمنا معناه من الارتحال، وهو شد الرحل علىٰ الجمال، والشتاء فصل البرد، والصيف فصل الحر. وكانوا يرحلون في الشتاء إلىٰ تهامة، وفي الصيف إلىٰ الشام.

والتأهب جمع الأهبة وهي: الزانة، والعدة، وأحسب أن أصله من الإهاب الذي ترك فيه الإنسان ما يحتاج إليه من آلة السفر.

قوله (عليه السلام): «ألاّ وإن أعقل الناس عبد عرف ربه فأطاعه وعرف عدوه فعصاه».

أعقل الناس أزيدهم، وأوفاهم عقلاً، والعبد هو المملوك المذلل أخذ من قولهم طريق معبد أي مذلل. وأخذ العقل من عقال الناقة لأنه الذي يمنعها مما يكره وقوعه من قبلها، فلما كان العقل يمنع من استعمله من مواقعة مكروهات القبائح سمي عقلاً، وأصل العقل الذي يجب أن يشترك فيه جميع المكلفين عشرة علوم وهي معروفة عند أهل الكلام، وموجودة في كتبهم، وتلحق بها زيادات مكتسبة واختصاصية من الله (تعالىٰ) منها العلم بكيفية التأنيس مفصلاً، وكيفية التنفير، وما يزرع للإنسان الهيبة في قلوب الناس، وما يزرع المحبة، وما يزرع العداوة من الأقوال والأفعال والتروك ومنها العلم بعواقب الأمور مما يستدل عليه بشاهد الحال، ومجرىٰ العادات، ومنها العلم بكيفية التصرف في أنواع المكاسب علىٰ الوجه الذي يؤدي إلىٰ الزيادة دون النقصان، وجلب المنافع ودفع المضار، والمعرفة بالله (تعالىٰ) هي العلم بالله وهي أصل لكل خير، وهي نقيض إنكاره (تعالىٰ) والجهل به.

والطاعة نقيض المعصية، وللإنسان عدوّان أحدهما النفس، والثاني الشيطان، وسائر ما يتوهم عدواً في حكم الجند لهما والمبني عليهما.

---

(١) سورة قريش آية ١.

والمعنىٰ في ذلك: أن أعقل الناس من استعمل عقله في نجاة نفسه وفكاك رقبته بمعرفة ربه، وعبادة خالقه إذ العقل لا ينفع إلا بالاستعمال له، وقد روينا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «قسم الله العقل علىٰ ثلاثة أجزاء فمن كنّ فيه فقد كمل عقله، ومن لم يكنّ فيه فلا عقل له: حسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة، وحسن الصبر علىٰ أمره (جل وعز)،» وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع» وعقب (عليه السلام) معرفة الله (تعالىٰ(بالطاعة له لإدخاله حرف التعقيب الذي هو الفاء لأن معرفة الله (تعالىٰ) أصل طاعته (تعالىٰ) من دون معرفته حق معرفته، بلا ندٍ ولا مثيل مختصاً بصفات الكمال الواجبة له لنفسه، ولا بد في طاعته (تعالىٰ) من الإجلال والتعظيم الذي يقبح وقوعه لغير مستحقه، فإذا عرف ربه الذي خلقه ورباه، وأغناه، وأقناه، وأرشده، وهداه فأطاعه، وتحرىٰ رضاه، كان أعقل الناس لأنه أثر هداه علىٰ هواه وعمل لأخراه، وأعرض عن دنياه، وكذلك من عرف عدوه الذي هو نفسه الأمارة بالسوء، والشيطان الذي هو لنا بنص القرآن الكريم (عدواً)، فمن عاداه وعصاه، ولم يمل أبداً إلىٰ رضاه، فات بالنجاة، وظفر بالحياة، ومن أطاع عدوه رمىٰ به في المهالك وأسلكه ضنك المسالك فأوبعه وردّاه، وإنما قلنا ذلك لأن من لم يعرف عدوه لم يتمكن من الاحتراز منه. والنفس أشد العدوين لزاماً، وأنفذهما سهاماً، وأبعدهما مراماً، فمن أعطاها هواها، فقد أعطاها تواها، فالمفلح من زكّاها طهرها، وأنماها، والخائب من دساها دنسها وغياها وفي الجحيم ألقاها بائرة حائرة خائفة طائرة مروعة نافرة تظن أن يفعل بها فاقره.

الظن هاهنا بمعنىٰ العلم، والفاقرة ما تكسر فقار ظهره إذا حمل ثقيل وزره.

قوله (عليه السلام): «وعرف دار إقامته فأصلحها، وعلم سرعة رحلته فتزود لها».

المعرفة نقيض الإنكار، والدار هي التي يسكنها الدوّار.

والإقامة نقيض الرحلة، والإصلاح تنقيتها من المفسدّات، وتنزيهها من

المؤذيات، والعلم هو العرفان، والسرعة نقيض الريث والبطء والأناءة، والرحلة نقيض الإقامة التي هي دار الآخرة. لأن دارنا هذه طريق علىٰ الحقيقة، وليست بدار نزول علىٰ الحقيقة وقد قال بعض الحكماء العرب:

فليس لعيشنا هذا مهاه وليست دارنا الدنيا بدار

وإنما يطلق عليها اسم الدار بقرينة، فيقال: دار الزوال، ودار الضلال، ودار الهلاك، ودار الغرور إلىٰ غير ذلك من ألقابها الشرعية، وأسمائها اللغوية، فأما الآخرة فهي دار القرار، ودار المقامة، ودار الحيوان للمؤمنين، ودار البوار، ودار النكال ودار العذاب للعاصين، وكلا الدارين دائمة، وأهلها فيها دائمون فأهل النعيم في نعيمهم لا يسامون، وأهل العذاب في عذابهم لا يرحمون فإذا كانت دار الإقامة إحدىٰ هاتين الدارين، وكانت الرحلة إليها سريعة، وكان الزاد ليس إلاّ العمل الصالح، وكان من أمر أن يصلح دار إقامته قد أتي من قبل نفسه، وأسكن في العذاب الأليم مهاده الجحيم، وشرابه الحميم، وطعامه الزقوم، وفاكهته السموم وكان من لم يزود لرحلته أرجح بغير زاد ولم يمهل لمعاد، فأي عذر لمن اغتر بما هذا حاله، وبأي شيء تأسي نفسه، ألم ينظر الداخلين إلىٰ الدنيا يدخلونها بغير شيء، والخارجين منها يخرجون منها بغير شيء، والمتمتعين بين هاتين الحالتين من الملوك، فمن دونهم كأنهم في أضغاث أحلام، وزيادتهم إلىٰ نقصان، وربحهم إلىٰ خسران. آخر صحتهم سقم، ونهاية شيبتهم هرم، وغاية ملكهم عدم، ومنتهىٰ حياتهم الموت، ووجدانهم الفوت، أكثر لذة ملكهم زوال عقله بالخمر أو استخفاف حمله بالصيد، فإذا عاد إليه عقله اشتغل بهم لا تنحل عقده، ولا يتقوم أوده، فهذه حاله حتى يدعىٰ إلىٰ الحكم العدل الذي لا يجور فوقف بين يديه كئيباً حسيراً لا يملك فتيلاً ولا نفيراً، ولا يعرف قبيلاً، ولا زبيراً قد أجمع كبيراً، وخرج فقيراً، فصارت الجلالة واللذة عليه حسرة، والأملاك تبعة، والملك حجة **﴿ورُدوا إلىٰ الله مولاهم الحق ألا لَهُ الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾**[1].

فقيل له: هذه دار إقامتك لم تصلحها، وسرعة نقلتك لم تزود لها فما

---

(١) سورة الأنعام آية ٦٢.

عذرك، فجر في الجحيم، وصب فوق رأسه الحميم، وقيل له: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾[1]، وأخبر بأن لا موت ولا فوت كما روينا عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده (عليه السلام) في قوله (تعالىٰ): ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذا قضي الأمر﴾[2] قال (تعالىٰ): «لأهل الجنة خلود لا موت فيها أبداً، ولأهل النار خلود لا موت فيها أبداً»، وذلك قوله (تعالىٰ): ﴿إذا قضي الأمر﴾ علىٰ أهل الجنة الخلود فيها، وقضي علىٰ أهل النار الخلود فيها.

قوله (عليه السلام): «ألاّ وإن خير الزاد ما صحبه التقوىٰ، وخير العمل ما تقدمته النية، وأعلىٰ الناس منزلة عند الله أخوفهم منه» خير الزاد أفضله، والزاد ما يأخذه المسافر من المتاع في طريقه. وصحبه بمعنىٰ قاربه ولازمه، والتقوىٰ هو الخوف لله (تعالىٰ) وليس خيرها هنا يفيد أن دونه من الزاد ما هو نافع، ولكن ما صحبه التقوىٰ، فمعنىٰ ذلك أن الخير كله مجموع فيما صحبه التقوىٰ وما لم يصحبه التقوىٰ، فلا خير فيه، وكذلك الكلام في العمل لأن ما لم يتقدمه النية من الأعمال الصالحة، فلا نفع فيه، ولا بركة، والكلام فيه علىٰ نحو ما تقدم.

وأعلىٰ الناس معناه: أرفعهم منزلة عنده (تعالىٰ)، والمنزلة هي الحالة، والمزية وأراد بقوله عند الله المقام الذي لا حكم فيه إلاّ لله وهي دار الآخرة، وأنه (سبحانه) ملك الدنيا والآخرة، ولكنه فد خلاّ في الدنيا، ومكن وخير، وبين تعريضاً للثواب وتمكيناً من الفعل والترك ليصح معنىٰ التكليف.

والوجه الثاني في قوله: عند الله (تعالىٰ) يريد في علمه (تعالىٰ) كما يقول: الحاكم عندي أن الأمر كذا وكذا معناه في علمي، ومقتضى أمري وأخوفهم منه معناه أخشى له، لأن الخوف والخشية معناهما واحد، والمؤمن لا يزال خائفاً حتىٰ يلقىٰ الله (سبحانه) وقد حكىٰ الحكيم (سبحانه) وذلك عنهم في كتابه الكريم بقوله: ﴿وأقبل بعضهم علىٰ بعض يتسألون قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾[3] معناه خائفين فمن الله علينا، ووقانا عذاب السموم

---

(١) سورة الدخان آية ٤٩.
(٢) سورة مريم آية ٣٩.
(٣) سورة الطور آية ٢٦.

نوع من أنواع العذاب نعوذ بالله (تعالىٰ) من عذابه، ونسأله الفوز بجزيل ثوابه، وإن أردت العجب الذي يشغل القلوب والأفكار، فانظر إلىٰ الصفوة المكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد غفر له ما تأخر من ذنبه، وما تقدم، فإنه خاف الله (تعالىٰ) خوفاً عزفه عن الدنيا جملة، فما ادّخر منها كُراع نملة، وقد كان ملك جزيرة العرب من عمان إلىٰ جدة، ومن عدن إلىٰ طور الشام، وجبي إليه خراجها فما خلف ديناراً، ولا درهماً، ولا ذهباً، ولا فضة، وخلف درعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير، وعرض نفسه للناس في جنايات إن كانت منه إلىٰ أحد منهم في قصص طويلة خوفاً من الله (تعالىٰ) وقد قال: لأصحابه في حديث طويل: «وقد قال له: يا رسول الله لست كأحدنا قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال (عليه السلام) وقد غضب والله إني لأخشاكم لله، وأعرفكم بما أتقي»، وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) خميص البطن مُنخرق القميص يمسي ساهر العين، يبكي ويتململ ويصلي حتىٰ تورمت قدماه، فكيف بنا وقد خوطبنا بقوله (تعالىٰ): **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**[1] والمعنىٰ في ذلك أن الواجب علىٰ العاقل الاستعداد والتأهب للمعاد واتخاذ التقوىٰ صاحباً في جميع الأعمال لينجو غداً من الأهوال. وان تقدم النية علىٰ عمله ليقع خالصاً لربه فقد قال (تعالىٰ): **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾**[2] والإخلاص لا يكون إلاّ بالنية. لأنه لا يجوز إثبات أحدهما ونفي الآخر. لا يقول: أخلصت العمل لله، وما نويته ولا نويته، وما أخلصته، بل يعد من قال: ذلك. مناقضاً جارياً مجرىٰ من يقول: أنويت، وما نويت وقد روينا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال: «الأعمال بالنيات، ولكل امرء ما نوىٰ»، فأخبر (عليه السلام) أن الأعمال لا تكون أعمالاً نافعة عند الله (تعالىٰ) إلا بالنيات وأن العبد لا يكافىٰ بالثواب إلاّ علىٰ ما نوىٰ من الأعمال به وجه الله (تعالىٰ)، وأخبر (عليه السلام): «أن أعلىٰ الناس منزلة عند الله (تعالىٰ) أخوفهم منه لأن الخائف له لا بد أن يكون عارفاً به حقيقة المعرفة، وعند ذلك يكبر جلاله، ويعظم سلطانه، ويتوقع نزول وعيده،

---

(١) سورة الزلزلة آية ٨.
(٢) سورة غافر آية ٦٥.

ويذكر إيقاعه (عز وعلىٰ) بالأمم الماضية، والقرون الخالية، ويجوز أن ينطبق جفناه في الدنيا، فلا ينفتحان إلّا بين يدي ربه (سبحانه) في الآخرة في ذلك المقام الهائل عند الملك العادل صادق الوعد، والوعيد الفعال لما يريد، وقد توعد من أتاه على غير عهده بسطوة شديدة موبقة عتيدة، لا مجير منها ولا ناصر ولا غاية لها ولا آخر.

هذا ما يخشىٰ قلبه من هجوم الصاخة والطامة، والواقعة، والقارعة، الصاخة تصخ لها الأسماع من فرط الاستماع حتى تستك أو تكاد فلا يلتفت من روعها إلى الأموال، والأولاد».

والطامة هي تطم علىٰ العباد، وتغمر البلاد. أخذت من الطم وهو البحر الرجاف متباعد الأطراف.

والواقعة التي تقع بكلكلها علىٰ البرية، فلا تبقىٰ منهم بقية.

والقارعة تقرع الأسماع، والقلوب، فتبعث الأحزان والكروب، فكيف يسلو من تفكر في هذه الأحوال، أو يشتغل بالأهلين والأموال ومن لك بالحازم المستمر، والغادي المبكر، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الخائفين، ويصلي علىٰ محمد وآله الطيبين...

الحديث السادس عشر

عن أبي هريرة، وقد تقدم ذكر حاله ونسبه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إنما يؤتى الناس يوم القيامة من إحدىٰ ثلاث: إما من شبهة في الدين ارتكبوها، أو شهوة للذة آثروها، أو غضبة لحمية أعملوها، فإذا لاحت لكم شبهة فاجلوها باليقين، وإذا عرضت لكم شهوة، فأقمعوها بالزهد وإذا عنت لكم غضبة فادرؤها بالعفو انه ينادي مناد يوم القيٰمة من له علىٰ الله أجر فليقم، فيقوم العافون عن الناس ألم ترىٰ إلىٰ قوله (تعالىٰ): ﴿فمن عفىٰ وأصلح فأجره علىٰ الله﴾[1]» معنىٰ يؤتى الناس يؤخذون، ويهلكون كما يقول صاحب الثغر: أخشىٰ أن يأتينا العدو من هاهنا، وقد قال (تعالىٰ): ﴿فأتىٰ الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم﴾[2] ويقول قائل أهل اللعنة: آتينا من كذا وكذا إذا نزل بهم المحذور من هنالك، فأكثر ما يستعمل أتينا في المكروه، وان كان الأصل في الإتيان يقع في المحبوب والمكروه، فقد صار المكروه به أخص، ويوم القيامة هو يوم القيام إلىٰ الله (تعالىٰ) قال (سبحانه): ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[3]. معناه إلىٰ رب العالمين، والله أعلم، ويحتمل أن يكون قيامهم له وحده لا لأحد سواه لئلّا يتوهم أن لصاحب الصور في ذلك صنعاً بل قيامهم لله (تعالىٰ)

---

(١) سورة الشّورىٰ آية ٤٠.
(٢) سورة النحل، آية ٢٦.
(٣) سورة المطففين، آية ٦.

وحده، وألحقت الهاء فيها للمبالغة، ومثله كثير، والمراد بإحدى ثلاث أي بواحدة من ثلاث ثم بينها (عليه السلام) فقال: «إما من شبهة في الدين ارتكبوها» والشبهة هي: التي تشبه الحق وتلتبس به. قال الله (تعالى): ﴿إن البقر تشابه علينا﴾[1] أي تلتبس بعضها البعض لاشتراكها في اللون والصورة، وهذا يحتمل أن يراد بها المتدينون من كل فرقة من فرق الكفر، والإسلام لأنهم ما أوتوا، إلاّ من الشبهة، ويحتمل أن يخص بها فرق الإسلام الضالة، وأن يكون الدين المعهود هو دين الإسلام والارتكاب هو: افتعال من الركوب، فكأنه قال (عليه السلام): ركبوها، وركوبهم لها اعتقادهم لها، وعملهم عليها، وكان أكثر ما يتصرف به في الأمور، وتقتضي به الحاجات: الركوب، فيحتمل الاعتقاد عليه استعارة وتشبيهاً، وهي من غرائب الاستعارات وعجائب العبارات، ولم لا يكون كذلك (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو من قريش البطاح، ورُبي في بني سعد، وهم فصحاء العرب وكان روح القدس يؤيده ويعينه ـ والشهوة هي المعنى الذي يوجب كون جملة الحي مشتهياً بشرط الاختصاص ـ واللذة هي ما تحصل عقيب إدراك المشتهىٰ، وقد يكون المشتهىٰ مباشراً، وقد يكون منفصلاً، فتقع اللذة عقيب المشاهدة، والذكر والتصور، والإنسان يجدها من نفسه، وإيثار الشهوة تقديمها علىٰ غيرها هذا أصل الإيثار أن تقدم فعلاً علىٰ غيره مع الحاجة إلىٰ ذلك، وقد يكون محموداً، وقد يكون مذموماً باختلاف القصود والوجوه ـ والغضبة هي واحد الغضب، وهو الغيظ والحنق، وقد يكون محموداً إذا كان الغضب لله، فإن كان للحمية والأنفة كان مذموماً، والحمية هي الكبر والأنفة، وهو سفه الحق، واستصغار الناس، وإعمال الحمية يراد بها فعلها، ولا يجوز فعل الحمية، ولا العمل لأجلها.

المعنىٰ في ذلك: أن الناس لا يؤتون يوم القيامة في نفوسهم إتياناً يوجب هلاك النفوس، وخلودها في العذاب الدائم إلاّ من إحدىٰ التي ذكر (صلى الله عليه وآله وسلم) أولها الشبهة في الدين لأنها أصل لكل ضلالة، وفتنتها أعم، وأمرها أهم فكم من عالم قد طرحت به الشبهة في بحار

(١) سورة البقرة آية ٧٠.

الضلال، وكم من متعلم أوردته أودية الوبال، وكم من جاهل قد دحت به في ميدان النكال، ولا يعتصم من فتنتها إلّا من جعل خوف الله (تعالىٰ) عدته والفزع إليه عمدته، والنصفة شعاره، وسؤال الصالحين دثاره لأنا روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم» واعلم أيها الأخ أيدك الله أن المعرفة بالدليل ينهج لك السبيل، وأكثر ما أتي الناس من جهلهم بالدليل، وهو مأخوذ من دليل الطريق. قال قائل أهل اللغة. . . . إذا الدليل استاف أخلاف الطرق . . . فسمي دليلاً لأنه يرشد ويوصل إلىٰ الغرض المطلوب، فكلما كان إذا نظر العاقل فيه علىٰ الوجه الصحيح أوصله إلىٰ العلم، فهو: دليل وهو اليقين الذي تسكن إليه النفس. قال (تعالىٰ): ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾[1] يعني علمتها، وسكنت إليها، ولا يصح لها علم فيما يجوز ورود الشبهة عليه إلّا بالدليل إذ حصول العلم بغير دليل فيما هذا حاله مستحيل، وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) برواية النعمان بن بشير أنه قال: «الحلال بين، والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعرفهن كثير من الناس، فمن تركهن استبرأ من الدنية، ومن واقعهن واقع الحرام، ومثل ذلك مثل رجل يرعىٰ حول الحمىٰ فيوشك أن يقع فيه ألا أن لكل مِلك حمي، وحمىٰ الله محارمه»، وفي هذا تنبيه علىٰ أن الصواب عند وقوع الشبهة في بعض الأمور الإمساك عن التقحم، وتعرف الصواب بالدليل بحيث لا يبقىٰ في قلب الإنسان ريب، ولا شك لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قضىٰ بأن من واقع الأمور المشتبهات واقع الحرام، فأما الشهوة فهي تعلقه بوجهين البطن، والفرج، والبطن أعم، وهُما: الأجوفان اللذان ذكرهما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد قال (تعالىٰ): ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾[2] فأي لذة تتم في مأكول لمن علم أن عاقبة أكله تعود ناراً، وعاراً، وخزياً، وشناراً، وقد قال الشاعر:

---

(١) سورة النمل آية ١٤.
(٢) سورة النساء آية ١٠.

لا خير في لذة من بعدها النار

وقد جعل الله (تعالىٰ) عاقبة المأكولات، والمشروبات في الدنيا إلىٰ الأمور المستقذرات التي تنفرْ عنها النفوس، وهذا لعمر الله، مزهد لكل عاقل هذا مع التبعة العظيمة في الآخرة. وفي الرواية أن أمير المؤمنين (عليه السلام) دخل عليه عليّ أبي نيزر وكان أبو نيزر هذا من أولاد ملوك الحبشة، فتاب إلى الله (تعالىٰ) وأتىٰ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فخدمه في منازله حتىٰ قبضه الله (تعالىٰ) إليه (صلى الله وملائكته عليه وآله) فانتقل إلى علي (عليه السلام) فأنزله العين التي تعرف اليوم بعين أبي نيزر تنسب إليه، وكان إنزاله إياها قبل خروج نهرها الأعظم، وفيها ربيع نهر صغير، فدخل إليه (عليه السلام) فقال: يا أبا نيزر هل عندك طعام. . .؟ فقال: يا أمير المؤمنين ليس إلّا قرع من قرع الضيعة، وما به آنية إلّا آنية لا أرضاها لأمير المؤمنين (عليه السلام) فقال (عليه السلام): عليٌّ به، فإن أكُفنا أنظف الآنية، فجاء فأكل حتىٰ قضىٰ حاجته، ثم قام إلىٰ الربيع فغسل يديه، ومضمض فاه، ومسح يديه علىٰ لحيته وصدره وبطنه ثم قال تعس من أدخله بطنه النار، ثم قال عليٌّ بالمعول فجيء به فنزل فجعل يضرب، فلم يصنع شيئاً ثم طلع وجبينه يقطر عرقاً، ثم نزل فجعل يضرب، وهو يهمهم، فاندهقت عليه كأنها عنق جزور، فطلع (عليه السلام) حامداً الله (تعالىٰ)، وقال عليٌّ بدواة وقرطاس، فوقعها علىٰ فقراء مكة والمدينة»، وأطلق لأبوينا الحسن والحسين (عليهما السلام) أيديهما فيها، ولنا من بعدهما دون سائر أولاده، وأولادهم صلة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قصة طويلة تعلقت بها أحكام كثيرة، وكذلك روينا عن سلمان (رحمه الله) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «من استلقىٰ علىٰ المأثور، ولبس المشهور، وركب المنظور لم يرح رائحة الجنة» ونحن نحمل هذا علىٰ المحرم، والملتبس إذ لا يصح غير ذلك فيا لها من شهوة ما أوخم عاقبتها، وأمر تبعتها، وأعظم نغصتها، وأسرع نكالها، وأدهىٰ وبالها. . .! وأما ما يتعلق بالفرح من الشهوات فالأمر فيه أظهر، وركوبه أدهىٰ وأكبر، وقد قال (تعالىٰ): ﴿ولا تقربوا الزنىٰ إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾[1] وقد تقدم تفسير هذه الآية، وكفاك

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٢.

ظاهرها في الزجر عنها، والفرار منها، وتعلقت به هذه الأمور الهائلة، وهي الفحش الذي هو القبح المتناهي، وساء سبيلاً بمعنىٰ: كره وقبح. وإنما كان كذلك لأن فيه غضب الرب، وهو أعظم مصيبة أصيب بها العباد، ولا يقوم لغضبه (تعالىٰ) الحيوان، ولا الجماد، وقد تجلىٰ (سبحانه) للجبل غاضباً بمعنىٰ أظهر له آية من آياته، فجعله دكاً، ولا أطول ولا أقوىٰ منه. . . ! فكيف بابن آدم الضعيف المسكين. . .؟ ومنها اختلاط النسل، ومنها أن فاعله يستصغر عند أهل الدنيا والآخرة، ويستخف به الجميع، ويعد خائناً عند الكفار والمسلمين، ويخرج عن دائرة النصفة لأنه رضي للناس ما لم يرض لنفسه، وقد روينا عن علي (عليه السلام) أنه قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا فإنه يذهب البهاء، ويعجل الفناء، ويقطع الرزق. وأما التي في الآخرة: فسوء الحساب، وسخط الرحمن، والخلود في النار. . .» وأما الغضب فقد قدمنا فيه الكلام وهو: شر في النفس، وحرارة في القلب، وهو جمرة تتوقد في جوف ابن آدم، فإذا توقدت أضرمها الشيطان، وألقى عليها حطب الجهل، وأمدها بجمر العصبية، فأحرقت الحسنات عن كثب، وتناهت في الأجيج واللهب، فكم من قصر هدم، وآل ضرم، وأنف صلم، ورأس صدم، فنعوذ بالله من شره، وقل ما يطفي ناره من المياه إلاّ ماء ذكر الله (تعالىٰ)، وثلج برد معرفته لأن بذكر الله تطمئن القلوب، وبمعرفته تندفع الكروب، وهو كما ذكرنا على وجهين: مذموم، ومحمود، فما كان لغير الله (تعالىٰ) فهو مذموم كالغضب في أمور الدنيا ومضارها ومنافعها، وحقوق النفس في ذلك ما روينا عن النبي (صلىٰ الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «من برد غضبه دفع الله عنه عذابه، ومن حفظ لسانه ستر الله عيوبه، ومن اعتذر إلىٰ الله قبل الله عذره. . .».

فأما الغضب لله (تعالىٰ) وفيه فذلك من كبار الحسنات، وموجب العالي من الدرجات، وقد روينا عن علي (عليه السلام) قال: «قال رسول الله (صلىٰ الله عليه وآله وسلم): قال موسىٰ بن عمران (عليه السلام) لله (تعالىٰ): يا رب من أهلك الذين تظلهم في ظل عرشك يوم لا ظل إلاّ ظلك. . .؟ قال: فأوحىٰ الله (عز وجل) إليه: الطاهرة قلوبهم، البريئة أيديهم الذين يكتفون

بطاعتي كما يكتفي الصبي الصغير باللبن، الذين يأوون إلىٰ مساجدي كما تأوي الطيور إلىٰ أوكارها، الذين يغضبون لمحارمي إذا استحلت كالنمر إذا طرد» فقد رأيت كيف أتىٰ هذا الخبر الشريف علىٰ جميع ما تقدم. .

أما طهارة القلوب، فمن فاسد الاعتقادات، ودنس الشبهات وأما براءة الأيدي، فمن رجس الفاحشات، ومس المحظورات، وخص الأيدي بذلك لأنها المؤدية إلى الفروج والبطون. وأما الأُويُ إلى المساجد، فهو: القيام بواجبات الصلوات المغارب، والعتمات. . . وأما الغضب لله، فقد جعل في مقابلة ظل العرش المجيد في المقام الشديد، وشبه غضب الغاضبين لله (تعالىٰ) بغضب النمر، وقد علمت أن النمر أقوىٰ السباع غضباً وأقلها احتمالاً للغيظ، ومن ذلك قولهم: تنمر فلان إذا اشتد غضبه، وقولهم: فلان لابس جلد النمر. . .

قوله (عليه السلام): «فإذا لاحت لكم شبهة فاجلوها باليقين، وإذا عرضت لكم شهوة فأقمعوها بالزهد، وإذا أعنّت لكم غضبة، فادرؤها بالعفو».

لا يقال لاح إلا للشيء إذا كان يبدو في الحين بعد الحين كما يلوح البرق، والشيء الصقيل، وكذلك حال الشبهة لأنها لا تستقر في أذهان أهل النظر والتحصيل، وقد قدمنا الكلام في تسميتها شبهة، وإن ذلك لاشتباهها بالحق. . .

والجلاء هو: كشف الصدى عن الشيء الصقيل، فشبه (عليه السلام) الشبهة بالطبع يكون في السيف وشبهه، فلا يجلوهُ إلاّ اليقين كما تجلو المداوس السيف. واليقين هو العلم المحض الذي يقرب من الضروري، فيبعد من الشك، والشبهة، والعارض هو الطارىء الذي لا استقامة له، وقد يضر وينفع، والشهوة قد تقدم معناها.

والقمع هو ضرب رأس الشيء حتىٰ ينقمع بمعنىٰ ينكتم، وينغمر كما يفعل القنفذ، ومنه سميت المقمعة: مقمعة لأنها تقمع ما واجهت بمعنىٰ أنها تصدمه فينجحر قال سويد بن أبي كاهل:

رُبَّ من أنصحت غيظاً قلبه قد تمنىٰ لي موتاً لم يطع

مـزيـداً يـخـطو مـا لم يَسـرّني فـإذا أسمعتـه صـوتي انـقـمـع

معناه: انغمر وخضع، فكأن قمع الشهوة قرعها بالوعظ وغمرها بالزهد.

والزهد: هو استصغار الدنيا، واحتقارها، وتـرك أكثر حـلالها خـوفاً من وبالها..

ومعنىٰ عنت: اعتـرضت، واعتراضهـا أن تحول بينـك، وبين قصـدك، ومنه سمي العنان: عناناً لأنـه يعرض للفـرس دون مراده، ويحـول بينه، وبين غرضه، والغضبة فعلة من الغضب، والعفو ترك المناقشة والمعاقبة علىٰ الفعل السـابق، وأخذ من المكـان الذي لم يتتبـع بالـرعي والاختـلاء حتى يقـرّ فيـه الخلا، ويقر الكلا... يقال: عفـا يعفوُ، ويقـال: فلان يـرعىٰ العفو إذا كـان متبعاً يصل حيث لا يصـل الناس، فـإذا لم يناقش علىٰ الخـطيئة، ولا يعـاقب في الجنية قيل: عفا، وأصله ما قدمنا..

المعنىٰ في ذلك: أنه (صلى الله عليـه وآله وسلم) عـرفنا مـا يدفـع عنا ضرر هذه الخلال الثلاث التي هي أصل النكال، وسنخ الوبال فالواجب علينا التفهم والقبـول لأنه (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) طبيب أدواء الـدين، ومعلم خصال الخير، والناصح العارف، والبصير الكاشف، فأمرنا عنـد لياح الشبهـة بالفزع إلىٰ اليقين لأن به جلاءها، وذلك لا يقع إلا بالنظر في الأدلة والبراهين وسبرها في قالب الحقائق، والاستعانة بأهل الصـلاح والمعرفـة في إيضاحهـا، وافصاحها بـالعبارات المستعـذبة، والأنـوار الملتهبة، وفي ذلـك ما روينـا عن رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) أنـه قـال: «فقيـه واحـد أشـد علىٰ الشيـطان من ألف عابـد» وإنما كـان أشد علىٰ الشيـطان من ألف عـابـد لأنـه يكشف للمستـر شدين عن وجـوه الأدلـة، ويبين لهم السبب والعلة، والعـابـد ربما فتنه الشيطان في عبادته فتنة تؤدي إلىٰ هلاكه، وارتباكه، فلا يطمع طامع في فكاكه نحو تأويلنـا هذا عن أميـر المؤمنين (عليه السـلام) وهو أنـه قال في تأويل هذا الخبر لأن العالم يستنقذ عباد الله من حيرة الجهـل بعلمه، والعـابد يـوشك أن تـرد عليه شبهـة، فإذا هـو في بحار من الهلكـة، وأمرنـا أن تقمـع الشهوة بالزهد لأن غير الزهد لا يقوم مقامه في قمعهـا ودفعهـا، وأصـل الزهـد التفكر في الآخرة، والمعـاد، والحشر، والحسـاب، وتصور الموت والأحـوال

بعد الموت من تغير البنية، وفساد الآلة، وتنكر الجوارح الحسنة عن عاداتها المعتادة حتىٰ يصير المسكون إليه منفوراً عنه والمحبوب مكروهاً، وأفضل كرامة له مواراة جيفته، وردم التراب عليه وقد روينا عن علي بن الحسين (عليهما السلام) في مثل ذلك «أن جارية قالت لـه: ما أحسن عينيك..! قال: هما أسرع، شيء إلىٰ البلاء مني»، فلو رأيتيهما بعد ثلاث وقد سالتا علىٰ خدي في حديث طويل...!

وإشعار القلب: خوف الله (تعالىٰ) فعند ذلك يكون العبد علىٰ وجل شديد، فيقوم بالفرائض، ويكف عن المحارم لتوقعه هجوم الموعود، وحلول الملحود، وقد نفدت اللذات، وبقيت التبعات، وذهبت الشهوات، فرحم الله امرءاً نظر إلىٰ الدنيا بعين الاحتقار، وبسط إليها كف الاضطرار، وأخذ منها أخذ العليل النبيه من الدواء الكريه، ولم يبسط إلىٰ محرماتها يداً، ولا يملأ من حطامها فماً، وجعل لنفسه على نفسه رقيباً، ومنها عليها حسيباً، وأمرنا أن !ندرأ بمعنىٰ: ندفع عانٍ الغضبة وهو عارضها كما قدمنا بالعفو ما لم يكن الغضب في حق الله تعالىٰ لأن ذلك أولىٰ بالمتقين، وهو المعروف من شيم المرسلين (عليهم سلام رب العالمين)، وحسن العفو متقرر في العقول لا ينكره منكر، ولا يدفعه دافع، ولذلك اشترك في المعرفة بحسنه من النفس، واستحسانه من الغير المسلمون والكفار واختصت العرب من ذلك بما ملئت به الدفاتر، وشحنت به الأوراق في الجاهلية، والإسلام، وفي الحديث «ان وفد هوازن وصلوا إلىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالجعرانة فقالوا: يا رسول الله لو أخذنا أحد هذين الملكين، يعنون النعمان بن المنذر، والحرث الجفني لرجونا منه العفو، وأن أكثر من في الحضائر خالاتك» فاستطاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نفوس المسلمين عن النساء والذرية، وقيل: انه ضمن (صلى الله عليه وآله وسلم) لمن شحت نفسه بمن كان معه بسبب فرائض من أول ما يفي الله عليه وردها عليهم في حديث طويل... وروينا في حديث سبايا طي: «أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: وقعت في نفسي منهن جارية حمَّاء حواء لعساء لمياء غيطاء شماء الأنف معتدلة القامة، مدورة الهامة درماء الكعبين، خدلجة الساقين لفاء الفخذين، خميصة الخصرين، ضامرة الكشحين، مصقولة المتنين قال: فلما رأيتها

أعجبت بهـا وقلت لأطلبن إلىٰ رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) أن يجعلها في فيئي، فلما تكلمت نسيت جمالها لما رأيت من فصاحتهـا فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي العرب، فإني ابنـة سرة قومي كـان أبي يفـك العـاني، ويقـري الضيف، ويشبـع الجائـع، ويفـرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، وما رد طالب حاجة قط عنها، أنا بنت حاتم الطائي، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): هذه صفة المؤمن لو كان أبـوك إسلامياً ترحمنـا عليه، فخلوا عنهـا فإن أبـاها كـان يحب مكارم الأخلاق، والله (تعالىٰ) يحب مكارم الأخلاق، فقام أبو بـردة فقال: يـا رسول الله: الله يحب مكارم الأخلاق. . .؟ فقـال: نعم يا أبـا بردة لا يـدخلن الجنة أحدٌ إلّا بحسن الخلق». . .

والعفو كما علم الكافة من أشرف مكارم الأخـلاق، وأعلىٰ طبقاتهـا وهو أوفىٰ حسن الخلق، وفيه آثار كثيرة. . .

قوله (عليه السلام): «انـه ينادي منـادٍ يوم القيـامة من لـه علىٰ الله أجرٌ فليقم، فيقـوم العـافـون عن النـاس ألم تـر إلىٰ قـولـه (تعـالىٰ): ﴿فمن عفىٰ واصلح فأجره علىٰ الله﴾[1]؟».

المنادي: هو الصائح برفيع صوته، وأكثر ما يستعمل في الأمور المهمـة قال الحرث بن حلزة:

اجـمـعـوا أمـرهـم بـلـيـل فـلمـا   أصبحـوا أصبحت لهم ضـوضـاءُ
مـن مـنـاد ومـن مـجـيـب ومـن   تصهـال خيل خـلال ذاك وغـاءُ. . .

ويوم القيامة هو يوم البعث، وقيام الناس من أجداثهم إلىٰ ربهم كـأنهم جراد منتشر، ومعنىٰ قوله (عليه السلام) من له علىٰ الله أجر يـريد: من يجب له علىٰ الله أجر، وكل مطيع لله، فأجـره علىٰ الله، وإنما خص العفـو بذلـك لأنـه أفضل الأعمـال وكان كـذلك لأنـه يتضمن الصبـر والكـرم وحسن الخلق ومخالفة الهوىٰ، وقصم قرون العصبية، وجدع أنف الحميـة، وكل واحـد من هذا له في الإسـلام موقـع كما أنـا نعلم أن الكل من الخلق عبـادٌ لله، فخص

---

(١) سورة الشورى آية ٤٠.

(سبحانه) الصالحين بنسبتهم في العبودية إليه تشريفاً، فقال عز قائلاً: **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون علىٰ الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾**(١).

الهون في المشي نقيض المرح، وهو الضرب بالرجل للخيلاء.

والسلام هو: المسالمة، وهو ترك المشاحنة، والمحاربة، والأجر هو الجزاء، والعافون هم الذين يهبون حقوقهم لله (تعالىٰ) صبراً واحتساباً، وصرح (عليه السلام) بأنه أخذ الخبر عن الآية وهو قوله (تعالىٰ) **﴿فمن عفى وأصلح فأجره علىٰ الله﴾**(٢) وقد تقدم الكلام في معناه إلاّ أن العفو يتعلق بالغير والإصلاح يتناول جميع الأعمال مما يتعدىٰ، ومما لا يتعدىٰ المعنى في ذلك: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كشف لنا بهذه الألفاظ الصحيحة، والمعاني الصريحة عن عظم منزلة العفو وجلالة خطره عند الله (تعالىٰ)، وذلك واضح لكل متأمل ألا ترىٰ أنه قال: «من له علىٰ الله أجر فليقم» فقام العافون عن الناس من غير إشعار بلفظ يبين أنهم المرادون، وما ذاك إلاّ لسبق البشارات إليهم عند فراق الدنيا.. بأن من عفىٰ عن غيره لم يكن بينه، وبين الملائكة (عليهم السلام) معاملة في حساب، ولا عرض، ولا شهادة تقرير، وتشعيب، وأن أجرهم قد وجب على الله (تعالىٰ) واختصوا بتخفيف مؤونة الحساب، ورفعت عنهم مشقة السؤال والجواب، فنسأل الله (تعالىٰ) أن يجعلنا من العافين، لوجهه والغاضبين لدينه، وكافة المسلمين، والصلاة علىٰ محمد وآله...

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٣.
(٢) سورة الشورى آية ٤٠.

الحديث السابع عشر

عن عبدالله بن مسعود بن الحرث بن شمخ بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحرث بن تميم بن سعد بن هديل قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «يقول الله (تعالىٰ): يابن آدم تؤتىٰ كل يوم يرزقك وأنت تحزن، وتنقص كل يوم من عمرك، وأنت تفرح أنت فيما يكفيك، وتطلب ما يطغيك لا بقليل تقنع، ولا من كثير تشبع». . . عبدالله هذا هو المبرز في العلم، المعروف الحق، المشهور بنفاذ البصيرة وفيه آثار كثيرة، وهو أحد العلماء الأربعة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يختلف أحد من أهل العلم أنه ثاني علي بن أبي طالب أمير المؤمنين (عليه السلام) وإن اختلف في الثالث والرابع بين سلمان، وعمر، ومعاذ، وأبي الدرداء وزيد، وهو الذي كان علىٰ بيت مال العراق في ولاية عمر، وعمر من قد علم الكافة في التحفظ في أمره، فدل ذلك علىٰ ارتفاع الشك في أمره والقطع علىٰ عدله، وأمانته، وهو أول من فقه أهل العراق، فحققوا ودققوا، وهو من هذيل حليف لبني زهرة بن كلاب، وعد في رجالهم، وكان بدرياً، وهو الذي روي عنه القول المشهور يوم أحد: ما كنت أظن أن فينا يا أصحاب محمد من يريد الدنيا حتىٰ نزلت الآية ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾[1] فما ظنك بمن كانت هذه حاله، والكلام فيه كثير وهو أشهر من أن يخفىٰ، وهو عبدالله بن مسعود بن الحرث بن شمخ بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٢.

الحرث بن تميم بن سعد بن هذيل قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «يقول الله (تعالىٰ). . . ».

يقول من القول، الله الذي تألهُ إليه القلوب. أي تميل وتصغي إلىٰ محبته لاستحقاقه لذلك، وتعالى يفيد أنه الأجل الأكبر، ولا أعلىٰ منه ولا أكبر بل هو أعلىٰ من كل شيء قدراً وشأناً إذ التعالي مستحيل في حقه لأنه ليس له حالة نقص ارتفع عنها حالاً بعد حال تقدس عن ذلك ذو الجلال. . .

وابن آدم يطلق علىٰ الإنسان، وآدم هو أبو البشر فلا بشر قبله ونطق الكتاب بتسميته آدم من عند ربه، وروينا عن ابن عباس (رضي الله عنه) «أنه سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض أوجهها»، وذهب أهل التعطيل من الباطنية إلىٰ أنه أول داع في عالم الستر، وأنه أول البشر بالولادة الروحانية لا الجسمانية ولسنا نشحن بذكر خرافاتهم الأوراق، فقد نبأنا الله من أخبارهم، وهتك بمعرفتنا الحصيف من استارهم، ويكفيك في ذلك أن قولهم رد لمحكم الكتاب، ومعلوم السنة، وإجماع العتره والأمة، ولا شك أن ما هذا حاله انسلاخ عن الدين، وخروج عن الملة.

ومعنىٰ تؤتىٰ كل يوم برزقك؟ . . معناه: يوصل إليك رزقك لا مجالة وإن شككت في ذلك فأرخص قلبك من عارض هذا الشك بالفكر في الحيوانات التي لا تدخر أقواماً، ولا تملك بتاتاً لا تخاف مع مالكها غيلة، ولا تدخر بيت ليلة، وأرزاقها داره، وعيونها قارة، لا فرق بين قولك أتاني، وبين قولك وصلني، والمؤتي والموصل هو الله (تعالىٰ)، وكل يوم عام في جميع الأيام التي هي مدة حياة الإنسان. . .

والرزق ما ملّك الله (تعالىٰ) عبده من الأرزاق والمنافع كافراً كان أو مؤمناً أو من المذبذبين المنافقين وأشباههم الفاسقين، فالكل قدر رزقه الحكيم (سبحانه) ليقيم الحجة عليه يوم القيامة ولله (تعالىٰ) الحجة البالغة، فيقول: «أكلت رزقي وعصيت أمري»، بل ظاهر هذه الحكاية عن الله (سبحانه) تقضي بأن المراد بها من ذكرنا دون المؤمنين لأن صفة المؤمنين مخالفة لمن وصف (سبحانه) في هذا الحديث علىٰ لسان نبيه (عليه السلام). . .

والحزن نقيض: السرور، والنقص نقيض الزيادة، والعمر مدة أيام

الحياة، والفرح نقيض الغم، والغم انقباض في القلب وتشنج في عروقه، فتضيق لذلك النفس، ويتقطب الوجه، والسرور انبساط في القلب، وتفتح في عروقه فتتوسع له النفس وينشرح الصدر، وينطلق الوجه. . .

المعنىٰ في ذلك: أن ابن آدم يؤتىٰ لا محالة برزقه كل يوم من لدن خالقه لا ينقطع من قبله رزقه حتى ينقطع بأمره أجله بل ما تهزهز في الدنيا رأسه سنًى له رزقه، ومنحه فضله، وابتلاه بذلك إما شاكر وإما كفوراً، ثم أخبر (سبحانه) لسوء تدبيره، وقبح نظره أنه يحزن مع ذلك لفوات ما لم يكتب له في الذكر حصوله، ولم يقدّر وصوله، وهذا بلوغ الغاية القصوىٰ في جشعه وهلعه وقلة يقينه وطبعه، ولا ينجو من ذلك إلاّ من رحم الكريم وعصم الرحيم، وكيف يحزن العاقل لذلك، وهو بالنظر الثاقب يعلم أن حزنه لا يزيد في شيء من رزقه بل يشغل جوارحه عن عبادة ربه، وهذا جهل من راكبه، وهلاك لصاحبه، وقد حكى (سبحانه) أنه أضاف إلىٰ هذا الجهل الأول جهلاً ثانياً: وهو فرح ابن آدم بتقضي الأيام المقرب إلىٰ الحمام، ونسي أنها تطوي عمره طي الصحيفة، وأن له في الذكر الحكيم أنفاساً معدودة في أيام محدودة. . هل يبقىٰ عمر تنقصه طرفة العين وتصرمه شفرة الحين. . .؟ وقد كان الأولىٰ بالعاقل أن يحزن لتدارك الأيام. إذ تداركها ينقص عمره. . . ويقرن الرضىٰ بالفرح علىٰ ما وهب له من كفاف الأرزاق. إذ فيه بلاغ، وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «أن ما فوق الأزار حساب قال (عليه السلام): قال (تعالىٰ): أنت فيما يكفيك، وتطلب ما يطغيك».

الكفاية هي: مساواة المنفعة بقدر الحاجة، وأصل الكف الدفع فكان الكافي يدفع مضرة الحاجة، والطلب هو البحث عن الشيء بتعب، وعناية إذ الإنسان لا يطلب الممكن الموجود الذي لا مشقة في تناوله ألا ترىٰ أنه لا يقول: إذا تناول شيئاً من بين يديه طلبته، ولا يعرف ذلك في كلامهم.

والطغيان: مجاوزة الحد. قال (تعالىٰ): ﴿وأنا لما طغىٰ الماء حملناكم في الجارية﴾[1] الجارية السفينة، وسميت جارية لجريانها علىٰ الماء، وسمي الماء في تلك الحالة طاغياً لأنه تجاوز الأمور المعتادة، وقد اختلف أهل

---

(١) سورة الحاقة آية ١١.

العلم في مقدار تجاوزه، فقال بعضهم: زاد علىٰ أرفع مكان خمسة عشرة ذراعاً، وروي عن بعض آبائنا (عليهم السلام) أنها كادت تناطح الكواكب، وهو الأصح عندنا. . . ! لأن الأخبار والآثار تؤيد هذا القول، وهذا منتهىٰ الطغيان، وغاية النكال لأهل العصيان. . . والمعنىٰ في ذلك أن ابن آدم في الكفاية إن قنع وشبع وأبصر بعين الفكرة وسمع بأذن النصفة. والقليل أروح من هم الحفظ، وأخف مؤنة وأقل تبعة، ولم لا وفيه سد الفاقة، وبه بلاغ الآخرة لا سيما والعبد في سير مجد إلىٰ هول عظيم، وبين يديه قائد خفيف، وخلفه سائق عنيف، ولا يدري كيف يكون مصرعه وأين يقع مضجعه، فأي وجه لاتخاذه الألوان وتأنقه في المشارب والأدهان، وكأنه بما هو كائن قد بان، وبما يكون قد كان، فأعجب من العامر ما لا يسكن، والجامع ما لا يأكل، وإنما أيام العبد ثلاثة: فيوم منتظر هو علىٰ غير يقين من حصوله ويوم فائت قد مضىٰ لحال سبيله، فليس معه علىٰ الحقيقة إلاّ يومه الذي هو فيه، فأقل الأشياء فيه يكفيه وفوق الكفاية يطغيه، وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «من أصبح آمناً في سربه معافىٰ في بدنه عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

الأمان نقيض الخوف، والسرب بفتح السين النفس والسرب بكسر السين الوجه، والقوت ما يقتاته الإنسان بمعنىٰ يستمتع به، وكأنما معناها التشبيه، وحيزت له جمعت له، وحذافيرها سقطاتها وأطرافها.

وهو (عليه السلام) يريد بكليتها، فأي مطلب بعد هذا، ولا شك أن الطالب لفوق الكفاية والحال هذه يتعرض للعصيان، وكيف يسعىٰ لذلك عاقل أو يكدح فيه عامل، والله عز من قائل يقول: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾(1) معنى ذلك: لو أعطاهم فوق ما تقتضيه المصلحة لبغوا وتعدوا، ومعنىٰ بغيهم طلبهم ما ليس لهم وكان البغي في الأصل لكل طلب، فصار في العرف لطلب مخصوص، والتنزيل: تفعيل من الإنزال، والقدر: هو الكتابة والعلم، والمشيئة: هي الإرادة لا فرق في ذلك فهو ينزل مقدراً معلوماً لوقت مفهوم علىٰ حسب ما تقضي به الحكمة

---

(1) سورة الشورى آية ٢٧.

ويطابق المصلحة، والمؤيد لهذا كثير من آي الكتاب الكريم ألم ترىٰ إلى قول الله (تعالىٰ): ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا...﴾[1] الأمة هاهنا هي: الفرقة التي يجمعها أمرٌ من الأمور فتصير به واحدة بعد أن كانت متبددة متفرقة، والجعل هاهنا هو: الخلق، والفعل، وقد يكون بمعنى الحكم، وليس هاهنا موضع استيفائه، والكفر تغطية النعم بالجحدان، والتغطية هي الكفر، والمغطي هو الكافر والرحمٰن: اسم الله سبحانه، وهو مشتق من الرحمة، وفيه مبالغة وهو مما لا يجوز اطلاقه علىٰ غيره بخلاف رحيم. وبيوتهم منازلهم وقصورهم، وسميت بيوتاً لمبيتهم فيها، وهو سكون الليل ومنامه، وعمل الليل يسمىٰ تبيتاً وبياتاً، وهم وإن سكنوا فيها بالنهار ولكن الأغلب والأظهر إن الإنسان ينتشر بالنهار، ويأوي إلىٰ بيته بالليل، فسمي بيتاً لذلك، والسُقف جمع سَقف وهي غطاء البيوت، والفضة معروفة، والزخرف هو الذهب، وهو في الأصل لما تحبه القلوب، والمعارج جمع معراج الأمور التي يرقىٰ عليها، ومنها قولهم: ذا المعارج أي ذا المراقي الشريفة والمراتب الزليفة، والمراد بالمعارج في الآية (الأسرة، والكراسي)، والظهور هو الارتفاع والطلوع، والبيان والوضوح، فاشتملت الآية على فوائد جمة، وإنما نذكر الأهم منها إن هذا الوساع في الرزق في علمه (تعالىٰ) مفسدة وأنه لو علم فعل للكفار، وما يقدر عليه لأطبق الخلق علىٰ الكفر لميلهم إلىٰ العاجل، وكانوا بالاجتماع علىٰ الكفر أمة واحدة، فكذلك هو المانع من التوسيع إلىٰ هذا الحد، وانه (تعالىٰ) لا يبخل بالدنيا علىٰ الكفار لأنها غير دار الثواب، وهي حقيرة عنده لزوالها وانتقالها فلم يرض بها ثواباً لأوليائه، ولا عقاباً لأعداءه وفيه تنبيه للمؤمنين، علىٰ ترك الافتتان بما يقع في أيدي الكفار من الأموال الجليلة فلولا المفسدة لزادهم إذ الدنيا لا خطر لها، وقد أوضح ذلك (تعالىٰ) بقوله: ﴿وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا﴾[2] فالواجب علىٰ المسلم العاقل أن يحترز من طلب فوق الكفاية لأنه (تعالىٰ) قد صرح بأنه في

---

(١) سورة الزخرف آية ٣٣.
(٢) سورة الزخرف آية ٣٥.

معلومه يؤدي إلى الطغيان أعني طلب ما فوق الكفاية، وقوله الحق الذي لا مرية فيه لأنه قال: أنت فيما يكفيك، وتطلب ما يطغيك، والطغيان هلاك عاجل، وحتف قاتل، فأي جهل أعظم من جهل من سعىٰ في تحصيل أمرٍ قد قام له الدليل بأن فيه هلاكه، وفي تركه فكاكه. . .

قوله (عليه السلام): «قال (تعالىٰ) لا بقليل تقنع، ولا من كثير تشبع. . ».

القناعة نقيض الطماعة وهي من المصادر بالهاء كالشباعة، والشناعة والقناعة هي الرضىٰ بالنصيب المقسوم من الرزق المحتوم، والقليل نقيض الكثير، والشبع نقيض الجوع، والقناعة والشباعة يعودان إلىٰ القلب والنفس لا إلىٰ البطن. لأن أقل الأشياء يسده وأدناها يملئوه. .

المعنىٰ في ذلك: أن ابن آدم لا يقنعه قليل الدنيا، ولا يشبعه كثيرها، وإنما الدنيا كما يعلمه الكافة قليل وكثير، فكل واحد منهما صرح الحكيم (سبحانه) أن ابن آدم المتوسع لا يقف عنده إذ القليل لا يقنعه، والكثير لا يشبعه، وقد رأينا ذلك جهاراً، وتيقناه أسفاراً من أهل الجمع والادخار، والتكاثر والاحتكار الذين وجهوا إلىٰ جمع الدنيا هممهم، وجعلوا لها سعيهم، وصرفوا إليها رغبتهم، ونسوا الأمر الذي خلقوا له، وغفلوا عن الهول الذي وعدوا به، وفي ذلك ما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغىٰ إليهما ثالثاً ولا يملىء جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله علىٰ من تاب، فالسعيد علىٰ ذلك من قنع نفسه بالكفاف، وألبسها ثوب العفاف ورضي بما رضي له الكريم وقنع بما أعطاه الحكيم»، ويكفيك من الادخار ومن طلب الإكثار ما روينا في قصة ثعلبة بن حاطب، «وكان من الأنصار فأتىٰ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالاً فقال (عليه السلام): يا ثعلبة اتق الله، فجاء إليه مرة أخرىٰ، فقال: يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالاً، فقال (عليه السلام): اتق الله ثم جاء إليه بعد ذلك، فقال: يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالاً؟ فقال: يا ثعلبة إني لو سألت الله أن يسيل لي الجبال ذهباً وفضة لفعل، فقال: والله يا رسول الله: لئن رزقني الله مالاً لأصلنَّ الرحم، ولأواسين المسكين، ولأعطين السائل ولأوتين حق الله، فقال (عليه السلام): اللهم

ارزق ثعلبة مالاً فاتخذ الغنم، فنمت كما ينمو الدود حتىٰ ضاقت أزقة المدينة، فتنحىٰ بها خارج المدينة، وكان يحضر الصلوات كلها مع رسول الله، فنمت وكثرت حتىٰ ضاقت بها المراعي والفجاج، فانتجع بها من قرب المدينة، وكان يحضر الجمعة في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأجدبت المسارح، وضاقت منها الموارد، فانتزح بها وكان يتلقىٰ الركبان، فيقول: ما صنع رسول الله...؟ ما نزل علىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)...؟ إلىٰ أن نزلت آية الزكاة فبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مصدّقين، فجاءآ إليه فقال: ما نزل علىٰ رسول الله، فذكرا له آية الزكاة، وأخبراه بنصابها وسألاه زكاته، فقال ابدءآ بالناس وارجعا إليَّ، ففعلا ثم عادا إليه، فقال: هذه والله أخت الجزية، فقالا: ما نأخذ منك شيئاً حتىٰ نأتي رسول الله، فجاءآ إلىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال: لا يؤخذ منه شيء ونزلت الآيات: **﴿ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما أتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلىٰ يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علّام الغيوب﴾**[1] فتلقىٰ بعض الركبان، فسألهم عن قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في أمره، وهل نزل فيه شيء...؟ فأخبروه بالقصة، وبنزول الآيات ففزع وجمع زكاته، وجاء بها إلىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) باكياً، فلم يأخذها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وردها عليه، فلما قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جاء بها إلى أبي بكر، فقال: ما كنت لآخذ شيئاً ردّه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم إلىٰ عمر ففعل كذلك، فمات إلىٰ لعنة الله منافقاً لم يرفعه منعه ولا نفعه جمعه».

قوله (تعالىٰ): منهم عابد إلىٰ ثعلبة بن حاطب لأن من للتبعيض وهو بعضهم، والمعاهدة هي: المواطاة علىٰ الأمر الذي يقع في المستقبل يقول قائلهم: عهد إليَّ فلان في كذا، وعهد إليَّ أن أفعل كذا، ثم قد صار يفيد اليمين، والقسم وأصله ما قدمناه، والمعاهدة مفاعلة، فلا تكون إلاّ بين

---

(١) سورة التوبة آيات ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧.

اثنين، فلما أعطى الله (تعالىٰ) عهده أي يمينه قال) سبحانه) عاهد الله فأجاب القسم بـإن لأنه أوجب علىٰ نفسـه ما عـاهد الله (تعـالىٰ) عليه، وأدخـل اللام للتأكيد، وأتانا بمعنىٰ: أعـطانا لا فـرق في ذلك، وقـال: من فضله لأن فضله (تعـالىٰ) لا ينحصر، وفضله سعـة ما عنـده فضلة الشيء ما يـزيد علىٰ القـدر المحتاج إليه، وملك الله (تعالىٰ) يستغرق حاجة المحتاجين ويوفي علىٰ آمـال جميع الآملين إلىٰ غير نهاية ولا غاية إذ هو القادر لذاته، والصدقة مـأخوذة من الصدق وهو الصلابة والقوة يقال: رمح صدّق الكعوب، وكلام صادق إذا كان متيناً بريئـاً من الفساد والكـذب، فأعـطىٰ الله (تعالىٰ) العهـد ليخرجن لـوجهه خالصاً علىٰ الوجوه التي تقدم تفصيله لها في قصته المتقدمة من صلة الأرحام إلىٰ تمام الحديث.

والصالحون هم السالمون من فساد المعاصي أخذ من الصلاح وهو السلامة في الأصل قال الله (تعالىٰ): فلما آتاهم بمعنى أعطاهم من فضله من سعتـه وملكه بخلوا به منعوا، وأصل البخل المنع يقال: شجرة بخيلة التي لا تثمر، والهـاء في (به) عائدة إلىٰ فضله الذي آتاهم، وتولوا معناه أدبروا عن أمر الله (تعالىٰ) وعن الـوفاء بعهـدهم وهم معرضـون مائلون عن أمـر الله تكبـراً وجهـلاً ولؤمـاً وبخلاً، فأعقبهم ذلك البخل بما كانوا عليه من سلامة الـظاهر، ودخـولهم في زمرة المؤمنين نفاقاً. حصل لهم هذا الإسم الذي هـو: ذم عقيب اسم المدح وتتبعه أحكام هائلة، والنفاق هـو استبطان الكفـر والتغطي بـالإسلام أخـذ من النافقىٰ وهو أحد جحرة اليـربوع لأنهـا الراهـطا والقاصعـا والنافقـا وهو جحر يستعمله في باطن بيته ويبقي مما يصلى ظاهـر الأرض ستراً رفيعـاً بحيث إذا نطحه برأسه خرقه بغير طائل عناية فإذا ألزم عليه الراهطا والقـاصعا خـرج من النافقا فأشبه حاله حال المنافق لأنه أظهر خلاف ما أبطن.

وأعقـاب الله (تعالىٰ) لهم النفـاق بالأيمـان هو حكمـه عليهم بذلـك إذ خلقـه للنفاق في قلوبهم لا يجـوز لأنه قبيـح، والله (تعالىٰ) لا يفعـل القبيح، ولأنـه ذمهم عليـه، وهـو لا يـذم علىٰ فعله، ويحتمـل أن يكـون الضميـر في أعقبهم عـائـداً إلىٰ طلبهم الغنىٰ ورغبتهم في الـدنيـا تـزهيـداً في طلب مثـل ذلك...

والقلوب معروفة، وخص القلوب بالنفاق لأنه يحلها إذ هو اعتقاد الكفـر

بالله (تعالىٰ) واعتقاد كذب رسوله.

واللقاء هو: المواجهة في الأصل، والمراد به هاهنا لقاء أمره فيهم وحكمه عليهم إذ المواجهة تستحيل في حقه، ويحتمل أن تكون الهاء في يلقونه تعود إلىٰ المعهود بالدليل الذي هو عقاب النفاق لأن في تلك الحال يزول النفاق ويلجأ المنافق إلىٰ الصدق والوفاق، والخلف نقيض الوفاء، وأصل الخلف الفساد والتغير.

يقال: أخلف فم الصائم إذا تغير، فشبه خلف الوعد بذلك لقبحه عندهم، وهم وعدوا الله (تعالىٰ) ما تقدمت حكايته ونفعه عائد عليهم إذ هو الغني الذي لا تجوز عليه الحاجة القادر الذي يستحيل عليه العجز، وقد أراهم الآية فيما أعطاهم من الرزق عقيب سؤال نبيه (عليه السلام) ألم يعلموا استفهام ومعناه التقرير أن الله يعلم سرهم الذي تضمنته قلوبهم أخذ من سر العور، وهو مجرىٰ الماء في وسطه، فهو أغمضه وأخفاه عن العيون والأيدي شبه به سر الإنسان، ونجواهم مشورتهم، وهذان اللذان يظن الإنسان أنه قد قدر علىٰ كتمانهما وبين ذلك بأنه علام الغيوب، وهي الأمور الغائبة، ولا يكون غائباً في حقه (تعالىٰ) إلّا المعدوم، فأما نحن فالغائب في حقنا ما لم تقع عليه مشاعرنا، فبين أن إتيان عدوه بزكاته، وبكاه كان مصنوعاً ولم يكن له حقيقة لأن الله (تعالىٰ) قد علم أن الذي في قلبه والذي يناجي به تقاته خلاف ما أظهر لنبيه ، وللمسلمين والزكاة تطهرة للمسلمين، فلم يستحق ذلك، وكان في تنقيته علىٰ حاله مصلحة استأثر الله (تعالىٰ) بعلمها فانظر حطام الدنيا إلىٰ ما يسوق من جعله همه، ونسي عاقبة تبعاته وسرعة فواته، فنسأل الله (تعالىٰ) أن يجعلنا للدنيا رافضين، ولجوارحنا حافظين، والصلاة علىٰ النبي وآله الطيبين.

الحديث الثامن عشر

عن أبي هريرة وقد تقدم الكلام في نسبه وطرف من حاله قال: «بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم جالساً إذ رأيناه ضحك حتىٰ بدت ثناياه، فقيل له: ممَّ تضحك يا رسول الله. . .؟ قال: رجلان من أمتي جثيا بين يدي ربي، فقال أحدهما: يا رب خذ لي بمظلمتي من أخي؟ قال الله: أعط أخاك مظلمته. . .؟ فقال: يا رب ما بقي من حسناتي شيء، فقال: يا رب فليحمل من أوزاري. . . وفاخت عينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قال: إن ذلك اليوم ليوم يحتاج الناس إلىٰ أن يحمل عنهم من أوزارهم قال: ثم قال الله (تعالىٰ) للطالب بحقه: ارفع بصرك، فانظر إلىٰ الجنان، فرفع رأسه، فرأى ما أعجبه من الحبرة والنعمة، فقال: لمن هذا يا رب فقال: لمن أعطاني ثمنه. قال: ومن يملك ذلك؟ قال: أنت قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك قال: يا رب فإني قد عفوت عنه. .! قال: خذ بيد أخيك، فأدخله الجنة ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم. . .».

أبو هريرة مشهور ونقله مأثور وقد تقدَّم له ذكر فيما سبق. .

قوله بينا: أصله بينما فحذف الميم، والحذف في كلامهم كثير لأن مدار لسانهم علىٰ الإيجاز.

رسول الله هو المؤدي عن ربه ما أرسله به من المصالح إلىٰ العباد سمي رسولاً لما حمل من الرسالة، وقد تسمى الرسالة رسولاً قال الشاعر:

لقد كذب الواشون ما نحب عندهم
يسر ولا أرسلتهم برسول

وقد كان المخذول خالد بن عبدالله القسري والياً للوليد بن عبدالملك فتمادى به الطغيان إلىٰ أن فضلُ الخلافة علىٰ النبوة جرئة منه علىٰ الله (تعالىٰ) وتمرداً وعدواناً، فكان يقول: علىٰ منبر المسجد الحرام، وكان من الفصحاء الخطباء لكنها فصاحة تعود يوم القيامة بكماً لأنها جادلت بالباطل لتدحض به الحق... أيها الناس أيما أفضل خليفة الرجل علىٰ أهله أم رسوله فيقولون: بل خليفته، فيقول: والله لو لم تعلموا أفضل الخلافة علىٰ النبوة إلّا أن خليل الله إبراهيم (عليه السلام) استسقىٰ الله فسقاه الله ملحاً أجاجاً يعني زمزم شرفها الله وعمرها، واستسقاه الخليفة فسقاه عذباً سمهجاً، وكان قد حفر عن أمر الوليد بن عبدالملك بئراً في الحرم فخرج ماؤها عذباً، فلما قال ذلك أصبحت قد غارت وعفّى الله أثرها، فلا يعرف مكانها الآن مع شهرتها. فيما مضىٰ يقال: ذات يوم لكل يوم لم يعين، والجلوس معروف، وهو نقيض القيام والرؤية تكون بالنظر، وبالعلم كما قال (تعالىٰ) مخاطباً لنبيه (عليه السلام): ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾[1] وعاد قبيلة عظيمة كانت من أرجح الناس حلوماً، وأعظمهم جسوماً، فبعث الله هوداً (عليه السلام)، فكذبوه وكان واسط البيت فيهم عظيم الخطر لديهم، فارتكبوا الدهماء في أمره وفتنهم الشيطان عنه، فأهلكوا بالريح العقيم كما حكىٰ الله (تعالىٰ) في الكتاب الكريم ورسوله (عليه السلام) لم يرهم بعينه، وإنما علم قصتهم من عند ربه... والضحك نقيض البكاء ولا أشهر من لفظه فنحده به، وقد يكون تعجباً، وإن لم يقع في القلب مسرة، وهو الأقل وقد يكون سروراً وهو الأكثر، وهو هاهنا للتعجب من الأمر المهم الذي لا يهتم الناس به من عظم الخطب فيه، وحتى في الحكاية لضحكه (عليه السلام) تكون للغاية. معناه: أن ضحكه (عليه السلام) انتهى إلىٰ بدو ثناياه، وهذا دليل على أنه (عليه السلام) كان خفيف الضحك علىٰ طلاقته وحسن أخلاقه لاشتغاله بأمر ربه.

والثنايا أربع أثنتان من أعلىٰ، واثنتان من أسفل، ويتلوها الرباعيات

---

(١) سورة الفجر آية ٦.

وهي أربـع كذلـك، ثم الأنياب وهي أربـع كذلـك ثم الضواحـك وهي أربـع كذلك، ثم الأرحاء وهي اثنتي عشر رحاً ثلاث من كل جانب ثم النواجذ وهي أربعة كذلك، وهي آخر ما ينبت، والعامة تسمي الناجـذ سن الحلم يزعمـون أن الإنسـان عنده يتكـامل عقله الأصلي ثم لا يستفيـد بعده إلّا علم التجـارب وحنكة العادات. . . قال الراوي: «فقيل له: ممّ تضحك يا رسـول الله؟ قال: رجلان من أمتي جثيا بين يدي ربي» قيل له بمعنىٰ سئل مم تضحـك استفهام من سبب ضحكه لذلك لم يثبت الألف في مم وكانوا لا يدعونه باسمه (صلى الله عليه وآله وسلم) توقيراً له وتعظيماً بل يقولون: يا رسول الله، يـا نبي الله، وإنما كان يناديه باسمه جفاة الأعراب يـا محمد يـا محمد فنعىٰ الله (سبحـانه) ذلـك عليهم فقـال: ﴿إن الـذين ينـادونـك من وراء الحجـرات أكثـرهم لا يعقلون÷ف﴾[1] النداء والدعاء معناهما واحد وهو مد الصـوت لإسماع الغيـر، ووراء بمعنىٰ خلف، وقد يكون بمعنىٰ قدم لأن وراء من أسماء الأضـداد وقال قائلهم:

ألـيس ورائي إن تـراخـت منـيـتـي لـزوم العصىٰ تحنى عليها الأصـابع

يـريـد أمـامي وقـدامي وهـو في الآيـة بمعنىٰ خلف. والحجـرات هي الحيطان والحواجز، وأصله مأخوذ من حجرات بيت الشعر، وهي كسوره التي علىٰ بوانيه، وخوالفه، وسميت حجرات لأنها تمنع لأن الحجر في الأصـل هو المنع قال الشاعر:

واحجـر مبيض الصـقيـع كـأنـه علىٰ حجـرات البيت قـطن منـدف

أكثـرهم نقيض أقلهم، لا يعقلون يريـد لا يعلمون لأن العقـل هو العلم وقد خص المنادي لـرسول الله (صلى الله عليـه وآله وسـلم) بـاسمه والـراضي بذلك اعتداء علىٰ ذلك الوجه، فدلت الآية علىٰ أن فيهم من لم يـرض النداء على تلك الصفة، ومعنىٰ قوله لا يعقلون يريد لا يعلمون آداب النبوة، وجلالة الأنبياء (عليهم السلام) لجفاوتهم وبداوتهم، والعقل هاهنا هو العلم بـذلك إذ لم يعقلوه بمعنى يعلمـوه ورجلان تثنيـة رجـل وهمـا منكـرات، وأمتـه (عليـه

---

(١) سورة الحجرات آية ٤.

السلام) المصدقون به عرفاً وشرعاً، فأما في اللغة فهم الذين بعث فيهم، وهو من جنسهم وهو يحمل هاهنا علىٰ حقيقة العرف والشرع لأن ذلك حكم خطاب الله (سبحانه) وخطاب رسوله علىٰ ما هو مقرر في مواضعه من أصول الفقه.. قوله جثياً بين يدي ربي: الجثو: في الإنسان كالبروك في البعير قال قائلهم:

أخاصمهم مرة قائماً وأجثو إذا ما جثوا للركب

وكذلك يفعل الخصم.. ويد الرب هاهنا: قدرته، وثناها للتأكيد إذ الجارحة تستحيل عليه (تعالىٰ) والرب هو: المالك، وقدرته علىٰ سواء في كل مكان، وعلىٰ كل إنسان، وإنما خص هذين بأنهما بين يديه لأنهما انتهيا إلىٰ مكان من الأرض لا حكم فيه لغير الله لفقد المتعبدين فيه، فكانا فيه بمنزلة الخصم بين يدي الحاكم، والخصم لفظه واحد للواحد، والإثنين، والجماعة تقول للواحد: خصم، وللإثنين خصم، وللجماعة خصم، وقد قال (تعالىٰ): ﴿إن الذين عند ربك﴾[1] يعني الملائكة (عليهم السلام) وإن كان الكل عنده لمقدرته عليهم وسلطانه فيهم، فخص الملائكة (عليهم السلام) بذلك لأنهم في مكان لا حكم فيه لغيره، وخصومتهما هذه واقعة والفصل بينهما من الله (سبحانه) لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أخبر عن واقع، ولأن العفو تعلق به الحكم وبراءة الذمة واستحقاق الثواب، وهذا لا يكون إلاّ مع بقاء التكليف...

قوله (عليه السلام): «قال أحدهما يا رب خذ لي بمظلمتي من أخي» دل علىٰ أن أحدهما ظالم، والآخر مظلوم لتقرير الله (سبحانه) لمدعي الظلامة علىٰ دعواه، وحكمه له علىٰ صاحبه، وهو (سبحانه) لا يقضي إلاّ بالحق.

وقوله: خذ لي بمعنى استنصف لي، وأنصفني، والأخذ نقيض الإعطاء والمظلمة واحدة المظالم، وأضافها إلىٰ نفسه أعني المظلمة لأنها وقعت به كما يقول الجريح: آلمتني جراحتي، ويقولون للمصاب: إرنا صائبتك.

---

(١) سورة الأعراف، آية ٢٠٦.

وقوله من أخي: تلطف في الخصومة، واستدعاء النصفة ويحتمل أن يكون أخاً في الولادة، ويحتمل أن يكون أخاً في الدين، وأحسب أن الأخ أخذ من الأخية التي تجمع بين الإثنين من الحيوان وأكثر، فلما كانت الولادة تجمع، وكذلك الدين قيل: أخ لمن شارك غيره في أمر من الأمور كالرضاعة والطباع أو السيرة. قال الفرزدق في الذئب:

وأنت أمرء يا ذئب والغدد كنتما   أخيٌّ صنفاً أرضعتما بلبان

فأخا بينه لاشتباه الحال فيهما، والفرزدق من أهل اللسان..

قوله (عليه السلام): «فقال الله تعالىٰ»: «أعط أخاك مظلمته».

معناه سلم إليه أرشها وأعطه عوضها إذ المظلمة نفسها يستحيل تسليمها وقد صرح في آخر الحديث بأنها ليست من ذوات الأعيان الباقية في تلك الحال بقوله ما بقي من حسناتي شيء، وأقر الحكم العدل (سبحانه) علىٰ ذلك فلو كانت باقية لكان يحكم عليه بتسليمها، ولم يكن لذكر الحسنات وجه، ومعنىٰ ذكر الحسنات هاهنا هي الأمور المستحسنات سميت حسنات لأن القلوب تستحسنها وتحبها وتستحليها إذ علم الإنسان بحسناته ومقدارها وتفصيل أجزائها، وما بقي منها مستحيل مع بقاء التكليف، وقد أمر (سبحانه) بأن نقول: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾[1] فذكر أكثر أهل العلم وهو الذي نختاره أن الحسنة في الدنيا هي الزوجة الصالحة، وذكر بعض آبائنا (عليهم السلام) ما يؤيد ما اخترناه وهو أنه لما أنزل قوله (تعالىٰ) ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمىٰ عليها في نار جهنم فتكوىٰ بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[2] قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «تباً للذهب تباً للفضة تباً للفضة، فقيل له: يا رسول الله فما خير الإنسان في دهره؟ قال: لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً وزوجة صالحة تعين أحدكم علىٰ دينه» فجعلها من جملة المطالب النفيسة بل من أجمل المكاسب المفيدة فقد تبين لك أن الحسنة تطلق علىٰ مكاسب الدنيا.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠١.

(٢) سورة التوبة آية ٣٤.

وقوله ما بقي من حسناتي شيء! معناه من مالي الحسن في عيني الذي أخرج به من عهدة ما لزمني إذ صار إلى مكان لم يتمكن فيه من تناول شيء من ماله، ولنعد إلىٰ ذكر الآية، الكنز في أصل اللغة هو الجمع كنز الشيء إذا جمعه، فلما كان صاحب المال يجمعه سمي ذلك المال كنزاً ثم صار في عرف اللغة يفيد الجمع والدفن له والتعبية القائمة مقام الدفن ثم نقل ذلك بالشرع الشريف إلىٰ المال الذي لا تخرج زكاته، فكل مال لم يخرج منه حق الله فهو كنز، وإن لم يتجاوز العشرين المثقال، والمائتي الدرهم فقفله، والذهب عين معروف، والفضة عين معروفة، وقيل: سمي الذهب ذهباً من الذهاب وسميت الفضة فضة من الانفضاض، وهو الافتراق. والإنفاق معروف وهو نقيض الإمساك، وقال: ينفقونها ولم يقل: تنفقونهما لأن الضمير في الهاء عائد إلىٰ الكنوز من مجموعهما، وسبيل الله طريقه التي أنهج لعباده، وأفضلها الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إذ جميع الطاعات مترتب عليها، فبشرهم بعذاب أليم البشارة في الأصل هي الإعلام بوصول محبوب وارتفاع مكروه تقول: بشرت الرجل بخير، وبشرته أبشره، وبشرته مشدداً أيضاً من البشارة وسميت بشارة لأنها تظهر في بشرة الوجه. . . والعذاب هو الضرر الواصل إلىٰ العبد علىٰ جهة الاستخفاف والذم والإهانة قال الله (تعالىٰ): ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾(١) وهو من أسماء الأضداد، وإن لم يكثر استعمال العذاب في جنبه المحبوب عذبته بمعنىٰ حببته أي صيرته عذباً، وعذبته إذا عاقبته، فصار عندك مبغضاً. . والأليم بمعنىٰ مؤلم كما قيل حكيم في محكم، وسميع في مسمع قال عمرو بن معدي كرب في قصيدته العينية:

أمن ريحانة الداعي السميع. . .

يريد المسمع. قوله (تعالىٰ): ﴿يوم يحمىٰ عليها﴾(٢) يريد أن العذاب الأليم ينزل بهم يوم يحمى عليها في نار جهنم فذلك في الآخرة، وأضيفت النار إلىٰ جهنم إضافة الشيء إلى صفته كما يقال: مسجد الجامع، وصلاة

---

(١) سورة النور آية ٢.
(٢) سورة التوبة آية ٣٤.

الأولىٰ لأن جهنم صفة النار نعوذ بالله (تعالىٰ) منها. . قوله (تعالىٰ): ﴿فتكوى بها جباههم﴾[1] الكي معروف وهو الوسم بحديدة محماة، والجبهة هي موضع السجود وما يكتنفها من ميمنتها وميسرتها جبين. . قوله (تعالىٰ): ﴿وجنوبهم وظهورهم﴾[2] للإنسان جنبان، جنبٌ أيمن وأيسر، والظهر معروف وهو ما يسامت القفا من الجسد، وهذه المواضع تكوىٰ بالكنوز قوله (تعالىٰ): ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[3] هذه إشارة من الله (تعالىٰ) بالقول أو تعريف بسواه من الله (تعالىٰ) أو من ملائكته (عليهم السلام) بأمره. ما كنزتم الذي كنزتم لأنفسكم تبكيتاً لهم إذ كنزوه بمعنىٰ جمعوه من حق الله (تعالىٰ)لأنفسهم بزعمهم، فكان عليها بجهلهم وسوء اختيارهم، فذوقوا: أصل الذوق باللسان ثم استعير لكل كريه، ومشتهىٰ ومحبوب لكون المذوق أخص الأمور بالذائق لأن العين ربما عرت ولا يغتر صاحب الذوق بوجه من الوجوه.

والمعنىٰ في هذه الآية أن الذين يجمعون الذهب والفضة ثم يمنعون حق الله (تعالىٰ) في تلك الكنوز بخلاً وجشعاً ولوماً وطمعاً ويزعمون إن ذلك مظر لأنفسهم، فأعلمهم يا محمد إعلام المبشر علىٰ وجه الاستهزاء بهم والانتقاص بعقولهم أن العذاب المؤلم واقع بهم علىٰ ذلك في دار الآخرة وهو اليوم الذي يحمىٰ عليها في نار جهنم فتكوىٰ بها جباههم من بين أيديهم ثم ظهورهم من خلفهم وجنوبهم عن أيمانهم وشمائلهم، فلا يجدون عنها محيصاً ثم يعرفون أن هذه الكنوز التي ادخرتموها للشدائد ولم ينفقوها في سبيل الله ولا يسلموا منها حق الله إلىٰ ولاته، وأربابه قد صارت عليكم شديدة تصغر إلىٰ جنبها الشدائد في وابدة تحتقر في جنبها الأوابد فيكون ذلك أعظم لحسرتهم وندامتهم وأسفهم وغرامتهم لأن الله (تعالىٰ) يجعل في تلك الكنوز من الحرارة ما يصير بمنزلة الكي للجسد السالم من الحريق لزيادة ما تحتضر به من الحرارة، وقد قال عبد بني الحشاش:

وراهن ربي مثل ما قد وريتني   وأحمى على أكبادهن المكاويا

فأضاف إلىٰ عذاب الوري عذاب الكي لأنه عندهم من الأمور الهائلة، فعند ذلك يؤدُون أن الذهب كان ذاهباً، وأن الفضة كانت منفضة، وأنهم لم

(١، ٢ ٣) سورة التوبة آية ٣٤.

يعرفوا بكسب ذهب ولا فضة، ولا يقال: كنز لما منعت زكاته من سائر الأموال سوىٰ الـذهب، والفضـة لأن النبي (صلى الله عليه وآلـه وسلم) غلق الكنـز بالذهب والفضة فقال: «كل مال بلغ النصـاب، فأخـرجت زكاتـه فليس بكنز» في قصة ذهب أو فضة وعن بعض الملوك التابعة فيما يروى:

وأُنبِئت في الصين لي بغية ثياب الحرير وكنز الذهب

فخص الـذهب بالكنـز وهذا هـو روايـٰة واسعـة، وميلنـا إلىٰ الاختصـار والمعنىٰ في ذلـك أن الله (تعـالىٰ) بِعَدْلِه أمـر أن يؤتىٰ المـظلوم حقـه وأن ينتصف له من الظالم أن ينتصف الظالم من نفسه، وإذا كـان الأمر هكـذا، أو كـان ذلك المـوقف بين يديـه، ولا يتمكن الـظالم فيـه من الامتنـاع بـالكمـاة المانعين، ولا يقبل فيه كما حكيٰ الله (تعالىٰ) شفاعة الشافعين وكـانت الدنيـا داراً يتمكن فيهامن الاستدراك والخلاص والفكاك، فأي وجه للغفلة عن طلب الخلاص قبل هجوم يوم القصاص، وقول المنادي ولات حين مناص. . .

قوله (عليه السلام): «فقال: يا رب مـا بقي من حسناتي شيء» يـا رب نداء خضوع واستعطاف وذلٍ واعتراف مـا بقي أخبار منـه قدرة الحكم العـدل (سبحانه) عليه لأن ما وردت نافية لما بقي، والباقي هو الموجود الدائم، وهـو نقيض الفاني. . . والحسنات هاهنا الأملاك المستحسنات كما قدمنـا، فكأنـه قال: ما بقي في يدي شيء مما أملك من المستحسنات أخرج بـه من مظلمـة أخي بإعطاءه إياه لبعدهما من أماكن الأملاك لما علم الله (تعالىٰ) في ذلك من الصلاح لهما بمشاهدة الحال ولنا بالخبر عن قصتهمـا. . . والمعنىٰ في ذلك أن الحسنـات التي هي الأمـلاك النفيسـة لا بـد من مفـارقتهـا، وأن التبعـات الشـديدة لا بـد من مـوافقتهـا، فهـل من متيقظ في طلب نجـاتـه، ومعط من حسناته قبل فراق حيـاته، فـإن الدنيـا ذار غرور لمن اغتـر بهـا، ومتجـر سرور وحبور لمن اتعظ بعظاتها، واحترز من تبعاتها، وقدم المحبوب من حسنـاتها، وجاد بالمـطلوب من خيراتهـا، وقنع بـالقليل من أقـواتها وخـاف المحذور من مفاجيء بياتها، واستصحب الممكن من عجالة تباتها. .

قوله (عليه السلام): «قال: يا رب فليحمل من أوزاري. . .».

هذا خطاب منـه للحكم القادر العـدل الذي لا يـرد قضـاؤه ولا يدفـع

حكمه ولا يتعدىٰ رسمه. قوله فليحمل من أوزاري: أصل الحمل علىٰ الظهر أو في البطن، وقد يفرق بينهما بالفتح فيما يكون في البطن وبالكسر فيما يكون علىٰ الظهر. صار ذلك يفيد كل مؤنة يتولاها الإنسان عن غيره. يقول قائلهم: أحمل عني هم هذا الأمر؟ وفلان حمال أعباء الأمور مشيع. والأوزار في أصل اللغة هي الأثقال، وقد قال (تعالىٰ): ﴿حتىٰ تضع الحرب أوزارها﴾[1] معناه أثقال همها، وسلاحها، والمراد في الأوزار في هذا الخبر الذنوب لأنها تثقل صاحبها في الآخرة ثقل الكلفة، ولا تثقله تثقيل رجحان الثقل والخفة والذنوب لا يصح أن يحملها أحد عن أحد لأنه (تعالىٰ) يقول: ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾[2]، وبقوله (تعالىٰ): ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ﴾[3].

وإنما المعنىٰ في ذلك: أن لهذا الذي ظلمني أعواضاً عندك، وأني قد استحققت منها بقدر ما يعلم من مبلغ ظلامتي، وهي تسقط مقداره في علمك من ذنوبي فإذا حملها بذلك كان كأنه حمل أوزاري إذ كان سقوطها في الحكم من جهته، وقوله فليحمل من أوزاري: ليس بسؤال إذ ذالك كائن لا محالة ممن لم يخرج عن عهدة ما لزمه لأخيه في حال حياته في الدنيا، وإنما هو تهدد له، وإعلام مما يصل إليه حيث لم يوفه حقه في حال القدرة علىٰ إيفائه، وإنما علم ذلك لأنه إذا علم عدله وحكمته، وأنه لا يجوز أن يمكنه من ظلمه وليس في علمه أن له عوضاً يوفي بجنايته لم يمكنه من ذلك قال الراوي: «وفاضت عينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) العينان معروفتان وهما آلة البصر وفيهما الحسن كما أن البهاء في الجبين والجمال في الأنف، والملاحة في الفم، وفاضتا نقيض غاضتاً ومعنىٰ ذلك سفحتا من كل جهة كما يفيض الماء من الآبار.

المعنى في ذلك: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما ذكر الأوزار اشتعلت نار الخوف في قلبه، فصعدت الرطوبة إلىٰ رأسه، ففاضت عيناه بدموعه (صلى الله عليه وآله وسلم) أخوف الخلق لربه، وأخشاهم لذنبه، وأذكرهم لمعاده، فإذا فاضت دموعه من ذكر الأوزار، فكيف يقر لمن دونه عليها قرار أو يسكن له نفار فيا لها من غفلة نحن فيها سادرون، وزلة

(١) سورة محمد آية ٤.
(٢) سورة العنكبوت آية ٤٠.
(٣) سورة الأنعام آية ١٦٤.

نحن علىٰ التثبت منها قادمون. . قال الراوي: «ثم قال (عليه السلام): إن ذلك اليوم ليوم يحتاج الناس فيه إلىٰ أن يحمل عنهم من أوزارهم».

ذلك: في لغتهم للبعيد، وذاك لمن دونه في البعد، وذا: للحاضر اليوم المشار إليه هو: اليوم الذي لا يملك فيه الإنسان ديناراً ولا درهماً، ولا قرضاً ولا عرضاً، وهو هاهنا يوم هذين المنتهيَيْن إلىٰ بين يدي الله (سبحانه) في موقف ليس معهما فيه شيء سوىٰ الحسنات والسيئات لبعدهما عن الأملاك، ويومهما هذا يشبه يوم البعث والحساب فكأنه (عليه السلام) مثل ذلك اليوم، وشبهه باليوم المتأخر الذي هو يوم العرض الأشهر علىٰ الكبير الأكبر (تعالىٰ).

والحاجة هي الدواعي الداعية إلىٰ جلب نفع أو دفع ضرر، والناس هم المتعبدون من ذرية آدم (عليه السلام)، وقد تقدم الكلام في تسميتهم ناساً، والهاء في «فيه» عائدة إلىٰ اليوم المقدم ذكره، والحمل عنهم هو التخفيف من أثقالهم، والتقليل من أحمالهم، وأوزارهم التي هي ذنوبهم، وقد تقدم الكلام في معنىٰ الأوزار، ولم سميت أوزاراً.

المعنى في ذلك: أن كل ما صار إلىٰ موضع الحكم بين يدي الله (سبحانه) علىٰ حاله هو لأجلها ثقيل الظهر. ظاهر الفقر عديم الوفر قليل الأجر، وقد نقضت الأثقال منته، وخرقت الذنوب جنته فلم يبق له قوة تكفيه، ولا بقي عليه جنة تقنيه، فهو والحال هذه من أشد الناس حاجة إلىٰ أن يحمل عنه من ثقل أوزاره ما تيسر ليدفر عنه من ذنوبه ما تدفر، ويكفر عنه من سيئاته ما يكفر فمن رزق ذلك، فهو السعيد المظفر. قال (عليه السلام): «ثم قال الله (تعالىٰ): للطالب بحقه إرفع بصرك فانظر إلىٰ الجنان» الطالب نقيض المطلوب وهو هاهنا الذي يسأل غيره حق المظلمة، وأراد أن ينتصف منه كشق الأبلمة. . والحق نقيض الباطل، وهو الثابت اللازم. . والرفع نقيض الوضع، ولا يكون إلّا لما يكون فوقك. .

والبصر هو: آلة الرؤية. قال قائلهم: وأحسبه عدي بن زيد:

أرىٰ بصري قد رآبني بعد صحة وحسبك داءاً أن تعيش وتسلما

وقد يكون بصر البصيرة على المجاز، ورفعه استعماله. .

والجنان جمع جنة وهو البساتين، والحيطان الكثيرة الأشجار. سميت جناناً لأجنان أشجارها لقرارها.

المعنىٰ في ذلك يحتمل وجهين: إما أن يكون القول قولاً حقيقياً ألقاه الله (تعالىٰ) علىٰ لسان ملك، أو سمع صوتاً خلقه الله (تعالىٰ) فأمره أن يرفع بصره إلىٰ جنان أعلىٰ من مقامهما، وهي جنان حقيقية تشبه جنان الآخرة أو إلىٰ جنان السماء التي تظاهرت الأخبار بصحتها، فقد جاء في الآثار أن فيها جميع ما وعدنا في الآخرة بحيث لا يغادر مما فيها شيئاً ولا يفترق إلاّ في الخلود والدوام، وتصح رؤيته لها، وإن بعدت المسافة. بأن يقوي تعالى بصره حتىٰ يراها رؤية حقيقية، ولا مانع من ذلك، فنظر فيها ملكا عقيما، وخيرا جسيماً يهون في جنبه، إعطاء الرغائب، وبذل الحبايب وإما أن يكون أمره أن يرفع بصر بصيرته، ويتفكر في أمر الجنان وما فيها من الخير العظيم، والنفع العميم، فعند ذلك يستصغر كل كبير في جنبها ويبذل كل خطير ليفوز بكسبها. . .

قوله (عليه السلام): «فرفع رأسه فرأىٰ ما أعجبه من الحبرة والنعمة».

قد تقدم الكلام في معنىٰ الرفع. والرأس هو العضو المخصوص وهو أعلىٰ عضو من الإنسان، وفي الحديث: أنزلوا آل محمد بمنزلة الرأس من الجسد، وبمنزلة العين من الرأس، فإنه لا يصح جسدٌ بلا رأس، ولا رأس لا عين فيه.

والرؤية قد تكون مشاهدة بصر، وقد تكون علم نظر، أو خبر. جاء اللسان بذلك كله قال الشاعر:

رأيت الله إذ سمىٰ نزاراً وأسكنكم بمكة قاطنينا

فأثبت الرؤية في العلم وأعجبه بمعنىٰ حسن في عينه.

والحبرة هي السرور والفرح. والنعمة اللذة والتفكه والنضارة ومنه قولهم: غصن ناعم أي نضير. . .

المعنىٰ في ذلك: علىٰ نحو ما تقدم أما أن يكون رفع رأسه وهو العضو

الذي فيه آلة البصر، فأبصر بصر المشاهدة ورأىٰ الرؤية الحقيقية بالحاسة المعروفة.

وأما أن يكون رفع رأسه رفع المتأمل للأدلة السماوية فحصل له العلم بصدق الأخبار الإلهية في الجنات المروية وما فيها من الخيرات المغنية، والنعم الملهية...

قوله (عليه السلام): «قال: لمن هذا يا رب؟ قال: لمن أعطاني ثمنه». قال حكاية لكلام الرافع بصره، وهو الخصم المظلوم..

لمن استفهام للحكم العادل الذي هو ربه، ورب كل شيء سواه. بمعنىٰ: أنه مالك الجميع وسيده.

وقوله هذا إشارة إلىٰ الخير الأوفر، والملك الأكبر الذي رآه في الجنان بالعلم والعيان. قال الرب (سبحانه) جواباً للمستفهم المظلوم في قوله لمن هذا: هو لمن أعطاني ثمنه، والإعطاء هو المناولة، والثمن هو ما ينعقد عليه البيع، وسمي ثمناً لعظم قدره عندهم، ولهذا يخرجون به عن أملاكهم، وقد كانوا يحبون الثمانية من ذلك، ويكرهون السبع، والسبعة وجاءت الشريعة الشريفة بأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، والبيع هو عقد بين اثنين بلفظين ماضيين عاقلين، أو في حكم العاقلين. علماً تاماً يقع به التكليف أو يكون أحدهما العالم لذاته (تعالىٰ) كما وردت الشريعة في أي كثيرة منها: قوله (تعالىٰ): ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم﴾[1] والشرى قد تعتبر به البيع والشرى معاً، وكذلك البيع قال شاعرهم:

إنا بني نهشل لا نتمي لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

ويكون علىٰ شروط معتبرة بها لا وجه لذكرها هاهنا، وقد جعل الحكيم (سبحانه وتعالىٰ) الثمن هاهنا العفو، وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «التوحيد ثمن الجنة» فالمبايعة هاهنا وقعت بين العاقل، ومن هو أعلىٰ درجة من العاقل، وهو العالم بجميع المعلومات.

---

(١) سورة التوبة آية ١١١.

المعنى في ذلـك: أنـه لمـا رأىٰ القباب المجللة، والأسـرة المكللة والقصور المشيدة، والغرف المعمدة، والحدائق الغـلب، والاعناب والعـرب القـاصرات الأتـراب إلىٰ غير ذلـك من القطوف الـدانية، والعيـون الجاريـة، والسـرر المرفـوعة، والأكـواب الموضـوعة، والنمـارق المصفوفـة، والـزرابي المبثوثة. رأىٰ أمراً هائلاً، وملكاً طائلاً تحار فيه الأفكار، وتكل عنـه الأبصار، فقال: لمن هذا؟ ومن يتمكن من وصوله وهل في المقدور أن يتوصل إلىٰ نيل مـا هذا سبيله بـأجل الأثمـان. . .؟ واستفراغ الـوسع، والإمكـان، فقربـة الله (تعـالىٰ) درجـة أزال بهـا بعض مـا كـان تـرتب في نفسـه من أن ذلـك الأمـر الجليـل، والملك الجزيـل لا يشرىٰ بـالأثمـان ولا يـدخـل ثمنـه تحت قـدرة الإنسان بقوله: لمن أعطاني ثمنه. . .؟، فحينئذ فـزع إلىٰ السـؤال، وطمع في المنال. . .

قوله (عليه السلام): «قال: ومن يملك ذلك يا رب. .؟ قال: أنت». .

قال؟ راجع إلىٰ الطالب بحقه، وهو الرافع رأسه النـاظر مـا عند ربـه. . ومن استفهام والمالك للشيء هو الذي له التصرف فيه بغير واسطة غيره وذلك إشارة إلى الثمن المقدم ذكره. يا رب استغـاثة، واستعـظام لما رأىٰ أن يكـون ثمنـه داخـلاً تحت مقدور أحد من البشـر لأنـه عـاين ملكـاً جليـلاً. قـال الله (تعالىٰ): أنت تملكه فعظم السرور، وتضاعف الحبور. .

المعنىٰ في ذلك: أنه لما رأىٰ الملك المقرر، والخيـر الموفـر استعظم أن يكون ثمنه داخلاً في ملك أحد كما قدمنا، فأخبـر الحكيم (سبحانـه) أنك تملكه أنت، فازداد إلىٰ التعجب منه تعجباً من ملكه لثمنه وإنما قدر على ثمنه لسعة جود ربه وكرمه وشدة محبته لاسعاد عبـاده، وتعريضـه لهم إلى الخيرات الجسـام، والمنن العظام بمجـرد فعل الـطاعات التي أقـدر علىٰ فعلهـا، ودل عليها، ولطف فيها فكأنهـا من جملة نعمه التي يجب شكـرها، ثم جعـل بعد ذلـك في مقابلتهـا من الثواب مـا تصغر في جنبـه الأموال الخـطيـرة والأمـلاك الكثيرة لأنه (سبحانه) مُعْرِض لا معترض ومالك لا مقترض. . .

قوله (عليه السلام): «قال: بماذا. . .؟ قـال: بعفوك عن أخيـك. . .! قال: يا رب فإني قد عفوت عنه. .».

قوله: بماذا: استفهام تقديره بأي شيء... والعفو هـو ترك المناقشة، والمطالبة أخذ العفو عن المكان.

العفو الذي لا إثارة فيه لرعي ولا غيره، ومعنىٰ عفوه هاهنـا تجاوزه عنـه بترك المطالبـة له لـوجه الله (تعـالىٰ). وقد بينـا أن لفظ الأخوة: يحتمـل أخوة الدين أو أخوة النسب أو مجموعهما. إذ لم يرد دليل علىٰ شيء من ذلك.

قال: يا رب: يريد يا مالكي اعتـرافاً لـه بواجب حقـه، فإني قـد أتبع: حـرف التأكيـد بحرف الـوقوع المتضمن لمعنـاه: عفـوت وصفحت معنـاهمـا واحد: وهو ترك المطالبة له بالمظلمـة التي يقدم فيهـا الاستعداء عنـه يريـد: تجاوزته، فلا أطالبه أبداً وأبرأته لا تجد عندك يا رب بداً..

المعنىٰ في ذلـك: أن الله (تعالىٰ) لمـا قـال لـه: أنت تملك ثمن هـذه الممالك الكبـار في الجنان والأنهـار عبى في نفسه بـأي شيء يملكه لعـظم ما رأىٰ، واستصغـاراً لقدرتـه، وملك يده وضيق بسـطتـه، وعلم أن الله (تعـالىٰ) صادق، فأراد تبيين ذلك الثمن. إذ قد أخبره الصادق سبحانه بأنه يدخل تحت مقدوره، فبين له ذلـك بقولـه: «بعفوك عن أخيـك»، وفي هذا دليـل علىٰ أن فـاعل المـظلمة كـان في تلك الحال تـائباً، وهي حـال وقوفهمـا بين يدي الله (سبحانه) لذلك استحق دخول الجنة عقيب العفو لأن المظلمـة يتعلق بها حق العبد، وهو الذي يسقط بالعفو، وحق الله (تعالىٰ) في تعدى حده المضروب، وهو لا يسقط إلاّ بالتوبة قال: يا رب، وهو أربح الـرجلين بضاعـة، وأكثرهمـا نفاعة فإني قد عفوت عنه مبـادراً إلىٰ ذلك لمـا رأىٰ في مقابلتـه فهان عليـه العفو، وبادر إليه، ولم ينظر في شيء من أمره، ولا تفكر في إنفاذه ولا تركه، ولا شـك بعد المشـاهدة لتلك الخيـرات النفيسة أن تـارك العفو حـاسـر، وأن العباد لو أطلعوا علىٰ ما اطلع عليه لأثروا العفو، وتبادروا إليـه من غير اختـلاف في ذلك، فانـظر إلىٰ أمر العفـو ما أوضحـه، وفاعله مـا أربحه هـذا مع أن الأمـر هاهنا من الله (سبحانه) ندب، والثواب الجزيل الـذي جعله في مقابلتـه ثواب علىٰ فعل المندوب، فأما إذا وقع من الجاني الاعتـذار، والتنصل من خـطيئته بالجهل والاغترار، فإنه يجب قبول عذره وجوبـاً حتمـاً لا يسـد شفاء الغيظ لـه ثلمـاً، وذلك لمـا روينا عن جـابر بن عبـدالله عن النبي (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) أنـه قال: «من اعتـذر إليـه أخـوه المسلم، فلم يقبـل عـذره جـاء يـوم

القيامة، وعليه مثل ما علىٰ صاحب المكس» يعني: العشار، وهذا كما ترىٰ حتم لا رخصة فيه، فعلىٰ العاقل التثبت في أمره..

قوله (عليه السلام): «قال خذ بيد أخيك، فأدخله الجنة».

قد تقدم الكلام في معاني هذه الألفاظ اللغوية لتكرارها في المحاورة السابقة، والضمير في قال عائد إلىٰ الله، وأخذه بيد أخيه دِلالة الرضىٰ، وتمام العفو إذ لا تقع المخاصرة عند العرب إلاّ مع زوال وحر القلوب وضبابها وزوال الحسيكة من لصابها بل ذلك دلالة الوداد عندهم، والمحبة والألفة والصحبة. قال الشاعر عبدالرحمٰن بن حسان:

ثم خاصرتها إلىٰ القبة الخضراء　　تمشي في مرمرٍ مسنون

وأخوه هاهنا هو: الجاني عليه، وقد بينا فيما تقدم ما يحتمل معنى الأخوة من التأويل، وتعقيب العفو بدخول الجنة لا يمتنع أن يحمل علىٰ ظاهره، ويكون الله (تعالىٰ) أدخلهما جنة من جنانه التي لا تمنع من خلقها حكمته، ولا تعتاض قدرته يأكلان من ثمارها، ويعيدانه (تعالىٰ) فيها حتى يأتيهما اليقين، فيكون قد عجل لهما المسرة، ووقع عنهما المضرة، وأتاهما ثواب الدنيا في الدنيا، وحسن ثواب الآخرة في الآخرة وهذا لا ينكره إلاّ من يجله قدرة الله وحكمته، وجواز مفاضلته بين عباده في الأرزاق، ومخالفته بينهم في التعبد، ومثل هذا لا يلتفت إلىٰ قوله إذ جهل من الحكمة جلها، ومنعها محله واستبدل بها جهلاً، واتخذها كلاّ فلم يكن لها أهلاً، ولم يستنشق روح نسيمها، ولا باشر برد نعيمها بل هجرها، فهجرته وزجرها فجزرته، فأصبح منها عائلاً، ولم ينل منها طائلاً فرزيته في نفسه أعظم من رزية أهل الحق في فراقه. ويحتمل أن تكون الجنة جنة الخلد لقرب ورودها، ودخولها عند الله (تعالىٰ)، لأزليته التي لا تتناهىٰ، وبقائه الذي لا ينحد، فهو لذلك يستقرب كل بعيد مما في علمه إتيانه ولهذا قال (تعالىٰ): ﴿إنهم يرونه بعيداً، ونراه قريباً﴾(١)، فلذلك عقب العفو بدخول الجنة، وإن كان متراخياً، ويكون ذلك توسعاً ومجازاً، وذلك غير ممتنع في اللسان، وأبلغ منه قد وجد في القرآن وهو قوله (تعالىٰ): ﴿ونادىٰ أصحاب الجنة أصحاب

---

(١) سورة المعارج آية ٦.

النار ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فـأذن مؤذن بينهم أن لعنـة الله علىٰ الـظالمين﴾[1]. جعـل أصحـاب الجنـة لإقامتهم فيها ونزولهم إياها كما يقول صاحب الدار، وكذلك الكلام في معنىٰ أصحاب النار أن موضعه نصب بفقدان الخافض، ووجدنا من وجدان الضالـة أي لقينا ووافقنا. والوعد هو الاخبار بـوصول أمـر في المستقبل، وقـد يختص بالخير في العرف، والوعيد بالشر وقد يستعملان بمعنىٰ واحد لتقـاربهما. ونعم تكون للتصديق ولإجابة السائل في منـاقضة لا وتكـون للازديـاد من المتكلم، وجعلها في مقابلة هل وجدتم، وحقاً بالتنوين مصدر حق يحق، فهو في معنىٰ التأكيد لوجدان الموعود. والمؤذن هـو الصائـح برفيـع صوت أن لعنـة الله أي نـاره وأبعاده علىٰ الـظالمين أي واقع علىٰ الـظالمين، والظالمـون هـاهنـا هم الطالبون مـا ليس لهم المتغدون حـدود ربهم، فلما أذن المؤذن ازدادوا إيـاساً إلىٰ يـأسهم، وقنوطـاً إلىٰ قنوطهم ﴿فـلا تأس علىٰ القـوم الكافـرين﴾[2]. فقد رأيت كيف أتى الحكيم (سبحانه) بلفظ الماضي لما كان الكائن عنده كأنه قد كان، فلما كان المظلوم المقدم ذكره بعفوه عن أخيه، وتجـرد أخيه عنـد ذلك من الذنوب، والتبعات صار كأنه قد دخل الجنة، وفاز بالخيرات، جاز لذلـك تعقيب العفو بالدخول لأنه في حكم الحاصل عقيبه عنده (تعالىٰ) فيكون أكثر ما في ذلك أن يكـون مجازاً وجـائـز من الحكيم (سبحـانه) أن يخـاطب به. وإنكار الحشوية بجواز ذلـك غير قـادح فيه إذ قـامت الدلالـة علىٰ جوازه لأنـه خاطب بلسان العرب، وذلك شائع فيه لا ينكره من لـه أدنىٰ مسكة من معـرفة كلامهم، ولأنه قد وجد في كلامه (تعالىٰ): في قولـه: ﴿وجاء ربـك والملَك صفاً صفاً. . .﴾[3] والمجيء نقيض الذهاب وهو من صفات المحدثين الدالـة على الحدوث فحمل علىٰ محذوف مقدر هو وجاء أمر ربك، وهـو في القرآن كثير جداً لا ينكره من يعرف القرآن حق معرفته. .

قال الراوي: «ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿فـاتقوا

(١) سورة الأعراف آية ٤٤.
(٢) سورة المائدة آية ٦٨.
(٣) سورة الفجر آية ٢٢.

الله وأصلحوا ذات بينكم﴾[1] اتقوا الله معناه لقُوهُ ستراً حاجباً واقياً من العمل الصالح. لأن سهامه (تعالىٰ) النافذة لا يجن منها إلاّ ذلك، وإصلاح ذات البين هو تنقية الظواهر والبواطن من فساد العداوة، وحمل الأحقاد المهلكة لأن الإصلاح في اللغة هو تعهد الأمر ودفع ما يفسده بأنواع الأعمال. كما يقال: أصلح فلانه ضيعته إذا نقاها مما يفسد زرعها، وعمرها، وهو ظاهر موجود.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمر بإصلاح ذات البين وخوف من تركه واطراحه بقوله (عليه السلام): اتقوا الله لأن ذلك لا يطلق علىٰ المندوبات حقيقة لا يقول قائلهم اتق الله، وافعل المندوب أوصل نافلة، أو حج نافلة وإنما يكون ذلك في مقابلة ترك الواجبات، وفعل المحظورات فكأن أمر صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصوم هذا وقد سمعت الله يقول قولاً عاماً: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتىٰ تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾**[2] الطائفة هي الجماعة، والمؤمنون هم المقصودون بالنبي (عليه وعلىٰ آله السلام) وبالذي جاء به والمتبعون له. اقتتلوا أعاده إلىٰ المؤمنين دون الطائفتين لولا ذلك لقال: اقتتلا، فأصلحوا بينهما. لأن هذا هو الواجب في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ان يبتدأ بالرفق، والأمر الأهون، والإصلاح يقع بالوعظ والتذكير والاحتجاج والتخويف، فإن بغت إحداهما عاد إلى الطائفتين، وبغيها طلبها ما ليس لها شرعاً، وإن كان أصل البغي الطلب علىٰ الأخرى يريد الثانية التي لم تبغ، ولأن كون إحدىٰ الطائفتين من المؤمنين عادلة، والأخرىٰ جائرة. لأن الشرع الشريف قد منع من اجتماعهم على الضلالة، ولأنهم أطلق عليهم اسم الإيمان، وأخبر باستقامة إحدىٰ الفرقتين فإذا فعلت ولم ينجع فيها الإصلاح، وتعدت الحدود المضروبة إلىٰ القتل والقتال علىٰ الجهل والضلال وجب قتالها حتى تفيء إلى أمر الله بمعنى ترجع يقال: فاء إذا رجع. وأمر الله (تعالىٰ) هو صلاح ذات البين، فإن فاءت بمعنىٰ رجعت إلىٰ أمر الله

(١) سورة الأنفال آية ١.
(٢) سورة الحجرات آية ٩.

﴿فأصلحوا بينهما بالعدل﴾[1]. والعدل نقيض الجور، وهو إيفاء حق الغير، والاستيفاء، وإنما يريد أن يحكم بالعدل فيما وقع بينهما من سفك الدماء، وأخذ الأموال التي تتعلق أبداً بالقتال. . وأقسطوا أعدلوا يقال: قسط إذا جار، وأقسط إذا عدل ﴿إن الله يحب المقسطين﴾[2] أي العادلين، فانظر ما في العدل من الخيرات المرغبة في فعله وما في الجور من الأمور المخوفة من ركوبه، وإنما ينتفع بالتذكير الذاكرون، ويعتبر بالعبر الناظرون، فمن جعل همه النظر في واعظات الدين، ولوازمه استمسك بحبل متين وفاز بعلق ثمين ولجأ إلىٰ ركن ركين، واستكن بكن كنين، ومن كان عند ذكرها لاهياً، وعند النظر فيها ساهياً استوفر حجة، واقتحم لجة، فنسأل الله التوفيق، والنجاة وحسن الممات، والحياة، والصلاة علىٰ محمد وآله. . .

---

(١) سورة الحجرات آية ٩.

(٢) سورة الحجرات آية ٩.

الحديث التاسع عشر

عن أنس بن مالك، وقد تقدم الكلام فيه نسباً، وحالاً، وهو خادم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الليل والنهار، وملازمه في الحضر والأسفار، وكان به حفياً، وله ولياً يخاطبه بيا بني كما يخاطب الوالد ولده! وعمّر إلىٰ زمن عبدالملك بن الحكم، ونزل العراق، ففي الحديث «ان الحجاج (لعنه الله) أساء عشرته، وآذاه بالكلام، وكان شديد العداوة لأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خاصة، ولسائر المسلمين عامة، فكتب أنس إلىٰ عبدالملك يشكوه في كتاب أطال فيه أنس، وذكر الحجاج وقبح معاشرته له، وقال في كتابه: والله لو أن اليهود، والنصارىٰ وجدوا رجلاً خدم موسىٰ بن عمران، وعيسىٰ بن مريم (عليهما السلام) يوماً واحداً لفعلوا في أمره كذا، وكذا... وأنا خدمت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عشر سنين، فما رأيتم لي ذلك فأمر عبدالملك البريد علىٰ الفور بكتاب غليظ إلىٰ الحجاج يلعنه ويتهدده، ويقسم لئن لم تحكم أنساً في نفسك، وترفع من شأنه ليفعلن فيه كذا، وكذا... من أنواع العذاب، وكتب إلىٰ أنس جواب كتابه كتاباً ليناً يسترضيه، ويستعطفه، فلما وصل كتاب عبدالملك إلىٰ الحجاج اقلقه وأرعبه، وأرضىٰ أنساً وأعتبه وتشفع إلىٰ أنس أن يكتب إلىٰ عبدالملك بالرضىٰ عنه، ففعل قال: قيل: يا رسول الله مَن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون...؟ قال: الذين نظروا إلىٰ باطن الدنيا حين نظر الناس إلىٰ ظاهرها، واهتموا بأجل الدنيا حين اهتم الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم،

فما عرض لهم من نائلها عارض إلاّ رفضوه، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلاّ وضعوه. . . خلقت الدنيا عندهم فما يجددونها، وخربت بينهم فما يعمرونها، وماتت في صدورهم فما يحيونها بل يهدمونها، فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها، فيشترون بها ما يبقى لهم، ونظروا إلىٰ أهلها صرعاً قد حلت بهم المثلات، فما يرون أماناً دون ما يرجون، ولا خوفاً دون ما يحذرون. . .».

قيل فعل ما لم يسم فاعله، وهذه بنيتُه وفيه لغتان: بالواو والأشمام. وهذه أظهر لغته، وأكثر دوراناً في كلامهم، وكذلك الحكم في كيل وبيع. . ورسول الله هو المتحمل للرسالة عنه إلىٰ عباده ونحن شاهدون له (صلى الله عليه وآله وسلم) بتبليغ الرسالة وتأدية الأمانة، والصلاة عليه منا الدعاء والترحم من الله (تعالىٰ) إجابة دعائنا فيه، والرحمة له، ولا بد من ذكر «آله» (عليهم السلام) معه في الصلاة، وهم: ذريته حقيقة، وقد يدخل معهم غيرهم توسعاً، فيفتقر إلىٰ قرينة لأنه لايسبق إلىٰ أفهام أهل الشرع، واللغة عند إطلاق القول بأن هذا من عترة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلاّ من اختص بولادة الحسن والحسين (عليهم السلام) وإنما قلنا لا بد من ذكرهم لما روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «لا تصلّوا عليَّ الصلاة البتراء. . .؟ قالوا: يا رسول الله وما الصلاة البتراء. . .؟ قال: أن تصلوا عليَّ ولا تصلوا علىٰ آلي، فإن الله لا يقبل الصلاة علي حتى تصلوا على آلي معي، من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. . .؟ استفهام يستغرق المتصفين بصفة الولاية، فأولياء الله معناه أهل ولايته الذين ترعاهم عين رعايته وتكلاؤهم كف كلايته، وأولياؤه: خلاف أعدائه، والنؤال تعين عن الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون فكأنه (عليه السلام) سُئل عن خلاصة الخلاصة، وخاصة الخاصة والخوف نقيض الأمن. . . والحزن نقيض السرور، فسؤال السائل له (عليه السلام) وقع عن الذين لا يخافون، وإن خاف الناس ولا يحزنون، وإن حزنوا، وهذا إنما يتحقق، ويكون يوم الخوف الأكبر، والحزن الأعظم، وتكون الشمس مكورة، والسماء منفطرة يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترىٰ الناس سكارىٰ من الخوف، وما هم بسكارىٰ من الخمر، ولكن عذاب الله شديد. الذي أعد لأعدائه، وأي شديد أشد منه. . .؟ وصفته دون عيانه، وكل ذي لسان لا يتمكن من بيانه إنما

هو: وبال وبلبال، ونكال وأنكال، وحميم وأغلال، وسعير وأشغال، ووعيد وزلزال إلىٰ غير نهاية ولا غاية، فهذا ما يمكن من صفته علىٰ وجه الإجمال، فأما في هذه الدنيا، فأي خوف أعظم من خوف أوليائه، أو حزن أشد من حزن أصفيائه وهم خائفون له في واجبات حقوقه وملتبسات محظوراته، فكأن صرير النار في مسامعهم، وكأن حميم الجحيم قد ألجمهم، وصب من فوق رؤوسهم، وكأن الزبانية يزجرونهم من خلفهم، فأي خوف أعظم من خوفهم هذا مع إخافة أعدائه (سبحانه) لهم فيه، وفرط تعصبهم عليه بالعداوة، والبغضاء لانقطاعهم إلىٰ خالقهم، وهم يخافون احترام أعدائهم لهم، ولم يخلصوا من عهدة ما لزمهم لربهم فلا ينزع عنهم هذا الخوف والحزن إلّا لقاؤه (عز وجل) فحينئذ يحصدون ثمرة الخوف أمناً كافياً، وثمرة الحزن سروراً صافياً، فكأنهم ما خافوا، وما حزنوا كذلك يجزىٰ الشاكرون الصابرون، فقال (عليه السلام): مجيباً للسائل الذي سأل عن أولياؤ الله «الذين نظروا إلىٰ باطن الدنيا حين نظر الناس إلىٰ ظاهرها».. النظر له معان كثيرة، والمراد به هاهنا نظر الفكر بعين البصيرة لا نظر المشاهدة بتقليب الحدقة السليمة نحو المرئي التماساً لرؤيته لأن ذلك يستحيل أن يتعلق به ثوب، والحال هذه... وباطن الدنيا هو معناها ومئالها، ومعناها العناء، ومالها الفناء... والباطن نقيض الظاهر، وسمي الباطن باطناً من الغموض، والخفاء، وسمي الظاهر ظاهراً من الظهور والجلاء، وقيل للظهر ظهر، وللبطن بطن من ذلك...

المعنىٰ في ذلك: أن من نظر الدنيا بعين التحقير، وتأمل باطنها بغامض التفكير لم ينخدع لغرور ظاهرها الفتان لأنه لا دوام له، ولا بقاء ولا استقرار، ولا غناء بينا ترىٰ الغني فيها غنياً مخلداً إذ صار فقيراً ملحداً، وبينا تراه فقيراً وقيراً إذ صار غنياً أميراً... خصبها يتقلب جدباً، وسلمها يؤول حرباً، وحبها بغضاً، وبغضها حباً... كم من عارٍ فيها أمسى كاسياً، ومن كاس أمسى عارياً، ومكثور أصبح وحيداً وفرداً قاد في يوم واحد جنوداً، وملكاً عتيداً هذا مع أن كل زيادة فيها إلىٰ نقصان، وربح فيها إلىٰ خسران، وسرور إلىٰ أحزان، فليس لها حال يستقر، ولا صفة تنحصر، فأما من نظر إلىٰ ظاهرها فقد ذبح بغير سكين، ورجع بسهم غبين لأنه نظر حلاوة ظاهرة من تحتها مرارة قاهرة، ولذة عاجلة من تحتها تبعة هائلة، ومضرة قاتلة لأنه نظر إلىٰ الخضرة والأزهار، ولم يفكر في القحول

والأصفرار، والتنكر والدمار فتعلق بأغصان تعود عما قليل هشيماً، وأشتم نسيماً ينقلب عن غير طائل مهلة سموماً، وجحيماً، فخرج من الدنيا كليماً وورد الآخرة مضيماً. . .

قوله (عليه السلام): «واهتموا بأجل الدنيا حين اهتم الناس بعاجلها».

والاهتمام افتعال من الهم، والهم يتعلق بما يكون، ولا يتعلق بما كان. . . الآجل نقيض العاجل، والأجل المنتظر، والعاجل الواقع. .

والمعنىٰ في ذلك: أن من صفة أولياء الله الذين تقدم ذكرهم بأنهم لا يخافون ولا يحزنون إنهم يهتمون آجل الدنيا، وهو الموت والزوال، والتغير، والانتقال وتقلب الأحوال وتصعب الآمال، فلا تزال همومهم إليه طالعة، وأفكارهم لعقاب شدائده فازعة، فأسهروا ليلهم ذكراً وفكراً، وقطعوا يومهم كداً وصبراً لعلمهم أن رُبَّ مستقبل يوماً لم يستتمه، ونائم ليلاً لم يستكمله، ومنتظر غداً لم يصله، وباذر لم يحصد، وحاصد لم يأكل، وأبر لم يجد، وجابي لم يعد، وملقح شولاً ملك الفصيل سواه، وغني أهلكه غناه وكان فيه فناؤه، فهل للاهتمام بالعاجل وجه إذا كانت هذه صفة الأجل، فأما الذين اهتموا بالعاجل من الناس، وهم الذين اعتمدوا على الشبهات، وأكبوا علىٰ الشهوات، ومالوا إلىٰ اللذات، فاغتروا بزهرة غرورها، ولم ينظروا في عاقبة أمورها، فطعموا حلاوتها ولم يطعموا مرارتها، وافتتنوا بزهرتها الفانية، ونضرتها البالية، فهوت بهم الهاوية، فرمت بهم في النار الحامية فندموا على التقدم بغير برهان، وعلىٰ الانقياد للركون إلىٰ دار الهوان، فكم من نادم ونادمة، ونفس سادمة لم ينفعها ندمها، ولم يغن عنها سدمها لإذهاب تلك النفوس طيباتها أيام حياتها، ولو أنها قدمت نصيبها بين يديها، ولم تخلد أبداً إليها، وتناولت منها قوتها وقوامها، وذكرت فوتها وحمامها ودول أيامها، ووشك فطامها، ونقص تمامها، وان ناجيها إلىٰ العطب نجاؤه، وباقيها إلىٰ الحمام بقاؤه، وغنيها إلىٰ الفقر محيره وعامر قصورها إلىٰ القبر مصيره غناه نصب، وملكه تعب، وجده لعب. جِدّته بالية، وعزته فانية، فيا له من اهتمام لم يغن عن صاحبه، ومطلب كان فيه هلاك طالبه. . .

قوله (عليه السلام): «فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم».

الإماتة نقيض الاحياء. يقال أرض موات، وإنسان ميت فإذا عمرت الأرض قيل: مُحياة، فإذا بعث الإنسان قيل: محياً، فكان بإماتتها ترك إثارتها، وإغفال عمارتها...

والخشية، والمخافة معناهما واحد. تقول: خشيت كذا أو كذا وخفته لا فرق في ذلك قال النابغة:

قــد عيرتني بنــوا ذبيــان خشيتــه
وهــل عليَّ بــأن أخشــاه من عــار

أراد الملك النعمان، وكانت بينهما وحشة شرحها يطول..

وإماتتهم نقيض إحيائهم.. والترك نقيض الأخذ. تركه إذا لم يلتفت إليه، ولم يأخذه. قال زهير بن أبي سلمىٰ المزني في قصيدته الكافية: وقيل: أنها أجود كافية في الأرض:

بان الخليط ولم يأؤوا لمن تركوا وزودوك اشتيــاقــاً آيــة سـلكــوا

والهاء في أماتوا منها: عائدة إلىٰ الدنيا، والعلم والمعرفة معناهما واحد، وقد بينا فيما تقدم مما أخذ، وهو نقيض الجهل، والغباوة قوله أن سيتركهم عائد إلىٰ الضمير في متروكهم الذي تركوه لأنه لا بد أن يترك من طلبه، وإن ظاهر فيه تعبه، وضاعف نصبه...

المعنىٰ في ذلك: إن أولياء الله الذين تقدم ذكرهم أماتوا الدنيا، فلم يعمروا منها خراباً، ولم ينصبوا فيها قباباً قطعوها ركضاً ونصاً، وحصوا مرافقها من أكفهم حصاً، فلم يعتلقوا بشيء من أسبابها لعلمهم أنها تميت من أخلد إليها، وارتكن عليها كم من خدين لها قد صرعته لليدين والفم، ومفتون بحلاوتها قد جرعته كأس العلقم، ومتخذ لها أما غادرته أيماً، ومُكلم لها حباً فارقته كليماً، فلم تعرف للمأموم حرمة الأمومة، ولم تداوي للمكلوم كلومه، فلما نظر أولياء الله (تعالىٰ) إلىٰ ذلك في غيرهم اعتبروا به منها، واكتفوا به فيها، فلم يحيوا فيها مواتاً، ولم يجمعوا لها شتاتاً، وبدؤا فيها بما خشوا منها، فعملوا بالوثيقة وجزموا علىٰ الحقيقة، وسلكوا أوسط طريقه، وعلموا أنها تترك صاحبها أحوج ما يكون إليها، فتركوها زهداً فيها، ورغبة عنها أنفة علىٰ

شرفهم، وحمية علىٰ أنفسهم أن يحيوا مميتهم، ويحفظوا تاركهم وهل رأيت أجهل من رجل يربي قاتله. . . ؟ مع علمه أنه قاتله: ويقبل علىٰ من يعلم من حاله الاعراض عنه، والاستخفاف به. . .؟ وقلة المواساة عند الشدائد، والمدافعة عند نزول الأوابد لا يغتر بما هذه حاله إلّا مغرور، ولا يقبل عليه إلّا مثبور. . .

قوله (عليه السلام): «فما عرض لهم من نائلها عارض إلّا رفضوه ولا خادعهم من رفعتها خادع إلّا وضعوه. . .».

عرض إذا لاح، وإعتن ولقىٰ، ولا يكون ذلك إلّا فيما لا دوام له. هذا حكم العارض عندهم. .

ونائلها عطاؤها عارض هو الأمر الذين يعرض بمعنىٰ يستقبل قال قائلهم يصف عسكراً لقوه:

فجاؤا عارضاً برداً وجئنا كمثل السيل نركب وازعينا

والرفض هو اطراح الأمر، وإلقاؤه بنبذ وشدة كراهيته وأحسب أنه من رفض البعير برجله إذا أحس فيها شيئاً يريد سقوطه كالقراد وشبهه.

قوله: ولا خادعهم. المخادعة مفاعلة من الخدع، وأصل الخدع والخديعة الفساد من ذلك قولهم: خدع الريق إذا فسد ثم استعير ذلك لكل فاسد، وكان المكر عندهم، والغيلة من أقوىٰ أنواع الفساد، فسموها خديعة وخداعاً، وسمي المخدع في البيت مخدعاً من ذلك لأن الغيلة لا تؤمن منه. .

ورفعتها شرفها، وملكها وعلوها، والخادع هو فاعل الخدع. كما أن الضارب فاعل الضرب، والوضع نقيض الرفع.

المعنىٰ في ذلك: إن أولياء الله الذين تقدمت صفتهم ما عرض لهم من الدنيا عارض إلّا رفضوه لعلمهم بقلة بقائه، وسرعة فنائه، وانه لا يستقر، ولا يدوم، وإنما هو حال إقباله في حكم المدبر، ووقت بقائه في حكم الفاني لأن الإدبار غايته والفناء نهايته، وذو العادة المستمرة لا يتركها، وطالب الغاية المستقرة لا يقف دونها، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر»، فجعلها في حال حضورها عرضاً

لأنها لا بقاء لها في وقت حضورها. ونائلها هي خيراتها، وزهرتها وزخاريفها، ورفضهم له تركهم إياه لأنهم خافوا أن يغشي زخرفه أبصارهم، فلا يهتدون سبيلاً، وتنفقر لثقل أوزارهم ظهورهم، فلا يستطيعون خويلاً هذا مع أن المرتقىٰ كؤد، والسفر بعيد، وظاهر نائل الدنيا سرور، وباطنه غرور رفعتها تخادع ذوي الإربة عن نفوسهم، وعقولهم، فربما أعطوها القياد، فطوعت بهم في البلاد وأهلكتهم في المعاد، وقلَّ من يسلم من خادع رفعتها وإن نجا من عارض نائلها إلاّ من رزق التحقيق، ومنح التوفيق، فاهتدىٰ لمعرفة غامض عيونها، وسرعة انتقالها، ووشك زوالها، وإن عزها ذل، وكثرها قل، وحدها فل ظلها زائل، وكوكب سعدها آفل ومن لك بمن هذه حاله..؟ ذلك أمير المؤمنين (سلام الله عليه) الذي كفاها لوجهها، وأعرض عن زينتها، فلم يُرعها طرفاً، ولم يبسط إليها كفاً، ألم تسمع إلىٰ ما يروىٰ عنه (عليه السلام) فيها من قوله:

دنيا تخاد عني كأني ... لست أعرف حالها
حظر الإله حرامها ... وأنا أجتنب حلالها
بسطت لي يمينها ... فرددتها وشمالها
ورأيتها محتاجة ... فوهبت جملتها لها..

فمن عرف معاني هذه الأبيات، فقد عرف جملة كافية وموعظة وافية، فأما حب الرفعة، فقد هلك فيه كثير، ﴿والله بما تعملون بصير﴾[1]. ألم تسمع إلىٰ قول بعض الأنصار في معنىٰ الافتتان برفعة الدنيا، والحب لشرفها، وذلك؛ لما قتل سعد بن عباده بسهمين رمي بهما في الليل، وقد خرج لقضاء حاجته ليلاً، وزعم بعض من زعم أنه سمع من الجن قائلاً يقول:

قتلنا سيد الخزرج ... سعد بن عبادة
رميناه بسهمين ... فلم نخطء فؤاده

فقال في ذلك بعض الأنصار: وكان سعد قتل مغاضياً لأبي بكر ممتنعاً من بيعته، وروي عنه أنه قال: لما رأينا قريشاً عدلت بالأمر عن أهله طمعنا فيه. في

(١) سورة الحديد آية ٤.

قصص طوال، فقال بعضه الأنصار في ذلك يقول:

يقولون سعداً شقت الجن بطنه ... ألا ربّما حققت فعلك بالعذر
وما ذنب سعد انه بال قائماً ... ولكن سعداً لم يبايع أبا بكر
لئن صبّرت عن فتنة المال أنفس ... لما صبرت عن فتنة النهي والأمر

يعرض بأبي بكر في ذلك، وأنه لم يصبر عن دفعة النهي والأمر، وشرف الرياسة، واعلم أن أعلىٰ طبقات إلرفعة في هذه الدنيا الأمارة. فقد روينا فيها عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يوجب أن لا يدخلها إلاّ من اضطره أمر الله إليها، وحمله خوف الوعيد عليها. كما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في شأن إمارته: فلم أرىٰ إلاّ القيام أو الكفر بما جاء به محمد (عليه وآله السلام)، وكذلك حال الأخيار من ذريته (سلام الله عليهم) إلىٰ يومنا. ورواياتنا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا الشأن كثيرة، وإنما نذكر طرفاً علىٰ قدر احتمال المكان. من ذلك ما روينا عن أمير المؤمنين قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أفضل الأعمال عند الله أيمان لا شك فيه، وغزو لا غلول فيه، وحج مبرور وأول ما يدخل الجنة شهيد، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده، ورجل عفيف متعفف ذو عيال، وأول من يدخل النار أمير متسلط لم يعدل، وذو ثروة من المال لم يعط من المال حقه، وفقير كفور. . . فما خير رفعة قدمت صاحبها مدة حقيرة في أيام يسيرة، وأدخلته النار في أول الداخلين ثم لم يخرجه منها أبد الآبدين، ودهر الداهرين، فيا لها صفقة ما أخسرها وأدبرها، وأبخس متجرها، وأقبح مخبرها»: واعلم أيدك الله أن الفكر في المآل هو رأس الحكمة، وقائد العصمة، وكانت العرب تمدح من فعل في أعمال الدنيا، وقد علمت هون مضارها. قال قائلهم:

ولذاك كانوا لا يخشون الوغى ... إلاّ وقد عرفوا طريق المهرب

يريد أنهم عرفوا وجه المهرب قبل إيقاد نار الحرب الذي هو حشها. لأن صاحبها يفتقر إلىٰ النظر في محالها، ومئآلها قبل وصالها وقبالها، فمن نظر موضع قدمه قبل الإقدام، فقد استبصر، وعمل بالوثيقة لنفسه، واستبرأ من الدنية لدينه، ولم يؤت من غرة، ولم يقصر في ورد، ولا صدر، ومن تقحم علىٰ غير بصيرة فقد رمىٰ نفسه في المعاطب، وأوردها شر العواقب، وكان في أمر نفسه قد أتي من قبل نفسه، فقلّ راحمه، وفقد عاصمه. .

قوله (عليه السلام): «خَلِقَتْ الدنيا عندهم فما يجددونها، وخربت بينهم فما يعمرونها».

الإخلاق، والإنهاج، والإسحاق، والإسمال معناها واحد، وهو أن ينال البلىٰ من الثوب فلا يبقىٰ فيه طائل نفع وتجديده تبطينه بغيره مما يشده. يقول قائلهم: جددت الثوب إذا فعل به ذلك أخذ من الجدة، وهي نقيض البلىٰ قال ابن حذاق:

ورجّلوني وما رُجلت من شعث وألبسوني ثياباً غير إخلاق

في قصيدة له مقصده. يريد بقوله: غير أخلاق: غير بالية وهو يريد الأكفان لأنها تتخذ في الأغلب جُدُداً، وقد قيل أن قصيدته هذه أول قصيدة قيل في ذم الدنيا، وأنها قبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بخمس مائة عام..!

وقوله (عليه السلام): «وخربت بينهم».

الخراب لا يكون إلّا في البناء، والبنيان، وهو نقيض التركيب والعمارة، والتخريب نقيض البناء يقال: خربه يخربه تخريباً إذا نقضه، وعمره إذا أصلحه ورده إلىٰ حال الاستواء..

المعنىٰ في ذلك: أن الدنيا خَلِقَتْ لطول تكور الاعصار عليها وتقلب الأدهار فيها، وقضاء الرب لها بذلك، فلم يـر أولياء الله (تعالىٰ) أن يجددوا ما قضىٰ الله (تعالىٰ) بأخلاقه، ولا ما أراد خرابه..! إذ تجديده يكون في حكم المخالفة لأمره، وعمرانه يكون في حكم الرد لقضاءه، وهل هي إلّا سبيل عبرها الناجون فنجوا...؟ وسكنها الهالكون فأزعجوا...؟ والزاد قليل والرحل ثقيل..

قوله (عليه السلام): «وماتت في صدورهم فما يحيونها بل يهدمونها فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقىٰ لهم».

ماتت نقيض: حيت، وصدورهم مساكن قلوبهم، وقلوبهم محّال علومهم، وأحياؤها يناقض إماتتها، والهدم نقيض: البناء قال بعض حكماء الشعراء:

أرىٰ ألف بـان لا يقـوم لـهـادم فكيـف ببـان خلفـه ألف هـادم؟

وأصل البناء: رفع الشيء علىٰ الشيء. قال الشاعر:

إن الـذي سمـك السمـاء بنىٰ لنا بـيتـاً دعـائـمـه أعـز وأطـول

وآخـرتهم هي دار الآخرة، وأضـافهـا إليهم لمصيـرهم إليهـا، وسميت آخرة لتأخر نزولها عن نزول الدنيا. .

قـوله: ويبيعـونهـا يـريـد: أنهم عقـدوا بينهم عقـد البيـع في المعـاملة الأخـرية، والسـوابق المرضيـة، والبيع هـو ما يحصـل فيه العقـد ممن يجـوز تصرفه علىٰ وجه التراضي بلفظين ماضيين.

والشراء هو اللفظ الذي يقع في مقابلة لفظ البيع.

وقد باع المؤمنون أنفسهم وأموالهم من الله (تعالىٰ) بيعاً ربيحـاً واشترىٰ (سبحانه) منهم شراءاً مفيداً. . .

والهاء في قوله: يشترون بها عائد إلىٰ الدنيا.

والبـاقي نقيض الفاني، وهـو ثـواب الآخـرة فـإنـه لا يـزول المعنىٰ في ذلـك: إن أولياء الله (تعـالىٰ) أمـاتـوا ذكـر الـدنيـا في ألسنتهم، وفكـرهـا في صدورهم، وهمها من قلوبهم، فلم يحيوها بـذكر، ولم ينشـروها بفكـر، بل صارت عندهم بمنزلة الميت الذي لا يذكر، والفاني الـذي لا ينشر لمعـرفتهم بحقيقتها الغرّارة، وطريقتها الغدّارة، فهدموا بنيانها، وقوضوا أركانها، وقدمـوا نقضها بين أيديهم، فعمروا به منازل الإقامـة في دار المقامـة، وبيوت الكـرامة في مقعد السلامة، فقدموا إلىٰ منازل عامرة، ومراتب فاخرة، وفارقوا الدنيا خرابـا يباباً، فلم يحبوا إليها انقلاباً ولا مئآباً، وباعوا متاعها الفـاني اليسير، واشتـروا به الباقي الخطير من جنة وحرير، وقصر وسرير، وحوراء كالبدر المنير، وهيفاء كالظبي الغرير، وكثبان المسك الأذفر ومكنون العنبر، ونضرة وسـروراً، وملكاً كبيراً، فأي شراء أربح من هذا. . .؟ هذا بيع لا يقيله العالمون، وكيف وأهله العالمون بقالهم مشتراهم، وهلكة أثمانه، ودثر الذي خزنوه، ودمرت أوطانه، وارتفع بيتهم الذي عمروه، وكرمت جيـرانه، وتـواترت إليهم الهـدايا بجـزيل العطايا، ووردت بشـارة الخلود، ونزعت من صـدورهم ضباب الحقـود، فهم

في قباب الملك خالدون، وفي جنات الخلد ناعمون لا يمسهم فيها نصب، وما هم عنها بمخرجين. .

قوله (عليه السلام): «ونظروا إلىٰ أهلها صرعىٰ قد خلت بهم المثلات فما يرون أماناً دون ما يرجون، ولا خوفاً دون ما يحذرون».

النظر هاهنا هو: نظر العين، وهو تقليب الحدقة السليمة نحو المرئي التماساً لرؤيته، والهاء في أهلها عائدة إلىٰ الدنيا وأهلها علىٰ الحقيقة هم الذين قاموا بها حق القيام، وجعلوها دار المقام. .

صرعىٰ جمع صريع، وأكثر ما يستعمل ذلك في القتيل، والصرعىٰ هاهنا هم الذين قتلتهم الزلازل، طحنتهم النوازل.

وحلت من الحلول، وهو الوقوع.

والمثلات جمع مثلة، والرؤية هو إدراك المرئي بآلة الرؤية وهي العين السليمة. .

والأمان نقيض الخوف، والرجاء نقيض اليأس قال قائلهم يذم قوماً:

حرمتم المجد فما ترجونه ... وحال أقوام كرام دونه
وجدتم القوم ذوي زبونة ... .

والخوف نقيض الأمان، وهو فزع يعتري الإنسان من الأمر المنتظر المجهول وقت الوقوع. قال الله (تعالىٰ): ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾ [1] معنىٰ الخوف ما قدمنا، والترقب هو التنظر، والمحذور هو الكريه المتوقع، والحاذر هو الحازم الخائف. قال الشاعر يصف القنا:

تصرفه للطعن فوق حواذر ... قد انقصفت فيهن مَنه كعوب

المعنىٰ في ذلك: أن أولياء الله (تعالىٰ) نظروا إلىٰ أهل الدنيا الذين أثاروها حق الإثارة، وعمروها جهد العمارة، فعَقدوا أبوابها، وعمدوا قبابها، ورفعوا قصورها علىٰ الأساس الوثيقة ونحتوا خراطيمها بالآلات الدقيقة، فقوَّموا أنوفها، وجددوا حروفها من مرمر، ورخام، وطوب وسلام مصرعين في

(١) سورة القصص آية ٢١.

أثنائها ومطرحين في أرجائها. قد صاروا رمماً بالية، وصارت منازلهم خالية، وآثارهم عافية، فهل ترىٰ لهم من باقية. . .؟ ولا تسمع لهم داعية. . .؟ فاعتبروا بذلك الأمر الهاجم، والخطب الناجم الذي فرق بين الأكف، والمعاصم، والرواجب والبراجم، وجمع بين عظام الملوك الأعاظم، ورمم ضعفه المماليك الأعاجم، وفي الحديث «أن ذا القرنين االملك السيار (رحمه الله) مر بمدينة عظيمة قد ملكها تسعة ملوك، وماتوا عنها، فأعجبته فسأل: هل بقي من نسلهم أحد؟ فقيل: ليس إلاَّ غلام قد لزم المقابر، وانفرد من الناس، فأمر من جاءه به فجيء به، فسلم عليه، فقال: ما دلك علىٰ لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أميز بين عظام ملوكهم وعبيدهم، فإذا هم سواء! قال: فهل لك همة؟ قال: إن همتي لعظيمة، قال: فإني أرُدُّ عليك ملك آبائك وأوليك في هذه المدينة قال: إني أريد ملكاً لا يزول، فهل عندك. . .؟ قال: لا ذلك لا يقدر عليه إلاّ الله قال: فإني أطلبه ممن يقدر عليه، وهو الله ثم خلّاه، وانطلق، فقال: ذو القرنين لخاصته: ما رأيت أحكم من هذا». .

والمثلات جمع مثلة، والمثلة هي الوقعة الشنيعة، والبطشة الرائعة القطيعة، ومنه الحديث: «ما قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أمرنا بالصدقة، ونهانا عن المثلة» فلا يرون أماناً دون الثواب في الجنة، وهو الذي كانوا يرجونه في دار الدنيا إذ الأمان دونه غير ذلهم، والسرور غير ملازم، ولا خوفاً دون ما يحذرون من عذاب الله (تعالىٰ) إذ كل خوف دون العقاب يسير، وكل هول حقير، فلما نظروا بأبصار البصائر، والأمن دون المرجو خوفاً لأنهم لا يأمنون مفاجأة دائم الضرر الذي هو العقاب عنده، والخوف دون المحذور الذي هو العقاب إما بزوال شره، وسرعة انقطاعه مع أن مرجوهم الذي رجوه أهون المرجويين عند أهل االدنيا، ومخوفهم الذي خافوه أصغر المخوفين. عند عبيد الأهواء، فأعقبهم أمانهم في الدنيا خوفاً من الآخرة لا تنقضي روعته، وسرورهم فيها حزناً لا تنفذ لوعته، وتبدل أولياء الله الخائفون له الراجون لما عنده أمناً لا خوف معه، وسروراً لا حزن فيه، فمن سلك فيها جهم فاز، ومن اغتر أنزل دار المغترين، وتجرع كأس الندامة مع المسوفين. . .

الحديث العشرون

عن أبي هريرة قال: «سمعت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: إنما أنتم خلف ماضين، وبقية متقدمين كانوا أكثر منكم بسطة وأعظم سطوة أزعجوا عن الدنيا أسكن ما كانوا إليها، وغدرت بهم أوثق ما كانوا بها، فلم تغن عنهم قوة عشيرة، ولا قبل منهم بذل فدية، فأرحلوا نفوسكم بزاد مبلغ قبل أن تؤخذوا علىٰ فجاءة وقد غفلتم عن الاستعداد».

أبو هريرة قد تقدم الكلام في ذكره، وتبيين طرف من حاله وأمره، ولفظ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد يهمز فيكون من الإنباء وهو الإخبار والإعلام. قال الله (تعالىٰ): ﴿قالت من أنبئك هذا﴾[1]. أي من أخبرك وأعملك بما أفشيت من سرك، من حديثك، وقد لا يهمز فيكون من الرفعة، وهي النباوة، وهي بغير همز. كما ترىٰ وقد جاء القرآن الكريم بغير همز، وبهمز في ألفاظ النبي (عليه السلام) فأمّا هذا الخبر فسماعنا إياه بغير همز. . .

قوله (عليه السلام): «إنما أنتم».

هذا خطاب لجماعة الحاضر المذكر. والخلف نقيض السلف بتحريك اللام، وهو يفيد من خلف الأول في مكانه، وسكن في أوطانه، وقام مقامه في شأنه، ووراثة سلطانه ومن ذلك أخذت الخلافة، فإن كان هذا الخالف حاله

(١) سورة التحريم آية ٣.

دون حال الموروث السابق قيل خلف بسكون اللام فإن قيل: فقد قال زاجرهم:

أنّا وجدنا خلفاً بئيس الخلف   أغلق عنّا بابه ثم حلف
لا يدخل البواب إلّا من عرف   . . . .

قلنا: هذا شاذ لا يدخل إليه، ولا يعول عليه إذ لا يعلم أن أحداً من أهل اللسان اعتمده. . .

والماضين هم: السابقون الأولون، وأصل المضاء القطع يقال: مضىٰ السيف: أي قطعه، ومنه سميت السيوف مواضي وسمي الماضي من السيف ماضياً لأنه كالمقطوع من الباقي. والبقية هو فضالة الشيء، وحثالته، وهو مأخوذ من البقاء، وقد تقع البقية للاستبقاء والادخار. قال الله (تعالىٰ): ﴿بقية الله خير لكم﴾[1] معناه (والله أعلم) استبقاؤكم الله (تعالىٰ) ذخيرة، وجعلكم له فئة خير لكم من قطع ما بينكم وبينه بالمعاصي الكبيرة. والمتقدمون أخذوا من التقديم إذ هم في الحكم خلفنا، ونحن بين أيديهم، وقد يحتمل التقدم من القدّام على معنىٰ أنهم تقدموا إلىٰ ربنا، ونحن خلفهم لاحقون المعنىٰ في ذلك: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد تنبيهنا إذ الأكثر من الناس لا يفكر في ماضي قبله، فيتعظ به ولا في باقي بعده، فيعلم أن الفائز بتركته ربما سعد بما شقي أو تلذذ به في دنياه، وكانت علىٰ المخلف تبعته هذا وهو لا يخرج من الدنيا إلا بكفنه، إن كانت ميتته علىٰ تؤدة وأناة بين أهله، وأحبته، فأكثر كرامته كفنه مع نزعهم خاتمه من خنصره، ونعله من رجله، ويسلونه في حفرته، فيسلمونه إلىٰ عمله، فإن كان صالحاً استراح من تعبه، وإن كان طالحاً أتى من سيئه، وقد رأينا ذلك عياناً، فلم نحتج له برهاناً، وقد تقرر في عقل كل عاقل متأمل أنا نخرج من الدنيا مكرهين. كما خرج الماضي منها مكرهاً إلّا أن نُخرّب الدنيا، ونعمر الآخرة، فإنا نحاسب حساباً يسيراً، ونزداد بفراقها سروراً. لأن العاقل يحب الانتقال من الخراب إلىٰ العمران، فأما من كانت وفاته في ميدان العجاج وسوق الهياج، ونفاق الأسنة، وكساد الزجاج أو يبغي بعض البغاة في أفواه الفجاج، فإنه يعوض

---

(١) سورة هودآية ٨٦.

بالأكفان أجنحة الغربان مع تمزيق السباع أديمه، وتعرقها صميمه، وأقحال الشمس بضه، وإيناعها غضه، فكم من نسر منحط، وعقاب كاسر فتجاذبوه بالمخالب والمناشر. أخذ الشديد المكاسر لمن عدم المعين والناصر، فإذا كانت هذه القضية في غير ذات الله (تعالىٰ) وكان مصير من هذه حاله بعد هذه الصفة إلىٰ نار الله (تعالىٰ) فأي خسارة أعظم منها. . .؟ خسارة أو تجارة أبور منها تجارة. . .؟ ولا يحبر هذا الرزء المهم إلّا أن تكون هذه العظيمة نازلة في حق الله (تعالىٰ) إذ فيه الخلف عن كل ماضي، والعوض من كل فائت، وكل عسير في جنبه يسير، وكل عظيم في حقه حقير، ومن لنا بأن نقتل في حقه مراراً، ويمثل بنا في ذاته أسفاراً. إذ الأجر في ذلك لا تساويه الرغائب، ولا ينتهى إلىٰ أمنيته الطالب، وقد كان الصالحون يتمنون ذلك، ويغبطون به.

وفي الحديث: «أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما قام علىٰ رأس عمه حمزة بن عبدالمطلب (رضي الله عنه)، وكانت هند وصواحبها قد مثلن به فجدعن أنفه، وأذنيه، وبقرن بطنه قال والله لولا أن تجزع صفية يعني أخته لأدعنه حتىٰ يبعثه الله (تعالىٰ) من أوكار الطيور، ووجار السباع» وهذا حال ظاهر في أهل هذا الشأن الراغبين فيما أعد الرحمن ألم تسمع إلىٰ قول عدي بن الحكيم الطائي في قصيدته الفائية يقول:

إني لمرتادٌ جواداً فقاذف به	وبنفسي العام إحدى المقاذف
مخافة دنيا رثةٍ أن تميلني كما	مال فيها الهالك المتجانفِ
فيا رب إن حانت وفاتي فلا تكن	علىٰ شرجع يعلىٰ بحصر المطارفِ
ولكن أحن يومي شهيداً بعصبه	يصابون في فخ من الأرض خائف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى	وصاروا إلىٰ موعود ما في المصاحفِ

قوله (عليه السلام): «كانوا أكثر منكم بسطة، وأعظم سطوة».

الأكثر نقيض الأقل. والبسطة هي الفضل والسعة، وهي مأخوذة من البسط الذي هو نقيض القبض، ومنه سمي البساط بساطاً لانبساطه علىٰ وجه الأرض، وسميت الأرض بساطاً لأجل الانبساط الذي يتمكن لأجله من التصرف. . .

والخطاب للحاضر في قوله: (منكم) وهم المعاصرون للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد نقصّ حالنا من حالهم نقصاناً كثيراً.

والعظم: نقيض القلة والصغر، والسطوة هي الوقعة، والبسطة ولا تكون إلّا بالمكروه. يقول قائلهم: سطى عليه إذا وقع به المعنىٰ في ذلك أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) نبهنا علىٰ الاعتبار بحال الذين كـانوا قبلنـا، وانهم كانـوا أكثـر بسـطة في الأمـوال والجسـوم، والممـالـك والحلوم، وكـذلـك كـانت سطوتهم، فإنها كانت عظيمة هائلة شديدة طائلة، فـإن لم تعرف ذلـك بتواتر الأخبار، فانظر إلى المشاهد من عجيب الآثار، وهـذا مع أن الآثـار متواتـرة، والمآثر ظاهرة كغمـدان وسلحين وظفار معاد، ومدائن الجوف الكبار، وحـرمي مصر وتدمـر، وكم نعد ونـذكر. كـإيوان كسـرىٰ، ومجد انمرود كوس بن هاس بن كنعان بن حام. . ، فإنك إذا شاهدت ما ذكرنا أو علمت صفته بالنقل الموصل إلىٰ العلم، وقعت علىٰ عبرة المعتبر، وزاجرة المزدجر، وكذلـك في سـطواتهم الهائلة، وأيـامهم الطائلة كيـوم حليمـة، ومـا جـاء نسبـه من الأيـام القديمة، والسطوات العميمة، فكيف ترجوا أن تنـال من الدنيـا ما نـالوا. . . ؟ أو تؤول إلىٰ حيث آلوا؟ هـذا وإن نلنا مثـل ذلك علىٰ بعـده فهـل ننجـوا من حالهم الذي حالوا عليه ومنقلبهم الذي صاروا إليه، وسنذكر بعض صفـة هذه الآثار البديعة، ففي ذكرها عجب لمدكر، وعبرة لمعتبر.

أما عمدان فهو قصر قصبة اليمن صنعاء، وكـان من متقدمـات الأبنية، ومفزعات المصنوعات، وقيـل: فيه أقـوال كثيرة مشهورة وقد كـانت بقيت منه بقية إلىٰ أيام عثمان، فأمر بهدمهـا وعمارة مسجـد الجامـع، وروي عن بعض العلماء أنه قال: لم يكن في الأرض بناء مثل غمدان.

وأما ظفار، وسنـون، فهما مـدينتان من بـلاد عنس عظيمتـان جاهليتـان فيهما آثار هائلة، وكانت التبابعة تسكنهما قال أسعد التبع:

قـد دعتني نفسي لأن أنـطح الصين ... بـخيـل أقـودهـا مـن ظـفـار

وهي التي فيهـا المثل: لا يـدخـل ظفـار إلّا من حمَّـر. أي نـطق بلغـة حمير، وذلك أن ملكاً من ملوك حميَر قال: لوافـد إليه من العـرب ثب، وثب بلغـة حميرَ أقعـد. . فجمع الـوافد ثيـابه وقـال: ليعلم الملك إني لا أعصيه، ورمىٰ بنفسـه من رأس القصـر فهلك، فعجب الملك من ذلـك، فقـال لـه وزراؤه: إن معنى ثب بلغة هذا الـرجل مـا ترىٰ. . ! فقـال الملك: لا يدخـل

ظفار إلّا من حمَّر أي نطق بالحميرية.

وأما سلحين فهو قصر بلقيس ابنة الهدهاد صاحبة سليمان بن داود (عليه السلام) وكان متخذاً علىٰ الأساطين، والأعمدة، وكان عجيباً رائعاً، فقال فيه علقمة بن ذي جدن:

سائل بسلحين وأيامها ... أيان كان الملك في حميَرِ
واسأل ببلقيس وبنيانها ... وعرشها من ذهب أحمر
واسأل بقومي حميَر وابكهم ... من معشر حسبك من معشر

وقال أسعد التبع: يفخر بولادة بلقيس إياه لأنها كانت من جداته فيما يقال: وذلك قوله:

ولدتني من الملوك ملوك ... كل قيل متوّج صنديد
ونساء متوجات كبلقيس ... وشمس ومن لميس جدودي

إلىٰ أن قال:

عرشها شرجع ثمانون باعاً ... كللته بجوهر وفريد

فأما مدائن الجوف، وأبنيته، فقد شاهدناها عياناً، وقتلناها عرفاناً، وقد حارت فيها أفكارنا، فمنها ما يقطع العاقل اللبيب علىٰ أنه خارج من صنعة البشر، ومقدورهم لما فيه من الآثار الرائعة الهائلة من الأساطين المثمنة، والعمد المكونة، والصور الممثلة، والأركان المكللة، وهي سبع مدائن على شاطيء نهر الجوف الأعظم المسافة بينهما متساوية، كأنما قيست بالمقوس وقد ذكرها علقمة في شعره حيث قال:

وبراقش الملك الرفيع عمادها ... هجر الملوك كأنها لم تهجر
ومعين فرق بين ساكن جمعها ... أرض الأغنة والجياد الضمر

وأما مجد أنمرود، فقيل أنه كان بكوثاء من أرض بابل والذي مناه نمرود بن كوش بن هاش بن كنعان بن حام بن نوح، وهو أول ملك فيما روي. عمَّ ملكه الدنيا، وكان أمراً هائلاً. قيل كان ارتفاعه في الهواء خمسة آلاف ذراع، وطوله في الأرض ألف وخمس مائة ذراع، وكان نمرود هذا معاصراً لإبراهيم (عليه السلام) وهو الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، فلما غير الله

(تعالىٰ) ما به، وفارقه إبراهيم (عليه السلام) مهاجراً إلىٰ ربه أتىٰ الله (تعالىٰ) بنيانهم هذا العظيم من القواعد في يوم غير ومطر وبرد ورياح جمعهم بذلك من كل ناحية تدبيراً لله (تعالىٰ) إلىٰ ملجأهم هذا الذي اتخذوه من دونه (سبحانه) عناداً، فخر عليهم السقف من فوقهم، وفائدة ذكر خرير السقف من فوقهم. التأكيد لكونهم تحته، إذ قد يسقط بنيان القوم، فلا يكونون تحته، فيقال: انهدم عليهم بنيانهم، ولا يقال: من فوقهم حتىٰ يكونوا تحته، فتأمل ذلك..

وأما تدمر: فهي بناحية الشام وهي مما عمرت الجن لسليمان بن داود (عليه السلام)، وقد ذكرت العرب ذلك في أشعارها. قال النابغة:

وما أحاشي من الأقوام من أحد　　إلا سليمان إذ قال الإله له
قم في البرية فاجددها عن الفند　　وخيش الجن إني قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفاح والعمد　　.....................

وحكي أن فيها من التماثيل، والتصاوير، والأنواع البديعة ما يستغرق الأفكار.

وأما هرما مصر: فهما في الجانب الغربي من فسطاط مصر، وهما من عجائب بنيان العالم طول كل واحد منهما أربعمائة ذراع في سمك مثلها مسموكان بالصخور العظيمة...

وأما إيوان كسرىٰ فهو قصر المدائن وهو قرار ملك الأكاسرة، وهو دار ملكهم، وهو مما كان له في الأبنية شأن، وكان ذاهباً في السماء هدمه المسلمون، ولما رجع ابن الأشعث من سجستان خالعاً لعبد الملك داعياً إلىٰ نفسه يقدم بين يديه أعشىٰ همدان وهو يقول:

شطّت نوىٰ عن دارها بالأيوان　　إيوان كسرىٰ ذي القِرىٰ والريحان

والكلام في هذا القبيل يطول، وإنما نذكر طرفاً مما يتعلق به الاعتباد لأهل القلوب السليمة سبحان من كل ملك غير ملكه زائل، وكل سلطان ما خلا سلطانه باطل، فأي بسطة ترىٰ أوسع من بسطتهم أو سطوة أعظم من سطوتهم، فأصبحوا لا ترىٰ إلاّ مساكنهم..

قوله (عليه السلام): «أزعجوا عن الدنيا أسكن ما كانوا إليهـا، وغدرت بهم أوثق ما كانوا بها». . .

الأزعاج هو الأخـراج بعنف وشدة، والهـاء في منها عـائدة إلىٰ الـدنيا، والمساكن علىٰ الحقيقة، وجـائز أن يعـود الضمير إلىٰ السـطوة والبسطة، وإن حمل علىٰ الجميع، فلا مانـع لأنهم قد أخـرجوا عن جميـع ذلك، والسكـون والطمأنينة معناهما واحد، ومن كـان في راحة سكن إليهـا، ومن كان في محنة تحرك منها، فهذا أصله.

والغدر هو فعـل المكروه ممن لا يخشىٰ منه ذلك، وقيل: أن الغـدير أخذ من ذلك لأنه مرة يكون فيه الماء، ومرة لا يكون فيه فربما ترك الاستعداد بأخذ الماء ركنة عليه، فأتاه منه ما لم يظن فيه أوثق ما كانوا مأخوذ من الوثاق، وأصله العقـد الشديـد يقول: كـأنهم وثقوا بـدنياهم، ومسـاكنهم، وبسـطتهم وسطوتهم، فغدرت بهم، فكان الأمر بخلاف ما ظنوا. . .

المعنىٰ في ذلك: أن ممن تقدم ذكرهم من الذين كانوا قبلنا أزعجوا من الـدنيـا الـمـرفقـة في أعينهم الشهيـة إلىٰ قلوبهم، والمسـاكن العجيبـة في أفكارهم، والأبنية العظيمة، والبسطة الواسعة أسكن ما كـانوا إليهـا معناه أنهم أخـذوا بغتة، وهم سكـون إلىٰ ما هم فيـه كما أخـذ المغترون بـالله (تعالىٰ)، وغـدرت بهم فعلت معهم فعل الغـادر، وإن لم يكن ثم حقيقة غـدر أوثق مـا كـانوا بهـا لأنهم أخذوا بغتـة، ولكن لما غفلوا عنهـا غفلة من كان علىٰ عهـد وميثـاق، ووقعت بهم وقعة الغـادر المتمكن القوي الممعن سمي ذلـك غـدراً مجازاً، وإلاّ فأي وعظٍ أعظم من وعظها أو تذكير أنفع من تذكيرها، أو تحذيـر أنجع من تحذيرها. .

قـوله (عليـه السلام): «فلم تغن عنهم قـوة عشيرة، ولا قبـل منهم بذل فدية».

الإغناء هو الكفاية يقول قائلهم: أغناني هذا الأمر. أي كفاني.

والقوة: هي الآلة، والقـدرة. هذا في الأصـل، ويقال في الله (تعـالىٰ) قوي علىٰ معنىٰ أنه القـادر الذي لا يمتنـع عليه شيء والعشيـرة هم: الأقارب من قبيلة الإنسـان، وسمـوا عشيـرة لأن العشـرة وهي: الألفـة، والمنـافعـة

والمعاونة والمجاملة تقع بينهم في الأغلب، ومنهم الأقارب والأباعد. قال الله (تعالىٰ) لنبيه (عليه السلام): ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾[1] و لأقارب هم الأعمام وبنوهم، فقيل: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا بني هاشم فقرب لهم صاعاً من طعام، وجنب شاة، وهم ثمانية وأربعون رجلاً فأكلوا من الطعام حتىٰ شبعوا، ومن اللحم حتىٰ اكتفوا، وبقي كل شيء من ذلك بحاله ثم ذهب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليتكلم معهم فبدره أبو لهب (لعنه الله) فقال: يابني هاشم لو لم تعرفوا سحر ابن أخيكم إلا بما عاينتم من أمر الطعام لكان لكم كافياً، فأمسك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الكلام في تلك الحال، وتفرقوا...».

وقيل: أن سعد العشيرة سمي سعد العشيرة لأنه كان ترك في ثلثمائة من أولاده، وأولاد أولاده، فإذا قيل: من هؤلاء معك؟ قال: هم عشيرتي...

والقبول نقيض الرد، والبذل: نقيض المنع، والفدية هي ما يتخلص به الإنسان نفسه مما يقوم مقام نفسه من المال في بعض الوجوه قال (تعالىٰ): ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾[2] يقال: أفدىَ، وفدى، وفادىٰ.

فأمّا فادىٰ: فأعطىٰ رجلاً واحداً، وأخذ رجلاً...

وأما فدّىٰ: فأعطى مالاً، وأخذ رجلاً...

وأما أفدىٰ: فأخذ مالاً، وأعطىٰ رجلاً...

المعنىٰ في ذلك: أن قوة العشيرة لا تغني عن المرتكبين الآثام ولا تدفع عن المنهمكين في عظائم الإجرام، ولا تصرف عنهم سطوة ذي الجلال والإكرام، وكيف تغني عن عذابه قوة العشيرة، وكل قوي في جنبه ضعيف، وكل عزيز ذليل وكل قادر عاجز، وقد قال (تعالىٰ(: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلاّ آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيمة فرداً﴾[3] السموات السبع التي ورد السمع بصحتها وعاينّا التي تلينا منها بأبصارنا، والأرض هي هذه المدحوّة. الآتي هو الواصل. والرحمن هو الرب

---

(١) سورة الشعراء آية ٢١٤.

(٢) سورة الصافات آية ١٠٧.

(٣) سورة مريم آية ٩٨.

(سبحانه) المتناهي في الرحمة لعباده وخلقه ولا يجوز إطلاق الرحمٰن علىٰ سواه. والعبد هو الدليل أخذ من التعبيد، وهو التدليل. والإحصاء هو الاستيعاب، والإحاطة. والعد هو إضافة الشيء إلى الشيء، وتضعيفه به حتىٰ يكون عقوداً إلىٰ مبلغ إرادة العدد، وهو معروف، وعداً تأكيد للعد بلفظه. ويوم القيٰمة هو يوم البعث سمي قيامة لقيام الناس فيه من الأجداث، والفرد الذي لا ثاني معه. والمعنىٰ في هذه الآيات: أن الله (تعالىٰ) عمّر أهل السموات وهم الملائكة الكرام (عليهم أفضل السلام)، وأهل الأرض، وهم الجن، والإنس وهذا دليل علىٰ أن محل الجن الأرض لدلالة النص علىٰ منعهم من وصول السماء كما قال (تعالىٰ) حاكياً عنهم: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾[1] فمنعوا عن الاستماع من مقاعدها فضلاً عن الإقامة فيها. وقد ذكر أن كل المتعبدين يأتون إلىٰ الله (تعالىٰ) يوم القيامة، ولم نذكر إلّا أهل السماء والأرض، ولا خلاف بين أهل التصديق أنهم يأتون أعني: الجن يوم القيامة مع الآتين. ثم وصفهم بأنهم يأتون يوم القيامة في حال الخضوع، والاعتراف بالعبودية والرق لما يرون من عظيم القدرة، ووضوح الحال معرفة الخالق (تعالىٰ) الذي لا يناهىٰ جلاله، فخص القيامة لأنهم يأتونه (تعالىٰ) فيها عبيداً. هذا وإن كانوا عبيداً له في الدنيا والآخرة فإنما خص الآخرة لأن منهم من خرج في الدنيا تمرداً من حال العبودية، وادعىٰ الربوبية، وذلك اليوم يوم يطبق الجميع فيه علىٰ الاعتراف فيه بالملكة، وقد أحصاهم سبحانه عدداً، فلم يغادر منهم أحداً بل أحصىٰ أخراهم، وأنفاسهم، وأوقاتهم، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً...! يأتونه يوم القيامة عند دعاء الداعي لهم. وهو: إسرافيل (عليه السلام)، وهو يدعوهم بالصُّور ينفخ فيه نفخاً مفظعاً يقول فيه: أيتها الشعور المتفرقة، والأجسام المتمزقة، والعظام النخرة قوموا إلىٰ محاسبة الديان والعرض علىٰ الكبير الأكبر...؟ فيخرجون من الأجداث سراعاً ولا يستطيعون امتناعاً، ويأتونه فرادىٰ لا يلوي منهم أحد علىٰ أحد، ولا يلتفت والدٌ إلىٰ ولد، وكذلك لا تقبل الفدية ذلك اليوم ولاتنفع المعذرة...! لأن التكليف مرتفع، والأملاك زائلة، والحال غير الحال، فالفدية مردودة، والأموال مفقودة،

---

(١) سورة الجن آية ٨.

وإن وجدت فهي غير معدودة، فأين العشيرة الدافعة، والفدية النافعة، وهم يأتون علىٰ هذه الصفة الرائعة عند وقوع الواقعة، وارتفاع الهائعة..

قوله (عليه السلام): «فارحلوا نفسوكم بزاد مبلغ، قبل أن تؤخذوا علىٰ فجاءة، وقد غفلتم عن الاستعداد»..

أرحل نفسه نقيض أحلَّها. والزاد هو ما يستصحبه الراحل مما لا غنىٰ له عنه. وقبل نقيض بعد. والأخذ هو نقيض الترك، والفجاءة الغفلة، ومنه قولهم في قطري بن الفجاءة لأن أباه جاء به من اليمن فجاءة، وقد صار رجلاً ولا علم لهم بأن له في اليمن ولداً، فسموهُ الفجاءة لذلك. والغفلة نقيض اليقظة. والاستعداد جمع الآلة والعدة.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمر بارحال النفوس بالزاد المبلغ، ولا زاد يبلغ صاحبه إلّا التقوىٰ، وأصل التقوىٰ إطراح الأهواء، والتمسك بالسبب الأقوىٰ فالرحيل حتم لا بد منه لمن أراد ذلك أو كرهه، والزاد موقوف علىٰ اختيار الراحل، فإن شاء تزود، وإن شاء ترك والمتزود ناج سالم، والتارك هالك نادم، ومن اختار الهلاك، والندامة علىٰ النجاة، والسلامة فقد اختار غير الخيرة، ولم يأخذ لنفسه بالوثيقة قبل أن تؤخذوا علىٰ فجاءة لأن رحيلهم قد يقع بغير اختيارهم كما يقع رحيل الأسير علىٰ فجاءة بغير مشاورة، ولا مؤامرة، والغفلة أصلها أن يَسِمَ الرجل إبله وينسىٰ واحداً منها بلا نار فيقال بعير غفل. ثم صار ذلك يفيد النسيان لكل شيء، وغفلتهم عن الاستعداد هو نسيان العدة الحصينة، والجنة الرصينة وهي الأعمال الواقية الصالحة الباقية، فما استجن المستجنون من عذاب الله (تعالىٰ) بمثلها، ولا استتر الصالحون بشكلها، وكيف لا تكون كذلك، وهي لا تحيك فيها سيوف الانتقام، ولا تنفذ موارق السهام، ولا تخرقها الرماح، ومن لك بجنة دفعت مضرة العقاب، وأورثت طوبىٰ وحسن مآب، فالموفق من استجن بها والمخذول من حُبس عنها، وبالصبر ينال الخير كله، وباتباع الهوىٰ ينقاد هون العذاب، وذله.
وهذا حين أتينا الفراغ من شرح الجزء الأول من جزئين من حديقة الحكمة النبوية في تفسير الأربعين السيلقية مع تراكم أشغال أخذت بالأنفاس وكادت تؤدي إلىٰ الوسواس، ولولا رجاء ثواب يعود علينا، وأجرٍ يساق إلينا في هداية من يطلب الهداية من المؤمن، وإرشاد من يتعرض للإرشاد من الصالحين ما

تصدينا لهذا الشأن في مثل هذا الأوان إذ التنصيف يفتقر إلىٰ تفريـغ الأذهان، والسهو والغفلة الغالبان علىٰ الإنسان، ومن الله (سبحانه) نستمـد الهدايـة في البداية والنهاية، وأن يبلغنا إلىٰ ما نروم منَ تمامـه وأن يجعل أعمـالنا خـالصة لوجهه لنكون من الذين أخلصوا له الدين وعبدوه حتى أتـاهم اليقين. والحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين، وصلواته على سيـدنا محمـد الأمين وآله الأكرمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الحديث الحادي والعشرون

عن عبدالله بن عمر قد تقدم الكلام في نسبة، وطرف من شرح حاله. قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، واعدد نفسك في الموتىٰ، وإذا أصبحت نفسك فلا تحدثها بالمساء، وإذا أمست فلا تحدثها بالصباح وخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك، ومن حياتك لوفاتك، فإنك لا تدري ما اسمك غداً. . .».

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» قد تقدم الكلام في معنىٰ لفظ الدنيا، والغريب نقيض الأهيل، وأصل الغريب البعيد الدار والأهل، ومنه سهم غارب أي بعيد المرماة عنقاء مغرب أي: بعيدة لا توجد. . .

والمعنىٰ الغريب من ذلك أي البعيد الفهم قال الشاعر:

من يك أضحىٰ في المدينة رحله فإني وقيّارٌ بها لغريب

عطف قياراً علىٰ موضع الجملة في (فإني) وهو الابتداء. .

والعابر هو: السائر، والأصل في العابر الباحث المتفقد للأمور وهو اسم فاعل، ومنه أخذ الاعتبار، وصار الغالب عليه في العرف قطع جسور الأنهار. يقال: عبر فلان الجسر، وقد قل استعماله في غيره إلّا بقرينة، كما قال (عليه السلام): عابر سبيل، فلما كان القاطع للمفاوز، والجسور كأنه

يفتقدها ويتقصصها قيل عابر، وهو السائر، والعين غير معجمة، فإذا كانت معجمة كان الغابر الباقي الواقف قال (سبحانه): ﴿إلاّ عجوزاً في الغابرين﴾[1] يريد الباقين الواقفين، وقد يكون الغابر الداخل يقال: غبر من الزمان يوم أو يومان بمعنىٰ دخل، وهذا الحرف قد يكون من الأضداد فيجعل للماضي والمستقبل كما قال الزاجر:

فـما ونا محمد وقد غفر   له الإله ما مضى وما غبر

يريد بقي. والسبيل طريق، وسميت سبيلاً لاستمرارها وكونها علىٰ سنن مستقيم..

المعنى في ذلك أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أمن ابن عمر خاصة، والناس عامة. أن يكون الإنسان في هذه الدنيا كأنه غريب علىٰ معنىٰ أنه لا يسكن إلىٰ أهل ولا مال بل يكون كالغريب الذي طوحت به طوائح الآمال إلىٰ مسارح الأهوال، فهو مستوفر غير مستقر خائف غير آمن. وقد روي: عن بعض الصالحين أنه كان إذا جلس ـ جلس مجرمزاً مجمع الأطراف: فيقال له: لم لا تطمئن في الأرض...؟ فيقول: تلك جلسة الآمنين، وأنا غير آمن...! هذا الغريب أحب شيء إليه الرجوع إلىٰ وطنه، والبروك في عطنه، وهي دار الاستقامة للفائزين فيها له مال لا تجتاحه جواري الأيام، وأهل لا تتنابهم بوادر الحمام، فأما من عدَّ أنَّ له في الدنيا أهلاً ومالاً فكيف يسمح بفراق الأهل، والمال أو تتوق نفسه إلىٰ الانتقال هذا ما لم تجربه العادة علىٰ مرور الأيام والليالي، ثم أردف (عليه السلام) التشبيه بتشبيه يقاربه، وهو قوله «أو عابر سبيل» فإن عابر السبيل أحب شيء إليه قطع المفازة، والموماة، ووصول الأهل ليفوز بالسلامة، والنجاة. فما ظنك بمن جعل السبيل دار إقامة...؟ من أعظم منه عند الازعاج للمسير ندامة...؟ وأبين منه خسارة وغرامة...؟ فيا أيها الغريب شمر، واستعد للوصول إلى أهلك ومالك، ويا أيها العابر للسبيل لا تحير في المسالك فترهقك المهالك، وبادر إلى المراتب والممالك والنمارق والأرائك والعُرب الفواتك، فبين يديك كل ذلك، ولا

(١) الشعراء آية ١٧١، أو الصافات آية ١٣٥.

تخلد إلىٰ أهل هم أهلك حتىٰ تموت، ومال هو مالك حتىٰ تفوت، فإذا كان ذلك أسلموك، وإلىٰ عملك سلّموك فندمت، وما يغنيك، وقد شغلوك بما لا يعنيك. . . !

قوله (عليه السلام): «وعد نفسك في الموتىٰ». .

العد هو ترتيب جمل الحساب، والنفس هاهنا جملة الإنسان وقد تقدم معناها مفصلًا. والموتىٰ جمع ميت، والميت نقيض الحي المعنىٰ أنه (عليه السلام) أمر الإنسان أن يعد نفسه في الموتىٰ الذين قد انقطع عنهم التكليف، فسئلوا عن الجرائم والجرائر، ونوقشوا علىٰ الصغائر، والكبائر، وكشف لهم البواطن والظواهر، فما كان عليه لو أقبل، والحال هذه لعمله فليعمله فهو اليوم في موضع الإقالة، وأمنية أهل الجهالة. قال الله (سبحانه) حاكياً عن بعضهم أنه قال في هذه الحال: ﴿رب ارجعون لعليّ أعمل صالحاً. . .﴾[1] فهل نحن نجزي في موضع أمنيته. . ؟ فما نحن عاملون. . . ؟ إنّا لله وإنّا إليه راجعون لقد طبعت الغفلة علىٰ القلوب، وكثرت أعوان سلطان الذنوب. . .

قوله (عليه السلام): «وإذا أصبحت نفسك فلا تحدثها بالمساء، وإذا أمست فلا تحدثها بالصباح». . .

الأصباح نقيض الأمساء، وهو مأخوذ من الصبح الذي هو الفجر.

يقال: وضح الصبح لذي عينين، وقال (تعالىٰ): ﴿فساء صباح المنذرين﴾[2] وقد تقدم معنىٰ لفظ النفس هاهنا، والكاف في نفسك عائد إلىٰ المخاطب، والمساء عندهم أول الليل قال النابغة:

وقفنا بصحراء الغوير تلفنا شمال نكاد من ضلالتها نمسي

يعني: رياحاً أظلم لها الأفق فكادوا يدخلون في المساء، وهو أول الليل.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمر أن يكون المرء متوقعاً للموت

(١) سورة المؤمنون آية ٩٩.
(٢) سورة الصافات آية ١٧٧.

مترقباً للفوت صباحاً، ومساءً فلا يخلد إلىٰ الدنيا ولا يسكن إلىٰ لذتها التي تغني إذا أصبح ـ قال: أموت في نهاري هذا، ولكن ما أعددت للموت من الأعمال، وما يخلصني من عهدة السؤال بين يدي ذي الجلال.

ذنوب محصاة حاضرة، وتركات مقصاة نافرة، لا يدخلون معي ضنك المدخل، ولا يعدون لي في صالح العمل، فليتني أقدم الأهل والمال أمامي ليشفعني عند حصول حمامي. هذا وكم رأينا من مصبح لم يمس، وممس لم يصبح، وهل حصاد الناس إلّا في هذين الوقتين، وفيما بينهما. . .؟ وهل بالمستبصرين غرة. . .؟ وهل أهلك الناس رحمك الله إلّا طول الأمل، والتسويف، وقلة استشعار الخوف والحزم من التحريف حتىٰ قست القلوب فهي كالحجارة صلابة، فغفلوا عن التوبة والإنابة.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «من يأمل أن يعيش غداً فإنه يأمل أن يعيش أبداً. . ! ومن يأمل أن يعيش أبداً يقسوا قلبه. . .» وصدق (صلى الله عليه وآله وسلم).

قوله (عليه السلام): «وخذ من صحتك لسقمك». .

الصحة ها هنا نقيض السقم، وأصل الصحة البراءة من الآفات، والسلامة، من العاهات. يقال: صح الحديث، وإسناد صحيح. وصحصحان بالزيادة تضعيف للمستوي من الأرض البريء من الخبار والشقوق والأخاديد، وهي ألفاظ متقاربة معناها واحد، والسقيم يناقض الصحيح في لفظه ومعناه، وهو الذي أصابته الآفات والعوارض، فإذا كان السقم في الحديث أفاد الكذب والاختلال. وإذا أضيف إلىٰ الجسد، فمعناه الضعف والاعتلال. قال (تعالىٰ): ﴿فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم﴾(1). . معناه ذو آفة عارضة فانفروا عني ليلاً يضيبكم ما أصابني مكيدة منه (عليه السلام) ليدرك في أصنامهم ما رام من التقطيع والاحترام، وكانوا يتفردون من أهل الآفات خيفة العدا، فأوهمهم (عليه السلام) أنه عليل الجسد، وهو مضمر (عليه السلام) غليل القلب غيظاً عليكم، واستعظاماً لجهالتكم، فادرك ما أراد. . .؟

---

(1) سورة الصافات آية ٨٨.

المعنىٰ أنه أمر (عليه السلام) أن يأخذ الإنسان من الصحة للسقم يقال: أخذ له منه إذا وفىٰ حقه، وحق الصحة الاستعمال للجوارح في طاعة الله (سبحانه)، وجعل الحق للسقم لأنه ثاني حالتي الإنسان التي إحداهما الصحة، ولا بد من تعقب السقم لها، ولا بد من تعقب السأم لها إما بمبادرة من الحمام والألم، وإما بالإنهاء إلىٰ ضعف الهرم الذي هو أسقم السقم، وألم أنواع الألم قال الشاعر:

أرىٰ بصري قد رابني بعد صحة وحسبك داءاً أن تعيش وتسقما

وفي رواية أخرىٰ: وتسلماً. وقال الحكيم: كفىٰ بالسلامة داء. فحق السلامة عليك أن تأتي، وقد زممت من العمل ما يجبر نقصه، ويسد خصة، ويشعر حضَّهُ، فيقلب الحويل حالاً، والمويل مالاً، والقلة بلالاً، والصحيح ظلالاً، وأما من استفرغ صحته في تناول اللذات، ولم يحترز من هجوم الصباح والبيات حتىٰ يلم به السقم المقعد عن الحركات، فإنه قد أوبق نفسه من الخيرات، فيا أيها الصحيح ما يؤمنك من السقم الذي يمنعك من صالح الأعمال، ويوردك شرائع الوبال النجا النجا قبل انقطاع الرجا، وإياك أن تظلم لصحتك سقمك فتزل من خالق قدمك..

قوله (عليه السلام): «ومن شبابك لهرمك».

الشباب هو حال الزيادة، والتنقل في أحوال الغضارة، وريعان النضارة، وأصله الزيادة وهي حالة يطمع الشيطان فيها لعزة الإنسان قال الشاعر:

إن شرخ الشباب والشعر الأسود ما لم يعاض كان جنوناً

والهرم نهاية العمر، وغاية الشيء وتناهي النقصان، وهو داء لا دواء له كما في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «لكل داء دواء إلاّ السأم والهرم». السأم: الموت، والهرم أحسب أن أصله مأخوذ من الهرم، وهو شجر ضعيف إذا ضبطته الإبل بإخفافها انحطم بلا طائل بلا اعتماد، وأخذته هرمه، ومنه سمي الرجل هرمة كما يقال: طلحة، وسلمة..

المعنىٰ في ذلك: علىٰ نحو ما تقدم أنه يجب علىٰ العاقل أن يأخذ من شبيبته حقها لهرمه، وذلك أنه في حال التشبيه متمكن من أعمال البر،

والتصرف في الطاعات، وثوابه يضاعف لأن الشباب مظنة للمعصية، والخطيئة. قال الشاعر:

فإن مظنة الجهل الشباب ....

وفي الحديث: «أن الله يباهي الملائكة بالشاب التقي، فإذا عمل الإنسان في حال الشبيبة جاء الهرم، وقد استحقب من أعمال البر ما يكفيه في دار الآخرة، ولم يضره هرمه، وإذا أفرط في أيام الشبيبة جاء وقت الهرم وهو فقير، وقتير ماله فتيل، ولا تقير، فيندم على التفريط فلا يغنيه ندمه، ويروم التثبت وقد زلت به قدمه، فيكون الشباب حجة، والهرم عقوبة، والمنقلب حسرة، والمرجع ندامة» قال الشاعر:

يود الفتىٰ طول السلامة والبقاء ... فكيف ترى طول السلامة تفعل
يصير الفتىٰ من بعد عزم وقوة ... ينوء إذا رام القيام ويحمل

وهذا من الله سبحانه تزهيد لعباده في هذه الدنيا أن يصير الصحيح فيها إلىٰ السقم، والشباب إلىٰ الهرم، وليرغبوا في دار لا يسقم صحيحها، ولا يهرم شبابها يزيده تكور العصور جدة، ونضارة وحسناً، وغضارة، وقيل لمعاوية لما بلغ الستين أو جاوزها كيف أصبحت قال:

أرىٰ الليالي أسرعت في نقضي ... طوينَ بعضي ونشرن بعضي
أقعدتني من بعد طول نهضي ....

فلو لم يكن إلا هذا لكان أكبر زاجر فكيف ومن بعده هول المطلع وروعات الفزع، والوقوف بين يدي الحكم العدل...

قوله (عليه السلام): «ومن فراغك لشغلك»...

أصل الفراغ التعطل والخلو يقال: إناء فارغ إذا كان خالياً، وقد قال الله (تعالىٰ): ﴿وأصبح فؤاد أم موسىٰ فارغاً..﴾(1) قيل في معناه خالياً من كل شيء إلّا من ذكره، والذي عندي فيه أنه خال من الصبر علىٰ كتمان أمره من شدة الوجد عليه، ولهذا قال (تعالىٰ): ﴿إن كادت لتبدي به﴾(2) والله أعلم.

---

(1) سورة القصص آية ١٠.
(2) سورة القصص آية ١٠.

والشغل هو: الامتلاء. يقال: إناء فارغ، وإناء مشغول ثم نقل بعد ذلك إلىٰ الناس فمن خلا وجهه من الأشغال فهو فارغ، ومن تعلق بالتصرفات والأعمال، فهو مشغول والمعنىٰ في ذلك: أن دار الدنيا دار فراغ لمن شمر لأعمال الآخرة، ودار شغل لمن اشتغل بأعمالها البائرة، ودار الآخرة دار شغل لأهل الخير، والشر، فأهل الجنة شغلهم اللذات، والتنقل في أنواع المسرات، وعليه بجمل قوله (تعالىٰ): ﴿**إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون**. . .﴾[1] وأهل النار مشغولون بأنواع النكال، وضرب الوبال في سموم ريح حارة وحميم ماءً حار، وظل من يحموم دخان أسور، فأي فراغ فيه هؤلاء. . .؟ أو هؤلاء، وشتان بين الشغلين. . .! وهذه الدار دار الفراغ لطلاب الآخرة، فليغتنمها العاملون وليس للمسلم فيها شغل عن عمل الآخرة لأنه إن اشتغل بطلب شيء يعود علىٰ أولاده، ويسد فاقته، فهو من أعمال الآخرة وله فيه أجر، وإن اشتغل بدفع ضرر عن نفسه، ونوىٰ به الله كتب له أجر، وإن ترك الدنيا، وتجرد في أعمال الآخرة فلا تدري نفس ماذا أخفىٰ لهم من قرة أعين، فالبدار البدار، والحذار الحذار قبل انقطاع الآجال، وهجوم الأشغال. . .؟

قوله (عليه السلام): «ومن حياتك لو فاتك. . .».

الحياة نقيض الموت، وقد تقدم معناها.

والوفاة هي الموت، وهي مأخوذة من الوفىٰ الذي هو تسليم الحق بكماله. يقال اوفىٰ فلان ما عليه إذا لم ينقص منه فلما كان الموت يستوعب حشاشة النفس، فلا تبقي منها شيئاً سمي ذلك وفاةً. المعنى في ذلك أن الحياة في هذه الدنيا هي مدة التكليف، ولا تكليف بعد الوفاة في الدنيا، فالواجب علىٰ العاقل أن يغتنم أيامها، ويكثر من العمل الصالح فيها، ولا يفرط في طلب الخير ما دام يجد إليه سبيلاً، فهذا يوم الاكتساب، وغداً يوم الحساب، وغداً كائن لا محالة، واليوم بائن لا محالة، فرحم الله امرءاً بادر نفاذ الحياة، واستكثر من الأعمال الصالحات وشمر ذيله للرحيل قبل أن يعجزه الدليل إلىٰ شر طويل. . .

---

(١) سورة يس آية ٥٥.

قوله (عليه السلام): «فإنك لا تدري ما اسمك غداً».

الدرية، والعلم والمعرفة معناها واحد، والإسم هو ما يتميز به المسىٰ عن غيره في الأغلب، وغداً هو يوم الحساب الذي يفرق فيه بين العباد، وجعله غداً ليومنا لأن الدنيا لانقضائها كأنها يوم واحد في التمثيل.

المعنى في ذلك أنه (عليه السلام) نبه بألطف استعارة وأحسن عبارة علىٰ الاستعداد لليوم المشهود الذي تقوم فيه الأشهاد، ويفصل بين العباد، فلا تنقلب فيه الأسماء ولا يتجلى فيه عن الظالمين الظلماء من سمي سعيداً، فهو السعيد أبد الآبدين، ومن سمي شقياً، فهو الشقي دهر الداهرين لا يحول حاله، ولا يتغير مثاله خير خالص من كل شر للفائزين، ونشر مُتَعرٍ من كل خير للعاجزين، فنسأل الله (تعالىٰ) أن يجعلنا، وإياكم ممن عمل لغده، ولم يقتطع بالخذلان عن أمده، والصلاة علىٰ محمد وآله..

الحديث الثاني والعشرون

عن ابن عباس، وقد تقدم الكلام في نسبه وطرف من شرح حالـه، وهو نسيج وحده، وشحاك ضده كم لله من مقـام أفحم فيه القـائلين. . . ! وموقفٍ شفىٰ فيـه السـائلين، فهـو ابن عم رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم)، وناشر علمه، والذي اجتمعت الأمـة علىٰ اختلافهـا علىٰ حبه. قـال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول في بعض خطبه ومواعظه: «أيهـا الناس لا تشغلكم دنياكم عن آخرتكم، ولا تؤثروا أهوائكم علىٰ طاعة ربكم، ولا تجعلوا أيمانكمْ ذريعة إلىٰ معاصيكم، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، ومهدوا لها قبل أن تعذبوا، وتزودوا للرحيل قبل أن تزعجوا، فـإنما هـو موقف عـدل، واقتضـاء حق، وسؤال عن واجب، ولقـد أبلغ في الإعذار من تقـدم بالإنذار. . .».

قد تقدم الكلام في معنىٰ الخطبة والموعظة، والخطبـة أعظم حـالاً من الموعظة لأنها في المقامات الكبار، والحفول العظام، وصاحبها نـاصب نفسه للسامعين علىٰ شيء في أغلب الأحوال من منبر، أو سرير، أو ناقة، أو بعير، والموعظة تكون للواحد والجماعة من أي مكان كان.

أيها الناس: لا تشغلنكم دنياكم عن آخرتكم. . .؟ قد تقدم الكـلام في معنىٰ هذه الألفاظ لغة (أعني الشغل، والدنيا والآخرة). . .

والمعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) خاطب خطاباً عاماً نافعاً تاماً، فقال: «أيها الناس لا تشغلنكم دنياكم»، وهي الدار التي أنتم فيها عابرون عن

آخرتكم التي أنتم إليا صائرون، وأضاف الدنيا إلينا، والآخرة، وإن كان لـه الدنيا والآخرة لكوننا في هذه، ومصيرنا إلىٰ تلك. وهذا أمر ممن يجب اتباعه، والدنيا شغلها عتيد، وشرها شديد، فمن أخذ منها نفسه استخدمته بغير أجرة، ومن كفاها لوجهها، فقد أحكم أمره إنما هو فجرٌ أو بحر ما يكون عذرنا اليوم لأنفسنا، وغداً بين يدي ربنا إذا نوقشنا في السؤال عن واجب الأعمال، فقلنا: شغلتنا دنيانا فقيل لنا: أشغلكم ما يدوم لكم، وتدومون له. . .؟ أم ما تنقلون عنه وينتقل عنكم. . .؟ هلّا جعلتم اهتمامكم بدار آخرتكم التي هي دار قراركم، ومحط أوزاركم، فوافيتموها مستعدين، وبما قدمتم من أفعال الخير مستمدين.

قوله (عليه السلام): «ولا تؤثروا أهوائكم علىٰ طاعة ربكم».

الإيثار: هو التقديم والاختصاص. والأهواء جمع هوى، والهوى هو الغرض الموافق للمحبوب، وسمي هوىٰ لخفته علىٰ القلوب أخذ من الهواء الذي بين السموات، والأرض لخفته، واستمداد الأرواح من صفوته، وفرق بينهما للتمييز بقصر هوىٰ النفس، ومد هواء الحق.

والطاعة نقيض المعصية، وهو الانقياد للآمر.

والرب هو: المالك للتصرف.

المعنى في ذلك: أنه (عليه السلام) نهانا نهياً عاماً أن نؤثر هوانا علىٰ طاعة ربنا. لأن طاعة ربنا سبب نجاتنا، وحياتنا في دار السلامة، والنعمة والخلود والرحمة. واتباع هوىٰ أنفسنا الأمارة بالسوء هو سبب الخسارة والدمار والخلود في النار. قال (سبحانه): ﴿**ونهى النفس عن الهوىٰ فإن الجنة هي المأوىٰ**﴾[1] فعقب نهي النفس عن هواها بوصول الجنة، وسكناها، فيا حبذا ثراها، والكون في ذراها بين قصور، وحور، وكثبان من كافور وعيون تعود، وحدائق تمور، ونور في نور لا ينقلب الهم في قلوب أربابها، ولا يحل البؤس نفوس أصحابها. .

قوله (عليه السلام): «ولا تجعلوا إيمانكم ذريعة إلىٰ معاصيكم». . .

(١) سورة النازعات آية ٤٠.

الأيمان في أصل اللغة هو التصديق، وهو مأخوذ من الأمن الذي هو نقيض الخوف، فالمصدق قد سكنت نفسه من اختلال الكلام، والذريعة ما يتوصل به إلى نيل المراد، وأحسبها مأخوذة من الذراع الذي يتناول به الإنسان غرضه.

والمعصية نقيض الطاعة.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) نهىٰ عن المهلكات، وأمر بالمنجيات، فجزاه الله خير الجزاء، وخصه وأهل بيته بالصلاة فقال (عليه السلام): «لا تجعلوا إيمانكم ذريعة إلىٰ معاصيكم» يقول: «لا توصَّلوا بالدين الذي هو الإيمان إلى معصية الملك المنان كما يفعله كثير من أهل زماننا هذا، فإنهم جعلوا دينهم سبباً لنيل دنياهم، ولم يجعلوا دنياهم طريقاً لآخرتهم»، وفي مثلهم ما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام): عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «يكون في آخر الزمان قوم يأخذون الدنيا بالدين ويلبسون للناس جلود الضأن من اللين. ألسنتهم أحلىٰ من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب». وأقول: صدق (صلوات الله عليه وسلامه) فلقد رأينا هذه الصفة فيهم عياناً، وقتلناها عرفاناً. هذا علىٰ كسر الألف، وأحسب أنه السماع، فأما من فتح الأيمان رجع بذلك إلىٰ جمع يمين، وهي الألِيَّةُ، والقسم، ولما كان الحالف في الغالب يبسط يمينه سميت الأليَّة يميناً باسم الجارحة، فمعناها علىٰ هذا: لا تحلفوا لتصلوا إلىٰ معاصيكم بالفجور بربكم، فإن ذلك من أقوىٰ أسباب الهلاك، وأعظم مواضع الارتباك..

قوله (عليه السلام): «وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»...

المحاسبة المفاعلَة من الحساب، وهو المناقشة، والمقاصصة إسقاط شيء بشيء، أو تعديل شيء بشيء، وأصله من الحسب، والأحساب وهو الكفاية، والاكتفاء. حسبك: أي كفاك، فلما كان من قاصص اكتفىٰ في طلب حقه سمي حساباً...

المعنىٰ في ذلك: أن من حاسب نفسه قبل محاسبة ربه نجا مع الناجين، وفاز مع الفائزين. لأنه إذا حاسب نفسه زاد في الحسنات، ونقص

من السيئات، وأشعر نفسه خوف العدل فأعد جلبابَ الانصاف، فأوفىٰ ما عليه لربه، وخلص من عهدة ما لزمه لخالقه، فجاءه المحاسبون من عند بارئه، وقد أيقن أمره وشرح اليقين صدره، فنطق جريئاً، فكان بالنجاة حرياً وإن غفل عن محاسبة نفسه قبل يوم الحساب تقطعت به الأسباب وعوجل بالعذاب، لأنه قام مقام العدل، والفضل بغير أهبة، فنشبت فيه مخالب الحق لا محالة.

قوله (عليه السلام): «ومهدوا لها قبل أن تعذبوا..».

التمهيد أصله التوطئة، ومنه أخذ مهد المولود، والمهاد ما يفرش للنائم، ولا ينام في الأغلب إلّا علىٰ ما لان وتوطأ والهاء في لها عائدة علىٰ الأنفس، والعذاب هو الألم، والاستخفاف احترازاً من الامتحان، والتأديب، وهو مأخوذ من العذبة وهي الحد، وكان أكثر ما يوصلون الألم به بضرب السيف والسنان والسوط، وما شاء كل ذلك سمي الفعل بآلته عذاباً.

المعنىٰ في هذا: أنه (عليه السلام) أمر أن نمهد لأنفسنا قبل الاضطجاع لنكون قد عملنا فيها بالحزم، والاصطناع، فلم نضع جنوبنا إلّا علىٰ وثير، واحترزنا من كل صغير وكبير، فإن القليل علىٰ المهاد يؤذيك، واليسير يقذيك..

في الرواية «أن عبدالله بن الحسن بن الحسن (عليه السلام-، وكان قدوة. روىٰ أن مالك بن أنس سئل عن السدل قال: فقال: قد رأينا من يعتمد علىٰ فعله. يعني عبدالله بن الحسن، وقيل: أنه جمع خصال الكمال، فكان إذا قيل: مَنْ أصبح الناس...؟ قيل: عبدالله بن الحسن. من أكرم الناس؟ قيل: عبدالله بن الحسن من أعبد الناس...؟ قيل: عبدالله بن الحسن. من أفضل الناس...؟ قيل: عبدالله بن الحسن». وكان كبار الناس وجلتهم لا يعدلون به من أهل بيته أحداً، وفقهاء الناس، وعبادهم لا يعدلون يزيد بن علي من أهل بيت النبي أحداً. قال: دخلت ذات يوم مع المخاطبين، وهو في سجن أبي جعفر قال الراوي: «فدخلنا عليه، وعند رأسه بداد، وعند رجليه بداد، وهو علىٰ مسح، فقال: والله لقد كنت أيام في بيت هند بنت أبي عبيد. يعني امرأته علىٰ خشية الريش، فيكون عليها القذاة فلا تنام عيني، فلأنا علىٰ هذه الحال أكثر نوماً، فإذا كانت القذاة على المهاد تسهر من هذه

صفته في الصلاح، فكيف تنام عين علىٰ كبائر الذنوب التي تكون جمراً كباراً، وشرراً وناراً، وكلاليب حديد، معكفة، وشفاراً مسممة مصففة تمشق بها أجسادهم مشقاً، وتعرق بها لحوم من عظامهم عرقاً. فويل من وقع عليها جنبه، وسيق إليها سربه. . .».

قوله (عليه السلام): «وتزودوا للرحيل قبل أن تزعجوا». .

قد تقدم تفسير الزاد، وهو ما يأخذه المسافر في طريقه.

الرحيل هو المسير، وكان في الأصل لا يسافر الإنسان حتىٰ يرحل متاعه، ونفسه في الأغلب علىٰ الراحلة، فلما كثر استعماله أفاد الانتقال من مكان إلىٰ مكان، وإن عد من الزاد والراحلة قال الشاعر:

وقد يرزق الرزق المقيم بأهله ... ولم يرتحل رحلاً ولا شد أنسعا
ويحرمه من لا يزال ركابه ... علىٰ عجل يهوين في البيد ضلعا

وقال الشمر ذل بن شرنك التغلبي:

رحل الخليط فأدلجوا بسواد ... وأَحَدٌ بينهم علىٰ معياد

والإزعاج هو الاخراج بكرهٍ وشدة. لا يكون إلّا كذلك وأصل الزعج الجذب الشديد.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمرنا أن نتزود للرحيل قبل أن نخرج من الدنيا كرهاً، ولا بد من الخروج، ونعوذ بالله من أن نخرج كارهين، وأن نسكن إلىٰ الدنيا سكون الفارهين، وإنما الزاد لسفر الآخرة هو التقوىٰ الخالصة من الشوائب المقصود بها الله سبحانه من كل جانب فإن كل زاد سواها لا يسد خلة، ولا يشفي غُلة، وقد قال الحكيم (سبحانه): ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوىٰ﴾[1] فأمر بالتزود ودل علىٰ الزاد ما هو، فإذا كان وقت الانزعاج، وقد ملأنا مزاودنا زاداً، وجمعنا لسفرنا عتاداً لم نكترث بالإزعاج، وقلنا وجهك أيها المزعج، وما شئت من الفجاج، وقد تأهبنا للتأويب، والادلاج فخرجنا محبورين، وانقلبنا إلىٰ أهلنا في الآخرة

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٧.

مسرورين. فيا لها منة ما أجلها، ونعمة ما أظلها. . . ! وإن غفلنا عن التزود للرحيل، وأتانا المزعج والدليل ضاقت علينا الأرض برحبها، وبعد المجتاز من قربها، وسألنا الإمهال فلا امهال، فنعوذ بالله أن نكون من أولئك، فنخرج بغير عدة، فينهكنا القواء، والشدة، والخواء، والوقدة، وما بعد ذلك أدهىٰ وأمر. .

قوله (عليه السلام): «فإنما هو موقف عدل، واقتضاء حق، وسؤال عن واجب».

الموقف: هو الذي يقف فيه الناس، والوقوف هو السكون، فلما كان من وصله سكن من حركة السير سمي موقفاً.

والعدل هو: إيفاء الحق، واستيفاؤه والسؤال نقيض الجواب. والواجب الواقع اللازم. .

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) بين أن الموقف الذي ينتهي إليه موقف عدل لا جور فيه، ولا ظلم فلنحفظ نفوسنا عن تبعات الحياة، وأعمال البغاة، واستحقار الذنوب واستطهار الحوب، وليكن الحق الذي علينا لربنا ناجزاً. ان سئلنا عنه أبرزناه، وإن طولبنا به أنجزناه، فلا يجد إلينا العدل (سبحانه) والحال هذه طريقاً، ونقضي ما علينا له من الحق علىٰ أوفاه لنفوز برضاه، ونرد الجواب عن السؤال عن الواجب بأنا قد أوفيناه، فننجو مع النجاة. .

وقوله (عليه السلام): «ولقد أبلغ في الأعذار من تقدم في الإنذار» أبلغ وبالغ إذا انتهى إلىٰ الغاية، وأصل البلاغ الانتهاء والوصول والأعذار ما يصير به الإنسان معذوراً، وهو استفراغ الجهد والنصيحة. يقال: أعذر إليه إذا نصحه ، وعذر إذا أوهم النصيحة من غير حقيقة.

والتقدم هو السبق. والإنذار الإشعار بهجوم الخوف، والمخوف فلا يقف له إلاّ من نبذ الأنذار، أو وطن نفسه علىٰ ترك القرار.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) بين أن الحجة قد انتهىٰ وجوبها بإيصال الإنذار إلينا، والفريضة قد سقطت منه، ووجبت علينا، وأنه قد أعذر

إلينا بتبيين الدلالة، ونفى بتقديم الانذار ظن الجهالة، فصار المأخوذ منا غير مغرور، والمعاقب غير معذور، وقد أمرنا النصيح العارف المشفق بتحصيل الزاد، فما أثمرنا، وزجرنا عن الاغترار والغفلة، فما ازدجرنا، وحذرنا مواقعة المخوف فما حذرنا، وتقدم بالأنذار فما نذرنا، فهل بقيت عليه لنا حجة ندلي بها، أو علة نعتمد عليها. هلك الهالكون عن بينة، وأوقظ النائمون عن النوم والسّنة، فنسأل الله (تعالىٰ) توفيقاً يأخذ قلوبنا بأزمتها إلىٰ ما يريد، ويقرب لنامن طاعة كل بعيد، ويهون كل شديد والصلاة علىٰ محمد وآله. . .

الحديث الثالث والعشرون

عن أبي سعيد الخدري قد تقدم الكلام في نسبه وشرح طرف من حاله قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول عند منصرفه: «من أحد والناس محدقون به، وقد أسند إلىٰ طلحة، وهو: طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن لؤي بن غالب..».

أحد: أشهر لقية كانت بين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين مشركي قريش، وفيه وقع التمحيص علىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأصحابه، وقتل فيه الأخيار والأفاضل، وروي عن علي (عليه السلام) أنه قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا تقف معهم موقفاً أغيظ لنا من هذا»، فكان كما قال. وفيه قُتِلَ بنوا عبدالدار علىٰ لواء قريش، وهم حملته في الجاهلية، ولم يكن مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم إلاّ مصعب بن عمير (رضي الله عنه) فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يعطي اللواء مصعباً في كل موقف إلىٰ أن قتل يوم أحد، فأعطاه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علي بن أبي طالب (عليه السلام) فكان صاحبه في كل زحف، وهو حامله في الآخرة بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأحداق به هو الإحاطة، وهو مأخوذ من إحاطة العين لإحاطتها، وإنما أتىٰ طلحة هاهنا طلحة بن عبيدالله (رحمة الله عليه) وهو أبلىٰ يوم أحد بلاءً عظيماً وقطعت أصبعه، ففي الحديث سبقته إلىٰ الجنة، وفي الحديث؛ «لولا أن طلحة قال: «حِس» أي «آه» لرُفِع كما رفع

عيسىٰ بن مريم وفي أخرىٰ لطار مع الملائكة وعلىٰ وسماك في آخرين، وكان الشجاع من وقف إزاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأما علي (عليه السلام) وهو السابق في كل مقام، والصابر في كل زحام، وأصيب يوم أحد ست عشرة ضربة كل واحدة منها توصله الأرض وما حال، وما تحلحل حتىٰ عجب له أهل السماء فوق عجب أهل الأرض. . . ! وسمع الهاتف:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي. . .

وقال جبرائيل (عليه السلام): «يا محمد هذه والله المواساة»، فقال (عليه السلام): «ومن أحق بها منه، ولحمه من لحمي، ودمه من دمي فهو أخي، وابن عمي»، وليس كشف الأخبار من غرضنا، وإنما تعرض الكلمة فنذكر ما نرجوا إن شاء الله أن تتعلق به الفائدة وكان عدة المسلمين يومئذ سبع مائة، وعدة المشركين ثلاثة آلاف فيهم مائتا فرس، ولولا مخالفة المسلمين لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في إخلالهم بموضعهم الذي تركهم فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) طلباً للغنائم والدنيا كما قال الله (تعالىٰ) حاكياً عنهم: ﴿منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة﴾(١) لكانت اليد لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والدَّيرة علىٰ المشركين. . . أيها الناس اقبلوا على ما كلفتموه من إصلاح آخرتكم وأعرضوا عمّا ضمن لكم من أمر دنياكم، ولا تستعملوا جوارح غذيت بنعمته في التعرض لسخطه بمعصيته، واجعلوا شغلكم بالتماس مغفرته، واصرفوا هممكم إلىٰ التقرب إليه بطاعته، انه من بدء بنصيبه من الدنيا فاته نصيبه من الآخرة، ولم يدرك منها ما يريد، ومن بدء بنصيبه من الآخرة وصل إليه نصيبه من الدنيا، وأدرك من الآخرة ما يريد. . .

الإقبال نقيض الإدبار، والإعراض.

والتكليف: هو تعريف العاقل وجوب بعض الأفعال عليه، وقبح بعضها منه مع مشقة تلحقه في الفعل، والترك، والإصلاح نقيض الإفساد، والآخرة قد تقدم تفسير لفظها.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٢.

والضمانة، والكفالة، والزعامة معناها واحد: وهي إلزام النفس للغير أمراً من الأمور.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) لما انصرف من ذلك المقام الهائل، بين للمسلمين أن الواجب الاهتمام بأمر الآخرة دون أمر الدنيا، وان أمر الدنيا حقير خيرها، وشرها، ونفعها وضرها، أعظم مشقة فيها الموت، فهو ألم مناعة أو الفقر فهو حاجة مخصوصة إلىٰ أمر دون أمر، لأن الفقر العام نعوذ بالله منه، هو فقر الآخرة إذ هو فقر إلىٰ كل شيء، فأما فقر الدنيا فمعه الجوارح التي قيمتها أجل من الدنيا، وما فيها، والعافية التي لا يساويها شيء، والماء الذي هو أعذب مشروب جعل الله الخلق فيه شرعاً واحداً، والهواء الذي هو مادة الأرواح لا يمنع من أحد، والظل البارد، والنوم في خلال ذلك لا ينقطع من رحمة الله، فالواجب والحال هذه: الإقبال، والاشتغال بما كُلفنا أن نفعله أو نتركه من أمر الآخرة الذي بالإقبال عليه يفوز الفائزون فوزاً عظيماً، ويصلىٰ المعرضون عنه عذاباً أليماً. فأما أمر الدنيا، فقد ضمن لنا بما علم الله (سبحانه) أن مصلحتنا متعلقة به، إذ هو سبحانه العالم لذاته، فمن علم أن مصلحته في الغنىٰ أغناه، ومن علمها في الفقر أفقره، ومن علمها في الصحة أصحه، ومن علمها في السقم أسقمه فأمر دنيانا إذا ضمن لنا به ما يوجب الاشتغال به، وأمر أخرانا إذا كلفناه ما وجه الإعراض عنه، فإن أعرضنا عما كلفناه من أمر الآخرة، وأقبلنا علىٰ ما ضمن لنا من أمر الدنيا كنا قد عملنا بعكس الواجب علينا، وإن أقبلنا علىٰ ما كلفنا من أمر الآخرة، وأعرضا عما ضمن لنا من أمر الدنيا كنا قد أدينا ما لله (سبحانه) من الفرض عندنا.

قوله (عليه السلام): «ولا تستعملوا جوارح غذيت بنعمته في التعرض لسخطه بمعصيته، ،».

الاستعمال نقيض الاهمال، والجوارح هي الأدوات، وأصل الجرح الكسب، فلما كانت هذه الأطراف تكسب لنا الخير والشر سميت جوارح، ومنه جوارح الطير أي كواسبه.

والغذاء هو المادة، والمتاع، والنعمة هي المنفعة الحسنة التي قصد بها صاحبها وجه الإحسان إلىٰ الغير.

والتعرض هو التسبب للأمر بوجه من الوجوه، وهو دون الاعتراض، كان هذا في جنب، وكان ذلك في وجه الأمر والسخط نقيض الرضا، وأصله الغضب، والمعصية نقيض الطاعة.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) نهانا عن استعمال هذه الآلات التي هي الأيدي، والأرجل، والأسماع، والأبصار، والقلوب، والجلود، في شيء مما يسخط ربنا. أي: يغضب خالقنا، فإنها من خلقه غذيت بنعمته، معناه أمدت، وأنميت بنعمته برزقه، وإحسانه، وهل يكون رحمك الله أقل حياء من رجل أعطاه بعض الناس آلة يصلح بها زرعه، ويعود بنفعها علىٰ نفسه وولده، فعمد ذلك الرجل إلىٰ تلك الآلة، فنقب بها دار المعطي ليسرق متاعه، أو يهلك شيئاً من بهائمه...؟ فإن هذا يتناهىٰ في القبح عند العقلاء فإن الآلة لو كانت من غيره، لكان الفعل قبيحاً، فهو أهون، فتفكر أيها العاقل في أمرك، وانظر إلىٰ هذه الجوارح التي هي من ربك، وغذيت بنعمة خالقك، ما عذرك ان استعملتها في معصيته عند لقاءه...؟ وبأي وجه تلقاه..؟ ما أجراك علىٰ ما يجر عليك الوبال، وأخزاك بما يضرك عند السؤال...؟

قوله (عليه السلام): «واجعلوا شغلكم بالتماس مغفرته...».

جعل، وطفق، وصار: معناها متقارب، وهي تصيير الفعل علىٰ وجه مراد، وقد تقدم معنىٰ الشغل.

والالتماس طلب الشيء، وأصله اللمس، لما كان الإنسان يطلب الشيء بيده لمساً عند الاستقصاء.

والمغفرة: مفعلة من الغفر، والتغفير، وهو التغطية، ولما كان رضاه يغطي ذنوب العبد سمي غفراناً، وغفراً ومغفرة، ومنه أخذ المغفر لتغطية الرأس.

المعنىٰ: أنه (عليه السلام) أمرنا أن نجعل شغلنا مدة بقائنا في دار الدنيا بالتماس مغفرته أي: بطلب مغفرته، ولا يكبر ذلك في أمرها إذ بها النجاة التامة، والسلامة الكاملة، والفوز الأكبر فحق لنا أن نلتمسها بذهاب أموالنا جملة، وأولادنا كافة، وجوارحنا الثمينة، ونفوسنا المكينة، وأن نركب

حد السيوف، ونخوض بحار الحتوف، ونضحي الهواجر، ونصل الغشايا بالبواكر نموت في حقه لنحيا، ونظماً لنروىٰ، ونجوع لنشبع، ونألم لنسلم، ونتحسر لنغنم، وهل خسارة منقطعة يعتديها في جنب حصول ربح دائم، وملك سالم. . .؟ وأي مشقة في ألم ساعة يوجب نعيم الأبد. . .؟

قوله (عليه السلام): «واصرفوا هممكم إلىٰ التقرب إليه بطاعته».

الصرف: هو تحريف الشيء عن سننه الذي كان متوجهاً إليه. هذا أصله. والهمم جمع همة، والهمة هي العزيمة علىٰ فعل أمر يصعب فعله، ولا يتقن حقيقة عاقبته، والتقرب هو طلب القرب بأنواع ما يحبب عند المتقرب إليه، وقد تقدم الكلام في معنىٰ الطاعة.

المعنىٰ أنه (عليه السلام: وهو معلم الخير، وطبيب الدين أمرنا بصرف هممنا إلىٰ التقرب إلى الله (سبحانه)، وهو التحبب إليه بطاعته لأن العبد ما تحبب إلىٰ مولاه بمثل امتثال مراده في فعل ما أمره به، وترك ما نهاه عنه.

قوله (عليه السلام): «انه من بديء بنصيبه من الدنيا فاته نصيبه من الآخرة، ولم يدرك منها ما يريد، ومن بدء بنصيبه من الآخرة وصل إليه نصيبه من الدنيا، وأدرك من الآخرة ما يريد».

بدء نقيض أعاد وهو أصل ثنىٰ، والنصيب، والحظ، والحق، والحصة، والسهمة: معناها واحد وهو: ما يحصل للإنسان عن قسمة أو ما يجري مجراها، ومعنى لفظ الدنيا قد تقدم، فإنه سبقه وضاع عليه. أصل الفوت السبق، والإدراك هو اللحاق هاهنا ويريد نقيض يكره.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبرنا، وهو الصادق في خبره إن المشتغل بطلب نصيبه من الدنيا مفوت علىٰ نفسه نصيبه في الآخرة لأن ما به عبد إلّا وله في الدنيا نصيب مضمون، وفي الآخرة نصيب مشروط، فمن اشتغل بتحصيل المضمون كان عابثاً عند العقلاء، لأنه اشتغل بتحصيل ما هو في حكم الحاصل، وأوصل ما هو بغير عناية وأصل، فلم يشتغل والحال هذه بطائل، ولأن من بدء بنصيبه من الآخرة في الدنيا وصل إليه إن كان من الموحدين، أو في الآخرة إن كان من الملحدين، لأن العاقل إن كان من

المصدقين بالآخرة، فإنه يريد المغفرة، ودخول الجنة مع المعاصي، وذلك لا يصح، وإن كان ملحداً، فعند انكشاف الغطاء يريد المصير إلىٰ الغير الدائم، وينفي عن الشر الملازم، فلا يدرك والحال هذه مراده. ومن بدء بنصيبه من الآخرة معناه: بطلب نصيبه في الآخرة، وطلبه لا يكون إلاّ بفعل الواجبات، وترك المقبحات، وصل إليه نصيبه من الدنيا إذ هو مضمون له عند الحكيم سبحانه لإبلاغ الحجة علىٰ العباد، وإزاحة علل أهل العناد، وأدرك من الآخرة ما يريد من الثواب، المؤبد، والنعيم المردد، فنسأل الله (تعالىٰ) أن يجعلنا ممن بدء بنصيبه من الآخرة ففاز بقدح القامرين، وبقي له لسان صدق في الآخرين، والصلاة علىٰ محمد وآله.

الحديث الرابع والعشرون

عن أبي هريرة، وقد تقدم الكلام في نسبه، وذكر طرف من حاله قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إياكم وفضول المطعم، فإنها تسم القلب بالقسوة، وتبطىء بالجوارح عن الطاعة، وتصم الهمم عن سماع الموعظة، وإياكم وفضول النظر، فإنه ينذر الهوىٰ، ويولد الغفلة، وإياكم واستشعار الطمع، فإنه يشرب القلب شدة الحرص، ويختم علىٰ القلوب بطابع حب الدنيا، وهو مفتاح كل سيئة، وسبب إحباط كل حسنة». .

الفضول هي: الزوائد، وسميت درع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات الفضول لأنها كانت واسعة جهدها.

المطعم: ما يتطعمه الإنسان، وهو المأكول والمشروب.

والوسم: أصله علامة بالميسم، يجعل في الأنعام تميز بها الأملاك.

والقلب معروف، وهو محل العقل، ومنبع الروح.

والقسوة: هي الصلابة والشدة. .

والإبطاء نقيض الإسراع، والجوارح هي الآلات، وقد تقدم الكلام في معناها، والطاعة نقيض المعصية.

والصمم: آفة تمنع آلة السمع. من الإدراك، وأصله الختم والصلابة. يقال حجر أصم، أي صليب.

والهمم: جمع همة، وهذا اللفظ استعارة، إذ الهمم مما لا يسمع

فيقال: صم، والسماع إدراك المسموع، وقد يجعل المسموع نفسه للمبالغة. قال الشاعر:

وسماع يأذَنُ الشيخ له هزج يكسره غضروف الأذن

والموعظة قد تقدم الكلام فيها. .

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) نهىٰ بلفظ الإغراء عن فضول المطعم وهو كثرة المأكل والمشرب، وأخبر، وهو لا يهتم في خبره أنها تسم القلب بالقسوة، وذلك معروف بالمشاهدة، وأكثر الناس أكلاً أكثرهم نوماً، وغفلة، وما خير من قسىٰ قلبه في دنياه وآخرته. ألا ترىٰ أنه ينسىٰ المعاد، وهوله، والقبر وضيقه، والسؤال وشدته، والحساب ودقائقه، والقبر ووحشته، فلا يعد لشيء من ذلك أهبته، فيفجأه، الأمر متيسر الحال، فيؤل شر مآل، وأما بطؤها بالجوارح عن الطاعة، فمما لا شك فيه، وعلىٰ كل حال البطيئة مذمومة عند العقلاء مِن الجاهلية والإسلام، ولقد كانوا يمدحون بالجوع، ويذمون بالشبع. قال الحطيئة في الزبرقان من بدر:

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وقال أعشى بأهله يمدح المنتشر القيسي، وقتل فقال:

مهفهف أهضم الكشحين منخرق عنه القميص لسير الليل محتقر
لا يغمر الساق من أين ولا وصب ولا يعض علىٰ شرسوفه الصفر

يقول: ضامر البطن لا تتألم من الجوع، وقال بعضهم يفتخر بصبره:

أقسم جسمي في حُسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

فأما الإسلام فلا كلام قال الله (تعالىٰ): ﴿ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[1] معناه جوع، وضيق حال، وقال: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾[2]، وقال (تعالىٰ): ﴿ويطعمون الطعام علىٰ حبه مسكيناً ويتيماً

---

(١) سورة الحشر آية ٩.
(٢) سورة البقرة آية ١٥٥.

وأسيراً. . .﴾[1] نزلت في علي (عليه السلام)، وأهل بيته، ولولا جوعهم ما كان الطعام عندهم محبوباً، وفي الحديث أن علياً (عليه السلام): «كان يفطر في شهر رمضان زاده الله-شرفاً. . . الذي استشهد فيه ليلة عند الحسن بن علي، وليلة عند الحسين بن علي (عليهما السلام)، وليلة عند عبدالله بن جعفر، وليلة عند عبدالله بن عباس، فلا يزيد علىٰ ثلاث لقم فقيل له في ذلك، فقال (عليه السلام): أحب أن ألقىٰ الله خميصاً»، وعن بعض الصالحين: والله إني لأكل الأكلة، فأوَدّ أنها في بطني أجرة، ولو شرحنا الأشهر من ذلك لطال الشرح، وخرجنا إلىٰ الإسهاب.

فأما صمم الهمم عن سماع الموعظة فأي بلية أعظم منها، ولهذا حكىٰ الله سبحانه عن المستكبرين: ﴿سواء علينا أوَعظت أم لم تكن من الواعظين﴾[2] وهل يَردُ العباد إلىٰ طريق الرشاد إلا المواعظ النافعة، والذكرىٰ الواقعة. . .؟ فكم لها من نعيش بعد كمال العثرة، ومغاث عند انقطاع النصرة، ولا أحسن، ولا أشفىٰ من مواعد رب العالمين، فتأملها ترىٰ العجيب.

في الرواية: «أن الفضيل بن عياض (رحمه الله) كان في أوله حارباً قاطعاً للسبيل، فبينا هو علىٰ تلك الحال في مفازة مرصداً لمارة الطريق إذ هو بقوم مجتازين يحض بعضهم بعضاً علىٰ النجا، وهم يقولون: لا يفجأكم الفضيل، فوفق لرشده، فقال في نفسه: أنا مخلوق ويخافني الخلق هذا الخوف العظيم، ولا أخاف الله (تعالىٰ)، فبدىٰ لهم، وهم لا يعرفونه، وسلم عليهم، وقال: علىٰ رسلكم هونوا. . .؟ قالوا: إنا نخاف الفضيل. . .! قال: أنا جار لكم منه قالوا: أو يكون ذلك. . .؟ قال: نعم، فأقاموا واستراحوا وخدمهم بنفسه، فلما رجع من بعض خدمهم إذ بقارٍ منهم يقرأ: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين آتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾[3]

---

(١) سورة الإنسان آية ٨.

(٢) سورة الشعراء آية ١٣٦.

(٣) سورة الحديد آية ١٦.

فقال: بلىٰ والله قد آن، بلىٰ والله قد آن ثم أعلن بالْبكاء، وعرفهم نفسه، وأظهر التوبة، فكان من أمره ما كان...».

قوله (عليه السلام): «وإياكم وفضول النظر، فإنه يبذر الهوىٰ ويولد الغفلة..».

النظر هاهنا هو: تقليب الحدقة السليمة نحو المرئي التماساً لرؤيته، والبذر طرح الحب في الطين لينبت، ويثمر، وأصل البذر الطرح، ولهذا ذم الله المبذرين، كأنهم ألقوا مالهم في غير موضعه والتوليد: حصول الشيء من الشيء بواسطته، والغفلة من أنواع السهو، وأصله النسيان، ومنه قولهم بعير غفل للذي لا آثار فيه، كأنه نُسي فلم يوسم، وجمعها اغفال.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) نهىٰ عن فضول النظر والمراد بذلك النظر إلىٰ ما لا يجوز النظر إليه من النساء المحرمات والأصل في ذلك أن كل نظر لشهوة، فهو حرام سواء كان إلىٰ المحارم، أو إلىٰ غيرهن ما خلا الزوجات، والمملوكات، وإنّما كان ذلك لأن ما قرب إلىٰ القبيح، فهو قبيح، والنظر سهام مسمومة تقتل من استعملها ديناً، ودنيا، أما الدنيا فتسقط المروّة، وتُقلّ الهيبة، وأما الآخرة فهي أسباب النهور في هوىٰ الهلاك وأقوىٰ حبائل الشيطان، وشباك الضلال. قال الشاعر:

فزيغ قلبي وكانت نظرة عرضت حيناً وتوفيق أقدار لأقدار

وقال آخر:

أليس قليلاً نظرة إن نظرتها إليك وكلاّ ليس منك قليل

فجعل النظر من أنواع الاستمتاع، ولذلك استكثر قليله، وقال آخر:

جنيَّة ولها جنٌّ يعلمها رمي القلوب بقوس مالها وترُ
لمّا رمت مقلتي قالتْ لجارتها إني قتلتُ قتيلاً ماله خطرُ
قتلتُ شاعرَ هذا الحي من مضرٍ والله لا رضيَتْ مني بذا مضرُ

فقد رأيت كيف جعل النظر سهاماً، وجعله قاتلاً، لولا بلوغه؛ في هذا الأمر، فإذا أعلمت نزوله هذه المنزلة لزمك الاحتراز منه لكونه مؤدياً إلىٰ التلف العاجل والآجل، ولولا أنّا في معرض الاختصار لسردنا لك في هذا

الشأن طرفاً من الأخبار، والآثار التي نعرفك إن أصل كثير من الفتنة ما كان إلّا النظر، فأي بذر للهوىٰ أعظم منه؟ إنما هو بذر لا يختلف في مجرىٰ العادة، بل يهيج، ويكثر شطاه، ويقوم علىٰ سوقه، ويخرج سنبل الشهوة يانعاً متراكباً، فلا يمكن كتمانه، ولا يندحر شيطانه إلا بذكر المعاد، والوقوف بين يدي رب العباد، وبهتةُ السؤال، وأقرب من ذلك منالاً، وأوضح مثالاً: إنه إذا علم أن الله (سبحانه) يراه، وينظر إليه في جميع حالاته فلا تستره منه الحجب، ولا تمنعه من رؤيته الظلمات والأستار في ليل ولا نهار، فأي قلب يتعمَّدُ به مجاهرته بالعصيان، والحال هذه. . .؟ فيا أقل الخلق حياءً وحشمة، وأقصرهم في الخير همة ما قولك لو أن عبدك الذي اشتريت بمالك، وصرفته في أضعف أشغالك قام علىٰ رأسك أنت تجترئ علىٰ مشافهته بشيء من القبائح، أو تجابهه بشيء من الفواحش. . .؟ فما ظنك بملك الملوك، وجبار الجبابرة، الذي كل كبير إلىٰ جنبه صغير، وهو مع ذلك الذي خلقك وخلق لك، وخولك وموَّلك وأغناك وأقناك وعافاك وأحياك، وحاجتك إليه في كل وقت متجددة. . .؟ وقد علمت أن فعلك يغضبه، فخذ في هذا الشأن، أو دع؟ عصمنا الله بأوثق العصم، ووفقنا لحفظ النفوس من مورثات الندم. . .

وأما توليده الغفلة، فأي غفلة أعظم من هذا ينسى الإنسان نفسه، وينسى ربه، وينسى نعمته، وينسى قدرته عليه، وينسى عقوبته، وينسى رحمته لمن أطاعه، وهذه أمور كبار، وخطوب عظام لا ينساها إلّا أغفل الغافلين، وأجهل الجاهلين. . .

قوله (عليه السلام): «وإياكم واستشعار الطمع، فإنه يشرب القلب شدة الحرص، ويختم علىٰ القلوب بطابع حب الدنيا. . .»

الاستشعار: هو أن تجعل ثوباً يلي جسدك، يسمونه الشعار، والدثار فوقه.

وفي الرواية: «أن مروان قال لمعاوية (لعنه الله): جعلت عمرو بن العاص الشعار دون الدثار؟ قال له معاوية (لعنه الله) فأنت نفسي دون الشعار». وسمي شعاراً لأنه يُصالي شعر الجسد، والطمع هو: حرص متجاوز، وطماعة في النفس، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله

وسلم): «بئس العبد: عبدٌ له طمع يصله». وقال الشاعر:

طمعت بليلىٰ أن تربع وإنّما تقطع أعناق الرجال المطامعُ

والأشراب هو: السقي، وشدة الحرص زيادته، وفورانه.

الحرص: المبالغة في الطلب، وهو من الأدلة علىٰ الطمع.

والختم: معروف، وأصله الخاتم، وذلك أن المال إذا ترك في الكيس، أو الكتاب ترك عليه الشمع طبع الملك، أو غيره بخاتمة علىٰ ذلك علامة لحفظه، ومنعاً من فضه، وكان لحب الدنيا خاتماً مخصوصاً يعرفه الجبار سبحانه، ومن عرفه من ملائكته، فإذا وضحت تلك العلامة للملائكة علموا أن ذلك المطبوع علىٰ قلبه قد صار من أحباب الدنيا الهالكين، والطامع هو: الشيء الذي يؤثر في غيره أثراً بائناً، ومنه سُمي طابع الدرهم، والدينار لما كان يؤثر فيهما...

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) نهىٰ عن أن يُجعل الطمع شعاراً، وبين أن الشعار يؤدي إلىٰ ما ذكر النبي المختار (صلى الله عليه وعلىٰ آله الأخيار) وأنه يشرب القلب شدة الحرص، وشدة الحرص إذا أشربها قلب العبد كانت أكبر شاغلاً له عن عمل الآخرة، لأنه لا ينتهي إلىٰ مطلب في الدنيا إلّا ولاح لعينه آخر حتىٰ يوافيه الموت، فيخسر الدنيا والآخرة ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾[1]، والختم علىٰ القلوب بطابع حب الدنيا يكون علامة في قلوب أهل الطمع لامحة، وفتنة سارحة ورائحة، ويكون العبد في حكم من وسم بميسم الشقاوة نعوذ بالله منه، فكانت نصيبه، وخطئه وأوبق نفسه من رحمة خالقه، فما أشره من مستشعر، وأخبثه من متجر...؟ وإنما الشعار المحمود استشعار خوف الله (سبحانه) الذي يبعث علىٰ أعمال الخير، فيبلغ العبد به مبالغ الرحمة، وينزل منازل الكرامة، فيكتب في زمرة أهل النجاة، والحياة..

قوله (عليه السلام): «وهو مفتاح كل سيئة، وسبب إحباط كل حسنة...».

(١) سورة الزمر آية ١٥.

المفتاح هو: الآلة التي تفتح بها الأغلاق، وهو معروف وهو الاقليد وجمعه أقاليد، وجمع مفتاح، مفاتيح، ومفاتح، والسيئة ما يسوء الإنسان مشاهدته أوذكره، مأخوذ من السوء وأصله البرص، وكان من أكره علة عندهم، فسموا به القبائح جملة، وهي نقيض الحسنة، والسيئة ما يستقبح نظرها، ويسوء ذكرها. قال الشاعر:

ولقد نظرتك في النساء فسؤتني وأبا بنيك فساني في المجلس

والحسنة: ما يستحسن نظرها، ويسر ذكرها، وقد قيد قوله (تعالىٰ): ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾[1] أن حسنة الدنيا الزوجة الصالحة، وما ذلك عندي ببعيد.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) وهو أخبر الخابرين، وأنصح الماضين والغابرين، أخبر أن الطمع مفتاح كل خطيئة يهم بها ابن آدم، ويكون بابها مغلقاً حتى يأتي بمفتاح الطمع ثم يعالجها به، فيلج لا محالة علىٰ السيئة بينها، فيواقعها فيكون من المسيئين، فإذا واقعها، وكان من أهلها حبطت كل حسنة يعملها لارتكابه الحوب الكبير، والخطأ الشهير، فما أنت أيها المسكين واستشعار أمر هذه صفته، ويؤدي مع ذلك إلى إحباط حسناتك التي هي عتادك في الشدائد، وعونك علىٰ الأوابد، فانظر إلىٰ هذا الشأن، واحزم منه أشد الحزم إن كنت تنتفع بالفهم جعلنا الله وإياكم من الناظرين بعين المعرفة، والسالمين من الإنصاف بهذه الصفة..

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠١.

الحديث الخامس والعشرون

عن عبدالله بن عمر، وقد تقدم الكلام في نسب ابن عمر وطريقته قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «أيها الناس إنما هو خير يرجا، أو شر يتقا، وباطل عرف فاجتنب، وحق يتقّن فطلب، وآخرة أطل اقبالها فَسُعِيَ لها، ودنيا أزف نفاذها فأعرض عنها، وكيف يعمل للآخرة من لا تنقطع عن الدنيا رغبته، ولا تنقضي فيها شهوته؟ إن العجب كل العجب لمن صدّق بدار البقاء، وهو يسعىٰ بدار الفناء، وعرف أن رضى الله تعالى في طاعته وهو يسعىٰ في مخالفته. . . !».

الخير: نقيض الشر، وهو الصلاح والسلامة.

والرجا: هو توقع وصول الخير إلىٰ الراجي. . .

والشر: هو ما تنفر عنه النفس، وسواء كان حسناً أو قبيحاً. .

والإتقاء هو: الاحتراز من مواقعة الشر بساتر أو حاجز.

المعنىٰ في ذلك: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) بين أن الذي ينبغي أن تشتغل به العباد رجاء خير بتهيئة أسبابه وهي الأعمال الصالحة أو اتقاء شر بما يدفع به مثله من الحسنات الواقعة، فأما رجاء العبد للخير، وهو يعمل ما يوجب الشر، فذلك رجاء فاسد، وأمل مديد، وضلال بعيد، وكذلك إذا أتقىٰ الشر، وهو يسعىٰ في تقوية أسبابه، فقد أساء الاختيار لنفسه، وطلب الشيء في غير مظنته، فمن أولىٰ والحال هذه منه بالانتزاح من الخير، ومواقعة الشر. . .؟

قوله (عليه السلام): «وباطل عرف فاجتنب، وحق يُتقّن فطلب. . .».

الباطل هو الأمر الذاهب الذي لا حقيقة لهُ في الأصل، فلما كانَ الباطل يتلاشىٰ، ويذهب ويزول أهله سمي باطلاً.

والمعرفة نقيض الإنكار، والاجتناب الاعتزال، وهو مأخوذ من الميل، ومنه جنب الإنسان شقه.

والحق هو الثابت الدائم الصحيح. يقول قائلهم: أحقاً ما تقول؟ يريد أصحيح ما تقول، واليقين نقيض الشك.

والطلب هو البحث عن الشيء، والارتياد له.

المعنىٰ في ذلك: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) بين أن مبنىٰ الأمر كله علىٰ هذه الوجوه التي يذكرها (عليه السلام) من اجتناب الباطل، وطلب الحق، ولا شك في ذلك لأن من اجتنب الباطل فاز بفضيلة الاحتراز من ورط الهلاك ونجا من مواقعة الشباك، ولكن قد رأيت أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر أن يكون ذلك عن معرفة في الوجهين كليهما لأنه قال: «باطل عرف فاجتنب، وحق تيقن فطلب، فأمر بالمعرفة، واليقين في اجتناب الباطل، وطلب الحق» وذلك لا يكون إلاّ بالعلم، لأن المعرفة، العلم واليقين، نهايته فلا تقع النجاة، والحال هذه ما لم يكن الإنسان عالماً أو متعلماً، فإن كان عالماً تيقن وعرف بعلمه، وإن كان متعلماً فهو يأخذ العلم عمن تسكن إلىٰ معرفته نفسه، فكأنه عرف وتيقن بواسطة، وإذا كان بغير هذه الصفة لم يمتنع أن يتجنب الحق بجهله، ويظن أنه باطل، ويطلب الباطل بجهله، ويظنه حقاً، فيتقي ما تجب مواقعته، ويواقع ما يجب الاحتراز منه، فنعوذ بالله من الجهل، ومثال هذا فعل قوم من جهال الشيعة نزهوا الباري بزعمهم عن فعله، وأضافوا إليه فعل عبيده. . .

قوله (عليه السلام): «وآخرة أطل اقبالها فسُعي لها سعيها، ودنيا أزف نفادها فأعرض عنها. . .».

وقد تقدم الكلام في معنى الآخرة، والاطلال أخص من الإظْلال: أطل إذا أشرف، وأظل إذا سامت بالرأس من جهة العلو، والسعي معروف، وله نظائر، وقد تقدم الكلام أيضاً في معنىٰ الدنيا.

أزف بمعنىٰ قرب، وكذلك أفد، وزلف، ودنىٰ.

والنفاد هو النجاح، والذهاب، والإعراض نقيض الإقبال.

المعنىٰ في ذلك: أن الآخرة لقربها منا، وقربنا منها في حكم الشيء المظل علينا المحيط بنا، فنسأل الله (تعالىٰ) الاستعداد المخلص، وحق لمثل الآخرة أنْ يسعىٰ لها إنما هو سعي إلىٰ نعيم لا يبيد ولا ينفد، وسعي من شر لا ينقضي له أمد ولا ينقطع له مددٌ، وهذان أمران يجب أن نشمر للسعي لأحدهما ومن أحدهما الأزر، ويجتهد في الحضر، فقد نصحت النذر، ونطقت الزبر أن لا نجاة من هذا الشر، ولا وصول إلىٰ هذا الخير إلّا بجد، واجتهاد وعزم، وقد علمنا شدة سعينا لتحصيل نفع الدنيا الفاني، وسعينا من شرها الزائل الماضي، وإذا علمنا أن هذه الدنيا قد أزف نفادها. وحان حصادها، لزمنا بضرورة العقل الإعراض عنها، إذ الاقبال عن أمر زائل متقضي ذاهب نافد باطل، تأباه العقول الأبية، وتنفر عنه الهمم السنية، ولا شك أن نفاد الدنيا قد أزف، ومكرها قد عُرف، ولم لا يكون ذلك والله عز من قائل يقول: «فقد جاء أشراطُها»، وفي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «أنا والساعة كفرسي رهان»، وقد علمتم لبث اللاحق خلف السابق كم هو. . .، وقد نصب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لنا أمارات رأيناها عياناً، وشاهدناها بياناً، فما الأمر، وإلى الله المفزع إلا صعب جداً. هذا مع أنها لا تأتينا إلّا بغتة، فالواجب الاستعداد علىٰ كل حال، ومع ذلك، فإن من مات، وانقطع تكليفه، فقد صار في حكم أهل الآخرة، ومهما أبطأ عنا فلن يُبطيء الموت الذي هو تجاه كل حي، ولا يقبل الرد والليّ. .

قوله (عليه السلام): «وكيف يعمل للآخرة من لا تنقطع عن الدنيا رغبته، ولا تنقضي فيها شهوته». . .

الانقطاع، والانفصال معناهما واحد، والرغبة، والرغب هو حرص متناه، وهو سعة المطالب، ومنه قولهم إناء رغيب إذا كان واسعاً.

والانقضاء هو النجاح، والفراغ.
والشهوة ضد النفرة.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) بين أن من البعيد أن يعمل للآخرة

من لا تنقطع عن الدنيا رغبته، لأنه لشدة رغبته شغل نفسه عن العمل للآخرة، فباء بصفقة خاسرة، لأنه رغب فيما يجب أن يرغب عنه، وزهد فيما يجب أن يرغب فيه، وكذلك إذا اتبع نفسه شهوتها، وساق إليها لذاتها، فإنه لا ينتهي في ذلك إلىٰ غاية تردعه، ولا مادة تتعقبه، بل يكون مثاله مثال من يطفىء النار بالحطب، وذلك في تقويتها أقوىٰ سبب، فلا تغفل أرشدك الله عن التشمير. . .؟ واركض ركض المغير؟ وكن من الرغبة والشهوة علىٰ حذر، ولا تنقد لحكم الغرر. . .

قوله (عليه السلام): «إن العجب كل العجب لمن صدَّق بدار البقاء، وهو يسعىٰ لدار الفناء. . . !».

التصديق: نقيض التكذيب، والدار هو: المسكنِ الذي يأويه الناس، وكان أصله لدورانهم عليها، وإليها. قال الشاعر:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وَعِمِي صباحاً دار عبلة وأسلمي

فسماها داراً، وإن كانت قد خلت من مدة. .

العجب هو ظهور أمر يخالف المعتاد، فيحدث في القلب استطراب، واستغراب فيسمىٰ عجباً، ولا يكون المعتاد عجباً ولا معجباً. والدار ما قدمنا.

والبقاء هو الدوام والثبوت. والفناء هو الذهاب والزوال المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) عجب كل العجب لمن صدَّق بدار الآخرة، وما فيها من النعيم واللذة للمطيعين، والعقاب والنقمة والكَرة الخاسرة علىٰ العاصين، ثم هو مع ذلك يسعىٰ لدار الفناء، وقد نسي الأمر العظيم من الخير والشر، فلا أعجب من هذا، ولو شاهدنا رجلاً وعده صادق أنه يعطيه علىٰ عمل مخصوص ديناراً، ثم أعطاه علىٰ ذلك العمل رجلٌ كاذب درهماً، فعمل لصاحب الدرهم ولم يعمل لصاحب الدينار لقطعنا، أو قاربنا بالتعجب من اختلاله، وسوء اختياره، وقد وعدنا الصادق (سبحانه) علىٰ عمل الآخرة الْهَيّن، ملكاً كبيراً، ووعدتنا مخايل الدنيا الكاذبة علىٰ الكدح، شيئاً يسيراً، فأعرضنا عن عمل الآخرة، وسعينا لعمل الدنيا، فمنّا فليعجب العاجبون، فإنا لله، وإنا إليه راجعون ـ آيبون. . .

قوله (عليه السلام): «وعلم أن رضىٰ الله (تعالىٰ) في طاعته، وهو يسعىٰ في مخالفته». .

معنىٰ المعرفة، والعلم واحد.

والرضى نقيض الغضب، والطاعة نقيض المعصية، والسعي معروف، والمخالفة نقيض الموافقة.

والمعنىٰ في ذلك: أن هذا أيضاً ممّا عجب منه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كل العجب، ومنه فليعجب العاجبون، فإنا قد علمنا من جميع العقلاء، أن أحداً منهم لا يعلم إن رضى الملك القادر عليه في فعل شيء، وغضبه في مخالفته فيتعمد مجاهرته بمواقعة غضبه، وهو سليم العقل أصلاً وكل أفعالنا مع الباري (سبحانه) مجاهرة، لأن السر عنده علانية، والغيب شهادة، فإذا كان العقلاء، يتقربون إلىٰ ملك الدنيا بموافقته، وإيثار رضاه هذا مع عجزه وضعفه، فكيف لا يتقرب إلىٰ ملك الملوك، وجبار الجبابرة، ومبيد الملوك القاهرة، والأمم الكافرة، بطاعته الهينة في جنب ثوابه الجزيل، والاحتراز من عقابه الوبيل، فنسأل الله (تعالىٰ) أن يجعلنا وإياكم في طاعته ساعين، ولعهده راعين، والصلاة علىٰ محمد وآله. . .

الحديث السادس والعشرون

عن أبي أيوب الأنصاري، قد تقدم الكلام في نسبه، وذكر طرف من حاله، وهو نزيل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والذي آثره بأعلىٰ منزله، ونزل أسفله، وشاطره ماله في قصص يطول شرحها، «ولما نهض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقابل الأنصار علىٰ راحلته، وكل منهم يتلقاه يُحلي له نفسه، يقول: يا رسول الله: هلم إلىٰ العدو، وذاك يا رسول الله هلم إلىٰ الوفاء، هلم إلىٰ المواساة، وكل يجذب بزمام راحلته، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «دعوها فإنها مأمورة»، وروي لنا أن الأنصار تبادروا إلىٰ منازلهم لطيبات الحشائش يلقونها علىٰ أبوابهم، وأفنيتهم تعريضاً لراحلته، وهي سالكة لحال سبيلها، إلىٰ أن وصلت بني غنم، فبركت تجاه منزل أبي أيوب الأنصاري، فهنّاه الناس، وهو أهل لذلك، وعلىٰ مبركها بني الحسن ابن زيد (عليه السلام) داره التي في بني غنم.

والناقة: هي القصوىٰ، وقد ذكرنا أن نوقه (صلى الله عليه وآله وسلم) التي كان يعتمد ركوبها، الجذعاء، والعضباء والقصوىٰ، فقال الشاعر في ذلك:

علىٰ مبرك القصوىٰ تبوئَتَ منزلاً
بيثرب يهنيك البناء المحبرُ

قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «حلوا أنفسكم بالطاعة، وألبسوها قناع المخافة، واجعلوا حرثكم لأنفسكم،

وسعيكم لمستقركم، واعلموا أنكم عن قليل راحلون، وإلىٰ الله صائرون، فلا يغني عنكم هناك إلّا عمل صالح قدمتموه، أو حسن ثواب خزنتموه، إنكم إنما تقدمون علىٰ ما قدمتم، وتجازون علىٰ ما أسلفتم، فلا تخدعنكم زخارف دنيا دنية عن مراتب جنات عليّة، فكأن قد كشف القناع، فارتفع الارتياب، ولاقىٰ كل امرء مستقره، وعرف مثواه ومقيله . . ».

حلوا إن كان من الحلية، فالحلية معروفة. قال (سبحانه): ﴿أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين . .﴾[1] ولا شك أن الحلية تزين المرأة فتنشأ فيها، وتبجح، وتزداد حسناً، ولا تبين الخصام لأنهن محل الغي إلا القليل. والطاعة معروفة، والإلباس نقيض الكشف، والسلب، والقناع ما يتقنع به أي يتغطىٰ به. والمخافة والخوف واحد، والكل منه (عليه السلام) استعارة حسنة، وإن كانت التحلية من الحلاوة، والتعذيب فمعناه حببوا أنفسكم، والمحبوب من الرجال حلوٌ، والمبغوض مر قال ابن أخت تأبط شراً:

ولـه طـعـمـان حـلـو ومـر وكـلا الـطـعـمـين قـد ذاق كـل

المعنى في ذلك: أنه (عليه السلام) أمرنا أن نزين نفوسنا ونحببها عند ربنا بالطاعة، فإن ذلك أنجا لها في موقف الهول يوم القيامة، وأن نلبسها قناع المخافة لنأمن من روع الآخرة، لأنا إذا خفناه (سبحانه) أطعناه، وأثرنا رضاه ففزنا بكرامة المطيعين. عنده، وسلمنا من تبعة العاصين له، فاحبب بحلية أو تخلو ينفق بضاعته الكاسدة، وخوف يؤمن روعتنا الواقدة، إن من أعظم العظائم أن لا نتخلى بطاعته ولا تقدر أن نرفع عن أنفسنا عقوبة معصيته، ولا نلبس قناع مخافته مع علمنا بهجوم هائل سطوته، أفما عقول مستعملة يوجه بها الأفعال إلىٰ جهاتها، وتوسم بها الأعمال بسماتها. .

قوله (عليه السلام): «واجعلوا آخرتكم لأنفسكم، وسعيكم لمستقركم» قد تقدم الكلام في معنى الجعل.

والحرث أصله التحريك، والبحث علىٰ وجه مخصوص. يقال حرث

---

(١) سورة الزخرف آية ١٨.

النار إذا بحثها، وحركها ليستثير كامنها، ويحرك ساكنها، وسمي العود الذي يصنع به ذلك محراثاً قال الشاعر:

ضاحي المحيا للهجير وللقنا بين الرماح تخاله محراثاً

وحرث الطين إثارته، وقد قال (سبحانه): في داود وسليمان (عليهما السلام) إذ يحكمان في الحرث، ولما كان أكثر ما يطلب منه النفع في متاع هذه الدنيا إنما هو بالحرث استعمل في كل شيء، فحرث الآخرة العمل بطاعة الله في فعل ما أراد، وترك ما كره. وسمي النكاح حرثاً من ذلك، وقد تقدم معنى السعي، والمستقر الذي ينتهي إليه الإنسان، فيستقر عنده، وهو الوطن، والقطن..

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمرنا أن نكون حرثاً لأنفسنا وسعينا لمستقرنا، وهل مثل هذه النصيحة يردُها عاقل؟ وهل أحمدُ من عمل الإنسان لنفسه، وتمهيده لمحط جنبه إذ العظائم إذا تناهت في العظم فنسي المال، والأهل، والولد، ونفر بنفسه واجتهد، وعد ذلك من الغنائم، وقد قال قائلهم يصف قوماً فاجئتهم الداهية:

هنالك لا تلوي عجوز على ابنها وإن أكثرت في القول بنفسي لك الفد

فأحرث أيها الحارث لنفسك، وإنما ذلك الحرث حرث الآخرة المحمود الغلة، والآثر، وهو العمل الصالح، والترك للعمل الفاضح وكذلك إذاسعينا لمستقرنا الذي هو دار الكرامة، ومنزل السلامة في الآخرة كنا قد فزنا بما نصير إليه من الخير الدائم، لأن الدنيا ليست لنا بمستقر علىٰ الحقيقة، إنما نحن كركب السفينة النائم فيها سائر، والقائم ساع، وحرثنا فيها لغيرنا إذ يشاركنا فيه عبيدنا وأمنائنا، وأولادنا، وأزواجنا، ومن ينتابه، وأكثر الناس يحرثون للوارث، فما هو لأنفسنا علىٰ الحقيقة، فتصفح ما ذكرت لك، وأحرث لنفسك، واسع بمسيرك، وأطع أمر معلم الخير وقائد الرشد (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقوله (عليه السلام): «واعلموا أنكم عن قليل راحلون، وإلىٰ الله صائرون».

الرحيل: نقيض الحلول، والمصير الانتهاء.

المعنىٰ في ذلك: انا إذا علمنا سرعة رحلتنا عن قليل بحثنا عن الزاد، والدليل، وما يحتاج إليه في السبيل، فكنّا علىٰ أهبة من أعدها فاز بالسلامة، وإذا علمنا مصيرنا إلىٰ الله وشيكاً أعددنا الجواب إذا سئلنا عن حقه الواجب له العائد علينا نفعه فلم نوقف موقف خزي نعوذ بالله منه، ولا رمينا بنفوسنا في هوة هلاك. .

قوله (عليه السلام): «فلا يغني عنكم هناك إلّا عمل صالح قدمتموه أو حسن ثواب خزنتموه. . . .».

العمل الصالح قد تقدم الكلام فيه، والتقديم نقيض التأخير وحسن الثواب جيده، والحرز، والإحراز واحد. .

المعنىٰ في ذلك: أن الراحل إلىٰ ربه الصائر إلىٰ جوار خالقه لا ينفعه بين يديه إلّا ما قدم من صالح العمل إذ الدينار والدرهم في تلك الدار لا تقضىٰ بهما الحاجات، فمن قدم صالحاً لقيه فوراً، وغنمه، ومن استجاد ثواباً، وحازه فقد حاز سبب الخير كله، فالواجب الاجتهاد في العمل الصالح لينحاز الثواب النافع. . .

قوله (عليه السلام): «إنما تقدمون علىٰ ما قدمتم، وتجازون علىٰ ما أسلفتم. . .».

يقال: قدم يقدم إذا ورد ووصل. قال الراجزُ:

أقدم فقد قدمت خير مقدم . قدمت إيام سعود الأنجم

والتقديم هو: تسبيق الإنسان لما يحتاجه بين يديه.

والمجازاة مفاعلة من الجزاء، وهو المكافأة علىٰ الفعل، والأسلاف والإسلام معناهما واحد في الأصل، ومعناه أن يعطي الإنسان شيئاً ليعطيك عليه في المستقبل، ولا يجوز في الشرع إلّا بشروط مخصوصة.

المعنىٰ في ذلك: أن الإنسان لا يقدم إلّا علىٰ ما قدم، فإن قدم خيراً لقي خيراً، وإن قدم شراً لقي شراً، ولا يُجازىٰ إلّا بما أسلف إن أسلف طاعة لقيٰ مغفرة، وإن أسلف معصية لقي عقاباً وتباباً، فإذا كانت الحال هذه كان الواجب علىٰ العاقل تقديم الخير ليلقاه في وقت حاجته إليه، وهو وقت لا

ينفع المكثور عدده، ولا الوالد ولده، ولا ذا المال ماله، وأن يسلف ما ينفعه رجوعه إليه، وهو العمل الخالص من شوائب الرياء، والسمعة والقصود الفاسدة إذ هو (سبحانه) لا يقبل من عبده إلاّ الخالص لوجهه.

قوله (عليه السلام): «فلا تخدعنكم زخارف دنيا دنية، عن مراتب جنات عليّة...».

الخديعة أصلها الفساد، ومنه قولهم خدع الريق إذا فسد، فلما كان من الناس الموهم مفسداً قيل خادع، وسمي فعله خديعة. والزخرف أصله الذهب، والزخاريف التصاويرية والنقوش يقال بيت مزخرف أي مزوق منقش بالذهب. وقد تقدم الكلام في الدنيا. والدنية الحقيرة، والرذيلة في نظائر لها معناها واحد، والمراتب هي الدرج، والمنازل والجنات الحدائق، والحضائر، والعليّة الرفعة.

المعنىٰ في ذلك أنه (عليه السلام) حذرنا أن تخدعنا زخارف هذه الدنيا الفانية، وهي نضارتها البالية، فنسكن إليها إغتراراً بها، فنكون مخدوعين عن الخير التام والنعيم الكامل، والروح الباقي، وبين لنا الدنيا دنية ولا شك في ذلك لأنها لا تدوم لنا، ولا ندوم لها ومتاع كل واحد منا بصاحبه قليل، وكم عسىٰ أن ينعم فيها الناعمون، ويسلم السالمون، أفليس فجائعها مؤثرة القسي مفوقة السهام، تفرق الجماعات، وتجمع التبعات، فبينا ترىٰ الإنسان فيها ناعماً مسروراً إذ حال بائساً مضروراً، وبينا تراه قاهراً إذ انقلب مقهوراً، وكم من صريع لها لم تؤذنه بالصرعة، ومائل إليها مالت عنه، وصادق لها كذبت له فكيف يسكن إلىٰ هذه لبيب، أو يضرب في ودها بنصيب، وإذا كانت مراتب الجنان العليّة معروضة في مقابلة حقوق مفروضة فكيف يحسن لنا الاشتغال عنها، أو الترك لشيء منها إنما هو ثواب جزيل في مقابلة عمل قليل دون طاقتنا بكثير صيامنا نصف سندس، زماننا، ولعل صلاتنا تنجز في مثل ذلك من يومنا وليلنا، والاعتقاد هو علم يسكن إليه القلب لو لم يقع شرع لوجب لدفع ضرر الشك وباقي ذلك موسع لنا بتناول ما أمكننا مما حل لنا من الطيبات، والمشتهيات، ولم يُحرِّم علينا شيئاً إلاّ وقد أحل لنا ما يرجح به ويزيد عليه في الطيب، واللذة، ومع ذلك نعمه العاجلة واصلة إلينا بما لو علمنا أضعاف عملنا لتحصيله لهان ذلك في جنبه، وإذا كان العمال

المشهورون بالانقطاع في الخدم، وقد تجردوا ليلهم، ونهارهم في الأعمال الشاقة لتحصيل قوت أيام قليلة، وحسن ذلك عندهم، ولم ينههم عنه العقل، فلم لا نجتهد بعض يومنا وليلتنا لنحصّل متاع مدة طويلة في نعم جليلة، وخيرات جزيلة، نعم المراتب التي يهون فيها المطالب في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : «إن أدنىٰ أهل الجنة منزلة من له مثل ملك الدنيا عشر مرات». انظر كم لمن رفع عنه مرتبة أو مرتين، فلا إله إلّا الله لقد عمت الغفلة وغلبت الشقوة إلّا على المرحومين المعصومين، جعلنا الله منهم وإن من أهل الجنة، ومن يرىٰ كالكوكب الدري في كوكب السماء شرفاً، وعلواً أجل إن هذه المراتب عليّة. .

قوله (عليه السلام): «فكأن قد كشف القناع، فارتفع الارتياب» الكشف نقيض التغطية، والقناع ما يتقنع به أي يتغطىٰ والارتفاع زوال الشك. والارتياب هو الشك.

المعنى في ذلك: أنه (عليه السلام) جعل مدة التكليف كان الأمور عليها قناع لكون مقادير الثواب والعقاب، ومستحقي الثواب، والعقاب غير مثابين، ولا معاقبين، ولا معرفين ما يستحقون مفصلاً، وكأنك بالموت قد وصل، والحساب قد حصل، فكشف القناع عند ذلك، فارتفع بمعنىٰ زال وذهب. الإرتياب الشك الذي كان في قلوب الشاكين، والمسوفين من المتأولين معناه، فأحزم أيها الغافل من انكشاف القناع، وزوال الشك، وأنت علىٰ حالة تؤديك إلىٰ الندامة في ذلك المقام الذي فاز فيه فائز، وخسر خاسر، وكل فوز وخسارة دونه محال.

قوله (عليه السلام): «ولاقىٰ كل امرىءٍ مستقره، وعرف مثواه ومقيله. .».

الملاقاة: المواجهة، والموافاة. . .

والمستقر: هو وطن الإنسان، ومحله، والمثوىٰ هو المنزل والمقام. قال الشاعر:

طال الثواء علىٰ رسوم المنزل

ومقيله محط القايله تحت شجرة، أو خباء...

المعنىٰ في ذلك: ان القناع إذا رفع، وزال الشك عرف ابن آدم مستقره أفي جنة أم في نار، ومثـوّاه في دار السلامـة، أو دار الندامـة، ومقيله في ظل العرش المجيد، والسدر المخضود، أم تحت شجرة الزقوم، وظل اليحمـوم، فإذا كان من لم ينل أحد الأمرين، وقع في الآخر لا محالة وجب علىٰ العاقـل الاحتراز، والحزمَ والاجتهاد، والحريص مُعان، والرب كريم، والمطلب يسير وللخيـر أسباب، وللشـر أبواب، جعلنـا الله وإيـاكم من المتمسكين بـأسبـاب السلامة، النازلين دار المقامة، ومحل الكرامة، والصلاة علىٰ محمد وآله.

الحديث السابع والعشرون

عن أبي هـريرة قـال: قال رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) في خطبة خطبها: «لا تكـونوا ممن اختـدعته العـاجلة، وغرتـه الأمنية، واستهـوته الخـدعة، فـركن إلى دار سريعـة الـزوال، وشيكـة الانتقـال انـه لم يبق من دنيـاكم هذه في جنب مـا مضىٰ إلا كإناخـة راكب، أو صـر حـالب، فعـلام تعرجون، وماذا تنتظرون، فكأنكم والله بما قد أصبحتم فيه من الدنيا، كأن لم يكن، وما تصيرون إليه من الآخرة كـأن لم يزل، فخـذوا الأهبة لأزف النقلة، وأعدوا الزاد، لقرب الرحلة، واعلموا أن كل امرءٍ علىٰ ما قدم قادم، وعلىٰ ما خلف نادم. . .».

أبو هريرة قد تقدم الكلام في صفته، ونسبه.

وقد تقدم تفسير الخطبة. والخدعة، والاختداع افتعـال منها، والعـاجلة الدنيا، لقربها منا، وتعجلها إلينا.

والاغتـرار قريب من الاختـداع في المعنىٰ، ومنه بيـع الغرر ومعنـاه أن يظهر الإنسان أمراً يركن إليه، والأمر في الباطن بخلافه، وهو مأخوذ من الغر، وهو الحرف، كأن صـاحبه منـه علىٰ غير ثبـات، الأمنية واحـد الأماني لبعض أهل العصر. . .

وكم أمنية جلبت منية. . .

واستهوته استخفته، فصيرته، هوآءً لا ثبات له. .

الخدعة الحيلة، والنصب.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) نهىٰ أن نكون ممن اختدعته العاجلة، وهي الدنيا عن دينه، ومصالح نفسه، ومنجيات عمله، واشتغل بأمور العاجلة، ونسي الآجلة، ففاتته العاجلة وشقي بالعاقبة، فلا العاجلة له باقية، ولا له من شر الآجلة واقية، هذا وقد غر نفسه بالأمنية، فبادرته المنية، واستهوته الخدعة، فلم يمكّن من الرجعة، فانظر أيها العبد لنفسك نظراً مخلصاً ولا تكن بها متربصاً، وبادر زوالها، ووشك انتقالها، ولا تنخدع لها، ولا تغتر بغرورها، فلك منها، فيمن غرته قبلك أكبر واعظة، وفيمن اختدعته، واستهوته أوضح زاجر، أفلم تصير الملوك بأمانيها أمثالاً سائرة، وتنزل بهم الداهية الفاقرة الواقرة، أفلم يخدع المترهبين، في رهبانيتهم، والمتعبدين في عبادتهم، والعلماء في علمهم، والمذكرين في تذكيرهم، وبسطت حبائل آمالها، ولونت تصاوير خدائعها، فقصر مقصر فاقتطعته في تقصيره، وسار سائر، فعاقته عن مسيره، وركب ثالث، فاستنزلته من سريرة فرمتهم في الساهرة، وردتهم في الحافرة، فباؤا بصفقة خاسرة، ووجوه باسرة، فإياك أن تكون واحداً منهم، فذلك جمع كثرته وحشة، وحشد قلّ، وفل، وصغار، وذل. . .

قوله (عليه السلام): «فركن إلىٰ دار سريعة الزوال، وشيكة الانتقال» الركون، والسكون، والاطمئنان معناها واحد.

والسريع، والحثيث معناهما واحد. والزوال هو الذهاب، والمضي والوشك هو العاجل، والانتقال هو التحول.

المعنىٰ في ذلك: أن من اختدعته العاجلة، وغرته الأمنية واستهوته الخدعة، فإنه يركن إلىٰ دار الدنيا، وهي كما علمنا سريعة الزوال، إذ لا حقيقة لشيء منها، غناؤها يؤول إلىٰ العدم، وصحتها إلىٰ السقم، وفراغها إلىٰ الشغل، وكثرتها إلىٰ القل، وإنما هي فيء مائل، وظل حائل، وليس في متاعها طائل ولا نائلها بنائل، بل هو سم قاتل، وحتف عاجل ومن ركن إلىٰ ما هذه حاله وصفته، فهو المغرور المخدوع المستهوىٰ لا محالة.

قوله (عليه السلام): «انه لم يبق من دنياكم هذه في جنب ما مضىٰ إلاّ

كأناخة راكب، أو صر حالب...».

الإناخة: سريعة، وهي بالمشاهد، معروفة يقرع الراكب ركبة راحلته، وقد أناخ في أسرع من رجع الكلام.

وصر الحالب: وشيك أيضاً إنما هو غضب الصرار علىٰ الضرع خيفة علىٰ الفصيل من اللبن في زمن الخير، وعلىٰ اللبن من الفصيل في زمن الشر، وقد رأيناه يسبق إشارة المتكلم وردّ المسلم.

المعنىٰ في ذلك: أنه إذا كان الأكثر قد ذهب، والأجل قد اقترب، وقد علمنا أن آخر هذا الكثير زواله، ونهاية هذا الطويل انقطاعه، وكان الباقي بعض الماضي، فانظر ما يكون آخره، وإنما لك من الدنيا طالت، أم قصرت عمرك، فارم بفكرك إلىٰ أبعد غاية منه تظنها، ويظنها الظانون فاعرف ما نهايته، ولا تغفل عن الاستعداد، وقدم الزاد واهجر الرقاد، وليس الواعظ لك بمفازة من الغفلة، وإنما عناك بالكلام، ونفسه:

قوله: (عليه السلام): «فعلام تعرجون، وماذا تنتظرون...».

التعريج: هو أن يميل الإنسان راحلته إلىٰ بعض أغراضه، لقضاء حاجة، أو عيادة وطن، وتذكر رسم، وهو ظاهر في لسانهم جداً، ومنه سمي الأعرج، لميلان سيره، فكان الصادر لحاجته عرج عن سنن أصحابه قال شاعرهم:

عرج علىٰ الدار بالملحاء والدمن   بادت وأخنىٰ بها خال من الزمن

والانتظار، والتربص، والتأمل متقاربة، وكان الذي ينتظر غيره يشخص ببصره إلىٰ جهته، فلما كثر سمي نظراً، وانتظاراً. وإن لم يرعه طرفه إذا كان في ترخيّه.

المعنىٰ في ذلك: «أنه (عليه السلام) بين لنا أن الدنيا فانية وقد ذهب أجزلها، وهو ماضيها، فما حال أقلها وهو باقيها؟ فعلام تعرج إلىٰ ما هذه حاله، وهو ذاهب ماض لا خير فيه ولا حقيقة له، ولا بقاء، ولا خلوص من المكدرات، والأذىٰ وماذا تنتظر بعد الماضين الأولين، ونحن عما قليل بهم لاحقون وإلىٰ حالهم صائرون.

قوله (عليه السلام): «فكأنكم والله بما قد أصبحتم فيه من الدنيا، كـأن لم يكن، وما تصيرون إليه من الآخرة، كأن لم يزل. . .».

الأزل هو الدهر، وفي بعض دعاء الأوائل: يا أزل الأزل لمـا كان مؤزل الأزل سماه أزلاً، فمعنىٰ لم يزل معناه الدهر ما برح جعل لفظ الدهر جملة المعنىٰ وباقي اللفظ قد تقدم تفسيره.

المعنىٰ: أنه (عليه السلام) أقسم، وهو صادق القسم أن ما أصبحنا فيه من الدنيا يعود عما قليل كأن لم يكن لزواله، وذهابه، وانتقاله وتحـول حالـه، وقد رأينا ذلك عياناً فيما مضىٰ من أيامنا هـل بقي منه إلاّ ذكـره، وهل دام لنـا شيء من سروره، أو دام علينا شيء من غمه؟ بل غدا كل شيء لـوقته، وزال لحينـه ومضىٰ لحـال سبيله. فلم يبق إلاّ تبعتـه. إن خيـراً فخيـراً، وإن شـراً فشـراً، وكذلـك ما نصيـر إليه من الآخـرة يصير كـأنه لم يـزل، لكوننـا عليه، وشاهد هذا معلوم لنا من أنفسنا، وقد قال من يعتد بقوله من أهل اللسان:

لـعمـرك مـا الإنـسـان إلاّ ابن يـومـه
عـلىٰ مـا تجـلىٰ يـومـه لا ابن أمـسـه

وذلك حق، لأن الإنسان، إن لقي في يومه خيراً، فكأنـه ما لقي الشـر أبـداً، وإن لقيْ شراً، فكـأنه مـا لقي الخير أصـلاً. فإذا صـرنـا إلىٰ الآخـرة، ونحن لا محالة إليها صائرون. فكأننا ما زلنا فيها من الله (سبحانه)، فكأنا مـا رأينا شراً، وإن كنا في شرها والعياذ بالله، فكأنا ما رأينا خيراً. فـإذا كان الأمـر هكذا كان الأولىٰ بنا تقديم أعمال الخير، واستحقاق أسباب الـرشد والاقتـداء بالصالحين الذين رفضوها، وقللوها في أعيانهم فكانت نغماتها طنين الذباب، ولذاتها رقراق السراب، فصرفوا عنهـا أسماعهم، وأعـدوا ماءهم ومتـاعهم، وصمدوا صمد دار المقامة، ومنزل الإقامة، فكافحوا كل صاد لهم عن محط رحـالهم، وممدود ظلالهم، فنسوا التعب، وأفضوا إلىٰ النعيم المقيم، والخير الجسيم.

قوله (عليـه السلام) «فخـذوا الأهبة لأزوف النقلة، وأعـدوا الزاد لقـرب الرحلة. . .».

قد تقدم الكلام في الأهبة.

والأزوف معناه: الدنو، والنقلة، والانتقال واحد. والإعداد جمع عدة، والعدة ما يحتاجه الإنسان. والقرب ظاهر.

الرحلة هي الإرتحال، وقد تقدم معناها اللغوي مستوفىٰ المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمرنا أن نأخذ الأهبة وهو التهيؤ بما يحتاج إليه المنتقل، فإن النقلة قد أزفت، وذلك ما لا شك فيه، ولا مرية تعتريه، لأن كل آت قريب، والانتقال آت لا محالة، واجمعوا زادكم، وزنادكم ومزادكم، فإن رحلتكم قد قربت، وداركم التي تصيرون إليها قد بانت، وغربت، وبينكم وبينها مسافة بعيدة علىٰ المسترسلين قريبة علىٰ المعدين المستظهرين، فلا تكونوا من العاجزين فقد أذنتم بالرحيل، وبُين لكم السبيل، وأعلمتم أن الطريق مضماة مخوفة تنتهي إلىٰ عقبة كؤود لا يقطعها إلاّ من خفف ظهره من الأوزار، وهجر الأصرار، فواصل التوبة، ورخص الحوبة، وأعدّ العدة لسفره، ورمىٰ إلىٰ منزله من الجنة ببصره فاستصغر كل خطر دونه، واستقرب كل بعيد بينه، وبينه فلم يعفه هو ولا ردعه فعل ولا قول...

قوله (عليه السلام): «واعلموا إن كل امرء علىٰ ما قدم قادم، وعلىٰ ما خلف نادم...».

قد تقدم الكلام في التقديم، والتخليف نقيضه، والندم هو نوع من الغم إلاّ أنه لا يكون إلاّ علىٰ فائت، وهو نقيض العزم.

المعنىٰ: أن كل امرء يقدم علىٰ ما قدم، ويندم علىٰ ما خلّف. فإذا كان هذا الخبر ممن قامت البراهين بصدقه، فلم لا نقدم أعمال الخير، وأنواع البر، ولأي شيء نخلّف ما نندم عليه بشهادة الصادق في خبره ما هذا عمل المستبصرين في أمرهم المجتهدين في نجاة أنفسهم، إنما حق أنفسنا علينا أن نتحرىٰ لها الصلاح بجهدنا، وأن لا نؤتي فيما يصل إليها من المكروه من قبلنا، وقد جعل الميدان مفرغاً للساعين منّا، وعرفنا أحكام أفعالنا، ولم تجعل لنا رخصة، في الغفلة عن حسن الاختيار. فما قولك لو كلفنا ترك الاختيار لأنفسنا هل كان في التكليف أشق من مكلفينا، وهل أطاع إلاّ ناقصي العقول؟ فهل أجهل ممن عصىٰ في أمر يعود علىٰ نفسه نفع طاعته في عاجل

غير أجل دائم. وأصل؟ وما ظنك بمن يخلّف ما يندم عليه أيعتد بتخليفه؟ أم هو بعد تخليفه راجع إليه؟ إنما هي جهالة يضحك منها العقول، والأفكار وأما من تـرك صـدقـة مسبلة، أو صلة محـررة، أو وقفـاً مستمـراً، فليس هـذا من المندوم عليه في شيء. فنسأل الله (تعالىٰ) أن يجعلنـا من المقدمين علىٰ مـا نغبط بالقدوم إليه المخلفين بما لا نندم عليه. والصلاة علىٰ محمد، وآله...

الحديث الثامن والعشرون

عن ابن عباس، وقد تقدم الكلام في نسبه، وذكر طرف من حاله قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «أيها الناس بسيط الأمل متقدم حلول الأجل، والمعاد مضمار العمل فمغتبط مما احتقب غانم، ومستيئس بما فاته من العمل نادم. أيها الناس إن الطمع فقر، واليأس غنىً، والقناعة راحة، والعزلة عبادة، والعمل كنز، والدنيا معدن. والله ما يسرني ما مضىٰ من دنياكم هذه بأهداب بردي هذا، ولما بقي منها أشبه بما مضىٰ من الماء بالماء، وكل إلىٰ نفاد وشيك، وزوال قريب، فبادروا وأنتم في مهل الأنفاس، وجدّة الأحلاس قبل أن يؤخذ بالكظم، فلا يغني الندم..».

البسيط: فعيل من البسط، وهو المد، وسمي البساط من ذلك والأمل يبسط لصاحبه بساطاً طويلاً، وهو متقدم علىٰ الحلول. والحلول نقيض الرحيل، والحال الواقع الواجب.

والمعاد: ما يرجع إليه الإنسان، والمضمار كان في الأصل تقسيط العلف علىٰ الخيل، وصنعتها، وتسييرها، إذا أرادوا السباق بها ثم كثر ذلك حتىٰ جعلوا الميدان مضماراً. قال شاعرهم:

من شك في جري الكميت فبينه فيه وبين يقينه المضمار

المعنىٰ في ذلك: أن بسيط الأمل لتقدمه لحلول الأجل ربمّا اغتر فيه المغترون، فهلكوا، أو ذلك أنهم يأملون أملاً بعيداً ثم يحل الأجل، ولم

يؤدوا ما يجب عليهم، ولم يخرجوا من عهدة ما يلزمهم، فتقع عثرة لا تقال، وإذا رجع العباد إلىٰ المعاد كان ثم مضمار العمل، فمن سابق نجا، ومن مقصر هوىٰ فيما هوىٰ وجثا فيمن جثا، فغرق في بحر الضلال، وكباً في ميدان السؤال.

قوله (عليه السلام): «فمغتبط بما احتقب غانم، ومستيئس بما فاته من العمل نادم...».

الاغتباط نهاية السرور، وأصله الطراوة، ومنه سمي الغبيط إذ فيه ما يغبط به. قال امرؤ القيس:

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً * عقرت بعيري يا امرأ القيس فأنزل

والأحتقاب أن يدع الإنسان ما يضر به، ويحتاج إليه في حقيبة رحله ليقرب تناوله. قال الشاعر:

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وقال آخر:

أن تسألوا الخير نعطي الحق سائله والدرع محقبة والسيف مقروب

المعنىٰ في ذلك: أن الناس عند ارسال الأعمال في المضمار كارسال الخيل في الميدان بين رجلين مغتبط، ومستيئس. والمغتبط هو مستحقب عمل الخير الذي ادخره، وجعله في حقيبة رحله كما يستحقب الرجل درعه لحال فزعه، ونفيس ثيابه لوقت تجمله. والمستيئس هو الذي فوت علىٰ نفسه فعل الخيرات، واقتناء الصالحات، فندم حين لم تغنه ندامة ولات حين مندم...

قوله (عليه السلام): «أيها الناس إن الطمع فقر واليأس غنىً».

الفقر: هو الحاجة، وأصله من فقار الظهر، وهو عقوده، لما كان الفقير كان الحاجة قطب عقود ظهره سمي فقيراً.

واليأس نقيض الطمع، والطمع رغبة شديدة، واليأس إعراض عن محبوب. والغنى نقيض الفقر.

المعنىٰ: أنه (عليه السلام) أخبرنا، وهو الصادق في خبره أن الطمع

فقر، وذلك أن الراغب في الدنيا الشديد الرغبة لا يزال محتاجاً، لأنه لا يطلب سد الفاقة، فيكفيه القليل وإنما يطلب الاحتكار، وليس للمحتكر غاية يقف عندها، فصاحب الطمع فقير الدهر، لأنه ما حصل له أمر نزعت نفسه إلىٰ أمر آخر.

واليأس هو الإعراض، وقطع الرجاء عن الأمر. جعله (عليه السلام) غنىً، لأن الإنسان إذا يئس من الشيء لم يطلبه، فصار بالإعراض عنه في صفة الغني منه. . .

قوله (عليه السلام): «والقناعة راحة، والعزلة عبادة». .

القناعة مصدر القنوع بالهاء. والراحة نقيض التعب. والعزلة مأخوذة من الاعتزال، وهو الانفراد. عبادة هو التذلل مأخوذ من التعبيد، وهو التذليل.

المعنىٰ في ذلك: إن القناعة تحمل صاحبها علىٰ ترك الحرص. والطلب فيستريح لهذا السبب. سميت القناعة راحة، لأنها ودت إلىٰ الراحة وتسمية الشيء بما يؤدي إليه شائع في كلامهم، وكذلك فإن المعتزل وهو المنفرد من أذية الناس ولجاجهم لا بد أن يفكر في أمره ومعاده وعمله ومصيره ومذهبه ودينه، فيكون والحال هذه قد عبد ربه بمعنىٰ ذل له، وتواضع. وضع نفسه، ولا تكون العزلة عبادة إلّا علىٰ هذا المعنىٰ لأن حال المعتزل يخالف حال المنغمس في الناس، لأن الاشتغال بهم، وبأمورهم يمنعه مما ذكرنا فلا تتأتى له العبادة اللهم إلّا أن يكون مداوياً لجرحاهم حاسماً لكلومهم مرشداً لضلالهم وازعاً لعفاريتهم عن مراداتهم في تمردهم، فإنه في العبادة الكاملة والواجب عليه ترك الاعتزال، ولهذا فإن السلف الصالح من آبائنا (عليهم السلام) كان من تمكن منهم من القيام بأمور الناس وتقويم أودهم عاشرهم، وكاشرهم وتأتابهم، وصابرهم حتىٰ يقيم حجة الله علىٰ خلقه، ومن تعذر عليه ذلك اعتزل بنفسه وولده لعبادة ربه، فافهم ما ذكرت لك، فإن أكثر أهل عصرنا جهال لمواقع الحكمة، وإشارات أهل المعرفة. يخبطون الدين خبط السلمة شوكة ورقة، لم يردوا الأمر إلىٰ أهله فيسلكوا فجاجه الرحبة، ويوردهم مناهله العذبة القريبة. .

قوله (عليه السلام): «والعمل كنز، والدنيا معدن. . .».

الكنز وهو الجمع كما قدمنا: هذا أصله، ثم نقل إلىٰ كل مال مجموع هذا لغته، ثم نقل إلىٰ كل مال مجموع من الذهب، والفضة والجواهر هذا عرفه، ثم نقل إلىٰ كل مال لم يخرج حق الله (تعالىٰ) منه هذا شرعه، واللفظ هاهنا محمول علىٰ المعنىٰ العرفي.

والمعدن هو الموضع الذي يستخرج منه الجواهر والذهب والفضة واللؤلؤوالدر والياقوت والمرجان وغير ذلك، وسمي معدناً لعدونه، وإقامته. أصل العدون الإقامة. قال الشاعر:

فإن تستضيفوا إلىٰ حلمه يضافوا إلىٰ راجح قد عدن

المعنىٰ: أن هاتين الكلمتين، وما قبلهما فرائد من الحكمة إذا وسطت بها قلائد الموعظة أشرقت لها المجالس نوراً، وتأرجت مسكاً، وكافوراً، فإنها بالغة جهدها في الإبلاغ، ولم لا وهي من نبي خير الأمم، وكاشف دياجير الظلم، وسيد العرب والعجم الناطق عن الوحي المحكم.

المعنىٰ في ذلك: أن العمل لما كان به غنىٰ صاحبه من كل فقر، وراحته من كل تعب، وظفره بكل عدو، ونيله لكل مراد. صار بمنزلة الكنز بل هو أنفع منه، وتمثيله للدنيا بالمعدن، لأن الكنز تستخرج من المعدن، وهي دار العمل، لأن فيها التكليف، فصارت بمثابة المعدن يستخرج منه كل إنسان بقدر آلته، وقوته، وتوفيق الله له ورزقه إياه، فهي علىٰ هذا أفضل المعادن، وأرجح المطالب إن الذي يحصل منها لا تساويه الكنوز جلالة وعظماً، ورفعة ونفاسة.

قوله (عليه السلام): «والله ما يسرني ما مضىٰ من دنياكم هذه بأهداب بردي هذا..».

يسرني نقيض يغمني والماضي نقيض الآتي. والأهداب هي أطراف خيط سَدَى الثوب في نسج اليمن، وهي معروفة. والبرد هو الرداء.

المعنىٰ في ذلك: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أقسم وهو الصادق القسم أن الماضي من الدنيا، وهو صفوها، وخيرها، وروحها، وأولها لا يساوي عنده أهداب برده، وهي لا قيمة لها، لزواله، ونقصه، وانتقاله..

قوله (عليه السلام): «ولما بقي منها أشبه بما مضىٰ من الماء بالماء...» المشابهة، والمشاكهة، والمشاكلة معناها واحد.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أقسم أن الماضي عنده لا يساوي أهداب برده، وأن الباقي أشبه شيء بالماضي كالماء بالماء، ولا نعلم تشبيهاً مثل هذا، فإن المياه وإن اختلفت منابعها، وتباينت أوطانها فإنّ تشابهه أكثر من تشابه سائر الأجناس، فإذا كان الماضي كالباقي والماضي لا يساوي أهداب برده، فكذلك الباقي وإن لم يذكر قيمته، وكل ذلك تزهيد فيها، وقد زهدنا (صلى الله عليه وآله وسلم) بفعله، قبل تزهيدنا بقوله، وذلك أنه قرضها قرضاً ولم يرفع لشيء منها رأساً، ولم يكشف لها نقاباً ولم يمسح خضاباً، بل كفاها لوجهها وجعلها معبراً إلىٰ غيرها، فملك جزيرة العرب بين أقطارها وأخذ منها خراجها، فما خلف منها ديناراً ولا درهماً، ولا ذهباً ولا فضة، ولا عبداً ولا أمة! وخلف ثلاثة أثواب سحقين، وثوباً كان يتجمل به، فكفن فيها! ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير، فقد صدق في فعله (صلى الله عليه وآله وسلم).

قوله (عليه السلام): «وكل إلىٰ نفاد وشيك، وزوال قريب...» النفاد هو الذهاب، والفراغ، والنجاح، والوشيك هو السريع والزوال نقيض الثبات. قريب أي عاجل.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) بين أن الكل من الماضي والباقي منتهٍ إلىٰ نفاد وشيك، وزوال قريب، فإذا كانت هذه حاله، فكيف يجعل العاقل شغله به، أو هل يحسن له الأخلاد إليه، والاعتماد عليه...؟

قوله (عليه السلام): «فبادروا وأنتم في مهل الأنفاس، وجدة الأحلاس...».

المهل، والريث، والبطؤ متقاربة إلّا أن المهل هو التراخي ومنه المهلة. والأنفاس ما يخرج من روح الإنسان شيئاً بعد شيء، فإذا الأمر عليهم موسعاً خرج شيئاً بعد شيء يهون، وإذا ضيق عليه تدارك، وتتابع، ولا يكون إلّا في الشدة من الأمر، وضيق المجال. والأحلاس جمع حلس وهو ما توقا به الدابة والراحلة من الألباد، وقد صار بالخيل أخص، والأصل في الجميع.

قال الشاعر:

به تنقض الأحلاس في كل منزل   وتعقد أطراف الحبال وتطلق

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) لما بين لنا حال الدنيا أمرنا بالمبادرة ما دمنا في مهل الأنفاس أي متراخي العنان مُجرِّي الأرسان موسعاً علينا الميدان، وأحلاسنا التي هي آلة دوابنا جديدة لم ترث، فتكون عذراً لنا في الركوب إلىٰ طاعة الرب وهذه مشورة منه (صلى الله عليه وآله وسلم) يجب قبولها. فالبدار البدار رحمكم الله إلىٰ دار القرار...

قوله (عليه السلام): «قيل أن يؤخذ بالكظم، فلا يغني الندم..».

الكظم: هو الحلق ومجاري الطعام والشراب والنفس، فإذا لزم من طعام، أو شراب، أو نفس، أو دم مات الإنسان، وإذا نشبت جرّة البعير في حلقه قيل: بعير مكظوم. قال الله (سبحانه): ﴿إذ القلوب لدىٰ الحناجر كاظمين﴾[1]، لأنها لزمت الكظم والله أعلم. والإغناء هو النفع والدفع.

المعنىٰ: أن من لم يقدم العمل، وهو في المهل، فإنه إذا أخذ بكظمه لم ينفعه ندمه، فإذا علمت ذلك أيها السامع فما التشاغل لك عن الاستعداد، والمانع. شمر الذيل، وبادر السيل ما دام الندم نافعاً، والعمل واقعاً؟ جعلنا الله، وإياكم للقاء مستعدين، وللأهبة معدين، وللفرائض مؤدين، وللخيرات مؤدين، والصلاة علىٰ محمد وآله..

---

(١) سورة غافر آية ١٨.

الحديث التاسع والعشرون

عن عبدالله بن عمر وهو أحد الفقهاء والرواة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولما استعظم أهل العلم والدين كونه مع معاوية مع ما هو عليه من المعرفة والدين والعلم عظم منقودهم عليه، فلم يكن عهدته إلّا أن قال أمرني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بطاعة عمر، وكانت أموره إلىٰ الصلاح أكثر، وقد جرت منه هذه الهفوة، والله أعلم ما ختم العمل، ونسأل الله الثبات. قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: تكون أمتي في الدنيا علىٰ ثلاثة أطباق أما الطبق الأول: فلا يرغبون في جمع المال وادخاره، ولا يسعون في اقتناءه واحتكاره إنما رضاهم من الدنيا سد جوعة، وستر عورة، وغناهم فيها ما بلغ بهم الآخرة، فأولئك الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون وأما الطبق الثاني: فيحبون جمع المال من أطيب سبله، وصرفه في أحسن وجوهه يصلون به أرحامهم، ويبرون به أخوانهم ويواسون به فقراءهم، ولعض أحدهم علىٰ الرضيف أسهل عليه من أن يكتسب درهماً من غير حله، أو أن يضعه في غير وجه، أو أن يمنعه من حقه، أو أن يكون خازناً له إلىٰ حين موته، فأولئك الذين إن نوقشوا عُذّبوا، وإن عفي عنهم سلموا.

وأما الطبق الثالث: فيحبون جمع المال مما حل وحرم، ومنعه مما افترض أو وجب إن أنفقوه، أنفقوه إسرافاً، وبداراً، وإن أمسكوه، أمسكوه بخلاً واحتكاراً، فأولئك الذين ملكت الدنيا زمام قلوبهم حتى أوردتهم النار بذنوبهم. . .

الأمة في الأصل هم الخلق الذين يجمعهم أمر من الأمور. قال الله (تعالى): ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون﴾[1] أي جماعة جمعهم طلب السقي. وفي العرف الذين بعث إليهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فصدقوه. والأطباق، والأصناف معناهما واحد، والأصل في الأطباق الحالات قال الله (تعالى): ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾[2] حاله عن حاله والله أعلم..

المعنىٰ في ذلك: أن الأمة ستنقسم علىٰ ما ذكر (عليه السلام) إلىٰ ثلاثة أطباق، وقد وصف لك كل طبق بصفته، وأنت متمكن من الكون في أي طبقة اخترت، فاجعل لنفسك الاختيار فأنت مؤتمن عليها، واعلم أنك إن لم تكن في الطبق الأول كنت من الطبق الأوسط، وإن لم تكن من الأوسط كنت من الأسفل، فلا تظنه الهزل، بل هو حق كما انك تنطق.

قوله (عليه السلام): «أما الطبق الأول، فلا يرغبون في جمع المال، وادخاره، ولا يسعون في اقتنائه واحتكاره إنما رضاهم من الدنيا سد جوعة، وستر عورة، وغناهم فيها ما بلغ بهم الآخرة، فأولئك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

الرغبة: هي الحرص. والجمع معروف. والمال ما يتحول من الأملاك، وسمي مالاً، لأنه يميل بصاحبه إلىٰ حبه.

والادخار هو الحفظ والمنع. والسعي معروف، وقد تقدم معناه، والاقتناء التملك. والاحتكار حفظ شديد في الأصل وصار في الشرع منع المبيع عن البيع عند مساس الحاجة العامة إليه. والرضىٰ نقيض الغضب. والسد رفع الخلل. والجوعة إحدىٰ حالات الجوع. والستر التغطية، وهو مصدر. والعورة معروفة، وفي تحديدها اختلاف بين أهل العلم، وعندنا أنها من تحت السرة إلىٰ تحت الركبة في الرجل والمملوكة، والحرة عورة كلها علىٰ الأجانب، لقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) النساء عَيٌّ، وعورات فعم، وعلىٰ محارمها رأسها، وصدرها، ويداها إلىٰ عضديها، ورجلاها إلىٰ

(١) سورة القصص آية ٢٣.
(٢) سورة الانشقاق آية ١٩.

نصف ساقها ليس بعورة، وليس بين الزوجين عورة جملة. والغنىٰ نقيض الفقر، وهو معروف. والبلاغ الوصول. والآخرة دار الحساب، والعقاب والثواب. والخوف توقع شر مجهول وقت الهجوم. والحزن شدة الغم..

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) قدم الطبق الذي يجب أن يقدم، لكونه أشرف وأعظم أما أنهم لم يرغبوا في جمع المال، وادخاره ولا سعوا في اقتنائه، واحتكاره، فلعلمهم ان كل مجموع يؤول حساباً وكل محتكر ينقلب عقاباً، وقد عرفوا مآل جمع الجامعين، وحكرة المحتكرين أنه انتهىٰ إلىٰ التبديد، والتفريق والتشتيت والتمزيق، فلم يستقر له أربابه، ولا بقي لجامعيه نصابه، بل بقي عليهم حسابه، فرفضوه رفض المحايض القذرة، وعافوه عيفه الجيفة المذرة. صغر في أعينهم كبيره، وحقر عظيمه، ورغبوا عنه، ولم يرغبوا فيه، وسعوا منه، ولم يسعوا له، وحكروا العمل الصالح، وادخروا السعي المفيد، فكان نهاية رضاهم عن الدنيا جوعة، لتستقيم له آلة العبادة، وستر العورة ليؤدوا الفروض كاملة، وأرادوا هذا السبب اليسير منها لغيرها ففازوا مع الفائزين، ونجح سعيهم، وصلحت أمورهم، وبلغوا مبالغ الصالحين السابقين الذين نبذوا الدنيا وراء ظهورهم وجعلوا الآخرة نصب عيونهم، فأماتوا الفاني، وأحيوا الباقي وطلبوا الأمر من وجهه، وطبقوا مفصل الصواب لحينه، فوصلوا الآخرة آمنين لا خوف عليهم، لأن الخوف أمنّهم، ولا هم يحزنون، لأن الحزن شعار غيرهم كتب لهم براءة من ذلك كله، فجاؤوا بها مختومة، فقيل لهم: جوزوا، فقد أنجزتم العمل، وأنجز ربكم لكم الوعد، فأنتم الفائزون حقاً...

قوله (عليه السلام): «وأما الطبق الثاني، فيحبون جمع المال من أطيب سبله، وصرفه في أحسن وجوهه يصلون به أرحامهم، ويبرون به أخوانهم، ويواسون به فقراءهم، ولعض أحدهم علىٰ الرضف أسهل عليه من أن يكتسب درهماً من غير حله، أو أن يضعه في غير وجهه، أو أن يمنعه من حقه، أو أن يكون خازناً له إلىٰ حين موته فأولئك الذين إن نوقشوا عذبوا، وإن عفي عنهم سلموا...».

المحبة نقيض الكراهة، والطيب نقيض الخبيث، وأصل الطيب ما

تشتهيه النفس، والخبيث ما تنفر عنه، ثم صار الطيب الحلال وإن كان كريهاً، لأنه يؤدي إلىٰ ما تنفر عنه النفس.

والسبل هي الطرق. والصرف توجيه الأمر إلىٰ جهته. والأحسن نقيض الأقبح، وهي طرق الخير لأنها تؤدي إلىٰ الحسن المحبوب. والوجوه هي المذاهب. والصلة نقيض القطع. والأرحام الأقارب، لكون الأرحام جامعة لهم في الأصل. والبر نقيض العقوق.

الأخوان هم المشاركون في النسب، أو الدين. والمواساة هي المشاركة للغير، والمساواة له بالنفس والأهل، وأصلها المساواة، وهي لغة فيها بالتقديم كما بالتأخير، كما يقال: جبذ وجذب، والمعنىٰ واحد وفقيره من يعنيه أمره من الأقارب والجيران. أضافهم إليهم في الدار، والنسب، والعض معروف، والرضَف حجارة حارة تكون أحر من الجمر يرضف بها اللبن، وغيره. أي ينضج ويشوى. والكسب، والحرف، والجمع معناها واحد. والدرهم وزن معروف. والحل نقيض الحرام. والوضع نقيض الرفع. والوجه هو المذهب. والمنع نقيض الإعطاء. والحق هو ما يحق أي يجب إخراجه فيه. والخزن هو الخبأ، والحفظ. قال الشاعر:

لم لا يخزن فينا لحمها   إنما يخزن لحم المدخر

لما كانوا إذا خبئوا اللحم قالوا خزن، لأن تغيره كان من خزنه فسموه باسم سببه، ومثله كثير في كلامهم. والحين الوقت. والمناقشة شدة البحث مأخوذة من النقش، وهو البحث والتتبع. والعذاب هو الألم، والاستحقاق. والعفو، والصفح هو الترك والمسامحة أخذ من عفو المرعى الذي لم يعرض له. والسلامة نقيض الهلاك، ومواقعة المكروه.

المعنىٰ في ذلك: ثم أتبعهم (عليه السلام) بهذا الطبق الثاني وأين هم الآن والله المستعان «وهم الذين يحبون جمع المال من أطيب سبله» أي طرقه، ولا يرغبون في جمع الحرام، ولا لف الحطام، وإنما يريدون كسب الحلال، لما بين (عليه السلام) من كريم الخِلال، ويصرفون ذلك في أحسن الوجوه، والمسالك من صلة الأرحام، وبر الأخوان، ومواساة الفقراء، ثم بين (عليه السلام) شدة ورعهم، وقلة طمعهم، وأن أحدهم يستهون العض علىٰ

الرضف وهي الحجارة المحماة التي لا تنقرب أسهل على أحدهم من أن يكتسب درهماً من غير حله، وأن يضعه في غير وجهه، أو أن يكون خازناً له إلى حين موته أي خابياً له، وحافظاً ليخلفه ميراثاً لوراثه لا يريد بذلك وجه ربه، ثم بين (عليه السلام) ان أولئك الذين إن نوقشوا عذبوا بالمناقشة لا غير بمعنى أتعبوا، وشحنوا، وإن عفي عنهم من المناقشة، بأن حاسبوا حساباً يسيراً سلموا من العذاب والمناقشة، ومشقة المطالبة فانظر أرشدك الله إلى هذه الطبقة ما أعلاها، وأغلاها في وقتنا هذا، وأجل على خاطرك ما بقي منهم، وهل هي في وقتنا هذا إلا غرة في وجه الزمان، أو درة في عقد الأيمان. . ؟ ومن لنا بأولئك لنتعلق بأهدابهم، ونتمسح بأثوابهم. وأما رحمك الله المدعون لهذه الحالة، وما فوقها، فكثير، ولكن شاهد الحال يفضحهم! ترى أحدهم يتشكك في القطرة من ماء السماء تصيب ثوبه، ولعله لو أعطى صرة فيها ألف دينار لقال صمي صمام لا خلف ولا أمام لا يصل منها فقيراً، ولا يبل منها رحماً، ولا يبر أخاً، فنسأل الله التوفيق، فإن استطعت رحمك الله أن تجعل نفسك من الطبق الأول فهو الفضل الكامل، وأهله قليل، وإلاّ فإياك أن تدحض قدمك من الكون مع هذا الطبق الثاني، فليس في الطبق الثالث شيء مما تريد، ولا إليه مبلغ، وما قولك لو جيء بك إلى خالق ليرمي بك من شرفة ألم تكن تتشبث بيديك، ورجليك، وتعمل كل حيلة في الاستقرار؟ وأما ضرره إلى فوت الروح، وهو ساعة، فلا يغرنك بالله الغرور؟ فليس هذا من المحال في شيء، فانظر لنفسك وأنت في مهل، وعلى صير دعة تكليف هين، وحق بين فما عذرك إن كنت غداً من الهالكين، وقد تنكبت الصراط المستبين. . . ؟

قوله (عليه السلام): «وأما الطبق الثالث فيحبون جمع المال مما حل وحرم، ومنعه مما افترض، أو وجب إن أنفقوه أنفقوه إسرافاً، وبداراً، وإن أمسكوه أمسكوه بخلاً واحتكاراً، فأولئك الذين ملكت الدنيا زمام قلوبهم حتى أوردتهم النار بذنوبهم. . .».

الحب نقيض البغض. والجمع نقيض التفريق. وحل نقيض حرم. والمنع نقيض الإعطاء. . . والفرض هو القطع لوجوب الحق. والواجب الواقع اللازم. والانفاق نقيض الإمساك. والإسراف إنفاق أكثر مما يحتاج

إليه. والبدار من المبادرة وهو المسابقة بفعل المحظور، والإمساك هو المنع. والبخل والشح معناهما واحد هو التولي علىٰ الأمر، والزمام أصله في الراحلة تودع في أنفها برة، أوخشاش، ثم يجعل فيه سير ثم يُلقى فيه الخطام، فيقاد بلا امتناع. والإيراد، والأقحام معناهما واحد، وأصله الأيراد في الأبل تورد الماء، ثم نقل إلىٰ غيره. قال الشاعر:

أوردهـا سعـد وسعـد مشتمـل يا سعد لا تروي علىٰ هـذا الأبل

والذنب هو الفعل القبيح، أو ترك الواجب.

المعنىٰ في ذلك: أن هذا الطبق أرذل طبقات العباد، وأقربهم من الضلال والعناد، وإنما كان ذلك، لأنهم أحبوا جمع المال جملة من حل وحرام، ومنعوه من قروض، أو واجب ومعناهما واحد إلاّ أن الذي يتجه عندنا في الفرق، ويحمل عليه الكلام النبوي المفيد أن الفرض هو المحدد من الزكوات والمعينات، والأخماس المحددات. والواجب ما يوجبه سبب متحدد، كالإنفاق في سبيل الله، ونفقة الأقارب عند الافتقار، وقضاء الحاجة، وإباحة الماعون إلىٰ غير ذلك. ثم أخبر (عليه السلام) بأنهم إن أنفقوا أنفقوا إسرافاً وبداراً، وإن أمسكوه أمسكوه بخلاً واحتكاراً فإنفاقهم عصيان، ومنعهم عدوان، فبين (عليه السلام) أنهم الذين ملكت الدنيا زمام قلوبهم، فلم ينصرفوا عن مرادها ولا سلكوا غير سبيلها، ولم يزل ذلك دأبهم حتىٰ وردوا النار، وبئس الورد المورود بذنوبهم لا بأمر آخر غير ذلك فانظر رحمك الله لنفسك هل في سبيل هؤلاء مصلحة لك تسكلها، أم هي مهواة مهلكة فتتركها؟ لا تملك الدنيا الدنية زمامك، فإن الخير الدائم أمامك: فبادر حمامك ولا تفجر أمامك، واتعظ فقد كثرت المواعظ والعبر، وكن من الدنيا علىٰ حذر. . . ! جعلنا الله وإياكم من الرافضين لها تحرجاً الطالبين منها مخرجاً، والصلاة علىٰ النبي وآله. . .

الحديث الثلاثون

عن أنس بن مالك، قد تقدم الكلام في نسبه وذكر طرف من حاله قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم علىٰ رزق الله، وان تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا ترده كراهة كاره. إن الله تبارك اسمه بحكمه جعل الروح، والفرح في الرضىٰ واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط، إنك لن تدع شيئاً ابقاءً ,لله إلّا أتاك الله خيراً منه، ولن تأتي شيئاً تقرباً إلىٰ الله سبحانه إلّا أجزل لك الثواب عنه، فاجعل همك وسعيك لآخرة لا ينفد فيها ثواب المرضي عنه، ولا ينقطع فيها عقاب المسخوط عليه. . .».

إن حرف توكيد ينصب الإسم فيرفع الخبر. . والضعف نقيض القوة. واليقين نقيض الشك. والرضىٰ نقيض الغضب. والسخط نقيض الرضىٰ. والحمد نقيض الذم. والرزق مالك تناوله وليس لأحد منعك منه علىٰ بعض الوجوه، وأصله العطاء لا فرق عندهم في الأصل بين أعطاه، ورزقه، ثم صار في العرف العطاء عام، والرزق خاص. والذم نقيض المدح. وآتاك، وأعطاك واحد. والله الذي تأله إليه القلوب، وتصغي إلىٰ محبته.

المعنىٰ في ذلك: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أخبر وهو الصادق في خبره، أن من ضعف اليقين أن ترضي المخلوق بسخط الخالق، والمملوك بسخط المالك، ولا شك أن هذا، وإن كان من ضعف اليقين، فهو من سوء

التدبير، لأن الأولىٰ أن ترضي المالك، لأنه الذي ينبغي أن يصطنع ، وهو الذي إليه النفع والضر إذ المملوك لا حق له مع المالك، فإذا فعلنا هذا الحال، وأرضينا المخلوق بسخط الخالق كنا في حكم الشاكين في المالك الخالق، والشك فيه كفر، وكيف تُرضي من لا يضر ولا ينفع؟ ضرراً يدوم، ولا نفعاً يدوم بسخط من بيده الضرر والنفع، ومن عنده العطاءوالمنع الدائم الذي لا يزول أبداً، وهو الذي ينفع به الاعتداد، وكذلك إذا أعطوك شيئاً بالغت في جهدهم إلىٰ حد تنسى معه من الشيء من عنده لك، ولهم، ومن الواصل إليك منهم في الحكم كأنه من جهته، ولأنه أمرهم بإيصاله إليك وعرفهم حسن اصطناع المعروف، ووعدهم الأجر عليه، فهو من جهته علىٰ هذا. وإنما حمدكَ لهم حمد اعتراف، بل يقع علىٰ هذا أن لا تحمدهم، وإنما تشكرهم وتثني عليهم إلىٰ حد مخصوص لا تجاوز فيه القدر الواجب. وكذلك ان منعوك لم تبالغ في ذمهم إذ منعوك ما لم يجب إعطاؤك إياه، فأما فيما فرض الله عليهم، فلا بأس بذمهم، لأن الله قد أتاك ذلك حكماً، وجعل لك معهم قسماً، وإنّما هذا فيما يتعلق بمطالب الفضل التي لا تجب في الأصل، فلا يجوز لك أن تذمهم علىٰ منع شيء من ذلك إذ هم والحال هذه لم يخلوا بواجب.

قوله (عليه السلام): «ان رزق الله لا يجره حرص حريص ولا ترده كراهة كاره. . .».

قد تَقدم الكلام في الرزق. والجر والجذب معناهما واحد. والحرص مبالغة في الطلب، ومنه أخذ الحرص، وهو الكشط في الجلد من شدة المباشرة، ومنه الحارصة الضعيفة من الشجاج. والرد نقيض الإرسال. والكراهة نقيض الإرادة. . .

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أشار إلىٰ أن لكل إنسان في الذكر الحكيم رزقاً محدوداً، أو أجلاً مضروباً لا يزيد في هذا حرصه، ولا يؤخر هذا محيصه، فإذا اجتهد المجتهد لم يزد علىٰ ما قدر له في الذكر الحكيم، وقد قال (تعالىٰ): ﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[1]

---

(١) سورة الواقعة آية ٦٣.

وإنما منا تهيئة الأسباب، ومن عنده العطاء، إذا شاء، وعلم المصلحة. والرزق من قبله (تعالىٰ) نوعان مشروط، وغير مشروط. فالمشروط ذوات الأسباب الاعتيادية كالزرائع، والصنائع، والتجارات، والأثارات، وما شاكل ذلك من أنواع الاكتساب. وغير المشروط هو الحاصل من الصدقات، والهدايا، والمنح والعطايا، والجميع من ذلك لا ينال العبد فيه حرص، أو لم يحرص إلاّ ما قدر الحكيم (سبحانه)، لأن الأسباب قد تستوي. وتختلف الأرزاق رأينا ذلك عياناً وعرفته العقلاء، وقام به الدليل، ولا تأثير لكراهة الكارهين في ذلك إذ فعل الغير لا ينقضي بحسب كراهتنا، وصارفنا ولا يحصل بحسب قصدنا، ودواعينا، ولذلك فرقنا بين فعلنا وفعل غيرنا، فتأمل ذلك تجده. وأقلل الحرص، وأجمل في الطلب، واجعل شغلك لطلب ما عند الله (سبحانه) من النعيم الدائم، والخير الباقي الجزيل.

قوله (عليه السلام): «إن الله تبارك اسمه بحكمه جعل الروح والفرج في الرضى، واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك، والسخط، معنىٰ تبارك: دام وبقي. والإسم هو المبين عن مسماه. والحكيم والحكمة معناه واحد، وهو الانتهاء في العلم والمعرفة، وهو الذي يمنع من الاقتحام في المهالك. ومنه حكمة الدابة. والروح والسعة والدعة. والفرج نقيض الشدة، وهو مأخوذ من الفرج في الباب، والفتح، فكان صاحب الشدة مغلق عليه بالأقفال فتنفتح له الأبواب، فتتضح الفجاج. والفرج هو الطريق والسبيل. والرضىٰ قد تقدم. واليقين، والهم، والحزن، والشك، والسخط كذلك.

المعنىٰ أنه (عليه السلام): «بين أن (الله تبارك اسمه وتعالىٰ) جده بحكمه، وعلمه الذي أحاط بكل شيء، واستوضح دخيلة كل حي جعل الروح، والدعة، والسعة، والفرج، والخلاص من الشدة ووجود الهوج الواسعة المسالك في الرضىٰ عن الله (سبحانه)، بما قسم من قليل وكثير، ودقيق وجليل. وان لا نتهمه في قسمه، ولا نقتده في حكمه، لأنه أعلم بمصالحنا منا. وكم من محبوب سألناه لو أعطينا فيه سؤلنا، لكان وبالُنا، وساءت حالنا. وكيف نتهم من يقول، وكل شيء عنده بمقدار؟ ويقول (سبحانه): ﴿وينزل بقدر ما يشاء﴾ ويقول: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾، ويقول سبحانه: ﴿ولولا أن الناس أمة واحدة﴾ الآيات ويقول (سبحانه): ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق

بعض درجات﴾[1] ويقول (سبحانه): ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾[2] ويقول: ﴿فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربُه فأكرَمَهُ ونعَمُه فيقول ربي أكرمني وأما إذا ما ابتلاه وقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن..﴾[3] فجعل الجميع بلوىٰ إلىٰ غير ذلك من الآيات التي معانيها تشهد لها أدلة العقول، وتسبق إلىٰ الأفهام. فإن جعلنا والحال هذه من أهل البسط، والتوسيع، لزمنا طريقة الشكر، والحمد والانصاف من النفس، وتأدية الحق، وتركنا سُنة الجمع والمنع، والاحتكار والاستبداد، والغمص والأشر، والبطر والرياء، والمباهاة والمكاثرة، فإن هذه آفات الغنى، ولها توابع. وإن ابتلانا، وقدر علينا رزقنا وطّنا نفوسنا علىٰ الصبر، واحتمال مؤنة الضرر والفقر، وعلمنا أنا قد حلينا بحلية الصالحين، وألبسنا شعار البنين وفرق بيننا، وبين المشرفين، وأربح علينا من مؤنة شكر المكثرين، ومن التعرض لزوال نعمة المتجبرين، فكنا في شدة ننتظر الرضاء، وضيق ننتظر الفرج، فكنا بالحساب موقنين، وعن الله راضين، ولحكمه قابلين، وبقوله قائلين، ولم تستخفنا أقاول المعطلين. ولا تخاريف المبطلين الذين جعلوا دنياهم دار مقامتهم، وزعموا أن الله (تعالىٰ) جعلها ثواباً للمطيعين، وزواها عنْ العاصين رداً للكتاب، ومكابرة للعيان، وجهلاً بمواضع الحكمة ومواقع التدبير! قال العليم القدير: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾[4] وإذا شككنا في هذا الأمر، ولم نكن فيه علىٰ يقين لم نزل مهمومين محرومين عن الخيرمحرومين لا نحن عن الله، والعياذ بالله راضون، ولا سخطنا يوجب تغيير موجبات الحكمة، ومواضع تدبير العلم بمصالح الدين، ولا يجب أن يصلحوا لا محالة، وإنما عليه (سبحانه) يقربهم بما يكون في علمه المخزون، وغيبه المكنون. حالهم معه أقرب إلىٰ الخير، وإن تمادوافي النفار، وتغاروا في الفرار، فالجرم لهم، ولله الحجة البالغة عليهم.

قوله (عليه السلام): «إنك لم تدع شيئاً اتقاءً لله إلّا أتاك الله خيراً منه،

---

(١) سورة الزخرف آية ٣٢.
(٢) سورة الرّعد آية ٢٦.
(٣) سورة الفجر آية ١٥.
(٤) سورة المؤمنون آية ٥٥.

ولن تأتي شيئاً تقرباً إلىٰ الله (سبحانه) إلاّ أجزل لك الثواب عنه. . .».

تدع يستعمل منه مستقبله دون ماضيه. والشيء ما يصح العلم به. والخير عنه مفرداً. والاتقاء هو تلقي الأمر بما يدفعه من ستر، أو جنّه. وخيراً منه المراد شيئاً فاضلاً، لأن المتروك قد لا يكون فيه خير جملة علىٰ الحقيقة. وإتيان الشيء نقيض تركه. والتقريب، والتحبب هو فعل ما يريد المتقرب إليه، والمتحبب به فعله، أو تركه. والاجزال الإكثار. والثواب هو ما يرجع علىٰ الإنسان من جزاء عمله. أخذ من تاب إذا رجع. . .

المعنىٰ في ذلك: أن العبد لا يترك شيئاً خيفة عذاب الله (سبحانه) إلاّ أتىٰ الله العبد خيراً من ذلك المودوع في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً، فلا يكثر ذلك من عوارفه، ومننه، ولا يجب أن يكون في الدنيا لا محالة، لأن الحكمة قد تمنع من تعجيله، بأن يكون تعجيله مفسدة في الدين، فلا نعلم ولا يجوز من الحكيم (سبحانه) إيصاله إلينا في الدنيا. فأمّا الآخرة فلا بد من وصوله إلينا فيها علىٰ كل حال معاقباً كان العبد، أو مثاباً إن كان مثاباً زيد لأجل ذلك في أنواع كرامته، وإن كان معاقباً أسقط عنه من العقاب بقسطه، وذلك بلا شك أصلح له، وخير من مواقعةما تزول لذته، وتبقى تبعته، فإذا الترك أصلح وأولىٰ، وإذا أتيت شيئاً تقرباً إلىٰ الله معناه، وأنت لا تقصد إلاّ وجه الله أجزل الله، بمعنىٰ أكثر ووسع. الجزيل هو الكثير الواسع لك الثواب عنه معناه عن ذلك الفعل، لأنك قصدت به وجهاً لله، وجردته عن الإعراض إلاّ التقرب إليه، فكيف وهو أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء يبعدك والحال هذه؟ ما أسوء ظنك، وأقبح نظرك إن خيل إليك أنه لا يجزل ثوابك، ولا يحسن ما بك، وهو أبر بك من أخيك، وولدك، وأحنا عليك من والدتك ووالدك، علاك في ظلم الأرحام، ولين لك المهاد، وأمدك بما لم تكن تقدر على الوصول إليه بحولك، فأين يتاه بك، ثم هيأ لك الغذاء في صدر والدتك سائغاً عذباً مريئاً يلائم طباعك ويسهل عليك تناوله، وتقبل إليك الوالدة ويحنو عليك الوالد حتىٰ يصلحوا من شأنك، ويرموا حالك. ولما كانت الحيوانات لا تحسن ما يحسن الناس جعل أولادها شداداً عند خروجهم يعرفون الأم وتعرفهم، ويعينونها علىٰ نفع أنفسهم وتناول أغذيتهم، فلا إله إلاّ هو. تعس الظانون به سوءاً عليهم دائرة السوء، وغضب الله عليهم، ولعنهم

وأعدلهم جهنم وساءت مصيراً، وتعساً لأهل الطبع إن طولبوا لم يرجعوا إلاّ إلىٰ علة عند أهل التحصيل منهم لا تؤثر في أكثر من معلول وهذه أمور مختلفة، وأحوال متنقلة تدل علىٰ صانع حكيم مدبر عليم يجب في كل حال شكره، ويلزم في كل أوان ذكره. . .

قوله (عليه السلام): «فاجعل همك وسعيك لآخرة لا ينفد فيها ثواب المرضي عنه، ولا ينقطع فيها عقاب المسخوط عليه. .».

قد تقدم الكلام في معاني الهم، والسعي، والآخرة، والنفاذ، والثواب والرضىٰ. والانقطاع نقيض الاتصال. والعقاب الجزاء والنكال، لأنه يعاقب الفعل بمعنىٰ أنه يستحق في ثانيه. وأصل العقاب الشدة، ومنه عقاب المرتقا.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمرنا أن يكون سعينا وهمنا لدار الآخرة التي هي دار القرار، والبقاء والدوام فلا ينقطع ينفذ فيها ثواب المرضي عنه، وهو العبد الواصل إلىٰ ربه خارجاً عن عهدة ما لزمه له من الحق بتأدية، أو عذر صحيح بندامة حقيقية، فإنه والحال هذه يرضىٰ عنه، لكرمه وعطفه وجوده ولطفه، وهذا الخبر دليل علىٰ صدق ما ندعيه من التخليد لأهل الوعد والوعيد، وقد قال (سبحانه)، وكنىٰ عن أهل النار: ﴿وما هم عنها بغائبين﴾[1] وقال: ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾[2] والخلود هو الدوام، والتأبيد تأكيد له. وفي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «لو قيل لأهل النار: أنكم ماكثون في النار بعدد كل حصاة في الدنيا لفرحوا، ولو قيل لأهل الجنة: إنكم ماكثون في الجنة بعدد كل حصاة في الدنيا لحزنوا» وإنّما يقال: يا أهل الجنة خلود، ولا موت، ويا أهل النار خلود، ولا موت، فهنالك يبلس المبلسون، ويفرح المؤمنون وينجوا من عقاب لا ينقطع مع رضىٰ الرب الكريم، وما يقع به من الحلال العظيم، فإنا قد علمنا أن العقلاء يؤثرون رضىٰ الملوك، ليحصل لهم من رضاهم ما يكسبهم جلالة عند الناس ويستهونون في ذلك إتلاف النفائس، والنفوس! جعلنا الله وإياكم من الفائزين برضوانه الحائزين لرفيع جناته، والصلاة علىٰ محمد النبي وآله.

---

(1) سورة الانفطار آية ١٦.

(2) سورة الجن آية ٢٣.

الحديث الحادي والثلاثون

عن ابن عمر وقد قدمنا الكلام في نسبه وذكر طرف من حاله قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ليس شيء يباعدكم من النار إلا وقد ذكرته لكم، ولا شيء يقربكم من الجنة إلّا وقد دللتكم عليه. إن روح القدس نفث في روعي انه لن يموت عبد حتىٰ يستكمل رزقه، فأجملوا في الطلب، وقد يحملنكم استبطاء الرزق علىٰ أن تطلبوا شيئاً من فضل الله بمعصيته، فإنه لن ينال، ما عند الله إلّا بطاعته ألا وإن لكل امرء رزقاً هو يأتيه لا محالة فمن رضي به بورك له فيه فوسعه، ومن لم يرض به لم يبارك له فيه فلم يسعه، وان الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه أجله...».

النار معروفة نعوذ بالله منها. والتقريب نقيض التبعيد.

وذكرت نقيض نسيت، وأهملت. والجنة الحديقة التي أجّنت قرارها أشجارها، وأصل الجنة الأجنان. والدلالة والتعريف معناهما واحد.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبرنا وهو الصادق الخبر محمود الأثر ان ما به شيء يباعدنا من النار إلّا وقد ذكره لنا وعلّمنا إياه بما علّمه به ربه علام الغيوب، ولا شيء يقربنا من الجنة إلّا وقد دلنا عليه، وأوضح لنا وجهه. فهذا لم يبق لنا حجة علىٰ ربنا، بل لله وله الحجة البالغة علينا، فإن نجونا فبتعريفه لنا ودلالته إيانا، فجزاه الله عنا خيراً، وإن هلكنا، فبسوء اختيارنا رُمينا، ومن أنفسنا أُتينا إذ نحن لا نترك ما يباعدنا عن النار، ونطرح ما يقربنا من الجنة إلّا، لأحد أمرين، إما لشك في أمر المخبر، وتبصير

المبصر، فذلك كفر نعوذ بالله منه إذ فاقت الدلائل علىٰ صدقه، وإما تعمداً للمعصية وإلقاء بالنفس عن معرفة في الهلكة، فذلك ما لا يرحمنا فيه راحم ولا يعصمنا منه عاصم. فالواجب أن ننظر لأنفسنا في طرق النجاة، وأسباب الحياة، والتباعد عن النار، والتقرب إلىٰ دار القرار، ومع ذلك فإنها جنة لا تشبه الجنان! فيها قصور مشيدة، وقباب معمدة، وعقود مكللة، وخيام مجلله، وأنهار مطردة، وحدائق منسردة مشيدة بالذهب والفضة معمدة بالياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر، واللؤلؤ والجوهر! طينها من المسك والعنبر.

وكيف يصف الواصف أمراً قال له الجبار القادر: كن فكان؟ هل يزهد فيها زاهد؟ أو يرقد عنها راقد؟ فأما النار، فالنار غضب في غضب، ولهب يعلوه لهب، وإدراك متناهية في الهبوط، ونقم دائمة السقوط، لا يرحم باكيها، ولا يُشكىٰ شاكيها، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، فلم ينام هاربها ويرد نصيحة المخوف منها. . !

قوله (عليه السلام): «إن روح القدس نفث في روعي انه لن يموت عبد حتىٰ يستكمل رزقه، فأجملوا في الطلب. . .».

الروح هو أصل الحياة، وللناس فيه اختلاف كثير.

قد ذكرنا في شرح الرسالة الناصحة، وهو هاهنا جبرائيل (عليه السلام) لما كانت به حياة العباد في دينهم سمي روحاً لذلك. والقدس الله الطاهر من كل قبيح. أصل التقديس الطهارة، وأضيف إليه إضافة تكرمه فهو روح الله، كما تقول في عيسىٰ بن مريم (عليه السلام) من الآدميين، والنفث الإلقاء من الفم، وأخذه من الحياة تنفث بالسم، والعالم ينفث بالحكمة. والروع بضم الراء هو النفس، والروع بفتحه الفزع والعبد الذليل المذلل، وهو يريد هاهنا الإنسان. والاستكمال هو الاستيفاء. والرزق ما فرض الله (سبحانه) لعبده في مدة حياته، لأنه فزع منه موسعاً، أو مضيقاً. والاجمال نقيض الإلحاح والإلحاف، وهو مأخوذ من الجمال، وهو الحسن. والجمال مأخوذ من الجميل وهو الودك والدهن. والطلب هو البحث والكسب والحركة.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر أن جبرائيل (عليه السلام)

أخبره عن الله (سبحانه) أنه لن يموت عبد حتىٰ يستكمل رزقه، فأجملوا في الطلب معناه أطلبوا طلباً رفيقاً هيناً، فإن أحدكم لا يموت حتىٰ يستكمل رزقه في هذه الدنيا. فإن قيل ما فائدة الطلب؟ قلنا إنما هذا في الرزق المشروط بشروط الاعتياد كما قدمنا في الزراعات، والصناعات، وإنّما لا يجعلها هجيراه، وطيئة، ويشتغل بها عن عبادة ربه والعمل لمعاده لينال بزعمه ما لم يكتب له، أو لا ينقص بتوهمه ما قدر له، فإن ذلك لا يؤثر في واحد من الأمرين. فتفهم ما ذكرت لك موفقاً.

قوله (عليه السلام): «ولا يحملنكم استبطاء الرزق علىٰ أن تطلبوا شيئاً من فضل الله بمعصيته، فإنه لن ينال ما عند الله إلاّ بطاعته...».

الحمل هو إيصال الشيء إلىٰ الشيء، وأصله الإقلال علىٰ الظهر، وأخذ من حمل السيل للغثاء يسمىٰ حميلاً. قال الكميت لقضاعة لمّا تقحطنت في أيام معاوية، وهي منسوبة في معد بن عدنان إلىٰ ذلك الزمن:

علامَ نزلتم من غير بؤس ولا ضراء منزلة الحميل

وإنما يقال لما كان علىٰ الظهر حملاً، ولما كان في البطن حملاً بالفتح للفرق لا غير. وإلاّ فأصله الإقلال كما ذكرت لك. والاستبطاء والاستراثة معناه واحد، وهو كثرة انتظار ما يراد وصوله. والرزق قد قدمنا معناه. وفضل الله عطاؤه، ومنه والمعصية قد تقدم الكلام فيها. النيْل هو الوصول، وإدراك ما عند الله هاهنا ثوابه في الآخرة.

المعنىٰ في ذلك: أن كثيراً من العاصين قد شافهونا مراراً، وحاورونا أسفاراً انه لا يحملهم علىٰ المعصية إلاّ الفقر، واستبطاء الرزق وانهم لو عجل الرزق لما عصوا بزعمهم، وهذا منهم توهم جهل مضاف إلىٰ عصيانهم، وبهتان من أنواع طغيانهم، لأن الله لو علم مصلحتهم في الغنىٰ لأغناهم، فالواجب علىٰ العبد أن يكون في حال انتظار الرزق مستشعراً لخوف الرب (سبحانه)، فإن عجل رزقه شكر، وأن أخر صبر، ولا يبادر بالمعصية، فإن الصائر إليه ليس برزق له والحال هذه فإن الثواب الذي عند الله (سبحانه) هو أجل مطلوب لا تنال إلاّ بطاعته، فكيف ينبغي للعاقل أن يفوت علىٰ نفسه الخلود في جنات النعيم بناقة يشتلها ، أو شاة يستلها؟ وإن

جعلها إبلاً وشاءً فما عسىٰ أن يكون نفعها، أو ذهباً أو فضة، وكنـوزاً مكنزة؟ فكم يكـون بقاؤهـا ومبلغ غنـائهـا؟ لا خيـر إلاّ غنـاء الآخـرة، ففيـه فليـرغب الراغبون، وله فليتجرد الطالبون.

قوله (عليه السلام): «ألا وأن لكل امرءٍ رزقاً هو آتيـه لا محالـة، فمن رضي به بورك له فيه فـوسعه، ومن لم يـرض به لم يبـارك له فيـه فلم يسعه، وان الرزق ليطلب الرجل، كما يطلبه أجله..».

السعـة نقيض الضيق. والبركـة الدوام. والأجـل هو الـوقت المضروب لمفارقة الروح للجسد. فلو صددنا عنه لحقنا كذلك الرزق.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبـرنا وهـو الصادق في خبـره أن لكل امرءٍ رزقاً يأتيه لا محالة، أي لا شك ولا مرية، فمن رضي بذلك الـرزق قل أم كثر بـورك له فيـه معناه دام وبقي، وصـرفت عنه الآفـات، فوسعـه كفاه وأغناه، وعلم أنه إن قل فهو مصلحة يعود نفعها عليه فـرضىٰ بقلته. وإن كثـر فهـو لمصلحة أريـد بها، فصـرفه في مصلحتـه، وقام بشكـره. وإن لم يـرض برزقه كان ساخطاً علىٰ ربه قد قلل في عينه كثير ما عنده، وكثر في عينـه قليل ما عند غيره، فوجده لا ينقطع، وصدره لا يتسع، والأرض عليـه كفة حـابل، وهو من نفسه في شغـل شاغـل لا سيما وقـد عقب ذلك (صلى الله عليـه وآله وسلم) بأن الرزق يـطلب العبد كمـا يطلبـه أجله. معناه أن الأجـل أكره شيء إلى الإنسان، وهو معرض عنه كاره لموافاته، وهـو يأتيـه لا محالـة، فكذلـك رزقه ولو كره وصوله إليه، ولم يتعرض لطلبـه، ولم يتعنىٰ في سببه لـوصله لا محـالـه! فنسـأل الله (تعـالىٰ) أن لا يجعلنـا من الممسكين تقتيـراً، ولا من المنفقين تبـذيراً، ولا من الـطالبين إلحاحـاً، ولا من السائلين إلحافاً ولا من المعرضين عن الارتياد والأعمال دار البقاء، ولا من السـاخطين عليـه في حكم القضاء، وأن يرضينا بقسمه ويمدنا بأنوار علمه، ويرحض درن ذنوبنا بتجـديد الإنابة ويوفقنا للإصابة، وان يكثر في أعيـاننا قليـل ما أعـطانا في دار الـدنيا، ويبارك لنا فيه إلىٰ نهايـة حاجتنـا القصوىٰ، ولا يخـرج عملنا عن قصـد وجهه بسلب التوفيق، ويمن علينا بالصدق والتصديق، ولا يجعلنا من الجهـال الذين أنكـروا حكمتـه في المفـاضلة في الـرزق بين عباده، وردوا قضـاءه تعـرضـاً لـلإلحاد في أسمـاءه، فأوجبـوا عليه مـا لم يـوجب علىٰ نفسـه ومـا لم تقض

الحكمة بإيجابه، وغمضّوا وجه الصواب علىٰ بصائرهم، ولم يردوا العلم إلىٰ ورثة الكتاب من عترة نبيهم (صلى الله عليه وآله) الذين هم سفن نجاتهم في بحار الهلكات وبغوامض علومهم تحل المشكلات، فكم من ناج بهم، وهالك فيهم؟ يا هذا أنصف نفسك من نفسك؟ أنت أعلم أم ربك؟ أم أنت هاديهم أهم أئمتك أم أنت إمامهم؟ ما عذرك عند ربك في ترك الفزع إليهم، والاستغناء بطفاحة الزبد عن خلاصة علمهم. فإن قلت: أتبع المتقدمين فلا قدمت، ولا سلمت هل الحكم إلاّ واحد؟ ولو خلصك عذرك لخلص من كان قبلك من آبائهم الذين قطعت علىٰ وجوب أتباعهم، وهو حق. وإنما عليك في المتأخر ان تجاثيه، فإن أوضح لك السبيل ونصب الدليل الذي لا نستطيع دفعه، وإلاّ انصرفت بعذر واضح، وأما أن تنج من مكان نائي، وترمي من وراء حجاب، فذلك مما يضرك، ولا ينفعك، وإنما نفثنا بهذه النفثة أرشدك الله، لأنا بتنا في أثناء هذا الخبر الشريف ما بهر العقول، وأوضح الدليل، وقد لقينا نصباً من جهال الشيعة يدعون العلم وهم نازحون عنه، والفهم وهم شاسعون عنه في الأرزاق إنها لا تكون إلاّ بالاحتيال والتصرف والحركة والتقلب دون اختيار الحكيم (سبحانه)، فحرك ذلك ساكناً، واستخرج كامناً. جعلنا الله وإياكم من الغاضبين له وفيه، القائمين لموجب العقل بما يعنيه، والصلاة علىٰ محمد وآله...

الحديث الثاني والثلاثون

عن معاوية وهو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف. وقد لعنه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان أمير المؤمنين علي (عليه السلام) يقنت بلعنه، وهو الذي أجرىٰ سب أمير المؤمنين علي (عليه السلام) علىٰ المنابر، وأقسم ليجعلنه سُنة. وقد قتل حجر بن عدي الكندي، وكان قتله أكبر حدث في الإسلام، وفي الحديث أنه قال: «لما عزموا علىٰ قتله في الشام، وكان من أكثر المسلمين عناية في فتحها: والله لئن قتلتموني فيها أي لأول رجل من المسلمين تنجه كلابها، ولمّا أستر أهل الشام بقتله قال رجل من المسلمين أتفرحون بقتل حجر بن عدي والله لقد رأيته يوم أذربيجان، وقد قتل تسعة من المشركين قبل أن يتامر جيوش المسلمين» وناهيك بمصاحبته لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) وحزبه لأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) البدريين، والعقبيين والأحديين الذين كانوا نجوماً في الإسلام يقتدىٰ بها فرضىٰ الله عنهم. وكم عسىٰ أن نعد من أحداثه؟ وإنما قبلنا الرواية عنه لأنها في حال ستره قبل انكشاف أمره، ولأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من كل من وجدها معه، ولأن الحديث مما يتعلق بالوعظ والتخويف. قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علىٰ المنبر يقول في خطبة أحد العيدين: «الدنيا دار بلاء، ومنزل قُلعة وعناء. قد نزعت عنها نفوس السعداء، وانتزعت بالكره من أيدي الأشقياء. فأسعد الناس بها أرغبهم عنها وأشقاهم بها أرغبهم فيها هي الغاشة لمن استنصحها، والمغوية لمن أطاعها، والخاترة لمن انقاد لها، فالفائز من

أعـرض عنها، والهـالك من هـوىٰ فيها طـوبىٰ لعبد أتقىٰ فيهـا ربه، ونـاصـح نفسه، وقدم توبته، وأخر شهوته من قبل أن تلفـظه الدنيـا إلىٰ الآخرة فيصبـح في بـطن موحشـة غبراء مـدلهمة ظلمـاء لا يستطيـع أن يزيـد في حسنـه، ولا ينقص من سيئه ثم ينشر فيحشر إما إلىٰ جنـة يدوم نعيمها، أو إلىٰ نار لا ينفـذ عذابها. . .».

قد تقدم الكلام في الخطبـة. أحد العيـدين يريـد الأضحىٰ، أو الفطر. وقد تقدم الكلام في أمر الدنيا، والدار، والبلاء هـو ما يبتلي بـه الإنسان. أي يختبر. قال الراجز:

الـيـوم أبـلوك وتـبـتـليـنـي   والـيـوم تـبـلو غـلظي ولـيـنـي

والمنزل هو ما ينزلـه الإنسان أي يسكنـه. والقُلعة هـو الانتقال بكـرهٍ لا يكـون قُلعـة إلّا كـذلـك، فمن خـرج بـاختيـاره فليس بمقلوع وأصله من قلع الشجـرة. والعناء هـو التعب والشدة والنـزع هو الإخـراج بهـون، كمـا تنـزع الشعرة من العجين، والانتزاع لا يكون إلّا بشدة، وعناء الكره، والإكراه واحد وهـو مـا تنفـر عنـه النفس ﴿كتب عليكم القتـال وهـو كـره لكم﴾[1] أي شـاق عليكم. والأيدي جمع يد. والأشقياء جمع شقي.

المعنىٰ في ذلـك: أنه (عليـه السلام) بين أن الـدنيا دار بـلاء، ومنـزل قلعة، وعناء، وكذلك عرفناها وعايناها من بلواها أن سرورها لا يدوم، وخيرها لا يبقىٰ، وصلاحها لا يستمر. كم من مصبح حياً، وأمس ميتاً؟ وغنيـاً وأمسىٰ فقيراً؟ وآمراً فأمسىٰ مأمـوراً؟ وقاهـراً فانقلب مقهـوراً رمته سهـامها، وأصمتـه ورشقته نبالها فما أنمته؟ فأي بلاء أعظم من هـذا؟ وهي لعمر الله منـزل القُلعة والعناء، ومحط النجعة والفناء! وما أحق منها بهذا الإسم؟ فكم من ذي قصـر مشيد قد عطلت قصره؟ وذي جند محشود قـد هزمت جنـده؟ وصاحب عـديد قد قللت عدده؟ انظر إلىٰ ملوك بني ساسان، وأقيال غسان، وإن شئت فانـظر إلىٰ ملك بني مـروان علىٰ قرب الـزمان الـذين ملكـوا المشـارق والمغـارب، وذلّ لهم الأعاجم والأعارب، وكان يُخطب لواحـد في يوم علىٰ ثمـانين ألف

---

(١) سورة البقرة، آية ٢١٦.

منبر، فهل ترىٰ لهم من باقية؟ فأي قُلعة وعناء أعظم من هذا قد نزعت عنها نفوس السعداء إلىٰ دار الكرامة، ومنزل السلامة وانتزعت بالكره من أيدي الأشقياء. المنتزعة هي الدنيا بالكره من أيدي الأشقياء! إما بأن يجذبوا منها، أو تجذب منهم، فذلك انتزاع من أيديهم. والأشقياء هم الذين شقوا بمعنىٰ خسروا، وخابوا بتنكبهم منهاج رشدهم وسعيهم فيما يوبقهم، فإذا كانت هذه حالها، فما وجه الركون إليها، والاعتماد عليها، واتخاذها دار قرار، ومركز عز وفخار..؟

قوله (عليه السلام): «فأسعد الناس بها أرغبهم عنها، وأشقاهم بها أرغبهم فيها..».

رغب عنه إذا كرهه. ورغب فيه إذا أحبه.

المعنىٰ: أن أسعد الناس بالدنيا من رغب عنها، لأنه إذا كرهها اتخذها معبراً إلىٰ غيرها، ومجازاً إلىٰ سواها وقدم منها خيراً راجحاً، وعمل فيها عملاً صالحاً، وجعلها لنفسه متجراً رابحاً، فكانت رغبته عنها سبباً لسعادته بها. وأشقاهم بها الهاء عائدة علىٰ الدنيا.. أرغبهم فيها، لأنه إذا رغب فيها بمعنىٰ أحبها، وحرص عليها اتخذها منزل إقامة ودار مقامه، فجعل لها كدحه، واستفرغ في جمعها جهده، وجعل لها سعيه فشقي بها شقاء لا سعد بعده، وذلك أنه ينتزع منها، ولم يستعد للنجعة، ولا يتأهب للنقلة فيخرج من دار عامرة وحالة ساترة إلىٰ دار شرورها للأشقياء عاهرة، وثغورها بالمخاوف والدواهي عليهم فاغرة وكان السبب في مصيره إلىٰ ما هذا حاله رغبته في الدنيا وزهده في الآخرة، فيشقىٰ بها شقاوة ظاهرة..

قوله (عليه السلام): «وهي الغاشة لمن استنصحها، والمغوية لمن أطاعها، والخاترة لمن انقاد لها. فالفائز من أعرض عنها، والهالك من هوى فيها..».

الغش نقيض النصح، وهو أن يظهر خيراً، ويضمر شراً، وفي الحديث أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نظر حنطة فأعجبته فغمس يده في الطعام، ثم قبض منه قبضة، وأخرج يده فنظره دون الظاهر في الطيب، فقال (عليه السلام): من غشنا فليس منا. والأغواء هو التعمية، وقد تقدم. والختر

هو الخيانة والمكر والخديعة. والانقياد هو المساعدة. والفائز كان في الأصل من يكثر حُظُّ سهمه في الميسر، ثم صار من نجا وغنم في عرف العرب وفي الشريعة شرفها الله من زحزح عن النار، وأدخل الجنة والهالك عندهم هو المائت والمدنف، والموت هو الهلاك قال شاعرهم:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

المعنىٰ في ذلك: أن الدنيا تغش من استنصحها، وهذه معاشرة قبيحة أن تكون مستنصحاً لمن يغشك، فإن هذا من أفتح الاغترار، فإذا أخبرك مخبر ظاهره العدالة، بأنه غاش لك لزمك في ظاهر الحال، وعند أهل العقول الاحتراز منه والحزم عنه، وقد أخبرنا عنها أنصح الناصحين، وأصدق الصادقين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي قامت المعجزات بصدقه وظهرت الأعلام علىٰ صحة نبوته، فلينزلها العاقل منزلة الغاشين في الاستخفاف بها والإعراض عنها، وقد جمعت مع هذه الخُلة القبيحة خلالاً أخر كلها كافية في وجوب بعضها والإعراض عنها والزهد فيها، والاستخفاف بها وأنها تغوي من أطاعها حتىٰ توررده موارد الهلكة حيث لا ينفعه نديم، ولا يدفع عنه حميم، وكيف وقد صرفته عن الصراط المستقيم! وأوردته مشرعة الجحيم! والعذاب الأليم، فلو أنها أغوته إلىٰ بريّة.. بريّة من الخير خليّة من الماء والطعام تيهاء مطموسة الأعلام، لكانت أكبر جناية، وأقبح نهاية، فكيف إذا أوردته ناراً حامية الوقود بعيدة الحمود ثقيلة القيود؟ فلا رحم من أطاعها، وظاهر سطاعها، ومن خلالها الذميمة خترها لمن انقاد لها، فيا لها الويل والأليل! هل تراها أهلكت إلاّ من فعل معها ما يوجب رعي الحرمة، وحفظ الذمة...؟ فلأي معنىٰ ينقاد لها العاقل، وقد حذره من خترها الرسول؟ وقال بصحة قوله الدليل، ثم أخبر (عليه السلام): «بأن الفائز من أعرض عنها، وصرف وجهه إلىٰ غيرها، وهي دار الآخرة التي إليها معاده، ومقر وساده، والهالك من هوىٰ فيها. يريد الغائب عن الخير الميت الذكر في الصالحين، فلو كان من أكبر الملوك المتجبرين، لكان من أهلك الهالكين وأضعف المستضعفين وأي هلاك أعظم من الهُوى فيها بالكليّة، والهبوط عن منازل الرحمة والسوية، والدرج العليّة.

قوله (عليه السلام): «طوبىٰ لعبد أتقىٰ فيها ربه، وناصح نفسه وقدم توبته، وأخر شهوته.....».

طوبىٰ شجرة في الجنة يستظل تحتها الفائزون. وفي الحديث: «أن الراكب يسير تحتها خمسمائة عام لا يقطعها» والعبد قد تقدم معناه. والاتقاء هو دفع الشر بستر، أو حميٍ. والرب هو المالك والنصيحة هو رفع الخلل، ومنه سميت الأبرة منصحة، لأن بها تخاط شقوق الثوب. قال الراجز:

وربَّ كل شوذبي منسرح ... من اللباس غير جرد ما نصح

يريد القسم بالمجرم، فإنه لا يلبس المخيط. والتقديم نقيض التأخير. والتوبة الندم علىٰ الذنب والغرم علىٰ أن لا يعود إليه، لأجل قبحه. والتأخير نقيض التقديم. والشهوة معروفة، وهي معنىٰ يقوي الدواعي إلىٰ نيل المشتهىٰ.

المعنىٰ: أخبر (عليه السلام) أن طوبىٰ مُناخ الفائزين لمن أتقىٰ في هذه الدنيا عذاب ربه فيها، وفي الأخرىٰ بالأعمال الصالحة، إذ كل بقاء دونها لا يبقي صاحبه ولا يمنع جانبه وناصح نفسه، بأن لا يتخذها قراراً، ولا يجعلها داراً، بل يتخذها ممر سائر، وسبيل عابر، ومنهج متجرد للسلوك لا يلوي علىٰ شيء فيها، ولا تسكن نفسه إلىٰ رونقها، إنّما همه قوام صلبه، وبلال حلقه حتىٰ ينتهي إلىٰ غرضه من الدار التي أعدت للمتقين عذاب ربهم الناصحين لأنفسهم، فحينئذ حط رحله وثنىٰ رجله، وقال كما قال الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوىٰ ... كما قر عيناً بالإياب المسافر

وقدم توبته علىٰ عمله، ليبني عمله علىٰ أصل صحيح وقرار مكين، لأن التوبة ترخص الأوزار جملة، فلا تغادر منها شيئاً ولا يعلم في الطاعات بالغة ما بلغت كبيرةً غيرها، وذلك لعظم حق الرب (سبحانه)، فكل ما عملنا واجتهدنا فهو صغير في حقه إلّا التوبة، فإنه (سبحانه) أخبرنا بكبرها، لسعة جوده ترغيباً لنا في فعلها والمبادرة بها، فعلىٰ هذا تقدم بين يدي كل فعل، ونتوّج بها كل عمل، ونؤخر الشهوة إلىٰ أن يقضيها في دار الآخرة، فأما في دار الدنيا، فشهواتها منغصّة، ولذاتها مكدرة. فلا وجه للتأخير للشهوة إلّا ارجاؤها

إلىٰ دار الآخرة، والاضراب عن سلوك أوديتها الوبية القاتله، والتوقي لأفاعيها الخاتلة.

قوله (عليه السلام): «من قبل أن تلفظه الدنيا إلىٰ الآخرة، فيصبح في بطن موحشة غبراء مدلهمة ظلماء لا يستطيع أن يزيد في حسنة ولا ينقص من سيئة..».

اللفظ هو ما يلقيه الإنسان من فيه، ومنه لفظ الكلام لخروجه من الفم. والموحشة الغبراء حفرة القبر، وبطنها وسطها، والمدلهم الأسود. والظلماء تأكيد لسوادها...

المعنىٰ في ذلك أنه (عليه السلام) بين أن الواجب أن يتقي الإنسان ربه، وينصح نفسه، وتقدم توبته، وتؤخر شهوته، وهو ما تقدم شرحه قبل أن تلفظه الدنيا إلىٰ الآخرة، فشبه ابن آدم مع الدنيا باللفيظ من الفم، كأنها مضغته، ثم لفظته وهذه من غرائب الاستعارة والملفوظ بمجرىٰ العادة لا خير فيه، ولا يلفظ إلاّ مالاً ينتفع به فلما أخلد إليها مضت حلاوته، واشتقت طلاوته، ثم لفظته لوجهه إلىٰ بطن موحشة غبراء، ولا شك في ذلك. وأي منزل وحشة أوحش من القبر، ومنزل غربةٍ أغرب منه...؟ فنسأل الله (تعالىٰ) بحقه العظيم أن يؤنسنا فيه بالأعمال الصالحة، ويصلي علىٰ النبي وآله. وقوله: مدلهمة ظلماء عائد علىٰ الحفرة لا يستطيع أن يزيد في حسنة، لانقطاع التكليف ولا ينقص من سيئة لأجل ذلك، وإنما هذا له في هذه الدار التي جعلها الله (سبحانه) ميداناً للسباق إلىٰ جنته الواسعة التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين وسوقاً لنفاق الأعمال الصالحة وبوار الأعمال المردودة الفاضحة، وليت أنها إذا رُدَّت جعلت سُدىً وإنما هي تجعل علىٰ صاحبها وبالاً وتسوق إليه نكالاً، وجعل الحفرة من الآخرة، لأنها في حكمها من حيث أنها منزل لا ينفع فيه العمل ولا يغني الندم..

قوله (عليه السلام): «ثم ينشر فيحشر إما إلىٰ جنة يدوم نعيمها، أو إلىٰ نار لا ينفد عذابها..».

النشر نقيض الطي، وهو هاهنا استعارة، كأن الميت كان مطوياً بالتفريق، فنشر بالتلفيق. والحشر الجمع مع غيره، وقد تقدم الكلام في

الجنة ونعيمها خيرها. وكذلك الكلام في النار. وأضاف العذاب إليها، لكونه فيها. أخبر (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الصادق الخبر أن العبد ينشر من قبره بعد طيه بالموت، والبلا فيحشر عقيب ذلك أي يساق إلىٰ المحشر، وهو مجمع الخلق للحساب فيصير بعد حشره إما إلىٰ جنة يدوم نعيمها، أو إلىٰ نار لا ينفد عذابها. وإنما قال ذلك (عليه السلام)، لأن الخلود لازم لأهل الدارين. أهل الجنة والنار وبذلك يبطل قول المرحية. وقد علمنا أن الحياة من أشهىٰ ما يكون إلىٰ النفوس، ولهذا فإنك تجد الملوك الكبار ينهزمون من الممالك الجليلة الأخطار إذا خافوا الموت، وهم غانمون في أنفسهم، ولا يعتدون بما فات، فما ظنك بحياة لا بؤس فيها، ولا ضراء، ولا ظماء، ولا ضحاء، ولا شقاء، ولا عياء. . . ! ظل بارد، ونعيم راكد. وكذلك قد علمنا أن الواحد من الناس إذا حبسه بعض الملوك في محبس مظلم، وضيِّق عليه في الطعام والشراب فرج إليه من جميع ما يملك، وعد ذلك غنيمة! فكيف بمحبس مهاده نار، وحيطانه نار، وسقفه نار، وماؤه نار، وعيشه نار. . . ؟ هذا العام ويتخلل ذلك من أنواع العذاب، وصنوفه ما نسأله (تعالىٰ) صرفه عنا، ودفعه منا بحقه العظيم، ويجعلنا وإياكم من المحشورين إلىٰ دار النعيم الفائزين بالنجاة من العذاب الأليم. والصلاة علىٰ محمد وآله، والسلام. .

الحديث الثالث والثلاثون

عن أنس بن مالك وقد تقدم ذكر نسبه، وطرف من حاله قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «يا معشر المسلمين شمروا، فإن الأمر جد، وتأهبوا فإن الرحيل قريب، وتزودوا فإن السفر بعيد، وخففوا أثقالكم فإن وراكم عقبة كؤوداً لا يقطعها إلاّ المخفون. أيها الناس إن بين يدي الساعة أموراً شداداً، وأهوالاً عظاماً، وزماناً صعباً يتملك فيه الظلمة، وتتصدر فيه الفسقة، فيضطهد فيه الآمرون بالمعروف، ويضام الناهون عن المنكر، فأعدوا لذلك الأيمان، وعضوا عليه بالنواجذ، والجئوا إلىٰ العمل الصالح، واكرهوا عليه النفوس، واصبروا علىٰ الضراء تفضوا إلىٰ النعيم الدائم...».

المعشر هو الجماعة الذين يجمعهم أمرٌ التي يوجب العشرة. والعشرة هي المعاملة. والمسلمون هم الذين أسلموا لله (سبحانه)، وسلموا أمورهم إليه. سموا مسلمين، لذلك. والإسلام والأيمان في الشريعة واحد، وهو في أصل اللغة مختلف المعنىٰ.

والتشمير: رفع الأطراف، ولا يكون ذلك إلاّ عند الشدة. قال الشاعر يصف هؤلاء:

إذا ما البيض أبدين الخداما ....

يريد الخلاخيل لما شمرت للهرب. والجد نقيض الهزل، والتأهب

حمل الأهب، وهي آلة السفر، وأصلها الإهاب الذي يجمع فيه المتاع، كما أن التسلح حمل السلاح.

الرحيل نقيض الحلول. والقريب نقيض البعيد. والتزود جمع الزاد. وإعداده، وحمله، والسفر هو مدة السير. والتخفيف هو إلقاء الأثقال. والأثقال معروفة. ومثله الأوزار، ووراء هاهنا بمعنىٰ أمام. قال قيس بن الخطيم:

طعنتُ ابنَ عبدالقيس طعنة ثائر   لها نفد لولا الشعاع آضاءها
ملكتُ بها كفي فانهرتُ فتقها   يرىٰ قائماً من خلفها ما وراءها

يريد أمامها، وهو ظاهر، كما ترىٰ. وقد قال (سبحانه): ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً..﴾[1] يريد أمامهم والله أعلم. والعقبىٰ هي المرقاة في الجبل العالي ومنها أخذ العقاب. والكؤد الصعبة. وقطعها طلوعها ومجاوزتها. المخفون نقيض المثقلين، وهم الذين ألقوا باهظ الأثقال، ولم يأخذوا إلاّ ما يعنيهم علىٰ الطريق. المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمر المسلمين عموماً أن يشمروا، ولا يستهونوا الأمر، فإنه جد، وأي جد أعظم منه؟ قول عدل، ووعد صادق، فلا أرجا من التشمير والاهتمام بالأمر، والاجتهاد في الخروج عن أمان من الحق والتأهب بالجمع لما يحتاج إليه الراحل، فإنه قريب فلا يعلم أقرب منه، وما بعد أمر يتوقعه صباح مساء إن أمينا انتظرناه في الصباح، وإن أصبحنا انتظرناه في المساء، وهل للغفلة عما هذا حاله وجه تحسنه العقول السليمة، ولكن التشمير لا يجدي والتأهب ينفع ما لم نستكثر من الزاد لا سيما وقد أخبرنا الصادق في مقاله أن السفر بعيد، وهو حدة قطعنا للمسافة بيننا، وبين موعد ربنا، ولا أبعد من مدة يوم فيها مقدار خمسين ألف سنة، وذلك الزاد ما هو نبات الدنيا وصنوف معايشها إنما هو التقوىٰ فيما بينه لنا الملك الأعلىٰ بقوله (تعالىٰ): ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوىٰ﴾[2] فالواجب علينا والحال هذه أن نستكثر منه إذ المقطوع به من الزاد لا يجد مبلغاً، ولا متصرفاً ولا إجارة ولا قرصاً إلاّ ما يكون معه، ولا

---

(١) سورة الكهف آية ٨٩.
(٢) سورة البقرة آية ١٩٧.

يمكن من الرجعة للاستعدآد، فإذا كانت هذه الصورة لـزم العاقـل أن يكثر من الزاد إلىٰ حال لا تختلجه فيه الظنون انـه زائد علىٰ الكفـاية وأن يصـرف همته إلىٰ ذلك، لأنه لا يدري متى يصيح به صايح الرحيل، فإن رحـل، وإلاّ أرحل بالشدة من غير مرضاه، ولا موامره، ولم يبق له عذر إذ قد بعث الله إليه من لا يشك في صدقه، وأخبر بقرب الرحيـل وبعد الـطريق وطول السفـر، وان هذا جـد لا هزل فليتـأهب، ويشمر ويتـزود فما بقي لـه من عذر، ثم أعلمنـا هذا الدليل الناصح جزاه الله عنا خيراً، وصلىٰ عليه وعلىٰ آله مصابيح الهدىٰ، أن ورائنـا بمعنىٰ أمامنـا عقبة كؤوداً صعبـة المـرتقىٰ، فلنخفف الأحمـال ونـطرح الأثقال، فمن وصلها بحمل الأوزار، ورام طرحه في تلك الحال لم يُمكن من ذلك، بل تسوقه خدام الملك وهو علىٰ ظهـره في تلك العقبة الصعبـة، فقال لا يقطعها معناه يهون، وسرعة إلاّ المخفـون، وإلاّ فلا بـد من قطعهـا، ولكن بتعب ونصب وعذاب ذي شعب. ومعنىٰ التخفف والحال هذه من ثقل الأوزار والمعـاصي، والتنصـل، والإقبـال إلىٰ الله (سبحـانـه) بـالـطاعـة والاعتـذار من فرط السيئة، وأن لا يستقل شيئاً يلقيه من غاربه، أو يعول علىٰ صاحبه ما دام له صاحب يعينه، وحميم يدفـع عنه وينفعـه، ومال تقبـل منه بـه الفديـة، وأهـل يعينه على أمـره منهم المواسـاة والمشايعـة، فأمـا إن غفل عن أمـوره، ونسي نفسـه وراكم ذنـوبــه، ولم يستعـد لسفــره، ولا يخفف من وزره ونبـذ نصيحة الناصح، ورد صدق الصادق، فإنـه أصاب نفسـه بنفسه، وجنـا جنايـة احتش بهـا حشاشـة واستأصـل شأفتـه، ولم يضر إلاّ مهجتـه، فمن أحق منـه بالحسرة والندامة، والخـزي والملامـة. . ؟ ترك الأمـر رخيصاً يعـرض، وطلبه غالياً لا يوجد. . .

قوله (عليـه السلام): «أيهـا الناس إن بين يـدي الساعـة أموراً شـداداً، وأهـوالاً عظامـاً، وزمانـاً صعباً يتملك فيـه الـظلمـة، ويتصـدر فيـه الفسقـة، فيضطهد فيه الآمرون بالمعروف، ويضام الناهون عن المنكر».

الساعة: هي القيامة، ولها أسماء كثيرة. وسميت ساعة، لأنها تنجم في ساعة واحدة بغتة علىٰ غفلة. . والأمور: هي الحوادث الكبار.

والشداد: الصعبة، والأهوال هي الروائع.

والعظام: صفة لها بالجلالة. والزمان هـو مدة مجهـولة القـدر. وصعب

هو العسر أبيُّ القياد. أخذ من صعاب الابل. والتملك هاهنا من الملك بضم الميم، لا من الملك بكسرها. الظلَمة جَمع ظالم. والتصدر أن يصير الإنسان في صدر المجلس أي مقدمة. قال الشاعر يصف رجلاً بعظم الحال:

وإذا جالسته صدَّرته وتنكبت له في الحاشية
وإذا سايرته قدّمته وتأخرت مع المستأنية
وإذا عاشرته وافيته سلس الخلق سليم الناحية

والفسقة الخارجون عن أمر الله، لأن الفسق هو الخروج منه. قولهم: فسقت الرُّطبة إذا خرجت من غلافها. والاضطهاد هو القهر والشدة. والأمرون بالمعروف معروفون، وهم آل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأتباعهم (رضي الله عنهم). والضيم هو الغبن والغيظ. قال الشاعر:

أوَ تظلمونا فانا معشر أنف لا نطعم الضيم إن الصَّاب مشروب

يقول قد يشرب الإنسان الصَّاب لغرض ما، ولا يطعم الضيم لإبائِه، وكرم نفسه. وهم أيضاً الناهون عن المنكر أعني أهل البيت (عليهم السلام) لا نعمل لهم شريكاً إلاّ من اتبعهم، واقتدىٰ بهم.

المعنىٰ في ذلك: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أخبرنا بهذه الأمور، لنوطن نفوسنا علىٰ الصبر، فنؤتىٰ أجر الصابرين، وهي لا شك أمور صعبة. نسأل الله (تعالىٰ) العَون عليها. والساعة هي القيامة، وقد جاءت أشراطها، وعاينا ولائلها فما بقي إلاّ القليل. وفي الحديث: «أنها تقوم يوم الجمعة، والناس غارّون لاهون في أمر دنياهم قد نشر الرجلان الثوب بينهما، فلا يدريان من يطويه! وقد رفع الرجل اللقمة، فلا تصل إلىٰ فيه؟ وقد لاط الرجل الحوض لإبله، وملئه، فلا يدري من يسقيه!» وعندها ينقطع التكليف عند ظهور آياته (سبحانه) الباهرة قبل الساعة وميلنا إلىٰ الاختصار. وإنما أشار أن بين يدي الساعة أموراً شداداً. وقد كانت والحمد لله دولاً وعباد الله خولاً، ورفعوا حشمة الإسلام، وارتكبوا الأمور العظام، والأهوال العظام هي خروج الدابة، ويأجوج ففي الحديث: «إن الناس يغرسون بعدهم، ويزرعون، ويأكلون، وينسون مايوعدون» والزمان الصعب هو زمان هاتين الفئتين، وهم

الظلمة عندنا، لأن من سواهم لا يعتد به، ولأنه قد ذكرهم بالملك، وهم الذين جعلوا الخلافة ملكاً، وذلك خلاف سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه من بعده لقد كانوا يطلبون لها الأفضل، وإن أخطأوا في الاختيار عندنا، فلم يخطئوا في الطلب، ولقد قيل لعمر لو أوحيت إلىٰ ولدك عبدالله بالخلافة، وعبدالله من قد عرفه الناس، فقال لا أستجيز ذلك فيما بيني، وبين ربي إن عبدالله لم يحسن طلاق امرأته، فكيف يلي أمر هذه الأمة. . .؟ وجعلها شورىٰ في ستة نفر، ولقد تملكوا أشد التملك، وتجبروا أشد التجبر. وجعلها الوالد لولده من غير عقد ولا دعوة، وأعانهم علىٰ ذلك الفسقة المتصدرون في صدور المجالس بالقهر والغلبة من غير استحقاق لذلك، واضطهدوا الأمرون بالمعروف من أهل بيت محمد (عليه وعليهم أفضل السلام) حتىٰ ذلوا، وخيم الناهون منهم عن المنكر حتىٰ قلوا وصاروا بين طريد وشريد، وأسير وقتيل! هذا الحسين بن علي وأهل بيته (عليهم السلام) وزيد بن علي، وولده يحيى بن زيد فرائس بني أمية، وهذا محمد بن عبدالله، وأخوه أبراهيم ويحيىٰ، والحسين بن علي بن الحسن بن الحسن الفخي، ومحمد بن إبراهيم في طوائف من أهل بيت محمد (عليهم السلام) حصائد سيوف بني العباس، ولم نذكر إلاّ الأئمة السابقين، والعيون المنتجبين الذين يشهد لهم بالفضل من قبلهم. فأما أرباب السجون والسموم والغيلة فكثير جداً هؤلاء أولاد الحسن بن الحسن (عليهم السلام) على اشتهار فضلهم، وقرب عهدهم بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) . عبدالله، والحسن، وإبراهيم، وداود أولاد الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وأم الثلاثة غير داود فاطمة بنت علي بن أبي طالب. وبنوهم محمد، ويعقوب وإسحاق أولاد إبراهيم بن الحسن، وعلي، وعبدالله، والعباس أولاد الحسن بن الحسن رضي الله عنهم ماتوا في سجن أبي جعفر المنصور، إلاّ محمد بن إبراهيم فإنه دفن حياً، وما نعلم تحت أديم السماء أفضل منهم، ولا أكمل، ولقد كان إذا قيل من أكرم الناس؟ قيل عبدالله بن الحسن. فإذا قيل من أعلم الناس؟ قيل عبدالله بن الحسن. جمع خصال الكمال. فإذا قيل: من أفضل الناس قيل: عبدالله بن الحسن. وكان إبراهيم بن الحسن إذا أتىٰ المدينة احتشر عليه الناس لما كان فيه من شبه برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد ذكرهم أبو فراس في قصيدته الميمية، وهي مشهورة. التي رد

فيها علىٰ ابن سكرة هجوه لأهل البيت، وذكر مساوىء بني العباس. قال فيها:

بئس الجزاء جزيتم في بني حسن ... أباهم العلم الزاكي وأمهم
هلّا كففتم عن الديباج ألسنكم ... وعن بنات رسول الله شتمكم
هلا صفحتم عن الأسرىٰ بلا سبب ... للصافحين ببدر عن أسيركم

وهي طويلة مشهورة. ولما خرج بهم من المدينة علىٰ الجمال مشدودين بالوثائق، وقد عدل كل رحل منهم بجندي. قال ابن أبي الزناد اسعدي فيهم؛

من لنفس كثيرة الاشفاق ... ولعين كثيرة الأطراق
جمدت للذي دهاها زماناً ... ثم جادت بدمعها المهراق
لفراق الذين راحوا إلىٰ الموت ... عياناً والموت مر المذاق
ثم راحوا يسلمون علينا ... بأكفٍ مشدودة بالوثاق
ما رأينا من البرية طراً ... مثلهم لو وقاهم من الموت واقي
كرّما عندما ألمّ وصبراً ... ليست المعرفات مثل العتاق
فيهم سيد البرية يشكو... ... طول حبس وعض كبل مضاق
مسحت وجهه قريش وعادت ... بمفدى مبارك سباق...

يعني عبدالله بن الحسن (عليه السلام) ومن كان يمتري في شرفه ولقد قال له أبو جعفر: في الربذة، لأنهم وصلوا بهم إليه إلىٰ هناك! فقام عبدالله في طرق البساط بمكان القيد، فقال له أبو جعفر: ادن إلىٰ هاهنا يا بن اللخناء. اللخناء الأمة المنتنة الريح. فرفع رأسه إليه غير مكترث، وقال: أي الفواطم تعني؟ فخجل. وقطع به أراد وضعه، فكأنما رفع بيده إلىٰ السماء، وقال ابراهيم بن عبدالله (عليه السلام) في حبس أبيه، وأهل بيته، وقيده قصيدة طويلة نذكر منها قوله:

نفسي فدت شيبة هناك ... وطنبوباً من قيودها ندب
يا حلق القيد ما قضمت ... من حلم وعلم يزينه أدب
وأمهات من الفواطم أنجبتك ... بيض عقائل عُرَّبُ...

قال في آخرها:

كيف اعتذاري إلىٰ الإله ولم　　يشهر فيك المأثور القضب
ولم أقد غارة ململمة　　فيها بنات الضريح تنتحب

. فقادها ومضىٰ لحينه (صلوات الله عليه ورضوانه) في باخمرا بعد وقور، وانتظام حال، وهزمه للبعوث مرة بعد أخرىٰ في قصص طوال. واستشهد في وقعة باخمرا، بعد بلاء شديد فقال الهمداني في قصيدة يذكره:

وقتيل باخمرا الذي　　نادىٰ فاسمع كل شاهد
قاد الجنود كأنها　　الأسد الحوارد
فهوىٰ صريعاً للجبين　　وليس مخلوق بخالد
وتفرقت أجناده　　وثوىٰ باكرم دار واحد

وفي أخرىٰ:

ليتني كنت قبل وقعة باخمرا　　توفيِّت عدتي من شهوري
كيف بعد المهدي أو بعد إبراهيم　　نومي علىٰ الفراش الوثير؟

وكم عسىٰ أن نذكر من أخبارهم، وقصصهم، فإن ذلك يطول. فأي اضطهاد ترىٰ هذا، وأي ضيم أعظم من هذا؟ وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. . . وما نقم قوم لوط (عليه السلام) عليه، وعلىٰ أهل بيته في قولهم: أخرجوا آل لوط من قريتكم أنهم أُناس يتطهرون. فما الأمر والحمد لله إلاّ واحد فتأمل.

قوله (عليه السلام): «فأعدوا لذلك الأيمان، وعضوا عليه النواجذ، وألجاؤوا إلى العمل الصالح، واكرهوا عليه النفوس وأصبروا علىٰ الضراء تفضوا إلىٰ النعيم الدائم. . .».

الإعداد جمع العدة، وهو ما يحتاجه الإنسان للأمور المخوفة الكبار. الإيمان هو التصديق بما عند الله مما وعد به الصابرين المستقيمن. والعض إلصاق الأضراس بالأضراس بشدة واعتماد، ولا يكون إلاّ عند أصعب الأمور. وقال علي (عليه السلام): في بعض وصاياه في الحرب عضوا علىٰ النواجذ من الأضراس، فإنه أنبىٰ للسيوف عن الهام. والالتجاء هو التحرز والمظاهرة

لما يرجىٰ معه السلامة. والعمل الصالح طاعة الله. وإكراه النفوس غضبها، والصبر نقيض الجزع وأصله الحبس. مصبور بمعنى محبوس، والضراء ما يتقرر به الإنسان من المكاره، وقيل أنه المرض. والافضاء هو الانتهاء إلىٰ الشيء بلا حاجز ولا واسطة وخلطه به. قال (تعالىٰ): ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضىٰ بعضكم إلىٰ بعض﴾[1] أي اختلط بعضكم ببعض، وتلاصقت أجسادكم بغير حاجز.

والنعيم: هو الغضارة، والدعة، ومنه الغضر الناعم اللين الريان. والدائم الذي لا زوال يخشىٰ عليه..

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمرنا أن نعد لهذا الزمان الذي يتملك فيه الفسقة، ويتصدر الظلمة، ويضطهد الآمرون بالمعروف، ويضام الناهون عن المنكر. الأيمان فإنه أنفع عدة فيه، لأنا إذا صدقنا بما وعدنا علىٰ الصبر صبرنا، وهان علينا. وإذا صدق أتباعنا بذلك هان عليهم أتباعنا، وإن قلوا وغلبوا. ويؤيد هذا ما روي عن حاضر صاحب عيسىٰ بن زيد (عليه السلام): «أنه لما جيء به إلىٰ المهدي بن أبي جعفر قال له: أين عيسىٰ؟ قال: وما يدريني أخذتني فحبستني، وطردته فأخفته، فكيف أعلم مكان طريد منك، وأنا محبوس؛ قال ليس هكذا متى فارقته، وعند من أخر عهدك به، وما عندك من علمه؟ قال: ما لقيته ضد توارى، ولا علمت له خيراً.. قال: والله لتدلني عليه أو لأقتلنك؟ قال: أدلك عليه تقتله وألقي جده وقد شركت في دمه، والله لو كان بين ثوبي وجلدي ما كشفت عنه، فأقض ما أنت قاض، فضربت عنقه» فلولا تصديقه، وهو إيمانه بلقاء جده، وما أعدّ له ما ألقىٰ بنفسه إلىٰ التهلكة، وعرضها للتلف.

وأما عض النواجذ عليه فإشارة إلى الصبر والتشدد فيه. وألجأوا إلى العمل الصالح فاجعلوه لكم فيئة تأوون إليه ونعم الفيئة. ما ظنك بفيئة لا تنهزم أبداً أليست خير ملجأ؟ ذلك العمل الصالح. واكرهوا عليه النفوس عائد إلىٰ العمل الصالح، لأن الطاعة مكاره. والمعصية أهواء، وشهوات واصبروا علىٰ الضراء مع ذلك إما علىٰ ما يضركم عموماً، وإما علىٰ المرض خصوصاً، فهو

(١) سورة النساء آية ٢١.

مما يبتلىٰ به الصالحون ويمتحن به المؤمنون، فإنكم مع ذلك تفضون بمعنىٰ تضلون، وتختلطون بالنعيم الدائم. . نعيم الجنة، لأنه لا يزول، ولا يتحول، ولا يتغير، ولا ينتقل باق ببقاء واجب البقاء، وهو الله (تعالىٰ). فأي دوام أبلغ من هذا، وأي كرامة أجل من نعيم دائم لا ينقضي؟ وحق لمن صدق بها أن يصبر علىٰ قرض المقاريض، ونشر المناشير، ويستهون ذلك، ليقضي إلىٰ هذا، جعلنا الله وإياكم ممن جعل الصبر شعاره، والحق ثاره، وصلىٰ الله علىٰ النبي وآله. .

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي سعيد الخدري، قد تقدم الكلام في نسبه وذكر طرف من حاله قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول لرجل يعظه: أرغب فيما عند الله يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس. إن الزاهد في الدنيا يربح قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة، والراغب فيها يتعب قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة ليجيئن أقوام يوم القيامة لهم حسنات كأمثال الجبال، فيؤمر بهم إلىٰ النار. . . ! فقيل: يا نبي الله أوَ مصلون كانوا. . ؟ قال: كانوا يصلون ويصومون ويأخذون وهناً من الليل، لكنهم كانوا إذا لاح لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه». . .

الحب نقيض البغض. وأصل الزهد القلة. زهيد بمعنىٰ قليل، وأزهد لي بمعنىٰ أقل. أزهد فيما في أيدي الناس أستقله، ولا تطلبه. والراحة نقيض التعب. والقلب في أصل اللغة هو الوسط، فلما حلته سميت قلباً، وهي محل العقل، ومنبع الروح. والبدن جسد الإنسان وهي الدرع أيضاً، وأحسبها سميت به، لكونها عليه. قال فروة بن مسيك في بعض أراجيزه يذكر غارة شهدها:

لما تلاحقن حوالاً نوفان يحملننا وبيضنا والأبدان

يريد الدروع، وقد قيل في قوله (تعالىٰ): ﴿ننجيك ببدنك﴾[1] أي نلقيك

---

(١) سورة يونس آية ٩٢.

علىٰ نجوة بدرعك، والله أعلم.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر أن الإنسان إذا رغب فيما عند ربه كان أقرب إلىٰ فعل طاعته، وترك معصيته إذ المعلوم أنك لا تسأل إنساناً حاجة، وترغب إليه في مسئلة إلّا وتحرىٰ رضاه. وقد قال (تعالىٰ): ﴿فإذا فرغت فانصب﴾[1] في الدعاء ﴿وإلىٰ ربك فارغب﴾[2] في المسئلة للإجابة، والله أعلم. فإذا فعلت ذلك أطعت الله (تعالىٰ) فأحبيته، فأحبك، وما أجله من مطلب أن يحبك ملك الملوك، وجبار الجبابرة، ورب الأرباب، وملك الرقاب، ومن بيده العطاء والمنع، والرفع والوضع، والتولية والخلع. وأزهد فيما عند الناس يحبك الناس، وهذا خبر يجب قبوله، وقد شاهدناه عياناً، وإنما كانت القضية في الناس بالعكس من القضية في الله (سبحانه)، لأن الناس فقراء والله غني، وبخلاء وهو كريم، وعاجزن وهو قادر، فلا يبرمه إلحاح الملحين، ولا يستوعب ما عنده الطالبون، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فأحب العباد إليه أكثرهم مسألة له، وطلباً من سعة فضله، فما ترىٰ هل يساجل ذا الكرم مساجل؟ أو يماثل من يجب السائلين الملحين مماثل؟ ما أغفلنا عن طلب الخير ممن يبذله ويقدر عليه! وأكثر شغلنا بما لا يغني عنّا شيئاً...! فأما أن الزاهد في الدنيا يربح قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة، فلأن الدنيا إذا قلّت في عينيه، واستحقرها زهد فيها، فلم يطلبها بجوارحه، فاستراح بدنه، ولم يهم جمعها بقلبه، فاستراح قلبه. هذا في الدنيا. فأما في الآخرة، فيستريح بدنه من عذاب الله، وقلبه من أحزان المعذبين وغمومهم. وأما أتعاب الراغب فيها لقلبه، وبدنه في الدنيا والآخرة، فلأنه يكد جوارحه، ويستفرغ طاقته في تحصيلها وجمعها فيكون نهاره لمّاً، وليله هماً، والفترات بين ذلك حسرة وغماً علىٰ ما فات، وعلىٰ ما لم يقع. هذا في دنياه، فأي تعب أعظم من هذا..؟ وأما في الآخرة فيتعب بدنه في العذاب والسموم، وقلبه في الأحزان والغموم، فأي تعب أعظم من هذا..؟

قوله (عليه السلام): «ليجيئن أقوام يوم القيامة لهم حسنات كأمثال

---

(١) سورة الشرح آية ٧.
(٢) سورة الشرح آية ٨.

الجبال، فيؤمر بهم إلىٰ النار، فقيل: يا نبي الله أومصلون كانوا؟ قال: كانوا يصلون ويصومون، ويأخذون وهناً من الليل، لكنهم كانوا إذا لاح لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه».

المجيء: نقيض الذهاب. أقوام جماعات. يوم القيامة هو يوم الحساب سمي قيامة لقيام الناس فيه إلىٰ الله، والهاء للمبالغة. الحسنات نقيض السيئات، وأمثال أشباه الجبال معروفة. والأمر هاهنا التوحيد بالشيء. يا نبي الله يا رسول الله خطاب أصحابه له، كما أدبهم الله كانوا يقولون يا نبي الله أي يا رفيع الله أضافوه إلىٰ الله تعظيماً. والنبي أخذ من النبوة، وجفاة الأعراب يخاطبونه بإسمه. والصلواة هي أفعال، وأذكار مخصوصة بأحكام، وشروط مخصوصة، وفي أصل اللغة الدعاء. والصوم الإمساك عن الطعام، والشراب من الليل إلىٰ الليل مع قصد القربة، وفي أصل اللغة الإمساك قال الشاعر:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وخيل تعلك اللجما

والوهن، والموهن من الليل هو قطعة منه، ولاح ظهر وبدا وأكثر ما يستعمل في الشيء الصقيل، والأصل ما قدمنا. والوثب معروف، وهو أكثر ما يدخل تحت مقدور الإنسان في العجل والسرعة، لأخذ الخير، والفرار من الشر إنما هو السير، ثم السعي، ثم الوثب.

المعنىٰ في ذلك: إن هذا عائد إلىٰ نهيه (عليه السلام) من الرغبة في الدنيا، وبين لنا ما لم نكن نعلم مما أعلمه به ربه أنه يجيء يوم القيامة أقوام قد اجتهدوا في طاعة الله (سبحانه) في هذه الدنيا، وانقطعوا إليه، وبذلوا النفائس في رضاه، وصبروا علىٰ العظائم في حقه حتىٰ صارت لهم الحسنات كبار كأمثال الجبال، ولا نعلم فيما نشاهده أكبر من الجبل، ولا أعظم. فمثل لنا بما نعلم، فيؤمر بهم إلىٰ النار، فتوهم السامع أنهم لا يصلون، وهذا أيضاً تنبيه علىٰ عظم الصلاة، وأن أصحابه قد كانوا علموا منه أن الأعمال لا تقبل إلّا بالصلاة، فأضاف لهم إلىٰ الصلاة الصيام، وأخذ وهن من الليل نافلة وذكراً خبراً عن حق، ومبالغة في وصف، ولم يكن ليدع الأمر ملتبساً، وكيف، وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث مبيناً، وهادياً، ومرشداً،

فـأوضـح لهم من حيث أتي القـوم ليحتـرز منـه المحتـرزون، ويحتـرس المحتـرسـون وهـو أنهم كـانـوا إذا لاح لهم شيء من الـدنيـا وثبـوا عليـه ولم يتمالكوا عنه رغبة فيه، وهلعاً عليـه، فكان ذلـك سبب هلاكهم. فعليكم أيهـا الأخوان بالاحتراز من مثل حالهم والحزم عن المآل إلىٰ حال مثالهم، فللعاقل بغيره عظه، وأمور المعاملات، والمقاومـات أكثرهـا تجربـة. وهذا أمـر خارج من الناصح المجرب علىٰ أبلغ الوجوه، وأوفاها إذ هو خبـر الصادق في خبـره النـاصح في دلالتـه، وارشاده، فمـا خير وثبـة انقلبت عثرة وكيَّـة. .؟ وما قـد رذلك اللائح الذي ضيّع أمثال الجبال حسنات عنـد من لا تضيع ودائعـه، ولا تنقطع عن العباد صنائعه؟ فانظروها رحمكم الله بعين القلة، واضربوها بسوط الذلة، ومـا لاح منها، فسمـوه الخلّب، وما هب من نسيمهـا، فادعـوه القلب وذللوهـا استصغاراً، وارفضـوهـا، احتقـاراً، جعلنـا الله، وإيـاكم ممن يسـرع الوثب عنها، ويبطىء بالسير إليها. فأما السعي، والوثب إليها، فنعـوذ بالله من الجبن القاتل، والحتف العاجل، والصلاة علىٰ محمد وآله.

الحديث الخامس والثلاثون

عن ابن عمر قد تقدم الكلام في نسبه، وشرح طرف من حاله وجملة الأمر أنه كان قدوة، لصلاحه «أتاه رجل يسأله عن دم البعوض: قال: ممن أنت؟ قال: من أهل العراق قال: تسألني عن دم البعوض، وقد قتلتم الحسين بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكان يكثر البكاء على وقوفه عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) مع أنه استأذن في التخلف. . . ! قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: أيها الناس إن هذه الدار دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشفاء. ألا وأن الله خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا، لثواب الآخرة سبباً، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي. إنها لسريعة الذهاب وشيكة الانقلاب، فاحذروا حلاوة رضاعها، لمرارة فطامها، واهجروا لذيذ عاجلها، لكريه أجلها، ولا تسعوا في عمران دار قد قضى الله خرابها، ولا تواصلوها، وقد أراد منكم اجتنابها، فتكونوا لسخطه متعرضين، ولعقوبته مستحقين. . ».

الالتواء: الاعوجاج. والاستواء: الثبات. والترح: نقيض الفرح، وهو مما يتبع به القبيح نعوذ بالله منه. يقال: قبحاً وترحاً.

المعنى في ذلك: أنه (عليه السلام) أشعر الناس جميعاً بأن هذه الدار يعني دار الدنيا. . دار التواء أي اعوجاج، وميلان، وقلة ثبات، وليست بدار استواء أي ثبات، وقيام، واستمرار، ومنزل ترح، وغم ووجد، وكمد، فإذا

كانت هذه حالها، وعلم ذلك منها كان من عرفها لم يفرح برخائها، لأنه لا دوام له ولم يحزن لشقائها، لأنه ذاهب ماضي، فالواجب على العاقل أن يعرفها إذ لمعرفتها هذه المزية العظيمة، وهو مصير الإنسان لا يفرح لسرورها، ولا يحزن لشرورها وهذه منزلة الأنبياء (عليهم السلام) وأتباعهم على طبقاتهم فإن سرورها كان لا يملأ أعيانهم، وغمها لا يكبر في نفوسهم، وإنما ملاحظتهم رخاء الآخرة الدائم، وشقاؤها نعوذ بالله منه الملازم. . .

قوله (عليه السلام): «ألا وإن الله خلق الدنيا دار بلوىٰ والآخرة دار عقبىٰ، فجعل بلوىٰ الدنيا، لثواب الآخرة سبباً، وثواب الآخرة من بلوىٰ الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي. . .».

الخلق: هو التقدير، والتصوير. والبلوىٰ: هو الامتحان، والاختبار بالمكاره في النفوس، والأموال، والأولاد والأعمال بالعلل الطارئة، والآفات النازلة والمحن الواقعة، كالمرض، والجذام، والبرص، والعمىٰ، والصم والزمانة، والهرم، والفقر، وما تتخلل ذلك من الآفات، والمساويء. والعقبىٰ: هو نهاية الأمر، وموجبه، وهو مأخوذ من العقب، لتأخره. والسبب كل أمرٍ يُتوصل به إلى أمر، أو أمر يوصل إليه، وأصله الجبل.

والعطاء: نقيض المنع والجزاء المكافأة.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر أن الدنيا دار بلوىٰ. معنىٰ هذا الكلام مرابط للأول، ليهون علىٰ المسلم أمرها، ويستصغر خطبها، إذ كانت دار البلوىٰ، وكان عقبىٰ الآخرة يجبر نقصها، بل إذا علم الإنسان أن بلوىٰ هذه الدنيا هو السبب الموصل إلىٰ ثواب الآخرة، وهو ما يرجع علىٰ العبد في مقابله ما يلحقه، وهو هاهنا لغوي أعني الثواب الكلامي إلاّ أن يكون في مقابله الصبر، فإنه يتفق فيه الأمران، إذ الصبر عليه الثواب فأما الآلام، والمحن، فليس عليها ثواب، وإنما عليها عوض، لأنها بمنزلة أروش الجنايات، وقيم المتلفات، فليست بثواب إلاّ علىٰ أصل اللغة دون عرف الكلام. وإذا علمنا ثواب الآخرة، وعظمه وسعته وطول مدته علمنا أن كل أمر يؤدي إليه خير، وإن كان شراً محضاً، لأن ما أدىٰ إلىٰ الخير، فهو خير. فيأخذ، ليعطي، ويبتلي، ليجزي إذا أخذ منا القليل، وأعطانا الجزيل، فهو

منعم في الأخذ غاية الأنعام، وكذلك إذا ابتلانا ببلوىٰ هينة، بالانقطاع، وإن كانت شديدة في الحال، ليجزينا بما لو خيرنا، ومعنا جميع العقلاء، لاخترنا تلك البلوى، لمكان ذلك الجزاء، فإن هذه البلية نعمة لا مرية في ذلك.
وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في ذلك شعراً وهو:

عطيّته إذا أعطىٰ سروراً وإن سلب الذي أعطا أثابا
فأي النعمتين أجل قدراً وأعظم في مواقعها إيابا
أنعمته التي أهدت سروراً أم الأخرىٰ التي ذخرت ثواباً

وروي فيها بيت رائع، وهو:

بل الأخرىٰ وإن نزلت بكره أعم لصابر فيها احتساباً..

فقد علمت أن معنىٰ كلامنا مأخوذ من قوله (عليه السلام) وهو حق لا شك فيه، لأنه معصوم. فإن سلب (سبحانه) منّا عافية، أو حياةً، أو ولداً أو مالاً، وأتانا بما يوفى عليه، فهو محسن. والحال هذه. ألا ترىٰ أن نستحسن من ولي اليتيم أن يأخذ له ما يساوي ديناراً ويعطيه دينارين، وإن أخذ بغير مرضاه منه...؟ ونحن معه سبحانه كاليتيم مع وليه، لأنه سيدنا، ومولانا، فإن أعطىٰ عن الدنيا عشرة، فلا كلام في تناهي الأنعام. ومع ذلك فإنه لا يبتلينا ببلية، لمجرد العوض، ولكن لا بد أن يكون في ذلك اعتبار لنا، أو لغيرنا. وتقريب إلىٰ دار الآخرة، وتزهيد في الدنيا. وقد رأينا الناس إذا أصابتهم الآفات، والبلايا فزعوا إلىٰ الله (تعالىٰ) وتابوا، وإن تمادوا تاب غيرهم بخلاف ما لو دامت عليهم النعمة، وتمت العافية، ولا يدفع ذلك الأمر إلّا من كابر عقله. وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «إن الجسد إذا عوفي في أشر وبطر، وإذا اعتل ذهب ذلك عنه..». وقال (عليه السلام): «يود أهل العافية يوم القيامة أن أجسادهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا لما يرون من الثواب، لأهل الكفارات والبلايا» وفي الحديث: «إن الحمىٰ أصابته فدخل عليه بعض أصحابه يعوده أظنه أبا أيوب رحمه الله. قال: فلمسته، وإن الحمىٰ لتحرق يدي من فوق الثوب...! فقلت: يا رسول الله: إنها عليك شديدة! فقال: إنّا كذلك معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء كما يضاعف لنا

الأجر، ثم المؤمنون الأمثل، فالأمثل. إلىٰ غير ذلك من الآثار»، وإن جعلت البلوىٰ بالأعمال فهي تكاليف العقل، والشرع الشاقة، كالصلاة والصيام والحج والجهاد، فلا يستمر هذا التأويل في قوله: «ويبتلي ليجزي». فأما في قوله: «فيأخذ ليعطي، فلا يأتي عليه»، أخذ لشيء حاصل معنا، وليس إلاّ ما ذكرنا من النعم كالعافية والحياة والأموال والأولاد، فتفهم ما ذكرت لك، واجعل بصرك رائد عقلك؟ وعقلك قائد بصرك فإن من جعل عقله قائد بصره اهتدىٰ، ومن جعل بصره قائد عقله ضل، وإذا لم تفهم لم تحب.

قوله (عليه السلام): «إنها لسريعة الذهاب وشيكة الانقلاب، فاحذروا حلاوة رضاعها، لمرارة فطامها، واهجروا لذيذ عاجلها، لكريه أجلها..».

الذهاب: الصدور. والانقلاب الرجوع. والحذر نقيض الاطمئنان، والسكون. والرضاع نقيض الفطام، وأصله في الصبي يرضيه الرضاع ويسره، ويغضبه الفطام ويغمه. والحلاوة ضد المرارة. والهجران نقيض الوصل. واللذيذ نقيض الكريه. والآجل نقيض العاجل.

المعنى في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر، وخبر الحق، وقد علمنا صدق خبره ضرورة بالمشاهدة. أنها الهاء عائدة إلىٰ الدنيا السريعة الذهاب. المضي والبطلان والتلاشي، وشيكة الانقلاب، لتحول أحوالها، وكثرة محالها مسها لينٌ،.ولسعها غير هَين فهي تنقلب انقلاب الحية، وتلذع لذع الكية، فأي انقلاب أوخم من انقلابها عاقبة، وأعظم نابية تضرب بحران الذلول: ثم تصول صولات الفحول. قال (عليه السلام): احذروا حلاوة الرضاع، لمرارة الفطام، لأن رضاعها منقطع، وحلاوته ذاهبة، وفطامها دائم، ومرارته دائمة» فإذاً لا يقوم نفع الرضاع بضرر الفطام، واهجروا بمعنىٰ فارقوا لذيذ عاجلها لكريه أجلها، لأن لذة عاجلها فانية، وكراهة أجلها باقية، ومع بقائها عظيمة ومع عظمها مقرون به الاستخفاف، والنكال والخزي والوبال، فما أنصف نفسه من شغلها بلذة حقيرة، وفوت عليها درك دار خطير.

قوله (عليه السلام): «ولا تسعوا في عمران دار قد قضىٰ الله خرابها، ولا تواصلوها وقد أراد منك اجتنابها فتكونوا لسخطه متعرضين، ولعقوبته مستحقين..».

العمارة نقيض التخريب. قضىٰ الله علم وحتم وحكم واعلم بخـرابها. والمواصلة نقيض المقاطعة. وأراد نقيض كره.

والاجتنـاب الاعتـزال. والسخط نقيض الـرضىٰ. والتعـرض التلقي. والعقوبة فعولة. العقاب وقد تقدم تفسيره.

والاستحقـاق والاستيجاب معنـاهمـا أن يصيـر علىٰ حـالـه يحق ويجب لصاحب الأمر أن يعاقبك. . .

المعنىٰ في ذلـك: أنه (عليه السلام) نهىٰ العبـاد أن يسعوا في عمـران دار الزوال، والانتقال، ومنـزل النقلة والارتحال وهـل أجهل في الشـاهد ممن أنـاخ في طريقـه، ثم جمع العمـال لبناء دار يحتـاج منه إلىٰ مـال كثير؟ وهـو موطن نفسه علىٰ النهوض من مساحة ذلك غداً، أو بعده، ولا غنىٰ له عن دار في نهاية سفره، لأنه ينتهي إلىٰ موضع قد علم طول إقـامته فيـه، بل دوامهـا، فإذا قضىٰ الله (سبحانه) بمعنىٰ علم واعلم وأمضىٰ وحكم أن خرابهـا واقع لا محالة، فلم تتعب في عمارتها نفوسنا، وننفق نفائسنا، وكيف يعمـر ما خـرب ونرّقع مـا أوهىٰ. . .؟ فلذلك نهـانا أن نـواصلها بمعنىٰ نخـالطهـا ونشائعهـا، وليست بـأهل ذلـك منا، لقـدرتها وختلهـا، وذميم فعلهـا، ومـع ذلـك، فـإن الحكيم المنعم علينـا قد أراد منـا اجتنابهـا، فلو لم نجتنبها إلاّ لإرادتـه لذلـك منا، لكنا قـد قصدنـا أحمد الأفعـال عاقبـة، وأنفعها معـاداً وإذا خالفنـا مراده اسخطناه، وإذا أسخـطناه ونعـوذ بالله من ذلـك استحققنا عقـوبته، وإذا حقت عـظمت، وإذا عظمـت لـزمت، وإذا لـزمت دامت، وإذا دامت قـطع ذكـرهـا الأباهر فضـلاً عن مواقعتهـا. فنسأل الله (تعـالىٰ) أن يجعلنا ممن عمـر آخرتـه بخراب دنياه، وعمل في دنياه لأخراه، والصلاة علىٰ محمد وآله. .

الحديث السادس والثلاثون

عن أنس بن مالك، وقد تقدم ذكره نسباً، وحالاً قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أيها الناس اتقوا الله حق تقاته، واسعوا في مرضاته، وأيقنوا من الدنيا بالفناء، ومن الآخرة بالبقاء، واعملوا لما بعد الموت، فكأنكم بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل.

أيها الناس إن من في الدنيا ضيف، وما في يديه عارية والضيف مرتحل والعارية مردودة ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر، فرحم الله امرءاً نظر لنفسه ومهد لرمسه ما دام رسته مرخاً، وحبله علىٰ غاربه ملقىٰ قبل أن ينفذ أجله، فينقطع عمله». .

الاتقاء: هو تلقي سخطه بحواجز منيعة. وحق مقامه واجب تقاته، لأن تقاة غيره من جهته دون جهته، لأن غيره يكون في جهته دون جهة، وفي الظاهر دون الباطن، لأنه لا يعلم الباطن، وهو يتقي من كل مكان، ومن الباطن كما يتقي من الظاهر، لأن علمه بالجميع واحد. وباقي الألفاظ قد تقدم معناه لغة. .

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمرنا أن نتقي الله سبحانه حق تقاته، وأن نسعىٰ في مرضاته. وحق تقاته أن ندع مراد نفوسنا لمراده، ونعادي ولينا في حقه، ونوالي عدونا لوجهه، ونخافه، في جميع حالاتنا. حتىٰ يكون خوفنا منه وحياؤنا عند انفرادنا، وفي حال خلواتنا، كما نستحي منه بين ظهراني عباده. حتىٰ أن الغطاء لو انكشف ما قلنا: ليت أنا كنّا عملنا كذا،

وكـذا. وهذا مـا نرىٰ في حق تقـاته وهـو قليل. والسعي في مـرضـاتـه مؤذن بوجوب المبادرة إلىٰ ما يـرضيه من الأفعـال، والأقوال، والاعتقـادات، فنقول الحق، ونعتقد الحق، ونعمل بـالحق، ونوقن من الـدنيا، كمـا أمرنـا الصادق المصـدق (صلى الله عليه وآلـه وسلم) بالفنـاء إذ هو نهـايتها لا محـالة، فـلا نجمع لها أشتاتاً، ولا نزمر لهـا بتاتاً ولا ننافس في عمـران قصورهـا، وتشييد دورها. ونحن نعلم أن إلىٰ القبور مصيرنا، وإلىٰ التراب مرجعنا. وفناء الـدنيا ذهابها وخرابها، والفناء في أصل اللغـة الخراب، والتفـرق يقال: شيـخ فان. أي بليت جدته، وخربت بنيته، فهذا اليقين إذا حصل لنا في الدنيا زهدنا في استيطانها، وإذا أيقنا ببقاء الآخـرة دعانـا ذلك إلىٰ الـرغبة فيهـا والطلب لهـا، وإذا طلبناها حق الطلب، فليس إلاّ بأن نسعىٰ لها سعيها، ونعمل عملها وهـو القيام بموجبات ما كلفنا فعلاً، وتركاً والتحفظ مما يفوّت ثواب ذلك علينـا من الكبائر والموبقات، لئلا تبطل أعمالنا، ويضل سعينا.

قـوله (عليـه السلام): «واعملوا لمـا بعد المـوت، فكأنكم بـالدنيـا لم تكن، وبـالآخرة لم تـزل. أيها النـاس إن من في الدنيـا ضيف وما في يـديـه عَارية، والضيف مرتحل، والعارية مردوده..».

الضيف هـو الوافـد، وهو مـأخوذ في الأصـل من الإضافـة وهو تقـريب الشيء إلىٰ الشيء، فلما وصل سمي ضيفاً، وهو من أشهر ما نطق به العرب، فلم نفسر إلاّ معناه في الأصل. والعارية: هي إباحة المنافع، وأصلها العـطاء لا فرق بين أعاره، وأعطاه..

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمـر بأن لا نـركن إلىٰ الدنيـا، وأن نعمل لما بعد الموت، والذي بعد الموت هو الهول الأعظم، والفـزع الأكبر، لأنـه الحساب والعقـاب، والجنة والنـار. فمن عمل لمـا بعد المـوت نجا من المهلكات وفاز بأسباب النجـاة، ثم أكد ذلـك (عليه السـلام) بقولـه: «كأنكم بالدنيا لم تكن»، لأن ما زال، فكأنه لم يكن، وبالآخرة لم تـزل، لأن ما بقي واستقر، فكأنه لم يزل، ثم مثل ذلك بأحسن مثل، وكشف عن وصف الحـال بقوله (عليه السلام(: «إن من في الدنيا ضيف» فهل علمت للضيف إقامةً، أو دواماً؟ أفليس هو كفي الغمام أكثر الضيافة ثلاث؟ ثم لا يعاق عن الانبعـاث، ومثل ما في يديه بـالعاريـة التي يسرع ارتجـاعها، ويجب ردهـا عند المـطالبة

بها، وصرح بما ذكرنا من المعنىٰ بقوله (عليه السلام): «الضيف مرتحل، والعارية مردودة».

قوله (عليه السلام): «ألا أن الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، والآخر وعد صادق يحكم فيها ملك قادر..».

العرض: ما يعرض في الوجود ولا يجب لبثه. والحاضر نقيض الغائب. والبر المسلم، وأصله من السلامة. سمي البر براً، والفاجر المجرم، والفجور الخروج من طريق الخير وسموا حرب قيس، وكنانة حرب الفجار، لأنهم هتكوا فيه حرمة الأشهر الحرم، فخرجوا عن الحدود. والوعد هو الخبر عن إيصال نفع إلىٰ الغير في المستقبل. هذا عند أهل الكلام، وفي الأصل الخبر بوصول أمر ما في المستقبل خيراً، أم شراً..

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر أن الدنيا قليلة اللبث والإقامة حاضرة يأكل منه البر والفاجر لا يؤثر بها البر، لأجل بره، ولا يمنع منه الفاجر، لأجل فجوره. وهذا مطابق لقوله (سبحانه): **﴿كلًا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾**[1] فلم يرض بها الحكيم (سبحانه) ثواباً لمن أطاعه، ولا عقاباً لمن عصاه، بل جعلها دار تكليف أسبغ علىٰ الجميع فيها رزقه، وضاعف عليهم فيها نعمه، لإكمال الحجة عليهم في دار الآخرة، لأنه (تعالىٰ) لو لم يقصد وصول النعم إلىٰ الكفار والفساق، لما كان منعماً عليهم. ألا ترىٰ إنا إذا صنعنا طعاماً لعمرو وحظرناه علىٰ زيد، فجاء زيد فغصبه وأكله، فإن العقلاء لا يوجبون عليه شكراً والحال هذه؟ وإنما يوجب أهل الشرع عليه الغرامة، ولا نكون منعمين عليه، ولا لنا عليه منه. فكل من أداه علمه إلىٰ أن الله لا نعمة له علىٰ من عصاه، ولا يجب عليه شكره رد قوله (تعالىٰ): **﴿أن أشكر لي ولوالديك إليَّ المصير﴾**[2] فكيف يأمر ما ليس بشكر ما ليس منه؟ وكذلك قوله: **﴿واشكروا لي ولا تكفرون..﴾**[3]، ويكون رداً لقوله (تعالىٰ): **﴿الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾**[4] أجحدوها،

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٠.
(٢) سورة لقمان آية ١٤.
(٣) سورة البقرة آية ١٥٢.
(٤) سورة إبراهيم آية ٢٨.

وغمصوها؟ ومن فعل ذلك فقد كفر وتعدىٰ وهلك، وتردىٰ وانقلب علمه جهلًا، وحلمه طيشاً وسفهاً، وتمرد عن خالقه،وأنكر فضل باريه فنعوذ بالله من الزيغ المؤدي إلىٰ الضلال، والتعلق بأسباب الجهال. والآخرة مخالفة لها، وهي وعد صادق بثواب المطيعة.. ثواب حرّمه علىٰ الفاجرين، كما قال تعالىٰ حاكياً عن أهل الجنة، وأهل النار: ﴿ونادىٰ أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا: إن الله حرمهما علىٰ الكافرين..﴾[1] فانظر إلىٰ حكم الدنيا كيف خالف حكم الآخرة! قال (تعالىٰ) في الدنيا: ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾[2] ونحن نشاهد ذلك ونعلمه ونحكم به. حتى لو مات يهودي له ولدان أحدهما مسلم، والآخر يهودي، لحكمنا بالمال لليهودي دون المسلم، فلو قيل لنا: لم فعلتم؟ قلنا: أعطاه الله إياه. قالوا: مع كفره؟ قلنا: لأجل كفره، وذلك أبلغ. فأما الآخرة فهي وعدٌ صادق يحكم فيها الملك القادر، وقد أخبرنا بحكمته أن لا رحمة للكافرين الفاجرين، ولا نعمة تصل إلىٰ أحد من الفاسقين المارقين، وأنه قادر علىٰ الوفاء بما وعدنا، لأنه قادر لذاته، فلا يجوز عليه العجز فتفهم رحمك الله (تعالىٰ) معاني كتاب الله من أربابه، وأطلب هذا العلم من ورثته ونصابه، ولا تخبط العلم خبط السلمة شوكه وورقه! يعط القوس باريها، وأنزل الدار بانيها، واسأل فقد كفيت، وأحمد إذا شفيت..

قوله (عليه السلام): «فرحم الله امرأً نظر لنفسه، ومهد لرمسه ما دام رسنه مرخاً وحبله علىٰ غاربه ملقىً قبل أن ينفذ أجله فينقطع عمله...».

التمهيد التوطئة. والرمس هو القبر. سمي رمساً، لأن الميت يرمس فيه، والرسن يختص بذوات الحافر في العرف وهو في الأصل الخطام. والإرخاء نقيض الشد. والحبل في البعير كالرسن في الفرس. والغارب مجمع الكتفين، ومغرز العنق. والإلقاء هو الطرح..

المعنىٰ في ذلك: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا بالرحمة، وهو مستجاب الدعوة لمن نظر لنفسه، وهذا غاية الشفقة علينا، والنصيحة لنا

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٠.
(٢) سورة الإسراء آية ٢٠.

أن يدعو بالرحمة لنا إذا نظرنا لأنفسنا، وقد تقدر في عقل كل عاقل وجوب النظر لنفسه، ليدفع عنها المضار، ويجلب إليها المنافع، وإنما إذا كان نظره لنفسه علىٰ وجه صحيح أدّاه نظره إلىٰ أعمال الآخرة، وإيثار رضا الرب، وتحمل المشاق الفانية، لتحصيل النعم الباقية، ومهد لرمسه بأن يوطي بالحسنات محط جنبه فلا يوقع جنبه إلاّ علىٰ طاعة الله (سبحانه) قد طحرت عنه قذا العقوبة، وبسط له أوراق الرحمة، وذلك لا يصح إلاّ ما دام رسنه مرخاً شبهه (عليه السلام) بالفرس التي يطول لها رسنها. معناه يرّخا فتردد يميناً وشمالاً وخلفاً وأماماً، وتتمكن من التصرف. وكذلك حالنا مع بقاء التكليف، ثم انتقل من هذا المثال، والاستعارة العجيبة إلىٰ أوسع وأصلي، فقال: وحبله علىٰ غاربه ملقى وهكذا في التعبير إذا طابت نفس مولاه من نفاره، أو كان قادراً علىٰ رده فإنه يطرح حبله. أي خطامه علىٰ غاربه، ثم يدعه يرعىٰ أين ما أراد! فإذا دعته إليه الحاجة أنا إليه، فتناول خطامه وقاده إلىٰ أين ما أحب، ويمنعه مما يكره. وهذا في التكليف أعم، وبه أشبه، لأن المكلف مع بقاء التكليف موكول إلىٰ اختياره في الخير والشر غير ممنوع بالجبر والقهر من واحد من الأمرين إن أتى، فغير مقهور، وإن امتنع فغير مجبور، إنما هو أمر ونهي، وترغيب، وترهيب، وتكريه وتحبيب، فمن اختار الهلاك علىٰ النجاة، والعذاب علىٰ المغفرة، فما أصبره علىٰ النار. فأما إذا نفذ الأجل انقطع العمل، لأنه يخرج بالموت عن خير التكليف، فينشط الرسن، ويقبض الحبل، ويقال إلىٰ الخير إن كان صالحاً قوداً رفيقاً شفيقاً، ويعتل إلىٰ الشر الذي هو العذاب، والخزي عتلاً عنيفاً شديداً. جعلنا الله وإياكم ممن فكره فهم، وسعيه حزم، والصلاة علىٰ محمد وآله..

الحديث السابع والثلاثون

عن أبي ذر (رحمه الله) وهو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن حزام بن غفار بن مليل بن خميرة بن كنانة بن عبدمناه بن حزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار غفاري. فضّله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بصدق اللهجة، فكان معصوماً فيما يتعلق بالأخبار، وله من الفضائل ما لا يحصره ذكرنا في مثل هذا، وكان عثمان أخرجه من المدينة إلىٰ الربذة، لوحشة جرت بينهما! فجاء وعيد حبشي يصلي بهم، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمره أن يطيع، ولو كان الأمير عبداً حبشياً. فأمروه أن يتقدم بهم للصلاة، فكره وذكر وصاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أخبره أنه يموت وحده، ويقبر وحده ويبعث وحده! قال: «يا رسول الله: فمن يواريني ويصلي عليَّ؟ قال: جماعة من أصحابي من نعتهم كذا، وكذا» فلما حضرته الوفاة قالت بنته: يا أبة من يتولىٰ شأنك، ويغسلك ويقبرك..؟ قال: إذا أنا مت فألقيني علىٰ قارعة الطريق، ففاضت نفسه.. وأقبل الركب من العراق، وهم عبدالله بن مسعود وأصحابه، فما شعروا حتىٰ كادت الركاب تطئه! فقالوا: من هذا؟ فقالت بنته: أبو ذر صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتواثبوا وبكوا عليه، وجهزوه، وصلوا عليه، وقبروه..

قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لرجل وهو يوحيه: أقلل من الشهوات يسهل عليك الفقر، وأقلل من الذنوب يسهل عليك

الموت، وقدم مالك أمامك يسرك اللحاق به، وأقنع بما أتيته يخف عليك الحساب، ولا تتشاغل عما فرض عليك بما قد ضمن لك أنه ليس بفائتك ما قسم لك، ولست بلاحق ما زوي عنك، فلا تكن جاهداً فيما يصبح نافذاً، وأسع الملك لا زوال له في منزل لا انتقال عنه».

الإقلال نقيض الإكثار. والشهوات معروفة، وهي المعاني التي توفر الدواعي التي تتناول الشيء، والمراد هاهنا المشتهيات دون الشهوات إذ الشهوات لا تدخل تحت مقدور العبيد فيتعلق النهي بها. والسهولة نقيض الصعوبة، والفقر هو وجود الحاجة، وعدم المحتاج إليه، والذنوب هي المعاصي، والموت عرض يضاد الحياة. ومال الإنسان معروف. وأمام نقيض خلف والسرور نقيض الغم. واللحاق، والإدراك معناهما واحد. والقنوع هو الرضىٰ في الباطن، والظاهر. والحساب قد تقدم. المعنى في ذلك: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) معلم الخير، والهادي إلىٰ الرشد أمر الإنسان عموماً، بأن يقلل من الشهوات، يريد (عليه السلام) من المشتهيات إذ الشهوات لا تدخل تحت مقدور العبد، لأن ذلك لو أمكننا، لخلقنا لنفوسنا لما تريد تناوله، وقد علمنا خلافهُ، وأنّا نريد تناول الدواء الكريه، ونحن لا نشتهيه ولا يمكننا إيجاد شهوته. . إذ المراد هاهنا أقلل من المشتهيات وتناولها بالأثمان يسهل عليك الفقر، وأقلل من الذنوب نفي الجملة، وإنما أتبع اللفظ اللفظ ومثله كثير في كلامهم.

والذنوب هي المعاصي نعوذ بالله منها. وسهولة الموت: هونه، وليس المراد أن يهون علىٰ المؤمن خروج نفسه جداً، وقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «أن العبد ليكون له درجة رفيعة في الجنة لا ينالها إلاّ بشيء من البلايا يصيبه، وأنه لينزل به الموت، فيأتيه الموت، وما بلغ تلك الدرجة، فيشدد عليه حتى يبلغها!» فإذاً معنىٰ الحديث أن يسهل عليك ما بعد الموت، وهو لقاء منكر ونكير، ومسألتهما في القبر، وما يشاهد هنالك من الأمور الكبار! وكذلك البعث وهولة روعه وزلازله ومواقعه هذا هوَ الذي يراد أن يسهل علىٰ العباد. وأمر (عليه السلام) بتقديم الإنسان لماله، ليسره اللحاق به وذلك ظاهر، لأن الإنسان محب ماله حباً شديداً، ولهذا قد نبه الله (سبحانه) في إيجاب الجهاد به في قوله: ﴿جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في

سبيل الله. . ﴾[1] فإذا قدمه الإنسان أمامه على معنى أن ينفقه في سبيل الله (سبحانه)، وفي وجوه البر ومصالح الإسلام، ونفع المسلمين. صار أمامه عند الله (تعالى) لا فوات على شيء منه، وسره الإنسان اللحاق به، لأنك إذا أمرت بمالك فيما نشاهده إلى بلد صعب عليك التخلف بعده، وسرك اللحاق به لا محالة، وإذا سرت إليه كنت مسروراً، لأنك تقدم على محبوبك، وهو مالك، فما أنفعها من موعظة إن وجدت قابلاً، وأصلحها من تذكرة إن وافقت عاملاً، وأمر (عليه السلام) بالقنوع بما آتيه الإنسان من فضل الله (سبحانه)، ليخف عليه الحساب، لأنه إذا لم يقنع بما أوتيه الله طلب سواه، وإذا طلب سواه وقع في المحظور، وإذا وقع في المحظور شد عليه الحساب، وصعُب الخطب، وعظم الأمر، وماذا بعد الحق إلاّ الضلال؟ وما بعد الحلال إلاّ الحرام. . ؟ فمن قنع بما قسم الله له، ولم يتجاوزه إلى غيره، وأدى حق الله منه، وحق الله فيه خف عليه الحساب. .

قوله (عليه السلام): «ولا تتشاغل عما فُرض عليك بما قد ضمن لك أنه ليس بفائتك ما قسم لك، ولست بلاحق ما ذوي عنك. . .».

التشاغل: هو التعلل بالأشغال من غير حقيقة لذلك. والفرض والإيجاب واحد. والضمانة التزام الأمر. والفوات نقيض الإدراك. واللاحق المدرك. وذوي منع وصرف.

المعنى في ذلك: أنه (عليه السلام) نهى أن يتشاغل الإنسان عن المفروض عليه، وهو الواجبات في نفسه، وماله بالمضمون له، وهو رزقه، فإن الله (سبحانه) قد ضمن وهو الوافي الضمانة لعباده بأرزاقهم، وما يمسهم الحاجة إليه من إدفاقهم، بل هو (سبحانه) لسعة جوده أعطاهم من الرزق فوق حاجتهم، وكلفهم برحمته من العبادة دون طاقتهم، فأي كرم أوسع من هذا مجالاً، وأقرب منالاً لمن رغب في خلاص نفسه، ولم يتعر لهلاك مهجته. . .؟ ثم زاد (عليه السلام) ذلك بياناً، بأن قال، وأكد: أنه ليس بفائتك ما قسم لك من الرزق في هذه الدنيا، وسواء حرصك وإهمالك، فلا

---

(١) سورة التوبة آية ٤١.

يكثر بطلبه اشتغالـك، ولست مع ذلـك بلاحق مـا زوي عنك علىٰ وجـه يحل لك تناوله، ويخف عليك الحساب، يأخذه فلا تغتر بالاجتهاد والاشتغال عمـا أوجب الحكيم سبحانه عليـك من الأعمال التي تؤديـك إلىٰ دار القرار ومنـزل الرحمة، ومناخ الكرامة والنعمة. ,.

قوله (عليه السلام): «فلا تك جاهداً فيما يصبح نافداً، واسـع لملك لا زوال له في منزل لا انتقال عنه». .

الجاهد هـو المتعب نفسه في الأمـر أخذ من الجهـد، وهو الشـدة ومن ذلـك أخـذ الجهـاد. والنـافـذ الـزائـل المـاضي. والسعي معـروف. والملك كـذلك. والـزوال نقيض الثبات. والمنـزل ما ينـزل الناس أي يحـطون فيـه. والانتقال نقيض الحلول. . .

المعنىٰ في ذلـك: أنه (عليـه السلام) نهى أن يكـون العبد جـاهـداً في طلب حطام الدنيا، ونفعها الزائل الفـاني، ولا يتيقن حصولـه وإن حصل فـإنه يصبح نافداً ماضياً زائلاً لا بقاء له، ولا دوام ولا نماء، ولا تمام، وإنما هو هو رجع كلام، وأضغاث أحلام. ولو بقي لأحد، لبقي لمن كان قبلنا، وقـد رأينا مصيـرهم ومنقلبهم. وأمر (عليـه السلام) أن يسعى العبـد لما ينبغي أن يسعىٰ له، وهو الملك الذي لا زوال له، وهو ملك الآخرة وخيرها. وقـد دلت الآثار وحجج العقول مطابقة للكتاب الكريم، لخلود ملك الآخرة، والمنزل الذي لا انتقال عنه هو دار الإقامة ومنزل السلامة، وهو الجنة التي وعـد الله (سبحانـه) أولياؤه بسكونها والخلود فيها، وأنهم لا ينتقلون عنها أبداً، ولا يخـرجون منهـا أصـلاً، وإنما تنقلهم في أنـواع لذاتهم، وأصنـاف شهواتهم، والمـزاورة فيما بينهم، إنما هو شغل بفكاهة، كما قـال (تعالىٰ): ﴿إن أصحـاب الجنة اليـوم في شغـل فاكهـون﴾[1] فشغلهم لذاتهم، وفكـاهتهم سرورهم، وقـد علمنا أن الإنسـان يركب الأخـطار الكبار، ويخـوض الغمـرات العـظام طلبـاً، لنفـع لا يـدوم، وذكر لا يبقىٰ، وثنـاء لا يستمـر، فكيف لا يصبـر علىٰ طـاعـة الجبـار سبحانه، ومرضاته، وإيثار محبـوبه، لتحصيـل ملك لا زوال له، والنـزول في منزل لا انتقال عنه. . .؟ فنسأل الله (تعالىٰ) أن يحمدنا وإياكم العواقب، وأن يبلغنا من طاعته المآرب، ويصلي علىٰ النبي وآله.

(1) سورة يس آية ٥٥.

الحديث الثامن والثلاثون

عن ابن عباس قد تقدم الكلام في نسبه وذكر طرف من حاله وهو أشهر من أن ينصب علىٰ أمره برهان. قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «أنه ما سكن حب الدنيا قلب عبد إلّا التاط منها بثلاث: شغل لا ينفك عناؤه، وفقر لا يدرك غناؤه، وأمل لا ينال منتهاه» إن الدنيا والآخرة طالبتان، ومطلوبتان، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتىٰ يستكمل رزقه. وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتىٰ يأخذ الموت بعنقه. ألا وإن السعيد من اختار باقية يدوم نعيمها علىٰ فانية لا ينفد عذابها، وقدّم لما يقدم عليه مما هو الآن في يديه قبل أن يخلفّه لمن يسعد بإنفاقه وقد شقي بجمعه واحتكاره.

السكون هو الحلول، والقطون. والحب نقيض البغض وقد تقدم الكلام في القلب، والعبد. والالتياط الالتصاق. والشغل معروف، وأصله الملء للإناء، فكأن الشغل يملأ الإنسان، فلا يبقىٰ منه فضله لغيره، فسمي شغلاً. والانفكاك الانفصال. والعناء هو التعب، والنصب.

والأمل: هو انتظار وقوع أمر محبوب في المستقبل يغلب حصوله علىٰ فواته، وبذلك يخالف الرجاء، وإلّا فهما متقاربان في لسانهم جداً، والفقر نقيض الغنى، وهما معروفان.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر وهو الصادق في خبره أن حب الدنيا لا يسكن قلب عبد إلّا والتاط منها بثلاث خلال لو لم يكن إلّا واحد، لكانت كافية في التنفير عن التعلق بحب الدنيا.

الأولىٰ منها: الشغل المتصل الذي لا ينفك تعبه ولا نصبه وهذه مشقة عظيمة دفعها عن النفس واجب.

والثانية: فقر لا يدرك غناه، وصدق (صلى الله عليه وآله وسلم) أن محب الدنيا فقير طول عمره، وغاية دهره، لأنه كلما حاز منها جانباً دعاه حبها إلىٰ طلب جانب، وليس لطاعتها غاية يقف عندها. وفي الحديث عن النبي (عليه السلام) أنه قال: «لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغىٰ إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله علىٰ من تاب! فإذا كان الأمر هكذا كان فقره غير منقطع. إذ الإحاطة بجميع ما في الدنيا متعذر، وبعضها يدعو إلىٰ بعض، فالطالب لها، لاطفاء سورة حبها، كالذي يطفىء النار بالحطب، كلما كثر ازدادت جحيماً، ولهباً، وأجيجاً وسحياً، فلا خير في حبها أصلاً».

والثالثة: أمل لا يدرك منتهاه، ولا شك في ذلك والأمل معروف، والتعلق به من أسباب العناء، لأن العبد. إذا أحب الدنيا امتد أمله فيها إلىٰ ما لا غاية له، فكان منه في عناء إذ هو متبع له رجاه، فلا يذهب شغل ذلك من قلبه، ولا دواء لجميع هذه الخلال إلّا رفض حب الدنيا الزائلة الفانية، والاقبال علىٰ طلب الآخرة الدائمة الباقية..

قوله (عليه السلام): «إن الدنيا والآخرة طالبتان، ومطلوبتان فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتىٰ يستكمل رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتىٰ يأخذ الموت بعنقه ألا وإن السعيد من اختار باقيه يدوم نعيمها علىٰ فانية لا ينفد عذابها..». الطالب، والمطلوب معروفان. والاستكمال، والاستيلاء علىٰ أمر بكماله. والعنق معروفة، والسعيد نقيض الشقي. والاختيار نقيض الاجبار.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر أن الدنيا والآخرة طالبتان، ومطلوبتان إلّا أن طالبهما مختلف فالدنيا تطلب من كرهها، والآخرة تطلب طالبها، وكارهها فأما طالبها فليوفىٰ أجره فيها، وأما كارهها فليأخذ منه لهجرانه لها، وقد أوضح ذلك (عليه السلام) بقوله: «طالب الآخرة تطلبه الدنيا حتىٰ يستكمل رزقه»، وذلك لأن رزقه ليس بمشروط بطاعته، لأن الله (سبحانه) يرزق في هذه الدنيا من أطاعه ومن عصاه، وفي الآخرة لا يرزق

إلا من أطاعه دون من عصاه، لأن هذه دار التكليف فلا بد من الانعام والتمكين، ليجب الحق علىٰ أبلغ الوجوه. وتلك الدار دار الجزاء علىٰ الأعمال، فتفهم الفرق بين الأمرين. وطالب الدنيا تطلبه الآخرة طلب ناقم الثأر حتىٰ يأخذ الموت بكظمه فينتقم لنفسه من نفسه! وأي خسارة أعظم من هذا. .؟ وجعل الأخذ بالعنق، لأنه أبلغ المأخذ وأن ينتصر من أخذ بعنقه. وأصل ذلك في الشاة إذا أريد ذبحها أخذت بعنقها. وبين أن السعيد من اختار باقية يدوم نعيمها، وهي الجنة جعلنا الله وإياكم من أربابها، ووفقنا للتمسك بأسبابها، والفانية التي لا ينفذ عذابها هي الدنيا. ولا شك في فنائها، وفناء من فيها، وأضاف العذاب الذي لا ينفذ إليها، لوقوعه من أجلها، وإلاّ فهو عذاب الآخرة دون عذاب الدنيا لأن عذاب الدنيا ينفذ وينحصر وينعد، فلما كان عذاب الآخرة موقوفاً علىٰ أعمال الدنيا إضافة إليها، لحصوله من أجلها وهو لا ينفد، لاستمرار الاستحقاق أبد الآبدين، ودهر الداهرين. .

قوله (عليه السلام): «وقدّم لما يقدم عليه مما هو الآن في يديه قبل أن يخلفه لمن يسعد بإنفاقه، وقد تشقى بجمعه واحتكاره».

التقديم، والتسبيق، والتفريط واحد. وقدومه عليه وصوله. الآن هو الوقت الذي نحن فيه، وهو معرفة لازمة. ويداه معروفتان، وذكرهما تأكيداً إلاّ أن ماله مشدود بهما. والتخليف أخذ من الخلف، وهو ما وراء الإنسان مما يناقض قداسة مكان الميت ترك المال خلف ظهره والسعادة نقيض الشقاوة. والإنفاق نقيض الإمساك. والشقاء هو التعب والمشقة. والجمع نقيض التفريق. والاحتكار ترك الانتفاع بالمال ببيع، أو غيره.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أمر، بأن يُقدم الإنسان من ماله لما يقدم عليه من روعه الحشر، وأهواله وبين من أي شيء يقدّم، فقال: مما هو الآن في يديه تأكيداً للأمر، بذكر اليدين، لأن أكثر تصرف الإنسان، وقبضه، وبسطه، وعطائه، ومنفعه باليدين، وعلىٰ ذلك يحمل قوله (تعالىٰ): ﴿ذلك بما قدمت يداك. . .﴾[1] وإن كان يجوز أن تكون المعصية وقعت بغير

---

(١) سورة الحج آية ١٠.

اليدين. والمال الآن في أيدينا إذ أيدينا مطلقة. وزاد (عليه السلام) في الأمر تزهيداً، وفي الحجة تأكيداً بقوله: قبل أن يخلفه لمن يسعد بإنفاقه. إما لغة، وإما شرعاً، فمن أنفقه في الدنيا، وأغراضها، فهو سعيد عند أهلها ومن أنفقه في وجوه البر، لله (سبحانه)، فهو السعيد به حقاً. وشقاؤه بجمعه، واحتكاره هو تعبه ونصبه في تحصيله، وضم فضوله هذه الشقاوة الأولىٰ، وهي أهون الشقاوتين مشقة، وأقربهما شقة. والشقاوة الأخرىٰ وهي الداهية الكبرىٰ أن يمنعه من حقوق الله (سبحانه)، ويجمعه محتكراً له جاهلاً بانتقاله، أو الانتقال عنه! قد أعمىٰ حبه قلبه، وأعشىٰ وده بصره، فصار لا يسمع هدايته، ولا يبصر رشده حتىٰ جاءه الموت. وهذا حاله، فأخذ بعنقه؛ فأراد الإنفاق فمنعه، وطلب التلكي في طريقه، فنفعه وأضجعه، فضغطه ضغطة، وكشطه كشطة، ففرق بين جسده وروحه وأورده دار البوار فقيراً عقيراً لا يجد معيناً ولا نصيراً هذا وقد ترك مجموعة خلف ظهره، فأخذه وارثه غير شاكر ولا ذاكر، فإن شكر وذكر، فغير دافع، ولا مانع، فأنفقه بداراً، ولم يدخر منه درهماً، ولا ديناراً. وذلك، لهونه عليه وصغره لديه، فإن قصد به منافع دنياه سعد به عند أهل الدنيا مدة حياته، وأن قصد به أخراه، وتحرىٰ به رضا مولاه فاز بقدم القامرين، ووفي أجر الشاكرين، جعلنا الله وإياكم ممن رغب في دار الآخرة، وسعىٰ لها سعيها فطلبها، وزهد في الدنيا فكفاها، وقلبها، وردّها علىٰ عقبها. والصلاة علىٰ محمد وآله..

الحديث التاسع والثلاثون

عن أبي هريرة وقد تقدم الكلام في نسبه وطرف من ذكر حاله وعلىٰ الجملة هو أحد الرواة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وله رواية واسعة علىٰ غفلة كانت فيه، وله أشباه فيها منهم عبدالله بن عمر، ووابضة بن معبد، ومعقل بن سنان في آخرين. وهو يماني نسباً، ولساناً. وذلك أنه كان يبدل لام المعرفة ميماً، فقال: وقد دخل علىٰ عثمان يوم الدار: الآن طاب أمضرب، وهذه لغة كثيرة من أهل اليمن سمعناها منهم. وهو أحد المدافعين عن عثمان، وضطربت أحواله في أيام علي (عليه السلام) علىٰ إظهاره فضله واعتقاد إمامته، وإنما لم يعرف بتشدد في أمره، وهذا أفضل عرض وفيه بعض غرض! قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «ألا وإن الدنيا قد إرتحلت مدبرة، والآخرة قد تجملت مقبلة. ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب، ويوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل، وان الله يعطي الدنيا من يحب، ويبغض ولا يعطي الآخرة إلّا من يحب، وأن للدنيا أبناء، وللآخرة أبناء فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا. إن شر ما أتخوف عليكم اتباع الهوىٰ، وطول الأمل. فاتباع الهوىٰ يصدق بقلوبكم عن الحق، وطول الأمل يصرف هممكم إلىٰ الدنيا، وما بعدهما لأحد من خير في دنيا ولا آخرة. . .».

الارتحال: نقيض الحلول. والإدبار نقيض الإقبال. وأصل ذلك تولية الدبر. والتحمل هو الإقلال للشيء والاستقلال به. والإقبال نقيض الإدبار. .

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر وهو صادق الخبر. فما عذرنا في التمسك بحبل الغرر؟.. إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، فكيف يعمل لها مع ادبارها عمل المستقبلين؟ أم كيف يركن إليها الحاذر الفطين، وقد خلت لنا فيها المثلات بأبنائها الفارطين..؟ ولقد عاينا من أدبارها عن المقبلين عليها رؤية عين اليقين. فكم لها من ضريب وطعين، وطريح ودفين..؟ أبدت له محاسنها الفتانة، وتدثرت بالعفة والأمانة حتىٰ إذا تمكنت مخالب حبها في شغاف قلبه، وألب ودّها عليه نيران الفتن، وقلبته لوجهه حيران، وأهبطته الغشاء منها علىٰ سرحان فحان فيمن حان، ودين بما دان وقيل كان وما كان، فلم تغنه الأحزان، ولا تدفع عنه الأشجان. وأما الآخرة وتحملها مقبلة، فهل نجز لها العامل عمله، أم هو علىٰ يقين من المهلة..؟ ما قوله إن أرهقته العجلة؟ وكل أعمال الصلاح مهملة فخار من فرط السؤال، والوله صار عليه حسرة! ما كان له. فرحم الله عبداً استقبلها بما يستقبل به الوافدون من البشاشة، وأتقىٰ بحسن ما قدم لها وإليها قد حملت عنه ما حمل عليها..

قوله (عليه السلام): «ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ويوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل..».

العمل معروف. والحساب مناقشة المتصرفين، والبحث عن الأصول والقوانين. ويوشك من المواشكة، وهي الإسراع. قال: بعضهم في المهلب بن أبي صفرة، وقد انهزم يوم دولاب، وهو يوم معروف بينه، وبين الخوارج، وثبت ولده المغيرة في أهل الحفاظ، واعتذر بعضهم للمهلب بأنه نما خف لرد المنهزم..:

بدولاب أضعت دماء قومي وطرت علىٰ مواشكة دُرُور

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) بين إنا اليوم في يوم العمل، والمهل عن الحساب في التفصيل والحمل. وغداً في يوم حساب ليس فيه عمل، وعجل ليس بعده مهل. وما أسرع ما يكون، كما بينه الأمين؟ ولما نبه عليه طبيب الدين (صلى الله عليه وآله الطيبين) فإذا تحملنا ذلك شمرنا تشمير المجتهدين، وعملنا عمل الجادين المنجدين، ولم نضن بالثمين، ولا نركن إلىٰ الظنين، فنقلب بحظ غبين فاليوم يوم التحصيل، وغداً يوم التفصيل،

ولكل واحد من العملين- حفظة. أعني عمل الخير والشر. تؤدي ما حفظته إلىٰ نقّاد بصير، فما شئت فقدم، فأنت لا محالة عليه قادم! إن كان رديئاً قرعت سنَّ النادم، وإن كان جيداً فزت بسهم الغانم. فأصلح حسابك قبل أن تدعىٰ للمحاسبة، وأعدد خطابك قبل مجاثاة المخاطبة. وكن كأنك قد قلت، وقد قيل لك فأصلح عملك، وبادر أجلك..

قوله (عليه السلام): «وإن الله يعطي الدنيا من يحب، ويبغض، ولا يعطي الآخرة إلاّ من يحب..».

الحب نقيض البغض.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) بين صغر هذه الدنيا عند الله، وضعف حالها لديه، فلم يرض بخيرها ثواباً لأوليائه ولا بشرها عقاباً، لأعدائه، بل أعطاها من يحب ويبغض وذلك معلوم لنا مشاهدة، ونطق به القرآن الكريم في غير موضع. قال الله (تعالىٰ): ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون..﴾[1] وقال في المشركين أيضاً: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية أملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾[2] فصرح برزقه للمشركين في الآيتين جميعاً، وفي غيرهما. وميلنا إلىٰ الاختصار. وإنما خالف ذلك قوم من جهّال الشيعة وليس لهم في ذلك عمدة تفتقر إلىٰ إقامة برهان فكيف يكون، والقرآن الكريم مشحون بآيات الامتنان علىٰ العاصين..؟ ولولا رزقه إياهم لما من عليهم. وهذا تبين منه (عليه السلام) للفرق بين الدارين، لئلاّ يغتر المغترون، أو يظن الجاهلون أنه يمنن علىٰ العاصين في تلك الدار، كما امتن في هذه الدار، كما ذهبت إليه المرحية والحشوية جهلاً، لمواقع الحكمة، ولو فعل ذلك، لكان مغرياً بالمعاصي تعالىٰ عن ذلك. والإغراء بالمعاصي قبيح، والله (تعالىٰ) لا يفعل القبيح. وتقرير هذه الدلالة مستوفىٰ في كتب علم الكلام.

فإذا كان لا يعطي الآخرة إلاّ من يحب، وهي دار القرار، ومحل الخلود، وإليها المنقلب والمصير فالواجب علىٰ العبد أن يعمل ما يصير به

---

(١) سورة النحل آية ٥٦.

(٢) سورة الأنعام آية ١٥١.

محبوباً عند الله (سبحانه)، ليعطيه الآخرة الباقية التي إليها المعاد، وعليها المعول. وشرها الشر المخوف. وخيرها هو الخير المرجو. كل خير دون خيرها باطل، وكل شر غير شرها زائل، فإن شئت أن تكون محبوباً عند الله (سبحانه) فتحبب، وإن شئت أن تكون قريباً فتقرب، فإنه يحب المتحببين إليه بفعل طاعته، ويقرب المتقربين إليه بترك معصيته. .

قوله (عليه السلام): «وإن للدنيا أبناء، وللآخرة أبناء فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا. .».

الأبناء: أولاد الآباء، وذلك ظاهر، والأصل فيه الولادة، وقد كان التبني في الجاهلية أن يأخذ الرجل الرجل من عرض القبيلة، ثم يدعوه أباً، ويدعوه الآخر ابناً ويتوارثون بذلك، ويتناصرون. وكانوا يقولون فلان بن فلان للذي ادعاه، فقال (سبحانه): **﴿أدعوهم لآباءهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم في الدين ومواليكم . .﴾**[1] أقسط معناه أعدل، وكانوا يدعون زيد بن حارثة (رحمه الله) زيد بن محمد حتىٰ نزلت الآية: **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله﴾**[2] وقد طلبت النواصب في ذلك فرجاً، وأعطت العباسية والأموية من قبلها علىٰ ذلك العطايا الجزيلة! وقد أجمعت الصحابة من بعدهم من العلماء ما خلا النواصب علىٰ أن الحسن والحسين ابنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي الحديث المرفوع إلىٰ زينب ابنة أبي رافع قالت: «جاءت فاطمة (عليها السلام) إلىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في شكوه الذي توفي فيه. فقالت: يا رسول الله هذان أبناك تورثهما شيئاً؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): أما الحسن فله هيبتي وسؤدي، وأما الحسين فإن له جرأتي وجودي». ومثل هذا الحديث روي عن صفوان بن سليمان ورواية أبي بريدة عن أبيه: «أن الحسن والحسين أقبلا، ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخطب علىٰ المنبر وعليهما قميصان، وهما يمشيان، ويعثران، فنزل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن المنبر واحتملهما، ثم رجع إلىٰ مكانه، ثم قال: أيها الناس إنما

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥.
(٢) سورة الأحزاب آية ٤٠.

الولد فتنة لقد نزلت وما شعرت». . ولولا جهالة النواصب لم نحتج إلى ذكر شيء من هذا. وفي رواية أبي بكرة قال: «كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يصلي بالناس، فجاء الحسن بن علي يثب على ظهره إذا سجد، فلما فرغ قال: إن ابني هذا سيصلح الله به بين فئتين من المسلمين». قال: الحسن البصري، فلما ولي ما أهريق في سببه محجمة دم! وأمثال هذا كثير. وولد الحسن عام أحد بعد الوقعة، وبين الحسين وبينه طهر واحد. .

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) بين أن للدنيا أبناء يبرونها بر الوالدين وأن الواجب علىٰ العقلاء أن يكونوا من أبناء الآخرة الذين قاموا بها وبروها، وآثروا رضاها علىٰ رضىٰ نفوسهم، وحبها علىٰ حب آبائهم وأمهاتهم! وحق لها ذلك منهم، لأنهم إذا أحبوها حب الخالدين سعوا لها سعي المشفقين، وأحسنوا إليها إحسان المتقين، وكأن همهم صلاح آخرتهم، فربحوا الخلود في دار النعيم والعيش المقيم. وإن كان سعيهم للدنيا، وبرهم لها فيا لها حسرة ما أطمها، ومصيبة ما أهمها أوهمتهم أنها برة فعقت عقوق الهرة، فلما أكلتهم قعصاً وعبطاً، وخبطتهم بمخالبها خبطاً أوضحت اعتذارها، وخدعت أعمارها، وقالت أنتم ولدي، فلحبي إياكم قربتكم من كبدي وجعلت مهادكم كرشي وخننت بكم من أسمال فرشي فقَبل عذرها من فتنة سحرها، وأقبل إلىٰ الإحسان إليها، وركنِ عليها فألحقته بصاحبه، وألقته بجانبه.

قوله (عليه السلام): «إن شر ما أتخوف عليكم أتباع الهوىٰ وطول الأمل فأتباع الهوىٰ يصدف بقلوبكم عن الحق، وطول الأمل يصرف هممكم إلىٰ الدنيا، وما بعدهما لا جد من خير في دنيا ولا آخرة. .».

الشر أصله ما تنفر عنه النفوس، وسواء كان حسناً، كالذي يقع من قبل الله (سبحانه)، أو قبيحاً وقد قال (تعالىٰ): ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة. .﴾[1] معنىٰ فتنة أي محنة وبلوىٰ الشر بالصبر، وبلوىٰ الخير بالشكر والجميع حسن، لأنه (تعالىٰ) لا يفعل القبيح. وأما الشر هاهنا الذي هو اتباع الهوىٰ، فهو قبيح، والاتباع هو الافتقار واللحاق. والهوىٰ مقصور هوىٰ

(١) سورة الأنبياء آية ٣٥.

النفوس، وهو شهوتها، وإرادتها. وطول نقيض القصر. والأمل طمع بحصول مظنون مشتهىٰ قال الشاعر:

تؤجِل أن تقصر عمر نوح — وأمر الله يحدث كل ليلة

والصدق، والعرف معناه واحد، ومنه صدف المودة وصرفها.

وقوله (تعالىٰ): ﴿حتى إذا ساوىٰ بين الصدفين﴾(١). يريد لوحي الجبل كأن كل واحد منهما صدف عن صاحبه لمفارقته إياه أبداً فجمع بينهما (عليه السلام) بردمه.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) بين أن شر ما يتخوف علينا أتباع الهوىٰ، وطول الأمل. وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) أعرف العارفين، وأنصف الواصفين، ثم بين ذلك، بأن اتباع الهوىٰ يصدق بمعنىٰ يحيل، ويبعد بقلوبكم عن الحق وطول الأمل يصرف هممكم إلىٰ الدنيا، وهذا أوضح الإيضاح وأبين التبيان، ولا شك في ذلك لكل عاقل، لأن من أتبع الهوىٰ صرف عن الحق لا محالة، فكيف يجتمع الهوىٰ والحق وهما في حكم المتضادين، لأن الحق كريه مريٌّ ثقيل، والباطل شهي خفيف وبيل. وقد قال (تعالىٰ): ﴿ونهى النفس عن الهوىٰ فإن الجنة هي المأوىٰ﴾(٢) واتباع هوىٰ النفس تجرع السم الزعاف! فأما طول الأمل فينسي قدوم الأجل فيصرف الإنسان همه إلىٰ الدنيا وينسي ما وراها من الدار الأخرىٰ، فيكون كدحه لها وجمعه منها فيها حتىٰ يأتيه الأجل، وقد صدق عن الحق، باتباع هوىٰ نفسه، وانصرفت همته إلىٰ الدنيا بطول أمله، فلم يلق خيراً بعد هذين الوجهين في دنياه، ولا آخرته. أما دنياه، ففارقها حسيراً، وأما آخرته فوصلها فقيراً خسر الدنيا والآخر ذلك هو الخسران المبين... فنسأل الله أن يجعلنا، وإياكم من الرافضين لهوىٰ النفوس، المقصرين الآمال، العاملين للمرجح والمآل، والصلاة علىٰ محمد وآله. خير آل...

---

(١) سورة الكهف آية ٩٦.

(١) سورة النازعات آية ٤٠.

الحديث الأربعون

عن أنس بن مالك، وقد تقدم ذكر نسبه، وشرح طرف من حاله قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما من بيت إلاّ وملك الموت يقف علىٰ بابه كل يوم خمس مرات فإذا وجد الإنسان قد نفد أكله، وانقطع أجله ألقىٰ عليه غم الموت فغشيته كرباته، وغمرته عَلِزاته، فمن أهل بيته الناشرة شعرها الضاربة وجهها، والباكية شجوها والصارخة بويلها، فيقول ملك الموت ويلكم مم الفزع وفيم الجزع ما أذهبت لأحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، ولا آتيته حتىٰ أمِرت، ولا قبضت روحه حتىٰ استأمرت، وأن لي فيكم عودة، ثم عودة، ثم عودة حتى لا أبقي منكم أحداً. . ! فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): فوالذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه، لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا علىٰ نفوسهم حتىٰ إذا حمل الميت علىٰ نعشه رفرف روحه فوق النعش، وهو ينادي: يا أهلي، ويا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي جمعت المال من حله، وغير حله، ثم خلفته لغيري، بالمهناة له والتبعة عليَّ، فاحذروا مثل ما حل بي. . »!.

الرسول معروف، وأصله من الهون يقال: علىٰ رسلك أي علىٰ هون من أمرك. وشعرٌ رسلٌ إذا لم يكن فيه جعودة، كأنها أخذت من الشدة، ولهذا يقال: البخيل جعد الكف أي شديدها، ومنه الرِّسل الذي هو اللين، لأنه يخرج بهون. وجاءت الخيل ارسالاً يتلو بعضها بعضاً بغير طرد، ولا شك. ومنه الإبل المراسيل التي يسهل سيرها اللين أعطافها. وهو كثير المساحة. وقد يسمىٰ الرسالة رسولاً، كما قال الشاعر:

لقد كذب الواشون ما نحب عندهم يسر ولا أرسلتهم برسول

يريد برساله. والأصل ما ذكرنا. قال أبو ذؤيب الهذلي:

الكِنى إليها وخبر الرسول أعلمهم بنواحي الخبر

ولما كان الرسول يسهّل الأمر على المرسل سمي رسولاً.

وإذا أطلق الرسول في وقتنا هذا لم يسبق إلىٰ الأفهام إلاّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد شهدنا له بتبليغ الرسالة، وتأدية الأمانة، فجزاه الله عنا خيراً، وبعثه مقاماً محموداً، وأعطاه ما وعده وزاده من سعة جوده. وإنما دعاؤنا له تعبد كما أمرنا بالصلاة عليه، وعلىٰ أهل بيته. وإن كان يفعل له ذلك وإن لم نسأل. وذكرنا هذا، لأنا سمعنا من جهال الشيعة من ينكر مثل ذلك! ولفظ النبي في الأصل يخالف لفظ الرسول إلاّ أنه إذا همز أفاد الإنباء والأخبار علىٰ معنىٰ إن الله أبناه وأخبره، وعلىٰ معنىٰ أنه أنبأنا ، وأخبرنا، فيكون فعيل بمعنىٰ مفعل كما يقال: سميع بمعنىٰ مسمع. قال عمرو بن معدي كرب:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

وقد يكون فعيل بمعنىٰ مفعل، كما قال الشاعر:

وقصيدة تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها

فحكيمة هاهنا بمعنىٰ محكمة. وقد ينبي ويخبر من لم يرسل، فأما إذا كان بغير همز فهو مأخوذ من الرفعة وهي البناوة في الأصل. والصلاة من الله بمعنىٰ الرحمة، ومن العباد دعاءٌ بذلك قال الأعشى:

تقول بنتي وقد أزمعت مرتحلاً يا رب جنب أبي الأوصاب والرجعا
عليك مثل الذي صليت فاعتمدي صبراً فإن لجنب المرء مضطجعاً

وسلّم: مأخوذ من السلامة والدعة، ومنه أخذ السلام سلام معناه أمرٌ ودعه عليكم منا. والله (سبحانه) السلام، لأن ذلك لا يكون حقيقة خالصاً إلاّ منه.

قوله (عليه السلام): «ما من بيت».

ما: هاهنا نافية.- ومن حرف جر يبين به جنس المخبر عنه.

والبيت: يكون شعراً، ووبراً، وحجراً، ومدراً. قال الشاعر:

والبيت لا يبتنى إلاّ علىٰ عمد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فإن تجمع أوتادٌ وأعمدةٌ ... وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

فهو هاهنا بيت البادية من شعر، أو وبر ولما كان بيت الشعر يقوم بنفسه علىٰ ترتيب مخصوص، وتقطيع معلوم سمي بيتاً، والبيت العتيق بيت الله وسمي عتيقاً لقدمه، لأنه أول بيت وضع للناس وهو قبلة الأنبياء (عليه السلام) إبراهيم ومن قبله إلاّ موسىٰ وعيسىٰ (عليهما السلام) فقبلهما بيت المقدس وهو مأخوذ من بات بمعنىٰ سكن، وسكون الليل هو المبيت في الأصل، ثم صار عمل الليل كله، وما يقع من التصرف فيه مفرعاً علىٰ هذا، فيقال: ما عنده بيت ليلة وبيت ليلة أي عشاء ليلة يسكنه وبات فلان بيته سوء أي في مشقة من جوع أو غيره، ويقال: بتُ بهذا المكان أي اتخذته مسكناً في ليلتي، وإن لم يكن بيتاً، ويقال: بيت فلان أمره إذا فعله ليلاً وأحكمه، وأبرمه. وفي القرآن الكريم: ﴿إذ يبيّتون ما لا يرضىٰ من القول﴾[1]. أي إذا روُا ذلك بينهم ليلاً، وأنشد أبو عبيدة:

أتوني فلم أرضَ ما بينوا ... وكانوا أتوني بأمر نكر

وفي الحديث «استبيتوا الرأي» يقول: دعوا رأيكم تأتي عليه ليله، ثم تعقبوه بالنظر». وقال (تعالىٰ): ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاباً بياتاً﴾[2] أي ليلاً.

وملكُ الموت رسول الله (سبحانه) من غير البشر إلىٰ عباده بالموت الذي هو ضد الحياة. وسمي ملكاً من الرسالة وهي الألوكة والمأْلُكة. منه قولهم: ألكِني معناه أرسلني قال الشاعر: وهو مصقلة بن هبيرة، وهو ممن يوثق بلسانه:

ألكِني إلىٰ أهل العراق رسالة ... وخص بها احياء بكر بن وائل
وعُمّ بها عليا ربيعة إنني ... تركت علياً خير حاف وناعل

---

(١) سورة النساء آية ١٠٨.
(٢) سورة يونس آية ٥٠.

وأضاف الملك إلىٰ الموت، لأنه عمله. والكلام في الإضافات تكثر، وهو ظاهر.

والوقوف نقيض المسير. قال امرء القيس:

قفا نبك من ذكرىٰ حبيب ومنزل بسقط اللوىٰ بين الدخول فحومل

قفا أصله قف، وأراد التنوين فعوض من الألف، وهو كثير في كلامهم. والذكرىٰ معروف. وسمي الحبيب حبيباً، لسكونه حبه القلب في توهمهم.

والمنزل ما ينزل فيه من الركاب والخيل، وهو الإسم ومصدره بالفتح.

وسقط اللوىٰ منقطعة. واللوىٰ لوىٰ الرّمل مقصور وهو ما قد انتصب والتوىٰ.

والدخول، وحومل موضعان، ومنه الوقوف بعرفه زادها الله شرفاً.

والباب هو ما يدخل منه في الأغلب إلىٰ المساكن، وقد تجمع علىٰ أبويه. قال القتّال الكلابي:

هتاك أخبية ولاج أبويةٍ يخلط بالبر فيه الجد واللينا

واليوم معروف، وهو نقيض الليل. والخمس جملة من العدد معروفه. والمرات مأخوذة من مرر الحبل، وهي منته وقواه، ومنه أخذت المرّة أي القوة..

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر وهو الصادق في خبره أن ما به يوم الأيام علىٰ مرور الليالي والأعوام إلاّ وملك الموت كرّمه الله يقف علىٰ كل باب خمس مرات في يومه! وهذا أمر لا يتبعده من عرف قدرة الله (سبحانه). فإذا قواه الله، وأقدره هان عليه ذلك، وإن اتسعت الآفاق، وتكاثرت الأعداد، وقد قطعت السفن الثقال بأمر الله ما لا تقطعه الخيل والأبل من المسافات في الأوقات القريبة وكذلك الطير، وقد قال (تعالىٰ) حاكياً عن الذي عنده علم من الكتاب: ﴿بأنا آتيك به﴾[1] يريد عرش بلقيس وهو ثلاثون ذراعاً في خمسة عشر مرصع بالدر والياقوت! : ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد

(١) سورة النمل آية ٤٠.

إليك طرفك﴾[1] وقيل ان الذي عنده علم من الكتاب سليمان (عليه السلام) وقيل آصف وزير سليمان، وكان من الصالحين. وقد علمت ما حكى الله (سبحانه) عن عفريت من الجن أنه وعد أن يأتي به قبل أن يقوم سليمان (عليه السلام) من مجلس الحكم. وكان يقف فيه إلىٰ شرقه النهار يأتي به في هذه المدة من مأرب إلىٰ تدمر في أقصىٰ الشام! وإذا علم العاقل هذا وتيقنه، فكيف يطيب عيشه، أو يسلو قلبه، أو يشتغل خاطره بشيء من أمور الدنيا إذا كان ملك الموت يزوره كل يوم خمس مرات، ولا يؤمن أن يؤمر في بعض تلك المرات بإنفاذ الأمر، وهو علىٰ غرة وغفلة ليس بمغفول عنه.

قوله (عليه السلام): «فإذا وجد الإنسان قد نفذ أُكله، وانقطع أجله».

الإنسان معرف وهذا إسم عام للذكر والأنثىٰ. يقال: هذه إنسان وهذا إنسان. وقول من يقول: إنسانة لا أصل له إلا القياس والنفاد هو النجاح، والفراغ. والأُكل بضم الهمزة ما يؤكل، والأكل هو المصدر من قولك: أكلت أكلاً وأكلة مرة واحدة. قال الشاعر:

ما أكلة أكلتها بغنيمة ولا جوعة إن جعتها بغرام.

ففتح، لأنها مرة، ويدلك عليها جوعة. فأما الإكلة بالكسر فهي حالة من الأكل جالساً، أو متكياً، وما كان علىٰ هذا البناء فحكمه واحد كالركبة والجلسة والغمة.

وأما أكله بضم الهمزة، فالمراد لقمة واحدة. وقد قال عمر بن سعد (لعنه الله): يوم الحسين (عليه السلام) لمّا كاع الناس وهابوه، ما تنتظرون إنّما هي أكلة واحدة أي لقمة تمثيلاً. ! لمّا عاين من قلة أصحاب الحسين (عليه السلام) وكثرة أصحابه، فأعقبته تلك الأكلة شراً طويلاً. ! والأكل ما أُكل، وكذلك الأكل، وإن كان مصدراً يقول قائلهم: ما ذقت أكلاً لا ولا عذوقاً، الفاء معجمة وغير معجمة، ولا عضاضاً، ولا قضاضاً كأنّ العضاض لمّا كان لأن والقضاض لما صلب. ومعناهما سواءاً يريد ما ذقت شيئاً. فأما النوم، فيقول: ما ذقت غماضاً. والأكيل الذي يأكل معك ذكراً كان، أو

---

(١) سورة النمل آية ٤٠.

أنثىٰ، هـذا أكيلي، وهذه أكيلي، وتقـول: أكلت فـلانـاً، ولا تقـول واكلتـه. والأكل بالتخفيف الرزق يقال: انه لعظيم الأكل في الدنيا يراد الرزق والحظ. والأكل: الطعمة، يقال: جعلته لك أكـلاً أي طعمة. والأكـولة من الغنم شـاة اللحم. والأكيلة الفريسة من الأسد، ومن سائر السباع. جمعهـا أكايـل، وهي فعيلة بمعنىٰ مفعوله وأكل البستان ثمره. قال (تعـالىٰ): ﴿أكلها دائم﴾[1] فـأما قولهم: ثوب ذو أكل فليس من هذا، إنما هو ثوب جيد الصنعـة، ولا يبعد أن يرد إليه. يقال: إنه يأكل الأيام ولا تأكله. وهـذا تأويـل كما تـرىٰ، وقد بعـدنا ولعل هذا إن شاء الله يفيد، فلنرجع إلىٰ ما كنا بصدده. والانقطاع انفعـال من القـطع، وهو نقيض الـوصل. والأجـل هو الميقـات الـذي يبلغ إليـه ويـوقف عنـده، وقد كـانت العرب تقـول عند رؤيـة الهلال: لا مـرحباً بمُحـلِ الـدَّين ومقرب الأجل.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر بحال الملك الكـريم المتيقظ لأمر ربه، مع الإنسان الغافل عما أمر به وأنه إذا وجد الإنسان، ووجـد أنه لـه علىٰ الحـال التي ذكر، هـو بلوغ العلم إليه من عند ربه، بـأن هـذا قـد بلغ أجله، واستكمـل عمله، وما بقي لـه في العلم السابق رزق يهبط، ولا عمـل يصعد، وما بعد هذا إلّا الموت؟

وفي الحـديث: «أن رسول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) سـأل عن عبدالله بن رواحة الأنصاري، فقيل له: يا رسـول الله انه في آخـر نفس! فقال (عليه السلام): قوموا بنا إليه، فدخل عليه، فوجده مسجاً قد أغمي عليه ثلاثة أيام بلياليها، فقال المسلمون: يا رسول الله أعجب لعبدالله، وتعرضه للشهادة في مـوطن بعد مـوطن، ثم يكـون مـوتـه قبضـاً علىٰ فـراشـه. ! فقـال (عليـه السلام): اللهم إن كان عبـدك عبدالله قـد انقطع من الـدنيا رزقـه وأجله وأثره فإلىٰ رحمتك، وإن كان قد بقي في الدنيا رزقـه وأجله وأثره، فعجـل شفاءه، وعافيته، ثم قام من عنده. قـال الراوي: فمـا استكمل رسـول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جلسته في المسجد حتىٰ قيل: يا رسول الله هذا عبـدالله قد أقبـل فقام المسلمـون، فأتىٰ إلىٰ بين يـدي رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه

---

(١) سورة الرعد آية ٣٥.

وسلم) فقال: يا عبدالله حدث بما رأيت فلقد رأيت عجباً. . ! قال: يا رسول الله كان كلما صرخت صارخة، فقالت: واعتراه أهوى إليّ ملك بمقمعة من حديد من صفتها كذا وكذا، فيقول: متىٰ أنت عزها؟ فأقول: بل الله عزها ويرفع بعد أهواء بي، وكلما قالت: واحبلاه أهوىٰ إليَّ وقال: متىٰ أنت حبلها؟ فأقول: بل الله حبلها فيرفع بعد أهواء. . . ! قال (عليه السلام): انظروا إلىٰ ما يلقىٰ موتاكم من فعل أحياكم، فرحم الله عبداً نفد أكله من الدنيا، وانقطع أجله فيها، وقدم الزاد، وأحسن الاستعداد».

قوله (عليه السلام): «ألقىٰ عليه غم الموت، فغشيته كرباته، وغمرته علزاته».

الإلقاء: هو الطرح. والغم نقيض السرور، وهو مأخوذ من التغطية غمّه إذا غطاه، وكان الفرس الأغم غطى وجهه عدم الغرة. والأغم من الرجال كثير شعر مقدم الرأس حتى يتغطىٰ جبينه. قال هُدبة بن خشرم العُذري يخاطب امرأته في قصيدة طويلة:

فلا تنكحي أن فرق الداهر بيننا أغم القفا والوجه ليس بأنزعا

والأنزع: هو متعري الناصية من الشعر. والجلح، والجلة والجلىٰ، والصلع أكثر من ذلك، وكل ذلك قد كثُرت فيه العرب. قالت هند بنت أبي عبيدة: في موسىٰ بن عبدالله (عليه السلام) وهو أصغر أولادها، وحملت به لستين سنة! وهي هند بنت أبي عبيدة بن عبدالله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزىٰ بن قصي.

وقيل: لا يحمل لستين إلاّ قرشيه، ولا يحمل لخمسين إلاّ عربية، وسائر أجناس الأمم لا تحمل الأنثىٰ منهم إلاّ في الأربعين فما دونها، وفوقها بقليل والله أعلم. قالت في موسىٰ، وكان جوناً أنزع، وهي ترقصه:

إنك إن تكون جوناً أنزعاً أوشك أن تضرهم وتنفعا
وتسلك العيش طريقاً مهيعاً فرداً من الأصحاب أو مشيعاً

والموت قد تقدم الكلام فيه، وأصله السكون. وغشيته بمعنىٰ غمرته.

وقد قال (تعالىٰ): ﴿والليل إذا يغشىٰ﴾[1] معناه يغطي ويعُم البلاد. والغرب تمثيل بعموم الليل وغشيانه، وكأنه عندهم أهون من غشيان النهار.

والكربات جمع كربة، وهي الشديدة، وأصلها العقدة، ومعنىٰ غمرته ومنه الرد الغمر، وأخذت الغمرة من ذلك، وهو الماء الكثير، ومن ذلك غمرة القتال. أي معظمه الذي يتغمر فيه القلوب، والأسماع. قال الشاعر:

وهل غمرات الموت إلّا ترا لك الكمي
علىٰ لحم الكمي المقطر

والعلز: عدم النوم، وعلزاته جمع علزة، وهي واحدة العلزات، كما يقال: سكره، وسكرات، وغمرة، وغمرات.

المعنىٰ في ذلك: أن الملك (عليه السلام) إذا علم بانقطاع أجل العبد ألقىٰ عليه غمَّ الموت، وهذا من بقية أنواع البلوىٰ في الدنيا، ويكون الله (سبحانه) قد مكنه من ذلك، وأقدر علىٰ إيصاله إلى قلبه ببعض الأسباب إما بخاطر، أو كلام يشبهه يلقىٰ إلىٰ باطن السمع مما يبعث الحزن المؤدي إلىٰ الغم، فغشيت العبد كرباته كربة بعد كربة.. معناه شدة بعد شدة، وغمرته علزاته علزة بعد علزة..! فلا ينام، كما ينام المغموم، ولا يستروح إلىٰ الفكر، كما يستروح المهموم، بل يُضيّق عليه مخارج الأنفاس، ويضاعف عليه عقد الأمراس، ويساق الروح من القدمين إلىٰ الرأس، فانقطع من أهل بيت الطمع، واتصل اليأس والفزع..

قوله (عليه السلام): «فمن أهل بيته الناشرة شعرها، والضاربة وجهها، والباكية لشجوها، والصارخة بويلها».

والهاء في بيته عائدة إلىٰ الميت. والأهل، والآل واحد وهم يبدلون الهاء من الهمزة كثيراً في كلامهم. هراق الماء. وأراق الماء. وأجهز عليه، وأجاز عليه. والهاء في الأصل فإذا صغروا وإلا ردوه إلىٰ أصله، فقالوا: أهيل، ولم يقولوا: أوميل.

الناشرة: هي الناقضة عُقص رأسها، بنتفها لشعرها، فانتشر شعرها،

---

(١) سورة الليل آية ١.

ولأن ذري الرأس، وتعقيصه زينه، ونشره تشنيع كانوا يتعمدون ذلك. أي التشنيع عند الحوادث حتىٰ كمنّ النساء يلبسن صدر الشعر، ويشققن الثياب اللينة.

وفي الرواية: «أن خنساء بنت عمرو دخلت علىٰ عائشة (رضي الله عنها) وعليها صدار من شعر، فقالت لها عائشة: أما علمت أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نهىٰ عن هذا؟ قالت: ما علمت بذلك، وإن للباس هذا الصدار خبراً. قالت: ما هو؟ قالت: تزوجت رجلاً متلافاً، وكنت أحبه، فأنفذ ماله، وتجهز للغزو، أو السفر (الشك من قبلي) قالت: فلما رأيت ذلك خشيت عليه، وقلت له: قف، فإني أصل أخي صخراً، فلعله يعيننا بشيء من ماله يكفينا مدة من الدهر. قالت: فجئته، فأخبرته بقصتي، فشاطرني ماله فرجعت به إلىٰ زوجي، فما لبث أن أتلفه! ثم تجهز فعقته، كما كان أولاً، ثم أتيت أخي فأعلمته قالت: فشاطرني ماله، فرجعت به، فمالبث أن أتلفه.. ! ثم تجهز فعقته.. أتيت أخي، فأعلمته قالت: فقالت له. امرأته: أعط أختك شرارها، فإنهم يتلفونها، قالت: فقال:

والله لا أمنحها شرارها ولو هلكتُ خرّقت خمارها
واتخذت من شعر صدارها وهي حصان قد آمنت غارها

قالت: فقاسمني ماله نصفين، فرجعت به إلىٰ زوجي، فلذلك ليست هذا الصدر، ولا أعود إلىٰ ما نهىٰ عنه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

الضاربة وجهها: هي اللاطمة بيدها وجهها استعظاماً للمصيبة.. الوجه معروف، وهو نقيض القفا. قال الشاعر:

نعرض للسيوف إذا التقينا وجوهاً لا تعرض للطام

والبكاء معروف، وأصله تقطار الماء. والماء البكيُّ الذي يقطر لقلته، ولا يسيل. والشجو ما يكون في الحلق من الحزن غصه تعرض، كالشجاء، وهو العود المعترض. قال الراجز:

كنت له مثل الشجا في مسحطه

يريد في حلقه. . ! وإنما هي غصة تزو من الصدر، فتلزم الحلق. . . والصراخ معروف: وهو رفع الصوت عند الحادثة العظيمة، بأصوات منظومة، وغير منظومة. فلذلك بينه (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: بويلها. . والويل كلمة يذكرونها عند الشر والحوادث، وهي ما تخف على أفواه النساء، وأحسب أن أصله القتل والنكال، فلما كثر استعماله جعله لكل كربة. وقد يتبع بالأليل فيقال: نزل بهم الويل، والأليل. أي القتل والصراخ.

وقيل: ويل وادٍ من أودية النار نعوذ بالله منها في عرف الشريعة شرفها الله.

المعنى في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر بحال أهل الميت عند موته في أغلب الأحوال، وإن كانت هذه أموراً حظرتها الشريعة. وفي الحديث أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «ليس منّا من حلق، ولا من سلق، ولا من خرق ولا من دعا بالويل والثبور».

حلق يريد شعرهُ، وسلق صاح بشدة. قال (تعالى): ﴿سلقوكم بألسنة حداد﴾(١) أي صاحوا عليكم. ولا من خرق ثوبه، ولا من دعا بالويل والثبور، وقال في ذلك لبيد بن ربيعة:

تمنى أبنتاي أن يعيش أبوهما	وهل أنا إلّا من ربيعة أو مضر
وياكيتان تبكيان لهالك	تولى إذاً لا عين منه ولا أثر
فقوما فقولا بالذي تعلمانه	ولا تخدشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولاً هو المرء الذي لا خليله	أضاع ولا خان السوداد ولا غدر

في أبيات له نهاهما عن حلق الشعر، وخمش الوجوه، وتلك عادتهم. وفي الرواية «أن الحسن بن الحسن (عليه السلام) مات لخمس وثلاثين سنة من مولده، فقال لامرأته فاطمة بنت الحسين: ما أفارق شيئاً في الدنيا أهمُّ عليّ منك، وكأني عند المرور بجنازتي بعبدالله بن عمرو بن عثمان قد رجّل جمته، وركب فرسه، ولبس حلته، وسار في عرض الناس يتعرض لنكاحك، وما أحب أن ينكحك، فأثلجته بالأيمان، فلما مات (عليه السلام) وحمل فعل

---

(١) سورة الأحزاب آية ١٩.

عبـدالله بن عمرو بن عثمـان الصورة التي ذكـر، وكـان من أجمـل النـاس في عصره، ويسمىٰ المطرق لحسنه. . . ! فلما خـرج بالجنـازة رفعت فاطمـة إلىٰ وجههـا، ولحقها ضعف النسـاء في احتمـال الصبـر، فـأمـر إليهـا عبـدالله بن عمرو بن عثمان: أن لنا في وجهك حـاجة، فـأرفقي به؟ فلمـا جاءهـا الكلام أرخت يديها وتجلببت بثيابها. فلما حلت أمر إليها يخطبها، فامتنعت من ذلك أشـد الامتناع، فـأمر إلىٰ أمهـا أم إسحاق بنت طلحـة بن عبـدالله يتشفـع بهـا إليها، فكلمتها فـأبت ذلك، فخـرجت أمها إلىٰ الشمس، وأقسمت لا فـارقت الشمس حتىٰ تأذن لها في زواجه. . . ! فخرجت فاطمة من ذلـك وتمادت فيـه أمها حتىٰ مضىٰ من النهار سـاعتان، ثم أذنت. . وكـانت سكينة بنت الحسين (عليه السلام) تقول: أبرزنا لهم يوم ألطـف» تشيـر إلىٰ أنه لـولا قتل الحسين (عليـه السلام) مـا زوجن ممن زوجن منه، ولكن الضـرورات تقضي بذلـك، وبغيره. ولما ذكرت إيمانها لعبدالله بن عمرو بن عثمان أعـطاها بكـل عبد ممـا نـذرت عتقه عبـدين. . . ! وعن كل شيء ممـا تصـدقت بـه شيئين. . ! وهـذا عارض أصله ذكر ضرب الوجه.

المعنىٰ في ذلك: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حكى حال أهـل الميت، وما يلقـون بعـده من المشقـة عليـه من نتف الشعـور، وخمش الوجوه، ورفـع الأصوات، والبكـاء بشجو وعبرة، والصراخ بـويل وحسـرة. . وكل ذلك أمر لا يُرد الفائت، ولا يحي المائت، ولا يصلح أن تقابل به الأوامر الإلهية، وإنما تقـابل بـالرضىٰ والتسليم والاستعـداد للقاء الـواحد العليم بمـا فرض من الطاعات، وألزم من العبادات فإن الـذي أوجب هو أقـل القليل في جنب مـا أباح، وأحـل من التصرف في القول، والعمـل. فأي عـذر لمن شغل نفسه بفعل المحظور الذي يكون عليه وبالاً ونكالاً عن الواجب الذي يكون له غوثاً وبلالاً. .؟ وهل نهـاية الحي إلاّ المـوت؟ وهل عـاقبته إلاّ الفـوت؟ وهل لأمر الله (سبحانه) بالكراهة رد؟ وهل لنزولـه بالعبـاد ضد؟ فيـا أيتها الصـارخة أعلىٰ نفسك تصرخين؟ أم علىٰ الميت الدفين؟ رفقاً فأنتِ به لاحقـة ولو بعـد حين ولـو أضـربت عن ضـرب الـوجـه، وبـدلت مكـان ضـربــه سجـوداً في الساجدين، لكنت من الناجين الماجدين، ولو كـان البكاء للشجـا شجناً نـدماً علىٰ الـذنوب السـابقة كتبت في زمـرة الفائـزين. . . فيـا لهـا من غفلة عمّت

الذكور، والإناث وعاقت الجميع عن الانبعاث. .

قوله (عليه السلام): «فيقول ملك الموت ويلكم مم الفزع وفيم الجزع؟ ما أذهبت لأحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، ولا آتيته حتى أمرتُ، ولا قبضت روحه حتىٰ استأمرت، وان لي فيكم عودة، ثم عودة ثم عودة حتىٰ لا أبقي منكم أحداً».

ويلكم تستفتح بها العرب الكلام، وويح، وويس، وويب في المدعو له. وقد يستعملون هذا في مكان هذا، والأصل ما ذكرنا. . مم: استفهام، ومعناه التقرير، والإنكار. والفزع نقيض الأمن، وأصله الخوف، وفي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال للأنصار: «إنكم فيما علمت يا معشر الأنصار لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع» وفزع فلان إذا أغار إلىٰ الصوت والصريخ. والأصل في مم من أي شيء، فأبدلت الميم من ذلك كله تصرفاً منهم في الكلام، وتخفيفاً وهو أسلوب لسانهم. .

وفيم الجزع: فيم استفهام كما قدمنا معناه التقرير والإنكار. الجزع نقيض الصبر، والمراد في أي شيء لا يرده جزعكم، فاستشعروا الصبر، وهونوا علىٰ أنفسكم.

أذهبت: أزلت، وقطعت، وأمضيت. والرزق قد تقدم معناه. وكذلك الأجل. والإتيان نقيض الذهاب والأمر هو قول القائل لغيره: أفعل، أو ليفعل علىٰ جهة الاستعلاء دون الخضوع بشرط الإرادة، وقد قررنا في كتاب صفوة الاختيار، وهو موجود في كتب أصحابنا الأخيار في أصول الفقه. .

والقبض أصله من القبضة ، وهي ضم كف الإنسان، وأصابعه علىٰ الشيء، وذلك أمكن ما يستولي عليه الإنسان، ثم استعمل وكثر حتىٰ لو حبس إنسان إنساناً في بيت قيل: قبض عليه.

والروح قد تقدم الكلام فيها، وهي ما يصير بها الحي حياً والكلام فيها يطول، وعند أصحابنا أنها النفس المتردد في مخارق الحي، وهذا لا شك معنى يشهد له اللغة إن النفس عندهم يسمىٰ: روحاً قال الشاعر:

فقلت له أرفعها إليك وأحيها بروحك . . . .

يريد بنفسك ومنبع ذلك النفس من القلب، وهو ينتشر في جميع البدن، وأول ما يخرج من القدمين، ثم يعلو حتىٰ يصل الصدر، وعند ذلك يشتد النزاع ويعظم الأرتياع والالتياع، ويضيق بها الذرع والباع قال حاتم طيء:

أماوي أن يصبح صداي بقفر ... من الأرض لا ماء لدي ولا خمر
ترىٰ أن ما أنفقت لم يكن ضرني ... وأن يدي ما بخلت به صفر
أماوي ما يغني الثراء عن الفتىٰ ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

يريد الروح. . .

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبرنا عن كلام ملك الموت عند مشاهدته منا ما تقدم ذكره من الجزع المردي الذي لا يجدي أنه قال لنا: ويلكم مم الفزع وفيم الجزع إنكاراً لا استفهاماً، ولا استخباراً. . ما أذهبت لأحد منكم رزقاً، ولا قطعت له أجلاً، ولا أتيته حتى أُمِرت، ولا قبضت روحه حتى استأمرت. استفعال من الأمر. ومع ذلك ، فإن لي فيكم عودة. معناه رجعة. لا فرق بين قولهم عاد، ورجع، ومنه سمي العيد عيداً، لرجوعه في كل عام ويقال: عادني عبد. أي رجع إلي راجع. كرر رجوعه إلينا لقبضه مرة بعد مرة، وكذلك حاله. فنسأل الله (تعالىٰ) حسن الاستعداد، وجعل غاية عودته إلينا النجاح. . . وذلك معلوم مشاهدة، فإن الموت لا يزال يُـرَدَّد فينا، وإلينا حتىٰ يلحق الأخِرَ الأول. . . !

فمن مشمر مسرور بقدومه، ومن مقصر مغموم بهجومه قد فرّط، حتىٰ دهمته فوارطه، وغفل حتى أيقضته غوابطه، فلم يرحم لتقصيره من احتياجه، ولا عُصم لنومه وغفلته عن أبراحه، بل أصيب من العذاب بمصائب أنسته المصائب، وأمر بأمائم تبتلع العصائب فأولىٰ له أولىٰ له ما كان أدهىٰ حاله. . ؟

أيهِ هو الموت فشمر شمر، ولا تكن لوارث تثمر، وإن غدوت طائفاً فبكر، وإن ذكرت رايعاً فذكر، واهرب من الكفر، وكفِّر كفِّر، واستغفر الرب الكريم يغفر. قال الشاعر:

لما رآني فالهوىٰ غالبي ... أجمعُ المال لاختاني

لامــرأة أبــنـي ولــزوج ابــنــتـي   يــا لــك مــن غــبــن وخـــســرانِ

وداء هذا الشاعر الذي هو الهوىٰ المردي إلىٰ جمع الدنيا للغير عام في الناس إلا من رحم الله (سبحانه)، وهو القليل. . ! فالله المستعان.

قال الراوي: «فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): فوالذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا علىٰ نفوسهم».

كانت لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يمينان هذه إحداهما ـ والذي نفس محمد بيده ـ والأخرىٰ: أما ومقلب القلوب. ولعلي (عليه السلام) يمينان أحداهما: والذي نفس ابن أبي طالب بيده، والأخرىٰ: والذي فلق الحبة وبرء النسمة. والرؤية: هي إدراك المرأي. وقد يستعمل في العلم، كما قال (تعالىٰ): ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾[1] ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾[2] يريد (سبحانه) ألم تعلم، لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يشاهد ذلك. . مكانه هاهنا حاله، وذلك راجع إلىٰ الملك. يقال: فكان فلان رفيع أي حاله، لأن مكانه الذي هو موضعه مشاهد لهم. .

والسماع: هو إدراك ما يصح أن يدرك بحاسة السمع من الأصوات، فإذا كان كلاماً فهو المرتب المنظوم. .

والذهول عن الشيء نسيانه، وقد قال (تعالىٰ)؛ ﴿تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾[3] وأضاف الميت إليهم، لأنه منهم. قد تقدم معنىٰ البكاء. وأنفسهم ذواتهم وشخوصهم.

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أقسم وهو صادق القسم بالذي نفسه بيده أي بقدرته، وهو الله (سبحانه)، لأن نفوسنا في قدرته كالمقبوض عليها يرسل ما شاء، ويمسك ما شاء. . لو يرون مكانه يريد (عليه السلام)

---

(١) سورة الفجر آية ٦.
(٢) سورة الفيل آية ١.
(٣) سورة الحج آية ٢.

الملك لو شاهدوا حاله التي هو عليها من عظم خلقه، وهول منظره وعجيب تركيبه، ثم سمعوا كلامه، الذي تقدم ذكره، لذهلوا عن ميتهم فزعاً، وبكوا على أنفسهم جزعاً، ولشغلهم عظم الحال عن البكاء على المال، والآل، لأن الإنسان في هذه الدنيا يستعظم الحوادث، ويتوجع لها، فإذا انتهت الحوادث إلى خاصة نفسه صغرت عنده الأمور الكبار، ولم تقر به قرار، ولهذا تنهزم الملوك خوفاً على النفس من الممالك الكبار، ويجتهد الطير في تحصين الوكنات، والأوكار، فإذا كان معنا عليها هذه الضنة وقد كملت علينا بالتمكين من نجاتها المنة. فما المانع من تحصينها من عذاب النار، ومواقع سطوة الجبار؟ ولنبدأ بالذهول عن الميت اشتغالاً بأمر نفوسنا، كما فعل الصالحون. في الرواية «أن علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) مات له ولد، فلم يسمع في بيته بكاءً... !فقيل له: يابن رسول الله لم لا تبكون على ميتكم؟ فقال: أمر كنا نتوقعه، فلما نزل لم نعبأ به»..! ومثل ذلك الرواية «عن زيد بن علي (عليه السلام).مات له ولد فكتب إليه صديق يعزّيه عن ولده، فقلب الورقة، وكتب على ظهرها: أما بعده فإنا أموات أبناء أموات آباء أموات، فيا عجباً من ميت يعزي ميت..! والسلام» أفلست ترى هؤلاء (سلام الله عليهم أجمعين) قد صاروا كأنهم شاهدوا مكان الملك، وسمعوا كلامه، فذهلوا عن ميتهم، واستشعروا البكاء على أنفسهم، فلم يغتروا، كما اغتر غيرهم...؟

قوله (عليه السلام): «حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش، وهو ينادي: يا أهلي ويا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا، كما لعبت بي».

الحمل، والرحل نقيض الحط، والحل، والنعش هو الخشب التي يحمل عليها الميت، وأصل النعش الرفع، فلما كان الميت يرفع على رقاب الرجال سميت الآلة نعشاً، والميت نعيشاً، ومنعوشاً، كما يقول طعيناً ومطعوناً، وأمثاله كثير. ومنه الانتعاش في العثرة «ولما حضرت فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الوفاة بكت فقالت لها أسماء بنت عميس مالك؟ قالت: أكره أن ينظر الرجال إلى شخصي على النعش. وقالت: إني أعمل لك نعشاً كما رأيت في بلاد الحبشة لا ينظر إليك... قالت:

فأرينيه، فأرتها إياه، فطابت نفسها فدفنها علي (عليه السلام) في قصة طويلة».

وأصل رفرف؛ رف، والرفيف هو الحركة اللينة، كما يصنع الطائر بجناحيه، وكر فيف أشفار العين، وغدت الراية ترف.. قد تقدم الكلام في الروح.. والأهل والولد معروف: وهم نسل الإنسان وذريته.. والنداء معروف وهو: الصياح أخذ من الإيصال، والإبلاغ ومنه النّدى أي العطاء يصل إلىٰ المعطي.. وفي الحديث في عبدالله بن زيد: «لما أخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه رأىٰ الأذان في المنام، فقال علمه بلالاً، فإنه أندىٰ منك صوتاً» أي أطول قال الشاعر:

فقلت أدعوا وأدعوا إن أندىٰ لصوت أن ينادي داعيان

وقال آخر:

وإذا صرت في دمشق فنادي يا يزيد بن خالد بن يزيد

واللعب معروف، وأصله في لعاب الصبي يعبث به أنواعاً من العبث، والصبي لاعب بذلك اللعاب، فجعل لمن يتصرف بشيء لا يفيد، وإنما يفرط ساعته، فجعل في السلاح والرماح، وغير ذلك. قال قيس بن الخطيم:

لقيتكم يوم الخنادق حاسراً كأن يدي بالسيف مِخراق لاعب

المخراق عود خفيف يتخذ للصبي مكان السيف يلعب به.

وهذا يصف خفة يده بالسيف..

المعنىٰ في ذلك: أنه (عليه السلام) أخبر عن حال الميت وكلام روحه فوق نعشه منبهاً للأهل والولد، بلسان الحال أو المقال. فالله (تعالىٰ) قادر علىٰ ما يشاء إما بأن يجمع ما يصير به الحي حياً، ثم يخلق فيه كلاماً خفياً يُسمعه من شاء من خلقه صورته ما حكان (صلى الله عليه وآله وسلم) أو يكون ذلك تقديراً، وتمثيلاً، وإن الروح لو تكلمت لكان كلامها هذا...! وحض الأهل والولد، لأنه لا يعنيه ممن خلف أحد مثلهم، فحذرهم أن تلعب بهم الدنيا، كما لعبت به معناه: أنها تصرفت به، وصرفته تصريف اللاعبين بلعبهم وهي آلآت اللهو حتى أتاه اليقين، فانقطع الوثين، وبرد الجبين،

وخفت الأنين وبئس القرين، وفقد المعين، ورخص الثمين. فأين الناظرون بعين الفكرة المثيبون قبل حصول العثرة، ووقوع الحسرة...؟

قوله (عليه السلام): حاكياً: «جمعت المال من حله وغير حله ثم خلفته لغيري بالمهناه له، والتبعة عليَّ فاحذروا مثل ما حل بي».

الجمع نقيض التفريق. والمال معروف، وهو أجناس: عين ودين، وجماد، وحيوان... والحل مأخوذ من الحَل. كأن الله (سبحانه) حله أي أطلقه لعباده سمي حلاً.. وغير الحل الحرام كأنه مشدود دونه القدام، فلا يناله إلّا من تعدىٰ. والتخيف هو الترك مأخوذ من خلف نقيض قدام. كأنه تركه خلف ظهره، ولم يقدمه أمامه تقول العرب هذا خلف صدق، وخلف سوء، وقيل خلف سوء بإسكان اللام في الذم، وفي المدح مفتوحة. قال (تعالىٰ): ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾[1] والخلف بسكون اللام الرديء من كل شيء يقال صمتُ ألفاً ونطق خلفاً أي رديئاً. وإذا مات والد، أو غيره قيل: خلفه الله عليك بخير. أي كان الله لك منه خلفاً..

وإذا ضاع مال قيل: أخلف الله عليك خيراً، أو أخلف الله عليك بخير. ومنه سمي الخليفة، لأنه بعد الأول قائم مقامه يقال: خليفة بين الخلافة والخِلّيفا، كما قال عمر: لولا الخِلّيفتا، لأذنت. والخوالف النساء، لأنهن يتخلفن عن الرجال في البيوت. قال (تعالىٰ): ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾[2] أي النساء.. وغير نكرة يقال: يراد بها الوارث كائناً من كان... والمهناة هي الدعة، والإساغة، والتبعة هو ما يتبع الإنسان من الأحداث بأسباب التصرفات، والمعاملات. والحذر والحزم معناهما واحد، وأصله الخوف أحذر معناه خف فهو يقارب الحزم في أصله، ولما كان الخائف يشهد بحزمه قيل: حاذر خائف. حازم معناه خافوا مثل ما حل بي.

المعنىٰ في ذلك: أنه بين (عليه السلام) كلام الروح على أحد المعنيين اللذين قدمنا، وهو قوله: جمعت المال من حله، وغير حله. وهذا حال أهل الدنيا لا يفكرون فيما وراء الجمع، وإنما هو همهم، فإذا حصل لم يبالوا علىٰ أي وجه حصل...! من حل أو غير حل من جائز، أو غير جائز.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٦٩.
(٢) سورة التوبة آية ٨٧ و٩٣.

ومنه الحل والحرم. والحل مباح صيده، والتصرفات فيه بعضد أشجاره، وصيد قنيصه وإثارة نار الحرب فيه والحزم يناقض ذلك في جميع أسبابه، فإذا ذلك العبد أعني الجمع علىٰ هذا الوجه فهو لا بد من أن يخلفه لغيره من ورثته، فأما ذكر المهناة له فهي علىٰ وجهين، أما تصويغه إياه لعدم مشقة جمعه، وتعب لمه، فأخذه هنياً علىٰ اعتقادهم من غير مشقة عاجلة فيه، وأما أن يكون عمل فيه بطاعة الله (سبحانه)، ولم يكلفه الحكيم معرفة ما لا سبيل له إلىٰ معرفته من وجوه، مكاسب والده حلها وحرامها في دنياه، فهنته بسلامته من مشقة جمعه وكسبه بتقدمه إلىٰ ربه، ففاز في الدارين، وكان التبعة علىٰ من تقدم ذكره بالتعب في دار دنياه.. والنكال والعقوبة في أخراه والذي حل به هو نزول الموت قبل استعداد لنزوله، والتأهب لحلوله خسر الدنيا والآخرة، وانقلب بصفقته خاسرة صار ماله عليه وبالاً، وذهب سعيه ضلالاً.. فالواجب علىٰ العاقل حذر مثل هذه الحال، والتأهب للمرجع والمآل، وترك الاغترار بالأهل والمال، والميل إلى طوامح الآمال فكم لها من صريع لم ينعش، ومشيك لم ينقش، ودفين لم ينبش...؟ فنسأل الله (تعالىٰ) حذراً يباشر قلوبنا، ويعرفنا ذوبنا، ويعجل عن سنة الغفلة هبوبنا، ويطهر من دنس الأوزار أزرنا وجيوبنا، ويبلغ رضاه محبوباً ويكفينا من سخطه، مرهوبنا بحقه العظيم، والصلاة علىٰ محمد وآله.

وهذا حين أتينا على آخر شرح الحديث الأربعين فلله الحمد حمد العالمين بحقه حمد الشاكرين، لجزيل ما أوصلهم من عنده، وكان ذلك مع أشغال شغلت الرؤية، وغلبت الفكرة السوية، وقد أطلقنا لمن أطلع علىٰ هذا الكتاب من العلماء أن يصلح ما وقع عليه من خلل ويتغمد ما شاهد من زلل مما غطاه السهو، والغفلة وأدركه قلة الأباه، والمهلة، والمختص بالسلامة القرآن المجيد كما قال فيه (سبحانه): ﴿وأنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾(1).

والحمد لله الذي هدانا من الظلمات، وفك عناية المبهمات حمداً كثيراً بكرة وأصيلاً، وصلواته علىٰ رسوله سيدنا محمد النبي وعلىٰ آله وسلامه. وحسبنا الله ونعم الوكيل...

---

(1) سورة فصلت آية ٤٢.

الفهرس



دار الحكمة اليمانية

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

توزيع

دار الحرف العربي

مؤسسة للنشر والتوزيع

ص.ب ٦٤٨٠ - ١١٣

بيروت - لبنان